وزارة المعارف العمومية

مهذب رحلة ابن بطوطة

المسماة

تحفة النظار، في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار

وقف على تهذيبه وضبط غريبه وأعلامه

أحمد العوامرى بك و محمد أحمد جاد المولى بك

المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف

المفتش بوزارة المعارف

(حقوق هذه الطبعة محفوظة للوزارة)

الجزء الأول

المطبعة الأميرية بالقاهرة

١٩٣٣

وزارة المعارف العمومية

مهذب رحلة ابن بطوطة

المسماة

تحفة النظار، فى غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار

وقف على تهذيبه وضبط غريبه وأعلامه

أحمد العوامرى بك و محمد أحمد جاد المولى بك

المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف

المفتش بوزارة المعارف

(حقوق هذه الطبعة محفوظة للوزارة)

الجزء الأول

المطبعة الأميرية بالقاهرة

١٩٣٣

فهـــرس

كتاب مهذب رحلة ابن بطوطة

العنوان	رقم الصفحة
مقدمة	ج
ترجمة ابن بطوطة	و
مقدمة ابن جُزَىّ كاتب السلطان	١
وفود ابن بطوطة على الخليفة	٣
ابتداء الرحلة من بلاد المغرب	٥
وصوله مدينة الجزائر	٧
ذكر سلطان تونس	٩
وصف مدينة قابس	١١
وصف مدينة الإسكندرية وأبوابها ومرساها	١٢
ذكر منار الإسكندرية وعمود السوارى	١٣
ذكر بعض علماء الإسكندرية	١٥
وصف مدينة دمياط	٢٣
وصف مصر	٢٥
ذكر مسجد عمرو بن العاص	٢٧
ذكر قرافة مصر ومزاراتها	٢٨
ذكر نيل مصر	٢٩
ذكر الأهرام والبرابى ، وصف الأهرام	٣١
ذكر سلطان مصر	٣٢
ذكر بعض أمراء مصر	٣٣
ذكر القضاة بمصر	٣٤
ذكر بعض علماء مصر وأعيانها	٣٥
ذكر يوم المحمل بمصر وسفره إلى الصعيد	٣٦
حكاية خصيب	٣٧
عودة ابن بطوطة إلى شمالى مصر	٤٣
دخول الشام ووصف مدنه	٤٤
ذكر المسجد المقدس وقبة الصخرة	٤٧

العنوان	رقم الصفحة
ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف ، وذكر بعض فضلاء القدس... ...	٤٨
وصف مدينة صور	٥٠
وصف مدينة طرابُلُس الشام	٥٢
وصف مدينة حلب	٥٥
حكاية أدهم	٦٣
وصف دمشق	٦٨
ذكر جامع دمشق المعروف بجامع بنى أمية	٧١
ذكر المدرسين والمعلمين به	٧٦
ذكر مدارس دمشق وأبوابها ومشاهدها ومزاراتها	٧٨
ذكر أرباض دمشق وقاسيون ومشاهده المباركة	٨٠
ذكر الربوة والقرى التى تواليها	٨١
ذكر الأوقاف بدمشق وبعض فضائل أهلها وعاداتهم...	٨٣
ذكر سماعى بدمشق ومن أجازنى من أهلها	٨٧
وصف تبوك	٨٨
طيبه مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسجده وروضته الشريفة	٩٠
ذكر ابتداء بناء المسجد الكريم	٩١
ذكر المنبر الكريم	٩٤
ذكر الخطيب والإمام بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم	٩٥
ذكر خدام المسجد الشريف والمؤذنين به	٩٥
ذكر أمير المدينة الشريفة	٩٦
ذكر بعض المشاهد الكريمة بخارج المدينة الشريفة	٩٦
وصف الطريق إلى مكة	١٠٠
ذكر مكة المعظمة	١٠٣
وصف المسجد الحرام شرفه الله وكرمه	١٠٤
ذكر الكعبة المعظمة	١٠٥
ذكر الميزاب المبارك والحجر الأسود	١٠٧
ذكر المقام الكريم	١٠٨
ذكر الحجر والمطاف وزمزم المباركة...	١٠٩

العنوان	رقم الصفحة
ذكر أبواب المسجد الحرام وما داربه من المشاهد الشريفة...	١١٠
ذكر الصفا والمروة	١١٣
ذكر الجبانة المباركة	١١٤
ذكر بعض المشاهد خارج مكة	١١٤
ذكر الجبال المطيفة بمكة	١١٦
ذكر أميرى مكة وأهلها وفضائلهم	١١٩
ذكر عادة أهل مكة فى صلواتهم...	١٢٠
ذكر عادتهم فى الخطبة وصلاة الجمعة	١٢١
ذكر عادتهم فى استهلال الشهور	١٢٢
ذكر عادتهم فى شهر رجب وعمرة رجب	١٢٣
ذكر عادتهم فى ليلة النصف من شعبان...	١٢٦
ذكر عادتهم فى شهر رمضان	١٢٦
ذكر عادتهم فى شوال	١٢٨
ذكر إحرام الكعبة	١٢٨
ذكر شعائر الحج وأعماله	١٢٩
ذكر كسوة الكعبة	١٣١
ذكر الانفصال عن مكة شرفها الله	١٣١
ذكر الروضة والقبور التى بها	١٣٦
ذكر نقيب الأشراف...	١٣٧
ذكر مدينة واسط	١٣٨
ذكر مدينة البصرة	١٣٩
حكاية اعتبار	١٤٠
ذكر المشاهد المباركة بالبصرة	١٤١
وصف مدينة تُستَر	١٤٥
ذكر ملك إيذج وتستر...	١٤٧
وصف شيراز	١٥٥
حكاية فى سبب تعظيمه قاضى شيراز	١٥٦
ذكر سلطان شيراز	١٥٩

العنوان	رقم الصفحة
ذكر بعض المشاهد بشيراز	١٦٣
مدينة الكوفة	١٧٠
مدينة بغداد	١٧٢
ذكر الجانب الغربي من بغداد	١٧٥
ذكر الجانب الشرقي منها	١٧٥
قبور بعض الخلفاء ببغداد	١٧٦
ترتيب ملك العراق في رحيله	١٧٧
العودة إلى بغداد	١٧٩
مدينة الموصل	١٨٠
سلطان ماردين	١٨٣
الرجوع إلى بغداد	١٨٣
سلطان جزيرة سواكن	١٨٨
سلطان حلى	١٩٠
كرامة لأحمد بن العجيل	١٩١
سلطان اليمن	١٩٢
مدينة صنعاء ، ومدينة عدن	١٩٤
مدينة زيلع	١٩٥
سلطان مقدشو	١٩٦
سلطان كُلْوَا	٢٠١
حكاية من مكارم سلطان كُلْوَا	٢٠١
التانبول	٢٠٥
سلطان ظفار	٢٠٨
سلطان عُمان	٢١٤
السفر إلى هرمز	٢١٥
سلطان هرمز	٢١٦
سلطان لار	٢٦٩
مغاص الجوهر	٢٢٠
العودة إلى الحجاز	٢٢١
العودة إلى صعيد مصر	٢٢٣

العنوان	رقم الصفحة
سلطان العلايا	٢٢٤
(الأخيّة) الفتيان	٢٢٥
وصف الضيافة	٢٢٧
سلطان أنطاكية...	٢٢٨
سلطان أُكريدور	٢٢٩
سلطان قُل حِصار	٢٣٠
سلطان لاذق	٢٣١
سلطان ميلاس	٢٣٣
مدينة قونية	٢٣٤
سلطان اللارندة	٢٣٥
مدينة سيواس	٢٣٧
مدينة بِرْكى	٢٣٩
سلطان برکى	٢٤١
مدينة تيرة...	٢٤٤
مدينة أياسُلُوق	٢٤٤
يزمير...	٢٤٥
سلطان مَغْنِيسِيّة	٢٤٦
سلطان بَرْغَمة	٢٤٧
سلطان بَلى كَسْرى	٢٤٨
سلطان بُرُصَا	٢٤٩
سلطان كُرَدْى بُولى	٢٥٥
السفر إلى قَصْطَمُونِية	٢٥٦
سلطان قصطمونية	٢٥٧
مَحِلّات مدينة السَّرا	٢٦٣
مدينة أزاق	٢٦٦
السلطان أوزبك خان وترتيبه فى سفره	٢٧١
الخواتين وترتيبهن	٢٧٣
الخاتون الكبرى والثانية	٢٧٤
الخاتون الثالثة والرابعة	٢٧٥
بنت السلطان أوزبك وولداه	٢٧٦

العنوان	رقم الصفحة
السفر إلى مدينة بلغار وأرض الظلمة	٢٧٧
ترتيبهم فى العيد	٢٧٩
السفر إلى القسطنطينية	٢٨٣
سلطان القسطنطينية	٢٨٨
وصف القسطنطينية	٢٩٠
وصف الكنيسة العظمى	٢٩١
الملك جرجيس	٢٩٢
قاضى القسطنطينية	٢٩٣
الانصراف عن القسطنطينية	٢٩٤
مدينة السَّرا	٢٩٥
مدينة خُوارزم	٢٩٧
أمير خُوارَزم	٢٩٩
بطيخ خُوارزم	٣٠٢
مدينة ألكات	٣٠٢
التتر وتخريبهم بخارى	٣٠٣
سلطان ما وراء النهر	٣٠٦
السلطان طَرْمَشِيرِين	٣٠٧
كتاب تنكيز خان	٣١٠
بوزن ومعاملته للسلمين	٣١٢
سمرقند وقبر قُثَم بن العباس	٣١٤
مدينة ترمذ	٣١٦
مدينة بَلْخ	٣١٧
قبر عكاشة	٣١٨
سلطان هَرَاة والرافضة	٣١٩
قتل الفقيه نظام الدين	٣٢١
مدينة طوس	٣٢٣
مدينة نَيْسابور	٣٢٤
مدينة بِسطام	٣٢٥
أبو الأولياء وقرية الجَرْخ	٣٢٧
غَزْنة وكابُل	٣٢٨
بَنْج آب	٣٢٩

مقـــدّمة

لمـا كلفتنا وزارة المعارف تهذيب رحلة ابن بطوطة ، ليقرأها طلبة السنة الرابعة من المدارس الثانوية ، وجدنا أنفسنا أمام عمل خطير ، لمـا يقتضيه من بحث وتنقيب ومراجعة ، لكثرة ما وقع في النسخ المطبوعة في مصر من تحريف وتغيير وتبديل ، ممـا اجترحه جهلة النساخ فى خلال تلك الأحقاب المتطاولة .

ولقد كنا نطالع بعض الفِقَر فلا نجد لها معنى يساغ ، فنتلمس ما قد يقع بأيدينـا من مختلف الطبعات ، علَّنا نصيب جادّة الصواب . ولكنا كثيرا ما كنا نخطئها ، فنفضل أن نمحو تلك الفقر ، ضَنَانة بوقت الطالب أن يذهب فى غير جدْوى ، كما محونا ما أسهب فيه المؤلف ممـا يُمِلُّ المطالع ويضجره .

ولا نكتم القارئ أن ابن بطوطة لم يكن ليتحرّز أحيانا من أن يجمح قلمه بألفاظ وعبارات يأباها الحياء . فعمدنا إلى مثل هذا فحوناه، توقيا وتحرُّزا ، وتنزيها للطالب أن يقع بصره أو يطرق سمعه ما يُستحيا منه .

ولم نبال أيضا أن نغير بعض العبارات والألفاظ ونهذبهـا طبقا لأصول اللغة ، لمـا ذكرنا آنفا من عَبَث النساخ وتحريفهم الكلم عن مواضعه .

على أن لابن بطوطة نفسه تعبيرات غريبة، وأساليب قد تخالف ما نعهده للفصحاء وأئمة القول . فمـا وجدنا له منها مسوغا أبقيناه ، وإلا أصلحناه ، أو استبدلنا به مرادفا ، أو شرحنا مراده منه فى الحاشية ، إن لم يكن عنه مُنتَدَح . ورجل حِلف أسفار وجوّاب آفاق كابن بطوطة ، لم يكن لديه من الوقت ما يتسع للتحرى والتأنق فى العبارة : وإنمـا كانت تقييدات عاجلة ، وملحوظات خاطفـة ، لخصها فيما بعد ابن جُزَىّ كاتب السلطان ، كما يرى فى مفتتح الكتاب وخاتمته .

وله أيضا أساليب وألوان مختلفة من التعبير، وضروب متغايرة من الإنشاء: فمن الجزل الرائق العذب، إلى المضطرب المعقد. وبينما تجده آونة يعنى بالتافه من الشيء يصفه ويطنب فى وصفه، إذ هو صامت أمام ما تشتاق فيه النفس الشرح الشافى والإيضاح المستوعب: ذلك بأنه كان يعتلج فى نفسه إذ يكتب من نوازع اليأس والرجاء، والخوف والأمن، والحزن والجذل، ما نلمسه فى تضاعيف الكتاب جميعا.

وبعد فإن الطالب سيجد فى هذه (الرحلة) متعة لنفسه، ونزهة لخاطره؛ وأنسا لوحدته، وشحذا لقريحته، لما فيها من فنون الوصف البديع لحوادث وبلاد وأصقاع، ونبات وحيوان ومعادن، وهياكل وقصور ومصانع؛ وملوك ورجال، وأخلاق وعادات، وحضارات بذخت ثم اندكت؛ ومدنيات بزغت ثم أفلت.

وسيعلم الطالب أيضا بمسايرته لهذا الرحالة الفذ فى جولانه واضطرابه، أنه دقيق الملاحظة، نافذ البصر، مر النقد، كلف بدراسة الطبائع الإنسانية، حريص على أن يودع كتابه من تجاريبه وملاحظاته كل مفيد نافع. فهو بحق إمام علماء تقويم البلدان السابقين الأولين الذين ساروا فى الأرض فنظروا، واخترقوا الآفاق فكشفوا.

ثم إنا تركنا للرجل جل آرائه وعقائده، وإن كان بعضها من الخرافة والسخف بمكان، حرصا منا على أن يبرز للقارئ على حقيقته، وإبقاء على عصر وبيئة من الحق أن يمثلا للعيان غير منقوصين.

وقد عنينا أن نشرح فى الحاشية ما قد يعتاص على الطالب. ولم نكن فى ذلك بمستوعبين، بل تركنا للدرس إكمال النقص، وشرح الموجز. ولو أن الوقت انفسح أمامنا لحققنا فى هذه السبيل ما نبتغيه من كمال.

ولم نأل جهدا أن نراجع المصادر الموثوق بها لضبط أسماء الرجال أو الأمكنة ، أو غير ذلك مما لم يتعرض المؤلف لضبطه . وانتفعنا فى هذا الباب وغيره من وجوه التمحيص والتحقيق بالنسخة المطبوعة فى باريس سنة ١٨٥٨ م مع ترجمتها الفرنسية ، للمستشرقين مسيو . د. فرمرى والدكتور ب . ر . سانجونتى . فقد بذل هذان الفاضلان فى تحرى الصحة فى طبع الأصل العربى ما ليس وراءه غاية لمستزيد ، وإن كان لا يخلو من هفوات وزلات . وجاءت الترجمة الفرنسية ، فأوضحت ما خفى ، وأبانت ما استغلق . وهكذا يفعل هؤلاء المستشرقون فيما يتناولون من آثار العرب بالدراسة . فهناك التحقيق والتدقيق والعلم الغزير . وما توفيقنا إلا بالله . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

محمد أحمد جاد المولى . أحمد العوامرى

ترجمة ابن بطوطة

الجوّابون من العرب قبل ابن بطوطة وآثارهم

أسباب الرحلات :

اقتضت أحوال البلاد الإسلامية أن تكثر الرحلات حين اتسعت رقعة الاسلام ، وانشعبت سلطة الخلافة بين الملوك والأمراء ، حتى استقل بعضهم بحكم ما ولى من البلاد ، إذ كانت عناية الخلفاء حينئذ منصرفة إلى توثيق عرا المودة بين أولئك الأمراء ، ليقووا على صد غارات من يناوئهم من الأعداء ، وقمع ما يحدث من الفتن فى داخل البلاد .

فجابوا البلاد لدراسة أحوالها ومعرفة سهلها ووعرها ، وجبالها وأوديتها ، وطرقها البرية والبحرية ، وما تنتجه أرضها من أنواع الغلات ، حتى يجبى الخراج بنسبة ذلك . ونظموا البريد وقاسوا الأبعاد بين البلاد .

ومن أولئك الجوّابين الذين ساحوا فى القرن العاشر الميلادى ابن خرداذبة سنة ٩١٢ ، واليعقوبى وقدامة سنة ٩٢٢ ، والبلخى سنة ٩٣٤ ، وابن حوقل سنة ٩٨١ . وقد كتبوا فيما شاهدوه من أحوال البلاد التى زاروها كتبا قيمة .

وقد كانت الرحلات فى أول أمرها رسمية لإيجاد الصلة والتعاون بين أمراء البلاد وحكامها . لهذا لم يتجاوز الجوّابون حدود البلاد الإسلامية إلى غيرها ، فكانوا فى كل ما كتبوه لا يعدون وصف ما شاهدوه فى بلاد المسلمين . وهذا ما جعل رحلاتهم ضيقة النطاق ، ذات فائدة محدودة .

ولكن التجار من المسلمين وغير المسلمين اجتازوا حدود البلاد الإسلامية إلى ما تاخمها من الممالك الأجنبية ، يطلبون ما فيها من عروض التجارة ، وابتغاء للرزق بالضرب فى الأرض ، فجابوا أقطار الأرض شمالا إلى بلاد الفِرَاء ، وطلبوا المعادن فى الجنوب حتى مقاطعات النُّوبة ، وفى الغرب وصلوا إلى جبل طارق . وفى الشرق إلى بلاد الحرير والعاج والأفاويه المختلفة .

وبالرحلات الرسمية والتجارية دُرست أحوال البلاد الإسلامية وما يجاورها من الممالك . ولكن التجار لم يكونوا ليتحروا الصدق فيما ينقلون من الأخبار ، وما يشاهدون من أحوال الأمم التى خالطوها ، فألبسوا جل حكاياتهم وأخبارهم ثوبا من الخيال ، جعلها سائغة مقبولة ، وإن بعدت من الحقيقة . وفيما ذكر فى سفرات السندباد البحرى ، على ما فيها من الخيال ، ما يدلنا على ما كان يقاسيه تجار ذلك العهد من مشاق السفر وويلاته .

وهناك عدا ما تقدم من الأسباب السياسية والتجارية سبب مهم يدعو إلى الرحلة وهو أداء فريضة الحج ، فقد أتاحت هذه الأسفار لكثير من قصّاد بيت الله الحرام أن يصفوا ما يشاهدون فى طريقهم للحج . ومن هؤلاء ابن جبير الأندلسى ، وابن سعيد المغربى .

آثارهم :

معجم البلدان — وهو لياقوت الرومى . كتبه بعد أن رحل للتجارة ثلاث مرات ، وطوّف ما طوّف . ثم أتبعها سفرات أخرى لم تنقطع إلا قبل وفاته بسنتين فقط ، من ١١٧٩ الى ١٢٢٩ من الميلاد . وقد كان لكتابه هذا أثر عظيم فى علم الجغرافية . ويعد " معجم البلدان " من الكتب النادرة التى لا يستغنى عنها عالم أو متعلم .

عجائب البلدان — وهو لأبى دلف بن مهلهل الشاعر، وهو من أقدم جوّابى العرب وسياحهم . خرج من بلاده سائحا ، تشوقه غرائب الشعوب، وتدفع به عجائب المخلوقات ، فسافر إلى بلاد الهند مع أحد أمرائها ، فزار بلاد الهند وكشمير وأفغانستان . ثم كتب كتابه هذا . وقد استعان به كثيرا ياقوت والقزوينى .

مروج الذهب — للمسعودى ، كتبه بعد أن سافر إلى بلاد الفرس سنة ٩١٥ م والهند والخزر والتبت وجزيرة سرنديب ، ومنها عاد عن طريق عُمان ، وقصد شاطئ بحر الخزر ، فزار بلاد الروم وسوريا وفلسطين ومصر والسودان . ولشدة وَلُوعه بجوب الآفاق ورغبته فى الوقوف على أحوال العالم ، خرج للسياحة ولم يسلخ العشرين من سنى حياته .

تاريخ الهنـــد — لأبى الريحان محمد البيرونى ، الفيلسوف الرياضى الفلكى الجوّاب ، وقد كان مُولَعا بالأسفار ، محبا للانتجاع والغربة ، فسافر إلى بلاد الهند وجاب آفاقها ودرس أخلاق أهلها دراسـة علميـة صحيحة ، أساسها النظر والاعتبار . فجاء كتابه من أوفى الكتب تعريفا بأحوال الهند .

المسالك والممـالك — لأبى عبيد البكرى الأندلسى، ألفه بعد سياحة طويلة المدى فى بلاد الشرق والغرب .

رحلة ابن جبير — ألفها بعد أن جاب بلاد الشرق مرتيـن ، وقد كتبها بعبـارة مونقة ، إلا أنه يغلب فيها السجع المتكلف . وهى كتاب جزيل الفائدة جليل النفع . وتمتاز هذه الرحلة عن رحلة ابن بطوطة بصدق الوصف ودقة الرواية وحسن العبارة .

المُغْرب — وهو للكاتب الأديب ابن سعيد المغربى، وقد أودعه كثيرا من أخبار أسفاره إلى بلاد المشرق ، بعد أن رحل إلى بغداد وحلب وبلاد الشام وبلاد أرمينية ، وما زال كَلِفا بالأسفار والتنقل بين الأقطار حتى مات فى دمشق وهو راجع إلى بلاد المغرب سنة ١٢٧٤ م .

ابن بطوطة ورحلته

١٣٠٤ — ١٣٧٧ م

نشأته — نشأ ابن بطوطة فى طنجة وأقام بها حتى ١٣٢٥ م واسمه محمد ابن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطَّنجى ، وكنيته أبو عبد الله ، ولقبه شمس الدين ، ويعرف بابن بطوطة . وكان مولده فى طنجة فى ١٧ من رجب سنة ٧٠٣ هـ . وقد أقام بها حتى بلغ الثانية والعشرين من عمره . وقد نشأ بين أهله وذويه فى بسطة من العيش وطمأنينة بال ، فلم يكن يخطر له أن يزايل أهله ، ويهجر وطنه ويسافر إلى غير بلاده ، حتى دعاه داعى الحج ، فخرج ملبيا داعى الله .

أخلاقه وصفاته — إن المطلع على رحلة ابن بطوطة يستشف من خلال كلامه عن نفسه أنه كان شديد التأثر ، يقظ الوجدان ، رقيق العاطفة ، تقيا محبا لوالديه ، معظما للأتقياء والصالحين ، يزور قبورهم للتبرك بهم ، ويروى كثيرا من كراماتهم وما ينسب إليهم من أعمال البر ، كإقامة الزوايا والتكايا ، وحبس الأوقاف الكثيرة عليها . ومما يدل على شدة ورعه وتقواه أنه كان لا يفتأ يذكر أن ما مُتِّع به فى حياته من نعمة وجاه إنما كان لأنه حج أربع حجات .

أما حبه لوالديه فقد أفصح عنه أيَّما إفصاح ، حيث يقول فى مقدّمة رحلته : إنه تركهما (فتحمل لبعدهما وصباً ، كما لقى من الفراق نصباً) . وإنه لما عاد من رحلته الأولى وبلغه موت أمه حزن حزنا شديدا قطعه عن كل شىء ، حتى صلته بحاشية الملك أبى عنان فى فاس — وهى مصدر ما لقيه من تكريم ونعمة — وسافر لزيارة قبر والدته .

وأما سرعة تأثره فإنا نسوق إليك قوله وقد وصل إلى تونس: (فبرز أهلها للقاء الشيخ أبى عبدالله الزبيدى، ولقاء أبى الطيب ابن القاضى أبى عبدالله النفزاوى . فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال، ولم يسلم علىّ أحد لعدم معرفتى بهم . فوجدت من ذلك فى النفس ما لم أملك معه سوابق العبرة . واشتد بكائى ، فشعر بحالى بعض الحجاج ، فأقبل علىّ بالسلام والإيناس . وما زال يؤانسنى بحديثه، حتى دخلت المدينة ونزلت فيها بمدرسة الكتبيين).

وما ظنك برجل يعد من أفضل أصدقائه وأوفاهم له من يقدم عليه فيلقاه بالبشر والإيناس ، ويكرمه ولو مرة واحدة . ولعمرى تلك سجية إن دلت على شىء فإنما تدل على ما فى الرجل من صفاء النفس وطهارة القلب ونقاء السريرة ، وإن لم يكن فيها الاعتداد بالأخذ بالحذر والحيطة فى اصطفاء الإخوان والأصدقاء ، ولا سيما من كان مثله غريبا نائيا عن أهله وبلاده .

رحلاته : ١٣٢٥ — ١٣٥٤ م .

قام ابن بطوطة بثلاث رحلات واسعة النطاق، جاب فيها أكثر ما عرف فى زمانه من البلاد .

الرحلة الأولى : ١٣٢٥ — ١٣٤٩ م .

قضى ابن بطوطة فى رحلته الأولى ٢٤ سنة: فخرج من طنجة فى سنة ١٣٢٥م للحج ، فمر بمراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر . ثم قصد إلى عيذاب على البحر مارا ببلاد الصعيد ليجتاز البحر الأحمر ، فلم يتهيأ له ذلك، للحرب التى كانت قائمة بين المماليك والبجاة ، فعاد إلى الفسطاط . ثم رحل عنها إلى فلسطين ولبنان وسوريا والحجاز، فحج حجته الأولى . ومن مكة سافر

إلى بلاد العراق والعجم وبلاد الأناضول. ثم عاد إلى مكة، فحج حجته الثانية، وأقام بها سنتين . ثم غادرها إلى اليمن واجتاز البحر إلى إفريقية الشرقية . ثم عاد منها مارا بجنوبي جزيرة العرب حتى الخليج الفارسي ، فزار عمان والبحرين والأحساء، ثم رجع إلى مكة ، فحج حجته الثالثة . ثم خرج من مكة إلى بلاد الهند، فمر بخوارزم وخراسان وتركستان وأفغانستان وكابول والسند . وتولى القضاء في دهلي على المذهب المالكي للسلطان محمد شاه . ولما أراد السلطان محمد أن يرسل وفدا إلى ملك الصين ، خرج ابن بطوطة فيه . وفي عودته مر بجزيرة سرنديب وجزائر الهند والصين . ومن ثم عاد إلى بلاد العرب عن طريق سومطرة سنة ١٣٤٧ م، فزار بلاد العجم والعراق وسوريا وفلسطين . ومنها إلى مكة ، فحج حجته الرابعة .

وبعد هذا رأى أن يعود إلى وطنه، فمر بمصر وتونس والجزائر ومراكش، فوصل فاس سنة ١٣٤٩ م .

الرحلة الثانية :

لم يقم ابن بطوطة في فاس طويلا ، حتى وجد في نفسه نزوعا إلى السفر إلى بلاد الأندلس ، فمر في طريقه بطنجة وجبل طارق وغَرناطة . ثم عاد إلى فاس .

الرحلة الثالثة : ١٣٥٢ — ١٣٥٤ م .

كانت رحلته الثالثة إلى بلاد السودان مبتدئة بسجلماسة ، ثم تغازا ومالّي وزاغَرِي وكارسخو وتمبكتو وتكدّا وهكّار، ومن هناك رجع إلى فاس . ويعد ابن بطوطة أول سائح كتب عن مجاهل إفريقية المتوسطة .

إملاؤه الرحلة :

اتصل ابن بطوطة بالسلطان أبى عنان من بنى مرين ، وأقام فى حاشيته يحدث الناس بما رآه من عجائب الأسفار ، وهم يستغربون ذلك . فلقى من لدن السلطان من جميل الرعاية ما حبب إليه البقاء فى حاشيته ، حتى مات فى بلاد فاس سنة ١٣٧٧ م . ولما علم السلطان بأمره وما ينقله من طرائف الأخبار عن البلاد التى زارها أمر كاتبه الأديب محمد بن جُزَىّ الكلبى أن يكتب ما يمليه عليه الشيخ ابن بطوطة ، فانتهى من كتابتها سنة ١٣٥٦ م ، وسماها (تحفة النظار ، فى غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار) .

صدقه وأمانته فى النقل :

قد كان ابن بطوطة يحدّث الناس بما رأى من عجيب صنع الله فى خلق الحيوان والنبات*، وما شاهده من أخلاق الأمم وعاداتهم وأحوالهم ، مما يعد غريبا عند من لم يره أو يقع مثله له . فانبرى له جماعة من معانديه وحساده ، ممن نفسوا عليه منزلته لدى السلطان ، يكذبونه ويسفهون رأيه ، ويعدون ما أتى به حديث خرافة وافتراء . ولكنه كان يلقى من بعض المنصفين تأييدا وإنصاتا لما يرويه ، ما دام فى حيز الممكن المعقول ، وما دام لم يقم على نفيه دليل من السماع أو الرؤية .

وقد نبه ابن بطوطة برحلته الأفكار ، وأيقظها بعد طول سباتها ، ووجه الأنظار إليه ، فكان الناس فيما قال بين مصدق ومكذب . وقد أتى ابن خلدون فى مقدمته بما يكشف لنا عن حال ابن بطوطة فى أهل زمانه حيث يقول :

(ورد بالمغرب لعهد السلطان أبى عنان من ملوك بنى مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة ، كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق ، وتقلب فى بلاد العراق واليمن والهند ، ودخل مدينة دهلى حاضرة

ملك الهند، وهو السلطان محمد شاه . وكان له منه مكان . واستعمله فى خطة القضاء بمذهب المالكية فى عمله . ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبى عنان . وكان يحدّث عن شأن رحلتــه وما رأى من العجائب بممالك الأرض . وأكثر ما كان يحدّث عن دولة صاحب الهند ، ويأتى من أحواله بما يستغرب به السامعون : مثل أن ملك الهند إذا خرج إلى السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان ، وفرض لهم رزق ستة أشهر تعطى لهم من عطائه ، وأنه عند رجوعه من سفره يدخل فى يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد ، ويطوفون به ، وينصب أمامه فى ذلك الحفل منجنيقات ، ترمى بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس إلى أن يدخل إيوانه . وأمثال هذه الحكايات . فتناجى الناس بتكذيبه) .

وليس ابن خلدون أول من شك فيما قاله ابن بطوطة ، فقد أبدى كاتب الرحلة ابن جزى الشك فى بعض ما نقله الرحالة فقال :

(وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار ، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار) .

وقد عنى كثير من علماء المستشرقين بمقابلة أقوال ابن بطوطة بأقوال غيره من جوّابيهم فى عصره ، أو فى عصر يقرب من عصره ، فبدا لهم صدق قوله ، وخلوه من الغلو . ولو ظهر لهم كذب روايته أو غلوه فيما نقله من الأخبار لنشروه وحرصوا على إذاعته ، وهم على ما نعلم من وفور العلم وصدق البحث وقوة الاستنباط ، والقدرة على تمحيص الحقائق ، والتمييز بين غث القول وسمينه .

وإنه لمن الصعب على الناقد العدل أن يقول عن ابن بطوطة : إنه كذب متعمداً فيما رواه ، فإن أقواله تنم على سذاجة فى الطبع . والمتصف بهذا يبعد عليه أن يتعمد الكذب ، أو يحاول الغش فيما يقول : فقد كان يسوق

الحكاية ، فإذا نسى اسم صاحبها قال : قد أنسيته . وقد كانت له مندوحة عن أن يصف نفسه بالنسيان باختراع اسم لصاحب الحكاية ، كما يفعل بعض الذين يسوقون الحكايات تسلية للسامعين . وكثيرا ما كان يصنع مثل هذا فى أسماء الأماكن والبلاد .

ومن هذا نعلم أن رحالتنا كان يجتهد فى تحرى الحقيقة، ويشعر بأنه مأخوذ بما يقول، وحسبه أن العلامة دوزى سماه (الرحالة الأمين) .

ابن بطوطة بين الجوابين :

ونحن إذ ننصف الرجل ونقول فيه ما قلنا ، لا نقصد بهذا أن ننزله منزلة الجوّابين فى العصر الحاضر من العلماء والمفكرين ، الذين يخرجون زرافات ووحدانا ، لجوْب البلاد ودراسة أحوالها دراسة علمية صحيحة، قائمة على العلم وصدق الاستنباط ، ويتعرفون أخلاق الأمم وأحوالهم ، فى معاشهم وطرق كسب العيش عندهم ، ومبلغ رقيهم وتقدمهم فى الحضارة والعلم ، وحالتهم السياسية والاجتماعية . فإن ابن بطوطة فى رحلته لم يكن إلا وصافا لمشاهد رآها ، سرّه بعضها وأحزنه بعضها ، فذكرها على حالها بعبارة مقبولة ساذجة. وقد يعقب ذلك بملاحظة لا تخلو من دقة نظر . وهو بهذا قد أفاد علم الجغرافية ، وصرفه إلى ما يتعلق بالحياة العملية ، فصار سهلا مقبولا ، بعد أن كان صعبا مرذولا .

أسلوب الرحلة :

إن الذى يقرأ الكتاب من أوله إلى آخره ، يرى أن مقدمته وخاتمته كتبتا بعبارة فيها شىء من التنميق والسجع المتكلف ، وكذلك كل مقدمة

لوصف مدينة عظيمة . ويغلب على الظن أن هذا كتب بقلم ابن جزى ، لأنه هو الذى تولى تلخيص الرحلة والنظر فى أبوابها وأقسامها . وفيما له من سعة الوقت وانفساح المجال ، للظهور بمظهر الكاتب الأديب فى حاشية السلطان ، ما يحمله على التأنق فى عبارة الكتّاب وتحسينها جهد المستطاع . ولا سيما إذا أضفنا إلى هذا أن ابن جزى كان يستعين فى كتابة بعض الموضوعات برحلة ابن جبير ، وهى كثيرة التنميق والسجع .

وفى غير ما تقدم نجد عبارة الكتّاب سهلة لا تأنق فيها ولا تكلف ، حتى إنها لتبدو فى بعض الموضوعات خالية من الترتيب والتأليف ، على نسق يقرب من إنشاء العامة .

عناية الإفرنج بالرحلة :

جدّ كثير من المستشرقين فى البحث عن نسخ الرحلة الأصلية زمنا طويلا ، فعثر السائح "بوركهاردت" على مختصر لها ، فظهرت به قيمة هذا المؤلف العظيم .

ثم جاء بعده "كوسفارتن" فبحث حتى عثر على نسخة أخرى ، فترجم عنها إلى اللاتينية أسفار ابن بطوطة إلى بلاد إفريقية وفارس وبلاد التتر والجزائر ونشرها سنة ١٨٨١ م .

وفى سنة ١٨٢٩ م ترجم القسّ "صموئيل لى" قسما كبيرا منها إلى اللغة الإنجليزية وطبعه فى لندن .

وبعد ذلك قام العالمان الفرنسيان "دى سلان" و"ادوارد ديلوريه" فترجم كل منهما قسما من الرحلة نشر فى المجلة الأسيوية سنة ١٨٤٣م و١٨٤٧ م .

وما زال أولئك العلماء ينقبون ويبحثون، حتى عثروا على نسخ من الكتاب كاملة ، فقوبل بعضها ببعض ، وطبعت مع ترجمتها إلى اللغة الفرنسية في باريس سنة ١٨٥٣ — ١٨٥٩ م في مجلدات أربعة ، بتحقيق العالمين المستشرقين " دفريمرى " و " سانجونتى " .

وبعد هذا طبعت الرحلة في القاهرة طبعتين عربيتين عن الطبعة الباريسية في مجلدين ، الأولى سنة ١٨٧١ — ١٨٧٥ م والثانية سنة ١٩٠٤ م .

ثم طبعت في هامبورغ مترجمة إلى اللغة الألمانية سنة ١٩١١ — ١٩١٢ م طبعها المستشرق " مزيك " .

وللرحلة ترجمة تركية اسمها (تقويم وقائع) .

قيمة الرحلة :

تحوى الرحلة كثيرا من طريف الأخبار ، ونادر الحكايات ، وعجائب المخلوقات ، في الحيوان والنبات ، فكان لذلك أثر ظاهر في تقدم علم الجغرافية ونمو الثروة الأدبية لدى المتأدبين .

وحسب الكتاب أن يشهد بفضله على العلم والأدب الرحالة الشهير والعالم الكبير " سيتزن " فيقول ما معناه : (أى سائح أوربى يمكنه أن يفتخر بأنه قضى من الزمن ما قضاه ابن بطوطة في البحث لكشف المجهول من أحوال هذا العدد الكثير من البلدان السحيقة ، وتحمل من مشاق الأسفار ما تحمله بثبات وشجاعة ؟ بل أى أمة أوربية كان يمكنها منذ خمسة قرون

أن تجد من أبنائها من يجوب البلاد الأجنبية، وفيه من الاستقلال بالحكم ، والقدرة على الملاحظة، والدقة فى الكتابة، ما لهذا الرحالة العظيم ؟ إن ما جاء به من المعلومات الصحيحة عن جهات إفريقية المجهولة لا يقل فى فائدته عن معلومات " لاون " الإفريقى .

أما جغرافية بلاد العرب وبخارى وكابول وقندهار ، فقد استفادت من الرحلة كثيرا . وفيما كتبه عن الهند وجزيرة سرنديب من المعلومات المفيدة ما يدعو انجليز الهند إلى قراءته ، فإن فيه ما يفيدهم فى سياستهم) اهـ .

أحمد العوامرى　　　　محمد أحمد جاد المولى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة ابن جُزَىّ كاتب السلطان

قال الشيخ الفقيه ، العالم الثقة النبيه ، الناسك الأبرّ ، وفد الله المعتمر ، شرف الدين ، المعتمد فى سياحته على رب العالمين ، أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللَّوَاتِى[1] ثم الطَّنْجِى ، المعروف بابن بطوطة ، رحمه الله ورضى عنه بمنه وكرمه آمين .

الحمد لله الذى ذلل الأرض لعباده ليسلكوا منها سبلا فجاجا ، وجعل منها وإليها تاراتهم الثلاثَ نباتا وإعادة وإخراجا ، دحاها بقدرته فكانت مهادا للعباد ، وأرساها بالأعلام الراسيات والأطواد ، ورفع فوقها سمك السماء بغير عماد ، وأطلع الكواكب هداية فى ظلمات البر والبحر ، وجعل القمر نورا والشمس سراجا ، ثم أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد الممات ، وأنبت فيها من كل الثمرات ، وفطر أقطارها بصنوف النبات ، وفجر البحرين عذبا فراتا ، وملحا أُجاجا ، وأكمل على خلقه الإنعام ، بتذليل مطايا الأَنعام ، وتسخير المنشآت كالأعلام ، ليمتطوا من صهوة القفر ومتن البحر أَثْباجا[2] ؛ وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذى أوضح للخلق منهاجا ، وطلع نور هدايته وهاجا ؛ بعثه الله تعالى رحمة للعالمين ، واختاره خاتما للنبيين ، وأمكن صوارمه من رقاب المشركين ، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا ، وأيده بالمعجزات الباهرات ، وأنطق بتصديقه

---

(1) اللَّوَاتى : نسبة للَوَاتَة كسَحَابة وهى قبيلة بالبربر .

(2) الأثباج : جمع ثَبَج ما بين الكاهل إلى الظهر . ومن المجاز : (ركب ثَبَجَ البحر) .

الجمادات ، وأحيا بدعوته الرمم الباليات ، وبفجر من بين أنامله ماء ثجّاجا ، ورضى الله تعالى عن المتشرفين بالانتماء إليه أصحابا وآلا وأزواجا ، المقيمين قناة الدين فلا تخشى بعدهم اعوجاجا ، فهم الذين آزروه على جهاد الأعداء ، وظاهروه على إظهار الملة البيضاء ، وقاموا بحقوقها الكريمة من الهجرة والنصر والإيواء ، واقتحموا دونه نار البأس حامية ، وخاضوا بحر الموت عجّاجا ، ونستوهب الله تعالى لمولانا الإمام الخليفة أمير المؤمنين ، المتوكل على رب العالمين ، المجاهد فى سبيل الله ، المؤيد بنصر الله ، أبى عنان[1] فارس ، ابن موالينا الأئمة المهتدين ، الخلفاء الراشدين ، نصرا يُوسِعُ الدنيا وأهلها ابتهاجا ، وسعدا يكون لزمانة الزمان علاجا ، كما وهبه الله بأسا وجودا لم يدع طاغيا ولا محتاجا ، وجعل بسيفه وسيبه لكل ضيقة انفراجا .

(وبعد) فقد قضت العقول ، وحكم المعقول والمنقول ، بأن هذه الخلافة العلية ، المجاهدة المتوكلية الفارسية ، هى ظل الله الممدود على الأنام ، وحبله الذى به الاعتصام ، وفى سلك طاعته يجب الانتظام ، فهى التى أبرأت الدين عند اعتلاله ، وأغمدت سيف العدوان عند انسلاله ، وأصلحت الأيام بعد فسادها ، ونفّقَتْ سوق العلم بعد كسادها ، وأوضحت طرق البر عند إنهاجها ، وسكّنَتْ أقطار الأرض عند ارتجاجها ، وأحيت سنن المكارم بعد مماتها ، وأماتت رسوم المظالم بعد حياتها ، وأخمدت نار الفتنة عند اشتعالها ، ونقَضت أحكام البغى عند استقلالها ، وشادت مبانىَ الحق على عماد التقوى ، واستمسكت من التوكل على الله بالسبب الأقوى ، فلها العز الذى عقد تاجه على مفرق الجوزاء ، والمجد الذى جر أذياله على مجرّةِ السماء ، والسعد الذى رد على الزمان غض شبابه ، والعدل

(1) هو أحد أمراء بنى مرين الذين حكموا مراكش بعد أن طردوا أمراء الموحدين من سنة ١٢٦٩ — ١٥٥١ م

الذى مد على أهل الإيمـان مديد أطنابه ، والجود الذى قطر سحابه اللجين والنضار، والبأس الذى فيض غمامه الدم المَوّار، والنصر الذى تفُضُّ كتائبه الأجل ، والتأييد الذى بعض غنائمه الدول ، والبطش الذى سبق سيفه العذل ، والأناة التى لا يُمَلُّ عندها الأمل ؛ والحزم الذى يسد على الأعداء وجوه المسارب ، والعزم الذى يفُل جموعها قبل قِراع الكتائب ؛ والحلم الذى يجنى العفو من ثمر الذنوب ، والرفق الذى جمع على محبته بنات القلوب ؛ والعلم الذى يجلو نوره دياجىَ المشكلات ، والعمل المقيـد بالإخلاص (والأعمال بالنيات) .

ولما كانت حضرته العلية مطمح الآمال ، ومسرح همم الرجال ، ومحط رحال الفضائل ، ومثابة أمن الخائف ومُنية السائل ؛ توخى الزمان خدمتها ببدائع تحفه ، وروائع طرفه ، فانثال[١] عليها العلمـاء انثيال جَوْدها[٢] على الصفاة[٣] ، وتسابق إليها الأدباء تسابق عزماتها إلى العُداة ، وحج العارفون حرمها الشريف ، وقصـد السائحون استطلاع معناها المنيف ، ولجأ الخائفون إلى الامتنـاع بعز جنابها ، واستجارت الملوك بخـدمة أبوابها ، فهى القطب الذى عليه مدار العالم ، وفى القطع بتفضيلها تساوت بديهـة عقل الجاهل والعالم ، وعن مآثرها الفائقة يُسنِد صحاحَ الآثار كلُّ مسلم ، وبإكمال محاسنها الرائقة يفصح كل معلّم .

وفود ابن بطوطة على الخليفة

وكان ممن وفد على بابها السامى، وتعدى أوشالَ البلاد إلى بحرها الطامى، الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق، جوّال الأرض ؛ ومخترق الأقاليم بالطول

(١) انثال عليها العلماء : انصبوا .

(٢) الجَوْدُ : المطر الغزير

(٣) الصفاة : الصخرة الصماء الملساء .

والعرض ، أبو عبـد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى المعروف بابن بطوطة ، المعروف فى البلاد الشرقية بشمس الدين ، وهو الذى طاف الأرض معتبرا ، وطوى الأمصار مختبرا ، وباحث فرق الأمم ؛ وسَبَر سِيَر العرب والعجم ، ثم ألقى عصا التّسيار بهذه الحضرة العليا ، لمـا علم أن لها مزية الفضل دون شرط ولا ثُنْيا[١] ، وطوى المشارق إلى مطلع بدرها بالغرب ، وآثرها على الأقطار إيثار التبر على الترب ، اختيارا بعـد طول اختبار البلاد والخلق ، ورغبة فى اللحاق بالطائفـة التى لا تزال على الحق ؛ فغمره من إحسانه الجزيل ، وامتنانه الحفِيّ[٢] الحفيل[٣] ، ما أنساه المـاضى بالحال ؛ وأغناه عن طول الترحال ، وحقّر عنده ما كان من سواه يستعظمه ، وحقق لديه ما كان من فضله يتوهمه ، فنسى ما كان أَلِفه من جولان البلاد ، وظفر بالمرعى الخصب بعد طول الارتياد ، ونفذت الإشارة الكريمة بأن يملى ما شاهده فى رحلته من الأمصار ، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار ، ويذكر مَن لقيه من ملوك الأقطار ، وعلمائها الأخيار ، وأوليائها الأبرار ، فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر ، وبهجة المسامع والنواظر ، من كل غريبة أفاد باجتلائها ، وعجيبة أطرف بانتحائها .

أمر ابن جزىّ بكتابة الرحلة

وصدر الأمر العالى لعبد مقامهم ، الكريم عليهم ، المنقطع إلى بابهم ، المتشرف بخدمة جنابهم ، محمد بن محمد بن جُزَىّ الكلبىّ ، أعانه الله على خدمتهم ، وأوزعه[٤] شكر نعمتهم — أن يَضُم أطراف ما أملاه (الشيخ أبو عبد الله)

(١) ثُنْيَا : استثناء .

(٢) الحَفِيُّ : المُبالِغ فيه .

(٣) الحفيل : الكثير .

(٤) أوْزَعَه : ألهمه .

من ذلك ، فى تصنيف يكون على فوائده مشتملا ، ولنيل مقاصده مكملا ؛ متوخيا تنقيح الكلام وتهذيبه ، معتمدا إيضاحه وتقريبه ، ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ، ويعظم الانتفاع بدرها عند تجريده عن الصدف ، فامتثل ما أمر به مبادرا ، وشرع فى منهله ليكون بمعونة الله عن توفية الغرض منه صادرا . ونقلت معانى كلام الشيخ أبى عبد الله ، بألفاظ موفية للمقاصد التى قصدها ، موضحة للمناحى التى اعتمدها ، وربما أوردت لفظه على وضعه ، فلم أخل بأصله ولا فرعه ، وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار ، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار ؛ على أنه سلك فى إسناد صحاحها أقوم المسالك ، وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك ، وقيد المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ، ليكون أنفع فى التصحيح والضبط . وشرحت ما أمكننى شرحه من الأسماء العجمية ، لأنها تلتبس بعجمتها على الناس ، ويخطئ فى فك مُعَمَّاها معهود القياس . وأنا أرجو أن يقع ما قصدته من المقام العلى (أيده الله) بمحل القبول ، وأبلغ من الإغضاء عن تَقْصِيرِى المأمول ؛ فعوائدهم فى السماح جميلة ، ومكارمهم بالصفح عن الهفوات كفيلة . والله تعالى يديم لهم عادة النصر والتمكين ، ويعرفهم عوارف التأييد والفتح المبين .

ابتداء الرحلة من بلاد المغرب

قال الشيخ أبو عبد الله : كان خروجى من طنجة مسقط رأسى ، فى يوم الخميس الثانى من شهر الله رجب الفرد ، عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، معتمدا حج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر الرسول (عليه أفضل الصلاة والسلام) ، منفردا عن رفيق آنس بصحبته ، وركب أكون فى جملته ، لباعث على

النفس شديد العزائم ، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامنٍ فى الحيازم[١] ؛ فجزمت أمرى على هجـر الأحباب من الإناث والذكور ، وفارقت وطنى مفارقة الطيور للوكور ؛ وكان والداى بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصبا[٢] ، ولقيت كما لقيا من الفراق نصبا ؛ وسنى يومئذ ثنتان وعشرون سنة . (قال ابن جزىّ : أخبرنى أبو عبد الله بمدينـة غَرْناطة : أن مولده بطنجةَ ، فى يوم الاثنين السابع عشر من رجب الفرد ، سنة ثلاث وسبعمائة) .

(رجع) وكان ارتحالى فى أيام أمير المؤمنين ، وناصر الدين ، المجاهـد فى سبيل رب العالمين ، الذى رُوِيت أخبار جوده موصولة الأسناد بالإسناد ، وشُهرت آثار كرمه شهرةً واضحة الأشهاد ، وتحلت الأيام بحلى فضله ، ورتع الأنام فى ظل رفقه وعدله : الإمام المقدس أبو سعيد ، ابن مولانا أمير المؤمنين ، وناصر الدين ، الذى فل حدَّ الشرك صدقُ عزائمه ، وأطفأت نارَ الكفر جداولُ صوارمه : الإمام المقـدس أبو يوسف بن عبد الحق ؛ جدد الله عليهم رضوانه ، وسقى ضرائحهم المقدسة من صوب الحيا طلَّه[٣] وتهتانه[٤] ، وجزاهم أفضل الجزاء عن الإسلام والمسلمين ، وأبقى الملك فى عقبهم إلى يوم الدين . فوصلت مدينة تِلِمْسانَ ، وسلطانها يومئذ أبو تاشفين ، عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يَغْمُراسَن بن زيان . ووافقت بها رسولَىْ ملك إفريقيـة ، السلطان أبى يحيى (رحمه الله) وهما : قاضى الزواج بمدينة تونس ، أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن على بن إبراهيم النِّفْزاوى ، والشيخ

(١) الحيازم : جمع حيزوم : الصدور .

(٢) الوَصَبُ : المرض .

(٣) الطل : المطر الضعيف .

(٤) تهانه صوابها (تهتانه) مصححة من نسخة طبع أوربة وهو المطر المنصب .

الصالح ، أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشى الزُبيدى — بضم الزاى نسبة إلى قرية بساحل المهدية — (وهو أحد الفضلاء ، وفاته عام أربعين[1]) . وفى يوم وصولى إلى تِلِمْسان، خرج عنها الرسولان المذكوران ، فأشار علىّ بعض الإخوان بمرافقتهما ، فاستخرت الله عز وجل فى ذلك ، وأقمت بتِلِمْسان ثلاثا فى قضاء مآربى ، وخرجت أجدّ السير فى آثارهما ، فوصلت مدينة مِلْيانة وأدركتهما بها ، وذلك فى إبان القيظ ، فلحق الفقيهين مرض أقمنا بسببه عشرا، ثم ارتحلنا وقد اشتد المرض بالقاضى منهما ، فأقمنا ببعض المياه على مسافة أربعة أميال من مِلْيانة ثلاثا ، وقضى القاضى نحبه ضُحًا اليوم الرابع ، فعاد ابنه أبو الطيب ورفيقه أبو عبد الله الزُّبَيدىُّ إلى مليانة فقبروه بها ، وتركتهم هنالك ، وارتحلت مع رُفقة من تجار تونس ، منهم الحاج مسعود بن المنتصر ، والحاج العُدُولىّ ومحمد بن الحجر .

وصوله مدينة الجزائر

فوصلنا مدينة الجزائر وأقمنا بخارجها أياما، إلى أن قدم الشيخ أبو عبد الله وابن القاضى ، فتوجهنا جميعا على مَتِّيجة إلى جبل الزان ، ثم وصلنا إلى مدينة بجاية ، فنزل الشيخ أبو عبد الله بدار قاضيها : أبى عبدالله الزَّوَاوِىّ ، ونزل أبو الطيب ابن القاضى بدار الفقيه أبى عبد الله المفسر ؛ وكان أمير بجاية إذ ذاك أبا عبدالله بن محمد بن سيد الناس الحاجب . وكان قد توفى من تجار تونس الذين صحبتهم من مِلْيانة : محمد بن الحجر (الذى تقدّم ذكره) وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب ، وأوصى بها لرجل من أهل الجزائر، يعرف بابن حديدة ، ليوصلها إلى ورثته بتونس ، فانتهى خبره لابن سيد الناس ، فانتزعها من يده ؛ وهذا أول ما شهدته من ظلم عمال

(١) أى سبعمائة وأربعين .

الموحدين[1] وولاتهم . ولما وصلنا إلى بجاية (كما ذكرته) أصابتنى الحمى ، فأشار على أبو عبد الله الزُّبَيدِى بالإقامة فيها حتى يتمكن البرء منى ، فأبيت وقلت : إن قضى الله عز وجل بالموت ، تكن وفاتى بالطريق وأنا قاصد أرض الحجاز . فقال لى : أما إن عزمت ، فبع دابتك وثِقْل المتاع ، وأنا أعيرك دابة وخباء ، وتصحبنا خفيفا ، فإننا نجدّ السير خوف غارة العرب فى الطريق . ففعلت هذا ، وأعارنى ما وعد به (جزاه الله خيرا) وكان ذلك أول ما ظهر لى من الألطاف الإلهية ، فى تلك الوجهة الحجازية . وسرنا إلى أن وصلنا إلى مدينة قُسَنْطِينَةَ فنزلنا خارجها ، وأصابنا مطر جَوْد ، اضطرنا إلى الخروج عن الأخبية ليلا إلى دُور هنالك . فلما كان من الغد ، تلقانا حاكم المدينة (وهو من الشرفاء الفضلاء يسمى بأبى الحسن) ، فنظر إلى ثيابى — وقد لوثها المطر — فأمر بغسلها فى داره وكان الإحرام[2] منها خلقا ، فبعث مكانه إحراماً بعلبكيا ، وصرّ فى أحد طرفيه دينارين من الذهب ، فكان ذلك أول ما فتح به علىّ فى وجهتى . ورحلنا إلى أن وصلنا مدينة بُونَة ، ونزلنا بداخلها ، وأقمنا بها أياما ، ثم تركنا بها من كان فى صحبتنا من التجار ، لأجل الخوف فى الطريق ، وتجردنا للسير ، وواصلنا الجد ، وأصابتنى الحمى ، فكنت أشد نفسى بعمامة فوق السرج ، خوف السقوط بسبب الضعف ، ولا يمكننى النزول من الخوف ، إلى أن وصلنا مدينة تونِس ، فبرز أهلها للقاء الشيخ أبى عبد الله الزُّبيدى ، ولقاء أبى الطيب ابن القاضى أبى عبد الله النَّفْزاوى ، فأقبل بعضهم على بعض بالسلام

---

(١) الموحدون : اسم دولة من أمراء البربر حكمت كل إفريقية الشمالية ونصف أسبانيا تقريبا (١١٣٠ — ١٢٦٩ م) وكان بينهم وبين المرينيين أصحاب مراكش مناوشات حتى فاز المرينيون وطردوهم سنة ١٢٦٩ م

(٢) الإحرام : نوع من لباس الرأس كان يستعمله عرب الأندلس والمغرب

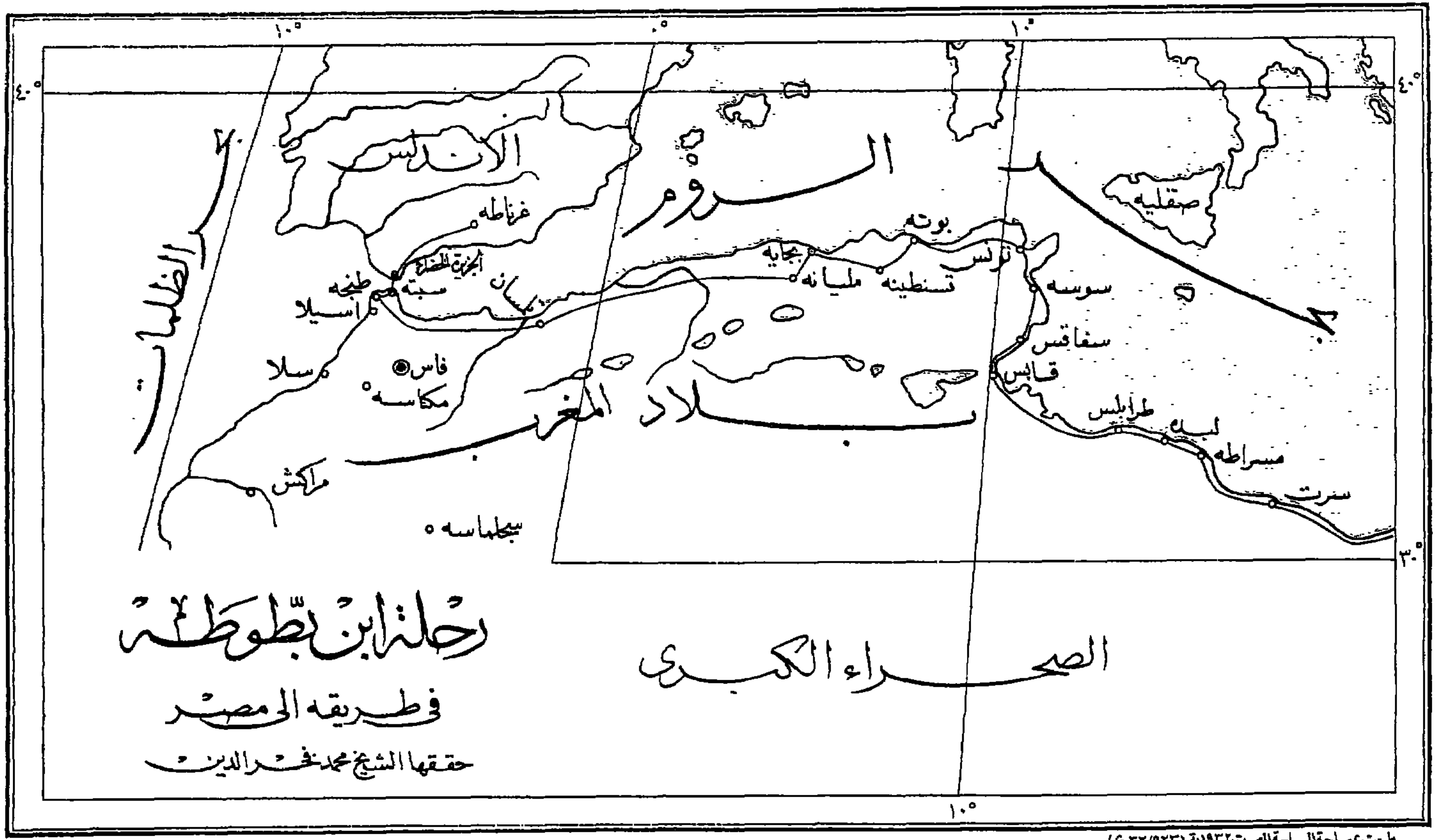

طبعت بمصلحة المساحة المصرية سنة ١٩٣٢ (٩٢٣/٣٢-٥٠٠)

والسؤال، ولم يسلم علىّ أحد لعدم معرفتى بهم، فوجدت من ذلك فى النفس مالم أملك معــه سوابق العَبرة ، واشتد بكائى ، فشعر بحالى بعض الحجاج ، فأقبــل علىّ بالسلام والإيناس ، وما زال يؤنسنى بحديثــه ، حتى دخلت المدينة ، ونزلت منها بمدرسة الكتبيين .

ذكر سلطان تونس

وكان سلطان تونس — عند دخولى إليها — السلطان أبا يحيى ، ابن السلطان أبى زكريا يحيى ، ابن السلطان أبى إسحق إبراهيم ، ابن السلطان أبى زكريا يحيى، بن عبد الواحد ، بن أبى حفص[1] (رحمه الله) . وكان بتونس جماعة من أعلام العلماء ، منهم قاضى الجماعة بها أبو عبد الله محمد ، ابن قاضى الجماعة أبى العباس أحمد بن محمد بن حسن بن محمد الأنصارىّ الخزرجى البَلَنْسىّ الأصل ، ثم التونسىّ ، هو ابن الغماز . ومنهم الخطيب أبو إسحق إبراهيم بن حسين بن على بن عبد الرفيع الرِّبْعىّ ، وولى أيضا قضاء الجماعة فى خمس دول . ومنهم الفقيه أبو على عمر بن على بن قدّاح الهوارىّ ، وولى أيضا قضاءها ، وكان من أعلام العلماء ؛ ومن عاداته أنه يستند كل يوم جمعة بعد صلاتها ، إلى بعض أساطين الجـامع الأعظم المعروف بجامع الزيتونة ، ويستفتيه الناس فى المسائل . فلما أفتى فى أربعين مسألة انصرف عن مجلسه ذلك .

وأظلنى بتونس عيــد الفطر ، فحضرت المصلى ، وقد احتفــل الناس لشهود عيدهم ، وبرزوا فى أجمل هيئــة وأكمل شارة ، ووافى السلطان أبو يحيى راكبا ، وجميع أقاربه وخواصــه وخدام مملكتــه مشــاة

(١) هو من أمراء بنى حفص ، وهى دولة أسسها أبو حفص قائد أحد أمراء الموحِّدين سـنة ١٢٢٨ م وكانوا فى أول أمرهم عمال تونس للوحدين ثم صاروا سلاطينها بعد سـقوطهم سنة ١٢٦٩ وأشهر أمراء بنى حفص المستنصر وهو الذى قاوم لويس ملك فرنسة .

على أقدامهم فى ترتيب عجيب . وصليت الصلاة ، وانقضت الخطبة ، وانصرف الناس إلى منازلهم . و بعد مدة تعين لركب الحجاز الشريف شيخٌ يعرف بأبى يعقوب السُّوسى ، من أهل أَقْلِى[1] من بلاد إفريقية ، فقدمونى قاضيا بينهم . وخرجنا من تونس فى أواخر شهر ذى القعدة ، سالكين طريق الساحل ، فوصلنا إلى بلدة سُوسة ، وهى صغيرة حسنة ، مبنية على شاطئ البحر ، بينها وبين مدينة تونس أربعون ميلا . ثم وصلنا إلى مدينة صَفَاقُسَ (وبخارج هذه البلدة قبر الإمام أبى الحسن اللَّخْمِى المالكى ، مؤلف كتاب التبصرة فى الفقه) . قال ابن جُزَىّ : فى بلدة صَفَاقُسَ يقول علىّ بن حبيب التنوخى :

سقيًا لأرض صَفَاقُسٍ ذات المصانع والمصلّى !
بلد يكاد يقول حين تزوره : أهلا وسهلا !
وكأنه — والبحر يحسر تارة عنه ويملا —
صَبٌّ يريد زيارة فإذا رأى الرقباء ولّى

وفى عكس ذلك يقول الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن أبى تميم (وكان من المجيدين المكثرين) :

صَفَاقُس لا صفا عيش لساكنها ، ولا سقى أرضها غيث إذا انسكبا !
ناهيك[2] من بلدة من حَلَّ ساحتها عانَى بها العادِيَين : الروم والعربا
كم ضل فى البر مسلوبًا بضاعتَه ، وبات فى البحر يشكو الأسر والعطبا
قد عاين البحرُ من لؤم لقاطنها ، فكلما هم أن يدنو لها هربا

---

(١) (أقلى) صححت من نسخة طبع أوربة .

(٢) ناهيك : حَسْبُك .

وصف مدينة قابِس

(رجع) ثم وصلنا إلى مدينة قابس ونزلنا بداخلها ، وأقمنا بها عشرا ، لتوالي نزول الأمطار . قال ابن جزي : في ذكر قابس يقول بعضهم :

لهفي على طيب ليال خلت　　بجانب البطحاء من قابس
كأن قلبي عند تذكارها　　جذوة نار بيد القابس (١)

(رجع) ثم خرجنا من مدينة قابِس ، قاصدين طرابُلُس ، وصحبنا في بعض المراحل إليها نحو مائة فارس أو يزيدون ؛ وكان بالركب قوم رماة فهابتهم العرب ، وتحامت مكانهم ، وعصمنا الله منهم ؛ وأظلنا عيد الأضحى في بعض تلك المراحل ؛ وفي الرابع بعده وصلنا إلى مدينة طرابُلُس ، فأقمنا بها مدة ، وكنت عقدت بصفاقُس على بنت لبعض أمناء تونس ، فبنيت عليها بطرابُلُس ، ثم خرجت من طرابلس أواخر شهر المحرم ، من عام ستة وعشرين ، ومعي أهلي ، وفي صحبتي جماعة من المصامدة ، وقد رفعت العَلم وتقدمت عليهم ؛ وأقام الركب في طرابلس خوفا من البرد والمطر ، وتجاوزنا (مِسْلاتة ومِسْراتة وقصورَ سُرْت) ، وهنالك أرادت طوائف العرب الإيقاع بنا ، ثم صرفتهم القدرة ، وحالت دون ما راموه من أذيتنا ؛ ثم توسطنا الغابة ، وتجاوزناها إلى قصر بَرْصِيص العابد ، إلى قبة سلّام ، وأدركنا هنالك الركب الذين تخلفوا بطرابلس ، ووقع بيني وبين صهري مشاجرة أوجبت فراق بنته ، وتزوجت بنتا لبعض طلبة فاس ، وبنيت بها بقصر الزَعافِيّة ، وأولمت وليمة حبست لها الركب يوما وأطعمتهم.

---

(١) القابس : الآخذ من النار .

وصف مدينة الإسكندرية

ثم وصلنا فى أول جمادى الأولى إلى مدينة الاسكندرية (حرسها الله)، وهى الثغر المحروس ، والقطر المأنوس ، العجيبة الشأن ، الأصيلة البنيان ؛ بها ما شئت من تحسين وتحصين ؛ ومآثر دنيا ودين ، كرمت مغانيها ، ولطفت معانيها ، وجمعت بين الضخامة والإحكام مبانيها ؛ فهى الفريدة تَجَلِّى سناها ، والخريدة تُجْلَى فى حلاها ، الزاهية بجمالها المُغْرِب ، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب ؛ فكل بديعة بها اجتلاؤها ، وكل طرفة فإليها انتهاؤها ؛ وقد وصفها الناس فأطنبوا ، وصنفوا فى عجائبها فأغربوا ؛ وحسب المشرف إلى ذلك ، ما سطره أبو عُبَيْد فى كتاب المسالك[1] .

ذكر أبوابها ومرساها

ولمدينة الاسكندرية أربعة أبواب : باب السِّدْرة — وإليه يشرع[2] طريق المغرب — وباب رشيد ، وباب البحر ، والباب الأخضر ؛ (وليس يفتح إلا يوم الجمعة فيخرج الناس منه إلى زيارة القبور) . ولها المرسى العظيم الشأن ، ولم أر فى مراسى الدنيا مثله ، إلا ما كان من مرسى كُولَم وقاليقوط ببلاد الهند ، ومرسى الكفار بِسُوداق ببلاد الأتراك[3] ، ومرسى الزيتون[4] ببلاد الصين ؛ وسيقع ذكرها .

---

(١) هو كتاب "المسالك والممالك" لأبى عُبَيْد البكرى الأندلسى (١٠٤٠ — ١٠٩٤م)

(٢) يَشْرَع : يتّصل .

(٣) بلاد الأتراك : بلاد القِرِم .

(٤) تعرف هذه المدينة الآن باسم تِشيون .

ذكر المنار

قصدت المنار فى هذه الوِجهة ، فرأيت أحد جوانبه متهدّما ؛ وصفته أنه بناء مربع ذاهب فى الهواء ، وبابه مرتفع على الأرض ، وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه ، وضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها إلى بابه ، فإذا أزيلت لم يكن له سبيل ، وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار ، وداخل المنار بيوت كثيرة ، وعرض الممر بداخله تسعة أشبار ، وعرض الحائط عشرة أشبار ، وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربع مائة وأربعون شبرا . وهو على تل مرتفع ؛ ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد ، فى برمستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات إلى أن يتصل البحر بسور البلد ، فلا يمكن التوصل إلى المنار فى البر إلا من المدينة . وفى هذا البر المتصل بالمنار مقبَرة الإسكندرية . وقصدت المنار عند عودتى إلى بلادالمغرب عام خمسين وسبعمائة، فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه ؛ وكان الملك الناصر رحمه الله قد شرع فى بناء منار مثلِه بازائه فعاقه الموت عن إتمامه .

ذكر عمود السوارى

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرُّخام الهائل الذى بخارجها المسمى عندهم بعمود السوارى ، وهو متوسط فى غابة نخل ، وقد امتاز عن شجراتها سموا وارتفاعا ، وهو قطعة واحدة محكمة النحت ، وقد أقيم على قواعد حجارة مربعة أمثال الدكاكين[1] العظيمة ، ولا تعرف كيفية وضعه هنالك ، ولا يتحقق مَن وضعه . قال ابن جُزَىّ : أخبرنى بعض أشياخى الرحالين

---

(١) الدكاكين : جمع دكان وهو بناء يسطح أعلاه كالمصطبة ويجلس عليه ، أما الدكان بمعنى الحانوت فمعرب عن الفارسية .

أن أحد الرماة بالإسكندرية ، صعد إلى أعلى ذلك العمود ، ومعه قوسه وكنانته ، واستقر هنالك ، وشاع خبره ، فاجتمع الجم الغفير لمشاهدته ، وطال العجب منه ، وخفى على الناس وجه احتياله ، وأظنه كان خائفا أو طالبَ حاجة ، فأنتج له فعله الوصولَ إلى قصده ، لغرابة ما أتى به . وكيفيةُ احتياله فى صعوده ، أنه رمى بنُشابة قد عقد بفُوقِها خيطا طويلا ، وعقد بطرف الخيط حبلا وثيقا ، فتجاوزت النشابة أعلى العمود معترضة عليه ، ووقعت من الجهة المؤَازية للرامى ، فصار الخيط معترضا على أعلى العمود ، بجذبه ، حتى توسط الحبل أعلى العمود مكان الخيط ، فأَوثقه من إحدى الجهتين فى الأرض ، وتعلق به صاعدا من الجهة الأخرى ، واستقر بأعلاه ، وجذب الحبل ، واستصحب من احتمله ، فلم يهتد الناس لحيلته ، وعجبوا من شأنه .

(رجع) وكان أمير الإسكندرية فى عهد وصولى إليها ، يسمى بصلاح الدين ؛ وكان فيها أيضا فى ذلك العهد سلطان(١) إفريقيَّة المخلوع ، وهو زكريا أبو يحيى بن أحمد بن أبى حفص المعروف باللِّحْيانى ، وأمر الملك الناصر بإنزاله بدار السلطنة من إسكندرية ، وأجرى له مائة درهم فى كل يوم ، وكان معه أولاده عبد الواحد ، ومصرىّ ، وإسكندرى ، وحاجبه أبو زكريا ابن يعقوب ووزيره أبو عبد الله بن ياسين . وبالإسكندرية توفى اللحيانى وولده الإسكندرى ، وبقى المصرى بها إلى اليوم . قال ابن جزى : من الغريب ما اتفق من صدق الزَّجْر فى اسْمَىْ ولدي اللِّحْيانى : الاسكندرى والمصرى ، فمات الإسكندرى بها ، وعاش المصرى دهرا طويلا بها ، وهى من بلاد مصر ، وتحول عبد الواحد لبلاد الأندلس والمغرب وإفريقية وتوفى هنالك بجزيرة جَرْبة .

(١) هو من أمراء بنى حفص الذين حكموا تونس بعد سقوط دولة الموحدين .

ذكر بعض علماء الإسكندرية

فمنهم قاضيها عماد الدين الكندى إمام من أئمة علم اللسان ، وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم ، لم أر فى مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها ، رأيته يوما قاعدا فى صدر محراب ، وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب . ومنهم فخر الدين بن الرِّيغى ، وهو أيضا من القضاة بالإسكندرية ، فاضل من أهل العلم .

حكاية

يذكر أن جد القاضى فخرِ الدين الرِّيغى كان من أهل رِيغة ، واشتغل بطلب العلم ، ثم رحل إلى الحجاز ، فوصل إلى الإسكندرية بالعشىّ ، وهو قليل ذات اليد ، فأحب ألا يدخلها حتى يسمع فألا حسنا ؛ فقعد قريبا من بابها ، إلى أن دخل جميع الناس ، وجاء وقت سد الباب ، فاغتاظ الموكل بالباب من إبطائه ، وقال متهكما : ادخل يا قاضى ! فقال : قاض إن شاء الله ؛ ودخل إلى بعض المدارس ، ولازم القراءة ، وسلك طريق الفضلاء ، فعظم صيته وشهر اسمه ، وعرف بالزهد والورع ، واتصلت أخباره بملك مصر . واتفق أن توفى قاضى الإسكندرية ، وبها إذ ذاك الجم الغفير من الفقهاء والعلماء ، وكلهم متشوف[1] للولاية ، وهو من بينهم لا يتشوف لذلك ؛ فبعث إليه السلطان بالتقليد[2] ، وأتاه البريد بذلك ، فأمر خادمه أن ينادى فى الناس : من كانت له خصومة فليحضر لها ، وقعد للفصل بين الناس ، فاجتمع الفقهاء وسواهم إلى رجل منهم ، كانوا يظنون أن القضاء لا يتعداه ، وتفاوضوا فى مراجعة السلطان فى أمره ، ومخاطبته بأن الناس لا يرتضونه ؛ وحضر لذلك أحد الحذاق من المنجمين ، فقال لهم : لا تفعلوا

---

(١) متطلع . (٢) يقابل (المرسوم) فى أيامنا .

ذلك ، فإنى عدلت طالع ولايته وحققته ، فظهر لى أنه يحكم أربعين سنة ، فأضربوا عما همّوا به من المراجعة فى شأنه ، وكان أمره على ما ظهر للنجم ؛ وعرف فى ولايته بالعدل والنزاهة . ومنهم وجيه الدين الصِنْهاجى من قضاتها ، مشتهر بالعلم والفضل . ومنهم شمس الدين ابن بنت التِّنِّيسىّ ، فاضل شهير الذكر . ومن الصالحين بها الشيخ أبو عبد الله الفاسى ، من كبار أولياء الله تعالى ؛ يذكر أنه كان يسمع رد السلام عليه إذا سلم من صلاته . ومنهم الإمام العالم الزاهد الخاشع الورع (خليفة) .

كرامة له : أخبرنى بعض الثقات من أصحابه قال : رأى الشيخُ خليفةُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ، فقال : يا خليفة زرنا : فرحل إلى المدينة الشريفة ، وأتى المسجد الكريم ، فدخل من باب السلام ، وحيا المسجد وسلم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وقعد مستندا إلى بعض سوارى المسجد ، ووضع رأسه على ركبتيه ، (وذلك يسمى عند المتصوّفة الترفيق) ؛ فلما رفع رأسه ، وجد أربعة أرغفة ، وآنية فيها لبن ، وطبقا فيه تمر ، فأكل هو وأصحابه ، وانصرف عائدا إلى الإسكندرية ، ولم يحج تلك السنة [١] .

ومنهم الإمام العالم الزاهد الورع الخاشع ، برهانُ الدين الأعرج من كبار الزهاد ، وأفراد العباد ، لقيته أيام مقامى بالإسكندرية ، وأقمت فى ضيافته ثلاثا .

ذكر كرامة له

دخلت عليه يوما ، فقال لى : أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد ، فقلت له : نعم إنى أحب ذلك . ولم يكن حينئذ خطر بخاطرى التوغل فى البلاد القاصية من الهند والصين ؛ فقال : لا بد لك إن شاء الله من زيارة أخى فريد

(١) هذه الحكاية وأمثالها مما جاء فى هذا الكتاب مما دخله الغلو والمبالغة من النقلة والرواة . وقد نبهنا على ذلك فيما يلى من الحواشى .

الدين بالهند، وأخى ركنِ الدين زكرياء بالسند، وأخى برهانِ الدين بالصين . فإذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام . فعجبت من قوله ، وألقى فى رُوعى التوجه إلى تلك البلاد ، ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه . ولما ودعته زودنى دراهم لم تزل عندى محوطة ، ولم أحتج بعد إلى إنفاقها ، إلى أن سلبها منى كفار الهنود فيما سلبوه لى فى البحر .

ومنهم الشيخ ياقوت الحبشى من أفراد الرجال ، وهو تلميذ أبى العباس المرسى ، وأبو العباس المُرسى تلميذ ولى الله تعالى أبى الحسن الشاذلى الشهير ، ذى الكرامات الجليلة والمقامات العالية .

كرامة لأبى الحسن الشاذلى — أخبرنى الشيخ ياقوت عن شيخه أبى العباس المُرسى : أن أبا الحسن كان يحج فى كل سنة ، ويجعل طريقه على صعيد مصر، ويجاور بمكة شهر رجب وما بعده إلى انقضاء الحج ، ويزور القبر الشريف ، ويعود على الدرب الكبير إلى بلده ؛ فلما كان فى بعض السنين (وهى آخر سنة خرج فيها) قال لخادمه : استصحب فأسا وقفة وحنوطا[١] وما يجهز به الميت ، فقال له الخادم : ولماذا يا سيدى؟ فقال له : فى حُمَيْثَرا سوف ترى ؛ وحميثرا فى صعيد مصر فى صحراء عَيْذاب ، وبها عين ماء زُعاق[٢] وهى كثيرة الضباع . فلما بلغا حميثرا ، اغتسل الشيخ أبو الحسن وصلى ركعتين ، وقبضه الله عز وجل فى آخر سجدة من صلاته ، ودفن هناك . وقد زرت قبره ، رضى الله عنه .

---

(١) الحَنُوطُ : طِيبٌ يخلط للميّت خاصة .

(٢) الزُّعاق : الماء المر الغليظ لا يطاق شربه .

حكاية

ومما جرى بمدينة الإسكندرية سنة سبع وعشرين، وبلغنا خبر ذلك بمكة (شرّفها الله) : أنه وقع بين المسلمين وتجار النصارى مشاجرة ، وكان والى الاسكندرية رجلا يعرف بالكَرْكِى، فذهب إلى حماية الروم، وأمر بالمسلمين فحضروا بين فصيلى[1] باب المدينة ، وأغلق دونهم الأبواب نكالا لهم، فأنكر الناس ذلك وأعظموه ، وكسروا الباب ، وثاروا إلى منزل الوالى ، فتحصن منهم ، وقاتلهم من أعلاه ، وطير الحمام بالخبر إلى الملك الناصر ، فبعث أميرا يعرف بالجمَالى، ثم أتبعه أميرا يعرف بطُوغَان ، جبارٍ قاسى القلب متّهَم فى دينه ، يقال إنه كان يعبد الشمس ؛ فدخلا إسكندرية ، وقبضا على كبار أهلها وأعيان التجار بها، كأولاد الكوبك وسواهم، وأخذا منهم الأموال الطائلة، وجعلت فى عنق عماد الدين القاضى جامعة حديد . ثم إن الأميرين قتلا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلا ، وجعلوا كل رجل قطعتين ، وصَلَبُوهم صفين، وذلك فى يوم جمعة ، وخرج الناس على عادتهم بعد الصلاة لزيارة القبور ، وشاهدوا مصارع القوم ، فعظمت حسرتهم ، وتضاعفت أحزانهم ؛ وكان فى جملة أولئك المصلوبين تاجر كبير القدر ، يعرف بابن رَوَاحَة ، وكان له قاعة معدة للسلاح ، فمتى كان خوف أو قتال جهز منها المائة والمائتين من الرجال بما يكفيهم من الأسلحة ، وبالمدينة قاعات على هذه الصورة لكثير من أهلها ؛ فزل لسانه وقال للأميرين : أنا أضمن هذه المدينة ، وكل ما يحدث فيها أطالَب به ، وأكْفِى السلطان مرتبات العساكر والرجال ، فأنكر الأميران قوله ، وقالا : إنما تريد الثورة على السلطان ، وقتلاه ؛ وإنما كان قصده (رحمه الله) إظهارَ النصح ، والخدمةَ للسلطان ، فكان فيه حتفه .

---

(١) الفَصِيل حائط قصير دون سور البلد .

وكنت سمعت أيام إقامتى بالاسكندرية بالشيخ الصالح العابد المنقطع ، أبى عبدالله المرشدى ، وهو من كبار الأولياء : أنه منقطع بمُنية بنى مرشد ، له هنالك زاوية هو منفرد فيها ، لا خَادم له ولا صاحب ، ويقصده الأمراء والوزراء ، وتأتيه الوفود من طوائف الناس فى كل يوم ، فيطعمهم الطعام . وكل واحد منهم ينوى أن يأكل عنده طعاما أو فاكهة أو حلوى ، فيأتى لكل واحد بما نواه ، وربما كان ذلك فى غير إبَّانه . وذلك كله من أمره مستفيض متواتر ؛ وقد قصده الملك الناصر مرات بموضعه . فخرجت من مدينة الاسكندرية قاصدا هذا الشيخ (نفعنا الله به) . ووصلت قرية تَرَوْجَة وهى على مسيرة نصف يوم من مدينة الإسكندرية ، قرية كبيرة ، بها قاض ووال وناظر ، ولأهلها مكارم أخلاق ومروءة ؛ صحبت قاضيها صفىَّ الدين ، وخطيبها فخرَ الدين ، وفاضلا من أهلها يسمى بمبارك وينعت بزين الدين ، ونزلت بها على رجل من العبَّاد الفضلاء كبير القدر ، يسمى عبدالوهاب ؛ وأضافنى ناظرها زينُ الدين ، وسألنى عن بلدى وعن مجباه ، فأخبرته أن مجباه نحو اثنى عشر ألفًا من دينار الذهب ، فعجب وقال لى : رأيت هذه القرية ؟ فإن مجباها اثنان وسبعون ألف دينار ذهبا . وإنما عظمت مجابى ديار مصر ، لأن جميع أملاكها لبيت المال .

ثم خرجت من هذه القرية فوصلت مدينة دَمَنْهُورَ ، وهى مدينة كبيرة ، جبايتها كثيرة ، ومحاسنها أثيرة ، أم مدن البحيرة بأسرها ، وقطبها الذى عليه مدار أمرها . وكان قاضيها فى ذلك العهد فخرَ الدين بنَ مسكين من فقهاء الشافعية ، وتولى قضاء الإسكندرية ، لما عزل عنها عماد الدين الكِنْدِىّ ، بسبب الواقعة التى قصصناها . وأخبرنى الثقة أن ابن مسكين أعطى خمسة وعشرين ألف درهم ، وصَرْفها من دنانير الذهب ألفُ دِينار ، على ولاية القضاء بالاسكندرية .

ثم رحلنا إلى مدينة فَوّا[1] ، وهذه المدينة عجيبة المنظر ، حسنة المخبر ، بها البساتين الكثيرة ، والفوائد الخطيرة الأثيرة ، و بها قبرالشيخ الولى أبى النجاة الشهيرِ الاسم ، خبيرِ تلك البلاد . وزاوية الشيخ أبى عبد الله المرشدىّ ، الذى قصدته بمقربة من المدينة ، يفصل بينهما خليج هنالك ؛ فلما وصلت المدينة ، تعديتها ووصلت إلى زاوية الشيخ المذكور قبل صلاة العصر ، وسلمت عليه ، ووجدت عنده الأميرسيف الدين يَلْمَلَك وهو من الخاصكية ، ونزل هذا الأمير بعسكره خارج الزاوية . ولما دخلت على الشيخ (رحمه الله) قام إلىّ وعانقنى ، وأحضر طعاما فواكلنى[2] ، وكانت عليه جبة صوف سوداء ، فلما حضرت صلاة العصر قدمنى للصلاة إماما . ولما أردت النوم قال لى : اصعد إلى سطح الزاوية فنم هنالك (وذلك أوان القيظ) فقلت للأمير : باسم الله ؛ فقال لى : وما منا إلا له مقام معلوم ، فصعِدت السطح فوجدت به حصيرا ونِطعًا وآنية للوضوء وجرةَ ماء وقدحا للشرب ، فنمت هنالك .

كرامة لهذا الشيخ — رأيت ليلتى تلك (وأنا نائم بسطح الزاوية) كأنى على جناح طائر عظيم يطير بى فى سَمْت القبلة ، يتيامن ، ثم يُشَرِّق ، ثم يذهب فى ناحية الجنوب ، ثم يُبعِد الطيران فى ناحية الشرق ، وينزل فى أرض مظلمة خضراء ، ويتركنى بها ؛ فعجبت من هذه الرُّؤيا ، وقلت فى نفسى : إن كاشفنى الشيخ برؤياى ، فهو كما يحكى عنه . فلما غدوت لصلاة الصبح قدمنى إماما لها ؛ ثم أتاه الأمير يَلْمَلَك فودّعه وانصرف ، وودّعه من كان هنالك من الزوار ، وانصرفوا أجمعين بعد أن زودهم كُعيكاتٍ صغارا ؛ ثم سبَّحت سُبحة الضحا ، ودعانى وكاشفنى برؤياى ، فقصصتها عليه ، فقال :

---

(١) وضبطها فى معجم البلدان والقاموس "فُوَّة" .

(٢) أكل معى .

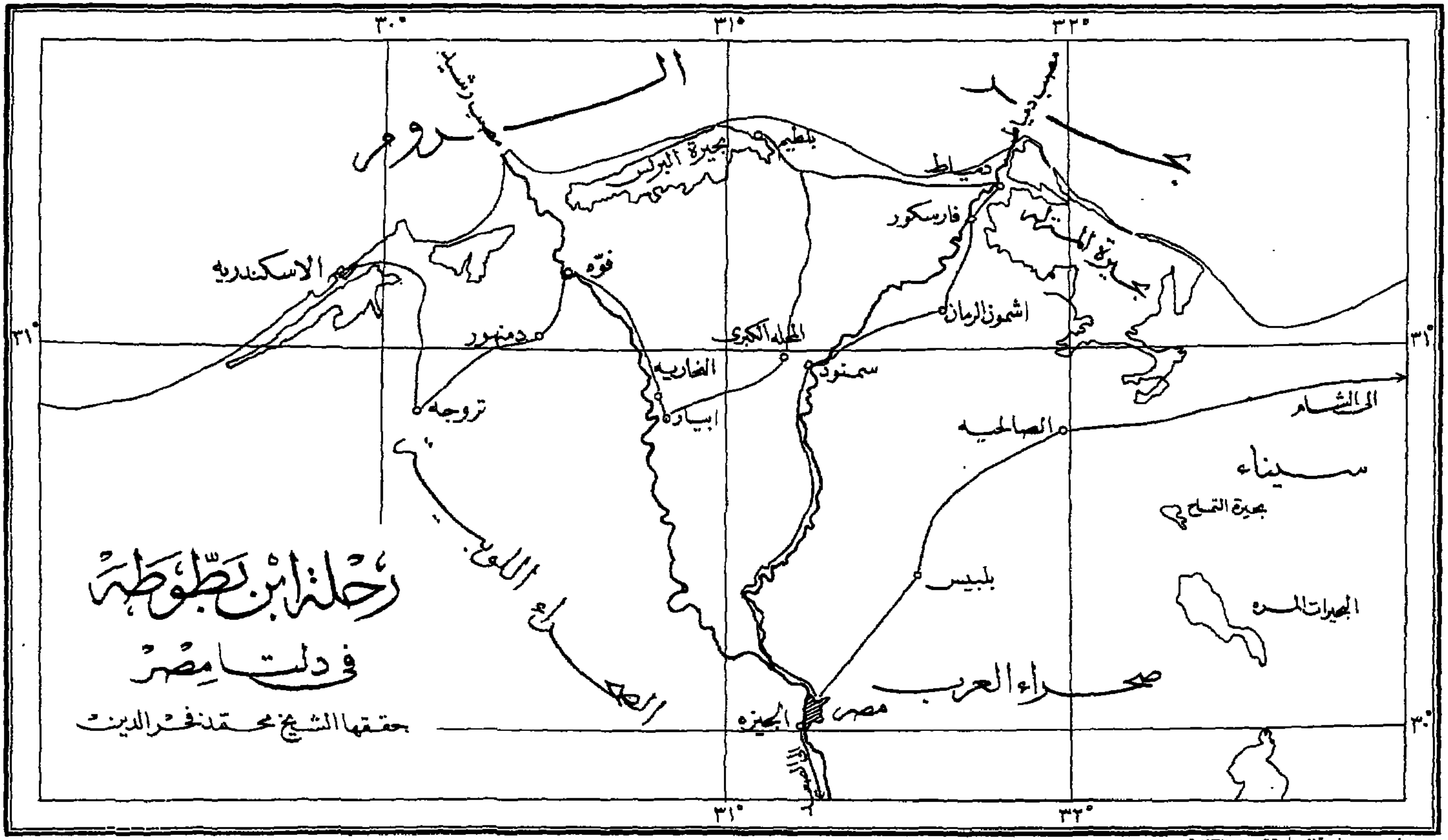

طبعت بمصلحة المساحة المصرية سنة ١٩٣٤ (G.32/923)

سوف تحج وتزور النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وتجول فى بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند ، وتبقى بها مدة طويلة ، وستلقى بها أخى دِلْشَاد الهندى ، ويخلصك من شدة تقع فيها ، ثم زودنى كعيكاتٍ ودراهم ، وودعته وانصرفت . ومنذ فارقته لم ألق فى أسفارى إلا خيرا ، وظهرت علىّ بركاته ، ثم لم ألق فيمن لقيته مثله إلا الولى سيدى محمدا المولّه ، بأرض الهند .

ثم رحلنا إلى مدينة النَّحْرَارِيَّة ، وهى رحبة الفِناء حديثة البناء ، أسواقها حسنة الرواء ، وأميرها كبير القدر يعرف بالسعدى ، وولده فى خدمة ملك الهند (وسنذكره) ، وقاضيها صدر الدين سليمان المالكى من كبار المالكية ؛ سَفَرَ عن الملك الناصر إلى العراق وولى قضاء البلاد الغربية ، وله هيئة جميلة وصورة حسنة . وخطيبها شرف الدين السخاوى من الصالحين . ورحلت منها إلى مدينة أَبْيَار ، وهى قديمة البناء ، أرِجة الأرجاء ، كثيرة المساجد ، ذات حسن زائد . وهى بمقربة من النَّحْرَارِيَّة ، ويفصل بينهما النيل . وتصنع بأَبْيَار ثياب حسان ، تعلو قيمتها بالشام والعراق ومصر وغيرها . ومن الغريب قُرْبُ النحرارية منها ، والثياب التى تصنع بها غير معتبرة ولا مستحسنة عند أهلها . ولقيت بأَبْيَار قاضيها عز الدين المَلِيجىّ الشافعى ، وهو كريم الشمائل كبير القدر ، حضرت عنده مرة يوم الرَّكْبَة (وهم يسمون ذلك يوم ارتقاب هلال رمضان) . وعادتهم فيه : أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضى ، ويقف على الباب نقيب المتعممين ، وهو ذو شارة وهيئة حسنة ؛ فإذا أتى أحد الفقهاء أو الوجوه تلقاه ذلك النقيب ، ومشى بين يديه قائلا : باسم الله ، سيدنا فلان الدين ! فيسمع القاضى ومن معه فيقومون له ، ويُجلسه النقيب فى موضع يليق به . فإذا تكاملوا هنالك ركب القاضى وركب من معه أجمعون ، وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان ، وينتهون

إلى موضع مرتفع خارج المدينة ، وهو مرتقب الهلال عندهم ، وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش ، فينزل فيه القاضي ومن معه ، فيرتقبون الهلال ، ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب ؛ وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس . ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشَّمع ، ويصل الناس مع القاضي إلى داره ، ثم ينصرفون . هكذا فعلهم فى كل سنة .

ثم توجهت إلى مدينة المَحَلَّة الكبيرة ، وهى جليلة المقدار، حسنة الآثار ، كثير أهلها ، جامع بالمحاسن شملها . ولهذه المدينة قاضي القضاة ووالى الولاة ؛ وكان قاضي قضاتها أيام وصولى إليها فى فراش المرض ، ببستان له على مسافة فرسخين من البلد ، وهو عز الدين بن الأشْمَرين ؛ فقصدت زيارته صحبة نائبه الفقيه أبى القاسم بن بَنُّون المالكى التونسى ، وشرف الدين الدَّميرى قاضى محلة مَنوف . وأقمنا عنده يوما ، وسمعت منه (وقد جرى ذكر الصالحين) : أن على مسيرة يوم من المحلة الكبيرة بلادَ البُرُلُّس ونَسْتَرَوْ ، وهى بلاد الصالحين ؛ وبها قبر الشيخ مرزوقٍ صاحب المكاشفات ، فقصدت تلك البلاد ، ونزلت بزاوية الشيخ المذكور . وتلك البلاد كثيرة النخل والثمار ، والطير البحرىّ ، والحوتِ المعروف بالبورىِّ . ومدينتهم تسمى مَلْطِين ، وهى على ساحل البحيرة المجتمعة من ماء النيل وماء البحر ، المعروفة ببحيرة تِنِّيس ، ونسترو بمقربة منها . نزلت هنالك بزاوية الشيخ شمس الدين القلوى من الصالحين . وكانت تِنِّيس بلدا عظيما شهيرا ، وهى الآن خراب . قال ابن جُزَىٍّ : (تنيس بكسر التاء المثناة والنون المشددة وياء وسين مهمل) وإليه ينسب الشاعر المجيد أبو الفتح بن وكيع ، وهو القائل فى خليجها :

قم فاسقنى والخليج مضطرب — والريح تثنى ذوائب القصب
والجو فى حلة ممسَّكة — قد طرزتها البروق بالذهب

وصف مدينة دمياط

ثم سافرت إلى مدينة دِمياط وهى مدينة فسيحة الأقطار، متنوعة الثمار ، عجيبة الترتيب ، آخذة من كل حسن بنصيب .

ومدينة دمياط على شاطئ النيل ، وأهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء ؛ وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها إلى النيل . وشجر الموز بها كثير ، يحمل ثمره إلى مصر فى المراكب ؛ وغنمها سائمة هَمَلا بالليل والنهار ؛ ولهذا يقال فى دمياط : سورها حَلْوَى وكلابها غنم . وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج عنها إلا بِطابَع الوالى : فمن كان من الناس معتبرا طبع له فى قطعة كاغَد[1] يستظهر به لحراس بابها ، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به . والطير البحرى بهذه المدينة كثير متناهى السمن . وبها الألبان الجاموسية التى لا مثيل لها فى عذوبة الطعم وطيب المذاق. وبها الحوت البورى[2] يحمل منها إلى الشام وبلاد[3] الروم ومصر. وبخارجها جزيرة بين البحرين والنيل تسمى البرزخ، بها مسجد وزاوية ، لقيت بها شيخها المعروف بابن قُفْل ، وحضرت عنده ليلة جمعة ومعه جماعة من الفقراء[4] الفضلاء المتعبدين الأخيار ، قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة وذكرا . ودمياط هذه حديثة البناء، والمدينة[5] القديمة هى التى خربها

(١) الكاغد : فارسى محض بمعنى القرطاس .

(٢) البُورى : نسبة الى بلدة بُورَة بمصر. وهذا النوع من السمك يكثر فى بحر الروم والمحيط الأطلنطى .

(٣) بلاد الروم — آسيا الصغرى .

(٤) هم قوم متعبدون يعيشون من حسنات المؤمنين . ويطلق لفظ الفقير فى الهند على المتعبد الناسك من جميع الأديان .

(٥) لم يخرب الفرنجة دمياط وإن كانوا دخلوها مرتين فى سنتى ١٢١٩ ، ١٢٤٩ م وإنما الذين خربوها هم أمراء مصر فى ذلك الوقت سنة ١٢٥٠ م بعد خروج الفرنجة منها خوفا من عودتهم إليها .

الإفرنج على عهد الملك الصالح ؛ وبها زاوية الشيخ جمال الدين الساوى ، قدوة الطائفة المعروفة بالقَرَنْدَرية ، وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم. ويسكن الزاوية فى هذا العهد الشيخ فتح التَّكرورى .

كرامة لهذا الشيخ — يذكر أنه لما قصد مدينة دمياط لزم مقبرتها ، وكان بها قاض يعرف بابن العميد ، فخرج يوما إلى جِنازة بعض الأعيان ، فرأى الشيخ جمال الدين بالمقبرة ، فقال له : أنت الشيخ المبتدِع ! فقال له : وأنت القاضى الجاهل ! تمر بدابتك بين القبور ، وتعلم أن حرمة الإنسان ميتا كحرمته حيا . فقال له القاضى : وأعظم من ذلك حلقك لحيتك ! فقال له : إياى تعنى ؟ وزعق الشيخ ثم رفع رأسه ، فإذا هو ذو لحية سوداءَ عظيمة ؛ فعجب القاضى ومن معه ، ونزل إليه عن بغلته ؛ ثم زعق ثانية فإذا هو ذو لحية بيضاء حسنة ، ثم زعق ثالثة ورفع رأسه فإذا هو بلا لحية كهيئته الأولى . فقبل القاضى يده ، وتتلمذ له ، وبنى له زاوية حسنة ، وصحبه أيام حياته ؛ ثم مات الشيخ فدفن بزاويته(١) . ولما حضرت القاضىَ وفاتُه أوصى أن يدفن بباب الزاوية ، حتى يكون كل داخل إلى زيارة الشيخ يطأ قبره .

وبخارج دمياط المزار المعروف بشَطَا ، وهو ظاهر البركة ، يقصده أهل الديار المصرية ، وله أيام فى السنة معلومة لذلك . وبخارجها أيضا بين بساتينها موضع يعرف بالمُنْية ، فيه شيخ من الفضلاء يعرف بابن النعمان ، قصدت زاويته وبت عنده . وكان بدمياط ، أيام إقامتى بها وال يعرف بالمحسنى ، من ذوى الإحسان والفضل ، بنى مدرسة على شاطئ النيل ، بها كان نزولى فى تلك الأيام ، وتأكدت بينى وبينه مودة . ثم سافرت إلى مدينة فارَسْكُور ، وهى مدينة على ساحل النيل ؛ ونزلت بخارجها ، ولحقنى هنالك

(١) هذه الحكاية من مبالغات القُصَّاص كغيرها فى هذا الكتاب .

فارس وجهه إلىّ الأمير المحسنى ، فقال لى : إن الأمير سأل عنك وعرف بسيرتك ، فبعث إليك بهذه النفقة ؛ ودفع إلىّ جملة دراهم (جزاه الله خيرا).
ثم سافرت إلى مدينة أَشْمون الرمان ، ونسبت إلى الرمان لكثرته بها ؛ ومنها يحمل إلى مصر ؛ وهى مدينة عتيقة كبيرة ، على خليج من خُلُج النيل ، ولها قنطرة خشب ترسو المراكب عندها ، فإذا كان العصر رفعت تلك الخشُب ، وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة . وبهذه البلدة قاضى القضاة ووالى الولاة.
ثم سافرت عنها الى مدينة سَمَنُّود ، وهى على شاطئ النيل ، كثيرة المراكب ، حسنة الأسواق ، وبينها وبين المحلة الكبرى ثلاثة فراسخ ؛ ومن هذه المدينة ركبت النيل مُصْعِدا إلى مصر ، ما بين مدائن وقرى منتظمة ، متصلٍ بعضها ببعض . ولا يفتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد ، لأنه مهما أراد النزول للشاطئ نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك . والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر ، ومن مصر إلى مدينة أُسوان من الصعيد.
ثم وصلت إلى مدينة مصر .

وصف مصر

وهى أم البلاد ، وقرارة فرعون ذى[1] الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة ، والبلاد الأريضة[2] ، المتناهية فى كثرة العمارة ، المتباهية فى الحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر ، وبها ما شئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف ، تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها ، شبابها يجد على طول العهد ، وكوكب تعديلها

(١) ذى الأوتاد : سمى بذلك لكثرة جنده وخيامهم وأوتادهم ، أو لأنه كان يَدُق لمن يريد تعذيبه أربعة أوتاداً يربطه فيها ثم يعذبه بما يشاء (الألوسى) .

(٢) أريضة : زَكِيَّة مُعْجِبَة خليقة للخير .

لا يبرح عن منزل السعد ، قهرت قاهرتُها الأمم ، وتَمَلَّكَتْ ملوكها نواصى العرب والعجم ، ولها خصوصية النيل التى جلّ خَطَرُها ، وأغناها عن أن يستمد القَطْرَ قُطْرها ، وأرضها مسيرة شهر لمجدّ السير ، كريمة التربة مؤنسة لذوى الغربة . قال ابن جُزَىٍّ : وفيها يقول الشاعر :

لعمرك ما مصر بمصر وإنما ‏ ‏ هى الجنة الدنيا لمن يتبصر

فأولادها الولدان والحور عينها ‏ ‏ وروضتها الفردوس والنيل كوثر

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض :

شاطئ مصر جنةٌ ‏ ‏ ما مثلها من بلد

لا سيما مذ زُخرفت ‏ ‏ بنيلها المطرد

وللرياح فوقه ‏ ‏ سَوَابِغٌ من زَرَد

مسرودة[1] مامسّها ‏ ‏ داودها بمبْرد

والفُلْكُ كالأفلاك بيـ ‏ ‏ ـن حادرٍ ومُصْعِد

(رجع) ويقال إن بمصر من السقائين على الجمال اثنى عشر ألف سقاء ، وإن بها ثلاثين ألف مُكَار ، وإن بنيلها من المراكب ستةً وثلاثين ألفا للسلطان والرعية ، تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق . وعلى ضِفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة ، وهو مكان النزهة والتفرج ، وبه البساتين الكثيرة الحسنة . وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو ؛ شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده ، فزين كل أهل سوق سوقهم ، وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير ، وبقوا على ذلك أياما .

(١) مَسْرُودة : منسوجة أو مخيطة .

ذكر مسجد عمرو بن العاص
والمدارس والمارَستانات والزوايا

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر ، شهير الذكر ، تقام فيه الجمعة ، والطريق يعترضه من شرق إلى غرب ، وبشرقه الزاوية ، حيث كان يدرس الإمام أبو عبد الله الشافعى . وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها . وأما المارَستان الذى بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون ، فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر. ويذكر أن مجباه[1] ألف دينار كل يوم . وأما الزوايا فكثيرة ، وهم يسمونها الخوانق[2] واحدتها خانقة ؛ والأمراء بمصر يتنافسون فى بناء الزوايا ، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الأعاجم، وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف ؛ ولكل زاوية شيخ وحارس ، وترتيب أمورهم عجيب . ومن عاداتهم فى الطعام أنه يأتى خادم الزاوية إلى الفقراء صباحا ، فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام ، فإذا اجتمعوا للأكل ، جعلوا لكل إنسان خبزه ومرقه فى إناء على حدة لا يشاركه فيه أحد . وطعامهم مرتان فى اليوم ؛ ولهم كسوة الشتاء ، وكسوة الصيف ، ومرتب شهرى من ثلاثين درهما للواحد فى الشهر إلى عشرين. ولهم الحلاوة من السكر فى كل ليلة جمعة، والصابون لغسل أثوابهم ، والأجرة لدخول الحمام ، والزيت للاستصباح . وهم أعزاب ، وللمتزوجين زوايا على حدة . ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس ، والمبيت بالزاوية . واجتماعهم بقبة داخل الزاوية . ومن عاداتهم

---

(١) مجباه — جبايته .

(٢) أمكنة يتعبد بها الصوفيون .

أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به . وإذا صلوا صلاة الصبح قرءوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم ، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة ، فيأخذ كل فقير جزءا ويختمون القرآن ويذكرون . ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق ، ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر . ومن عاداتهم مع القادم أنه يأتى باب الزاوية ، فيقف به مشدود الوسط ، وعلى كاهله سجادة ، وبيمناه العكاز ، وبيسراه الإبريق ، فيعلم البواب خادم الزاوية بمكانه ، فيخرج إليه ويسأله من أى البلاد أتى ؟ وبأى الزوايا نزل فى طريقه ؟ ومَنْ شيخه ؟ فإذا عرف صحة قوله ، أدخله الزاوية وفرش له سجادته فى موضع يليق به ، وأراه موضع الطهارة ، فيجدّد الوضوء ، ويأتى إلى سجادته فيحل وسطه ويصلى ركعتين ، ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم . ومن عاداتهم أنهم إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم ، فيذهب بها إلى المسجد ، ويفرشها لهم هنالك ، ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم ، فيأتون المسجد ، ويصلى كل واحد على سجادته ، فإذا فرغوا من الصلاة قرءوا القرآن على عادتهم ، ثم ينصرفون مجتمعين إلى الزاوية ومعهم شيخهم .

ذكر قرافة مصر ومزاراتها

ولمصر القرافة العظيمة الشأن . وهم يبنون بها القباب الحسنة ، ويجعلون عليها الحيطان فتكون كالدور ، ويبنون بها البيوت ، ويرتبون القراء يقرءون ليلا ونهارا بالأصوات الحسان . ومنهم من يبنى الزاوية والمدرسة إلى جانب التربة ، ويخرجون فى كل ليلة جمعة إلى المبيت بها بأولادهم ونسائهم ، ويطوفون على المزارات الشهيرة ، ويخرجون أيضا للمبيت بها ليلة النصف من شعبان ، ويخرج أهل الأسواق بصنوف المآكل .

ومن المزارات الشريفة ، المشهد المقدس العظيم الشأن ، حيث رأس الحسين بن على عليهما السلام ، وعليه رِباط ضخم عجيب البناء ، على أبوابه حَلَق الفضة وصفائحها ، وهو موفًّى الحق من الإجلال والتعظيم . ومنها تربة السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور بن زيد بن على بن الحسين بن على ، عليهم السلام . وكانت مجابة الدعوة ، مجتهدة فى العبادة . وهذه التربة أنيقة البناء ، مشرقة الضياء ، عليها رِباط مقصود . ومنها تربة الإمام أبى عبد الله محمد ابن ادريس الشافعى (رضى الله عنه) وعليها رِباط كبير ، ولها جراية ضخمة ، وبها القبة الشهيرة البديعة الإتقان ، العجيبة البنيان ، المتناهية الإحكام ، المفرطة السمو ، وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعا .

وبقرافة مصر من قبور العلماء والصالحين ما لا يضبطه الحصر ، وبها عدد جم من الصحابة وصدور السلف والخلف (رضى الله تعالى عنهم) : مثل عبد الرحمن بن القاسم ، وأشهب بن عبد العزيز ، وأصبَغ بن الفرج ، وابنى عبد الحكم ، وأبى القاسم ابن شعبان ، وأبى محمد عبد الوهاب . لكن ليس لهم بها اشتهار ، ولا يعرفهم إلا من له بهم عناية . والشافعى (رضى الله عنه) ساعده الجد فى نفسه وأتباعه وأصحابه فى حياته ومماته ، فظهر من أمره مصداق قوله :

الجَدُّ يدنى كل أمر شاسع   والجد يفتح كل باب مغلق

ذكر نيل مصر

ونيل مصر يفضل أنهار الأرض عذوبة مذاق ، واتساع قطر ، وعظم منفعة ، والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ، ليس فى المعمور مثلها ، ولا يعلم نهر يُزْدَرَعُ عليه ما يُزْدَرَعُ على النيلْ ، وليس فى الأرض نهر يسمى بحرا غيره .

قال الله تعالى : (فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم) فسماه يما وهو البحر . ومجرى النيل من الجنوب إلى الشمال ، خلافا لجميع الأنهار . ومن عجائبه أن ابتداء زيادته فى شدة الحر عند نقص الأنهار وجفوفها ، وابتداء نقصه حين زيادة الأنهر وفيضها . ونهر السند مثله فى ذلك (وسيأتى ذكره) وأول ابتداء زيادته فى حَزِيرَان وهو يونيه ؛ فإذا بلغت زيادته ست عشرة ذراعا تم خراج السلطان ؛ فإن زاد ذراعا كان الخِصْب فى العام ، والصلاح التام ؛ فإن بلغ ثمانى عشرة ذراعا أضر بالضياع ، وأعقب الوباء ؛ وإن نقص ذراعا عن ست عشرة نقص خراج السلطان ، وإن نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضرر الشديد .

والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار ، وهى : النيل ، والفرات ، والدِّجْلة ، وسَيْحُون ، وجَيْحُون . وتماثلها أنهار خمسة أيضا : نهر السند ويسمى بَنْج آب[1] ؛ ونهر الهند ويسمى الكِنْك ، وإليه تحج الهنود . وإذا حرقوا أمواتهم رموا برمادهم فيه . ويقولون : هو من الجنة ؛ ونهر الجُون بالهند أيضا ؛ ونهر إتِل بصحراء قِفْجِق ، وعلى ساحله مدينة السَّرَا ؛ ونهر السَّرْو[2] بأرض الخطا[3] ، وعلى ضِفَّته مدينة خان بالق[4] ، ومنها ينحدر إلى مدينة الخَنْسا[5] ، ثم إلى مدينة الزيتون[6] بأرض الصين . (وسيذكر ذلك كله فى مواضعه إن شاء الله) . والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ، ولا يعبر نهر منها إلا فى السفن شتاء وصيفا ؛ وأهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل ؛ فإذا أمد ترعها فاضت على المزارع .

---

(١) معناه الأنهر الخمسة .
(٢) هو النهر الأصغر .
(٣) الصين الشمالية .
(٤) مدينة بكين .
(٥) مدينة هانغ .
(٦) مدينة قِتْيو .

ذكر الأهرام والبرابى[1]

وهى من العجائب المذكورة على مر الدهور ، وللناس فيها كلام كثير ، وخوض فى شأنها وأولية بنائها . ويزعمون[2] أن جميع العلوم التى ظهرت قبل الطوفان أخذت عن هِرْمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى ، ويسمى أَخْنُوخ ، وهو إدريس عليه السلام ، وأنه أول من تكلم فى الحركات الفلكية ، والجواهر العلوية ، وأول من بنى الهياكل ومجّد الله تعالى فيها ، وأنه أنذر الناس بالطوفان ، وخاف ذهاب العلم ودروس الصناعات ، فبنى الأهرام والبرابى ، وصور فيها جميع الصناعات والآلات ، ورسم العلوم فيها ، لتبقى مخلدة . ويقال إن دار العلم والملك بمصر مدينة مَنْف ، وهى على بَرِيد من الفُسْطاط ، فلما بنيت الإسكندرية انتقل الناس إليها ، وصارت دار العلم والملك ، إلى أن أتى الاسلام ، فاختط عمرو بن العاص (رضى الله عنه) مدينة الفسطاط . فهى قاعدة مصر إلى هذا العهد .

وصف الأهرام

والأهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت ، متناهى السمو ، مستدير ، متسع الأسفل ، ضيق الأعلى ، كالشكل المخروط ، ولا أبواب لها ، ولا تعلم كيفية بنائها . ومما يذكر[3] فى شأنها أن ملكا من ملوك مصر قبل الطوفان ، رأى رؤيا هالته ، وأوجبت عنده أنه بنى تلك الأهرام بالجانب الغربى من النيل ، لتكون مستودعا للعلوم ولجثث الملوك ، وأنه سأل المنجمين : هل يفتح منها موضع ؟ فأخبروه أنها تفتح من الجانب الشمالى ، وعينوا له الموضع الذى تفتح منه ، ومبلغ الإنفاق فى فتحه ؛ فأمر أن يجعل بذلك

---

(١) لفظة قبطية أصلها (بير ب) ومعناها الهيكل أو المعبد .

(٢) قد دل الكشف الحديث على بطلان جميع هذه المزاعم .

(٣) حديث خرافة .

الموضع من المـال قدر ما أخبروه أنه ينفق فى فتحه . واشـتد فى البناء فأتمه فى ستين سنة ، وكتب عليها : بنينا هذه الأهرام فى ستين سنة ، فليهدمها من يريد ذلك فى ستمائة سـنة ، فإن الهدم أيسر من البناء .

فلمـا أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المأمون ، أراد هـدمها ، فأشار عليه بعض مشايخ مصر ألا يفعل، فلجّ فى ذلك ، وأمر أن تفتح من الجانب الشمالى ؛ فكانوا يوقدون عليها النـار، ثم يرشونها بالخل ويرمونها بالمِنْجنيق، حتى فتحت الثُّلمة التى بهـا إلى اليوم؛ ووجدوا بإزاء النقب مالا أمر أمير المؤمنين بوزنه ، فحصر ما أنفق فى النقب فوجدهما سواء ، فطال عجبه من ذلك ، ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعا .

ذكر سلطان مصر

وكان سلطان مصر على عهد دخولى إليها الملك الناصر أبو الفتح محمد ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى . وكان قلاوون يعرف بالألفى لأن الملك الصالح اشتراه بألف دينـار ذهبا ، وأصله من قِفْجَق . وللملك الناصر (رحمه الله) السيرة الكريمة ، والفضائل العظيمة ، وكفاه شرفا انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين ، وما يفعله فى كل سنة من أفعال البر التى تعين الحجاج ، من الجمـال التى تحمل الزاد والمـاء ، للمنقطعين والضعفاء ، وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشى فى الدربين : المصرى والشامى . وبنى زاوية عظيمة بِسَرْياقُص خارج القاهرة . لكن الزاوية التى بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين ، وكهف الفقراء والمساكين ، خليفة الله فى أرضه ، القائم من الجهاد بنفله وفرضه ، أبو عنان (أيد الله أمره وأظهره ، وسنّى له الفتح المبين ويسره) بخارج حضرته العلية، المدينة البيضاء (حرسها الله) ، لا نظير لها فى المعمور ، فى إتقان الوضع ، وحسن البناء والنقش فى الجص ، بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله . وسيأتى ذكر ما عمره (أيده الله) من المدارس والمـارستانات والزوايا ببلاده ، (حرسها الله وحفظها بدوام ملكه) .

ذكر بعض أمراء مصر

منهم ساقى الملك النـاصر ، وهو الأمير بُكْتُمور ، وهو الذى قتله الملك الناصر بالسم (وسيذكر ذلك) ؛ ومنهم نائب الملك الناصر أَرْغُون الدَّوادار ، وهو الذى يلى بكتمور فى المنزلة . ومنهم طُشْط المعروف بحمص أخضر ، وكان من خيـار الأمراء ، وله الصدقات الكثيرة على الأيتام ، من كُسوة ونفقة وأجرة لمن يعلمهم القرآن . وله الإحسان العظيم (للحرافيش)، وهم طائفة كبيرة أهل صـلابة وُجُوه ودعارة . وسجنه الملك النـاصر مرة فاجتمع من (الحرافيش) آلاف ، ووقفوا بأسفل القلعة ، ونادوا بلسان واحد : يا أعرج النحس ! (يعنون الملك الناصر) أخرجه ؛ فأخرجه من محبسه ؛ وسجنـه مرة أخرى ، ففعل الأيتام مثل ذلك فأطلقه . ومنهم وزير الملك الناصر ، يعرف بالجَمَالى . ومنهم بدر الدين بن البَابَه . ومنهم جمال الدين نائب الكَرَك . ومنهم تُقُزْدُمُور . ومنهم بهادُر الحجازى . ومنهم قَوْصُون . ومنهم بَشْتَك . وكل هؤلاء يتنافسون فى أفعال الخيرات ، وبناء المساجد والزوايا . ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكاتبه ، القاضى فخر الدين القبطى ، وكان نصرانيا من القبط ، فأسلم وحسن إسلامه . وله المكارم العظيمة ، والفضائل التامة ، ودرجته من أعلى الدرجات عند الملك الناصر ، وله الصدقات الكثيرة والإحسان الجزيل .

ومن عادته أن يجلس عشىّ النهار فى مجلس له بأسطوان[1] داره على النيل ، ويليه المسجد ، فإذا حضر المغرب صـلّى فى المسجد ، وعاد إلى مجلسه ، وأتِى بالطعام ، ولا يمنع حينئذ أحد من الدخول كائنا من كان ؛ فمن كان

(١) يريد به البهو . وليس بهذا المعنى عربيا .

ذا حاجة تكلم فيها فقضاها له ، ومن كان طالب صدقة أمر مملوكا له يدعى بدر الدين ، واسمه لؤلؤ ، بأن يصحبه إلى خارج الدار ، وهنالك خازنه ومعه صرر الدراهم ، فيعطيه ماقدر له ؛ ويحضر عنده فى ذلك الوقت الفقهاء ، ويُقرأ بين يديه كتاب البخارى ، فإذا صلى العشاء الأخيرة انصرف الناس عنه.

ذكر القضاة بمصر فى عهد دخولى إليها

فمنهم قاضى القضاة الشافعية ، وهو أعلاهم منزلة وأكبرهم قدرا ، وإليه ولاية القضاة بمصر وعزلهم ، وهو القاضى الإمام العالم بدر الدين بن جماعة . وابنه عز الدين هو الآن متولى ذلك . ومنهم قاضى القضاة المالكية الإمام الصالح تقى الدين الأخنائى . ومنهم قاضى القضاة الحنفية الإمام العالم شمس الدين الحريرى ، وكان شديد السطوة لاتأخذه فى الله لومة لائم ، وكانت الأمراء تخافه . ولقد ذكر لى أن الملك الناصر قال يوما لجلسائه : إنى لا أخاف من أحد إلا من شمس الدين الحريرىّ . ومنهم قاضى القضاة الحنبلية ، ولا أعرفه الآن ، إلا أنه كان يدعى بعز الدين .

حكاية

كان الملك الناصر ، رحمه الله ، يقعد للنظر فى المظالم ، ورفع قصص المتشكين ، كل يوم اثنين وخميس ، ويقعد القضاة الأربعة عن يساره ، وتقرأ القصص بين يديه ، ويعين من يسأل صاحب القصة عنها . وكان رسم القضاة المذكورين أن يكون أعلاهم منزلة فى الجلوس قاضى الشافعية ، ثم قاضى الحنفية ، ثم قاضى المالكية ، ثم قاضى الحنبلية . فلما توفى شمس الدين الحريرىّ وولى مكانه برهان الدين بن عبد الحق الحنفى ، أشار الأمراء على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكى فوقه ؛ وذكروا أن العادة جرت

بذلك قديما، إذ كان قاضى المالكية زين الدين بن مخلوف يلى قاضى الشافعية تقى الدين بن دقيق العيد. فأمر الملك الناصر بذلك. فلما علم به قاضى الحنفية غاب عن شهود المجلس أَنَفَةً من ذلك . فأنكر الملك الناصر مغيبه ، وعلم ماقصده، فأمر بإحضاره، فلما مثل بين يديه، أخذ الحاجب بيده وأقعده، حيث نفذ أمر السلطان، مما يلى قاضى المالكية، واستمر حاله على ذلك .

ذكر بعض علماء مصر وأعيانها

فمنهم شمس الدين الأَصْبَهانىّ ، إمام الدنيا فى المعقولات . ومنهم شرف الدين الزواوِى المالكى. ومنهم برهان الدين ابن بنت الشاذلى ، نائب قاضى القضاة بجامع الصالح . ومنهم ركن الدين بن القَوْبَع التونسى ، من الأئمة فى المعقولات . ومنهم شمس الدين بن عدلان ، كبير الشافعية . ومنهم بهاء الدين بْن عقيل ، فقيه كبير . ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الغَرناطى ، وهو أعلمهم بالنحو. ومنهم الشيخ صالح بدر الدين عبدالله المَنُوفِى . ومنهم برهان الدين الصَفَاقُسى. ومنهم قوام الدين الكِرْمانى ، وكان سكناه بأعلى سطح الجامع الأزهر ، وله جماعة من الفقهاء والقراء يلازمونه، ويدرس فنون العلم، ويفتى فى المذاهب ، ولباسه عباءة صوف خشنة وعمامة صوف سوداء ، ومن عادته أن يذهب بعد صلاة العصر إلى مواضع الفُرَج والتُّنَزّهات منفردا عن أصحابه . ومنهم السيد الشريف شمس الدين ابن بنت الصاحب تاج الدين بن حِنّاء . ومنهم شيخ شيوخ القراء بديار مصر، مجد الدين الأَقْصَرَائى (نسبة إلى أَقْصَرا من بلاد الروم) ومسكنه سَرْياقُص. ومنهم الشيخ جمال الدين الحُوَيْزائى ، (والحُوَيْزَةُ على مسيرة ثلاثة أيام من البصرة) ومنهم نقيب الأشراف بديار مصر ، السيد الشريف المعظم ، بدر الدين الحسينى ، من كبار الصالحين . ومنهم وكيل بيت المال ، المدرس بقبة الإمام الشافعى ، مجد الدين بن حَرَمِىّ. ومنهم المحتسب بمصر ، نجم الدين السَّهْرتِى ، من كبار الفقهاء ، وله بمصر رياسة عظيمة وجاه .

ذكر يوم المحمل بمصر

وهو يوم دوران الجمل ، يوم مشهود . وكيفية ترتيبهم فيــه : أنه يركب فيه القضاة الأربعة ، ووكيل بيت المــال ، والمحتسب ؛ وقد ذكرنا جميعهم . ويركب معهم أعلام الفقهاء ، وأمناء الرؤساء ، وأرباب الدولة ، ويقصدون جميعا باب القلعة دار الملك الناصر ، فيخرج إليهم المحمل على جمل ، وأمامه الأمير المعيّن لسفر الحجاز فى تلك السنة ، ومعه عسكره ، والسقاءون على جمالهم . ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ، ثم يطوفون بالمحمل (وجميع من ذكرنا معه) بمدينتى القاهرة ومصر ، والحُدَاة يحدون أمامهم ، ويكون ذلك فى رجب . فعنــد ذلك تهيج العزمات ، وتنبعث الأشواق ، وتتحرك البواعث ، ويلقى الله تعالى العزيمة على الحج فى قلب من يشاء من عباده ، فيأخذون فى التأهب لذلك والاستعداد .

سفره إلى الصعيد

ثم كان سفرى من مصر على طريق الصعيد ، برسم الحجاز الشريف ، فبت ليلة خروجى بالرباط الذى بناه الصاحب تاج الدين بن حِنَّاء بدَيْر الطين ، وهو رباط عظيم ، بناه على مفاخر عظيمة ، وآثار كريمة ، أودعها فيــه : وهى قطعة من قصعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، والمِيل الذى كان يكتحل به ، والإشْفى الذى كان يخصف به نعله ، ومصحف أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى بخط يده (رضى الله عنه) ، ويقال : إن الصاحب اشترى ما ذكرناه من الآثار الكريمة النبوية ، بمــائة ألف درهم . وبنى الرِباط وجعل فيه الطعام للوارد والصادر ، والجراية لخدام تلك الآثار الشريفة (نفعه الله تعالى بقصده المبارك) . ثم خرجت من الرِباط المذكور ، ومررت بمنية القائد ، وهى بلدة صغيرة على ساحل النيل ، ثم سرت منها الى مدينة بُوش . وهذه

المدينـة أكثر بلاد مصر كَتَّانا ، ومنها يجاب إلى سائر الديار المصرية وإلى إفريقية . ثم سافرت منها فوصلت إلى مدينة ، دَلَاص وهذه المدينة كثيرة الكتّان أيضا ، كمثل التى ذكرنا قبلها ، ويحمل أيضا منها إلى ديار مصر وإفريقية . ثم سافرت منها إلى مدينة بِبا . ثم سافرت منها إلى مدينة البَهْنَسَا . وهى مدينـة كبيرة ، وبساتينها كثيرة ، وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة . وممن لقيته بها قاضيها العالم شرف الدين ، وهو كريم النفس فاضل ، ولقيت بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمى ، ونزلت عنده وأضافنى . ثم سافرت منها إلى مدينة مُنْية ابن خَصيب وهى مدينة كبيرة الساحة ، متسعة المساحة ، مبنية على شاطئ النيل ، وحق لها على بلاد الصعيد التفضيل ؛ بها المدارس والمشاهد ، والزوايا والمساجد ، وكانت فى القديم منية عامل مصر الخصيب .

حكاية خصيب[1]

يذكر أن أحد الخلفاء من بنى العباس رضى الله عنهم غضب على أهل مصر ، فآلى أن يولى عليهم أحقر عبيده وأصغرهم شأنا ، قصدا لإذلالهم والتنكيل بهم ؛ وكان خُصَيب أحقرهم ، إذْ كان يتولى تسخين الحمـام ؛ فخلع عليه وأمره على مصر ، وظنه أنه يسير فيهم سيرة سوء ، ويقصدهم بالأذية لمـا هو المعهود ممن ولى عن غير عهد بالعز ؛ فلما استقر خصيب بمصر ، سار فى أهلها أحسن سيرة ، وشهر بالكرم والإيثار ، فكان أقارب الخلفاء وسواهم يقصدونه فيجزل العطاء لهم ، ويعودون إلى بغداذ شاكرين لمـا أولاهم . وإن الخليفة افتقد بعض العباسيين وغاب عنه مدة ثم أتاه ، فسأله عن مغيبه ، فأخبره أنه قصد خصيبا ، وذكر له ما أعطاه خصيب (وكان عطاء جزيلا) فغضب الخليفة وأمر بِسَمْلِ عينى خصيب وإخراجه من مصر إلى بغداد ،

(١) فى هذه الحكاية غرابة وتلفيق من القصاص .

وأن يطرح فى أسواقها ؛ فلما ورد الأمر بالقبض عليه ، حيل بينه وبين دخول منزله ، وكانت بيده ياقوتة عظيمة الشأن ، فخبأها عنده ، وخاطها فى ثوب له ليلا ، وسُملت عيناه وطرح فى أسواق بغداد ؛ فمر به بعض الشعراء ، فقال له : ياخصيب ، إنى كنت قصدتك من بغداد إلى مصر مادحا لك بقصيدة ، فوافقت انصرافك عنها ، وأحب أن تسمعها ، فقال : كيف بسماعها وأنا على ما تراه ؟ فقال إنما قصدى سماعك لها ، وأما العطاء فقد أعطيت الناس وأجزلت ، جزاك الله خيرا . قال فافعل فأنشده :

أنت الخصيب وهذه مصر * فتدفقا فكلاكما بحر

فلما أتى على آخرها قال له : افتق هذه الخياطة ! ففعل ذلك ؛ فقال له : خذ الياقوتة ! فأبى ، فأقسم عليه أن يأخذها ، فأخذها وذهب بها إلى سوق الجوهريين ، فلما عرضها عليهم قالوا له : إن هذه لاتصلح إلا للخليفة ؛ فرفعوا أمرها إلى الخليفة ، فأمر الخليفة بإحضار الشاعر ، واستفهمه عن شأن الياقوتة ، فأخبره بخبرها ، فتأسف على مافعله بخصيب ، وأمر بمثوله بين يديه ، وأجزل له العطاء ، وحكمه فيما يريد ، فرغب أن يعطيه هذه المنية ، ففعل ذلك ، وسكنها خصيب إلى أن توفى وأورثها عقبه إلى أن انقرضوا .

وكان قاضى هذه المنية أيام دخولى إليها فخرالدين النُّوَيْرِيّ المالكى ، وواليها شمس الدين ، أمير خيّر كريم . دخلت يوما الحمام بهذه البلدة ، فرأيت الناس بها لا يستترون ؛ فعظم ذلك علىّ ، وأتيته فأعلمته بذلك ، فأمرنى ألا أبرح ؛ وأمر بإحضار المكترين للحمامات ، وكتبت عليهم العقود : أنه متى دخل أحد الحمام دون مئزر ، فإنهم يؤاخذون على ذلك ، واشتد عليهم أعظم الاشتداد .

ثم انصرفت عنه وسافرت من منية بن خصيب إلى مدينة مَنْلوى ، وهى صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل ؛ وقاضيها الفقيه شرف الدين الدميرى الشافعى . وكبارها قوم يعرفون ببنى فُضَيل ؛ بنى أحدهم جامعا أنفق فيه صميم ماله . وبهذه المدينة إحدى عشرة مَعصرة للسكر . ومن عاداتهم أنهم لا يمنعون فقيرا من دخول معصرة منها ؛ فيأتى الفقير بالخبزة الحارة ، فيطرحها فى القدر التى يطبخ السكر فيها ، ثم يخرجها (وقد امتلأت سكرا) ، فينصرف بها . وسافرت من منلوى إلى مدينة مَنْفَلُوط ، وهى مدينة حسن رواؤها ، مُونِق بناؤها على ضِفة النيل ، شهيرة البركة .

حكاية[1]

أخبرنى أهل هذه المدينة : أن الملك الناصر (رحمه الله) أمر بعمل منبر عظيم ، محكم الصنعة ، بديع الإنشاء ، برسم المسجد الحرام (زاده الله شرفا وتعظيما). فلما تم عمله ، أمر أن يصعد به فى النيل ، ليجاز إلى بحر جُدة ، ثم إلى مكة (شرفها الله) . فلما وصل المركب الذى احتمله إلى منفلوط ، وحاذى مسجدها الجامع ، وقف وامتنع من الجرى ، مع مساعدة الريح ؛ فعجب الناس من شأنه أشد العجب ، وأقاموا أياما لا ينهض بهم المركب ؛ فكتبوا بخبره إلى الملك الناصر (رحمه الله) ، فأمر أن يجعل ذلك المنبر بجامع مدينة منفلوط ، ففعل ذلك ؛ وقد عاينته بها .

ويصنع بهذه المدينة شبه العسل ، يستخرجونه من القمح ، ويسمونه النِّيدا ، يباع بأسواق مصر . وسافرت من هذه المدينة إلى مدينة أسيوط ، وهى مدينة رفيعة ، أسواقها بديعة . وقاضيها شرف الدين بن عبد الرحيم الملقب (بحاصل ما ثَمَّ) — لقب شهر به — وأصله أن القضاة بديار

---

(١) خرافة .

مصر والشام ، بأيديهم الأوقاف والصدقات لأبناء السبيل ؛ فإذا أتى فقير لمدينة من المدن ، قصد القاضى بها ، فيعطيه ما قدر له ؛ فكان هذا القاضى إذا أتاه الفقير ، يقول له : حاصل ما ثم ! (أى لم يبق من المال الحاصل شىء) فلقب بذلك ولزمه . وبها من المشايخ الفضلاء الصالح شهاب الدين ابن الصباغ ؛ أضافنى بزاويته .

وسافرت منها إلى مدينة إخْميم ، وهى مدينة عظيمة أصيلة البنيان ، عجيبة الشأن ، بها (البربى) المعروف باسمها ؛ وهو مبنى بالحجارة ، فى داخله نقوش وكتابة للأوائل ، لا تفهم فى هذا العهد ، وصور الأفلاك والكواكب ، ويزعمون أنها بنيت والنسر الطائر ببرج العقرب ، وبها صور الحيوانات وسواها ، وعند الناس فى الصور أكاذيب لا يعرّج عليها . وكان بإخميم رجل يعرف بالخطيب ، أمر بهدم هذه البرابى ، وابتنى بحجارتها مدرسة ، وهو رجل موسر معروف باليسار ، ويزعم حساده أنه استفاد ما بيده من المال من ملازمته لهذه البرابى . ونزلت من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبى العباس بن عبد الظاهر ، وبها تربة جده عبد الظاهر . وله من الإخوة ناصر الدين ، ومجد الدين ، وواحد الدين . ومن عاداتهم أن يجتمعوا جميعا بعد صلاة الجمعة ، ومعهم الخطيب نور الدين المذكور وأولاده ، وقاضى المدينة الفقيه مخلص وسائر وجوه أهلها ، فيجتمعون للقرآن ، ويذكرون الله ، إلى صلاة العصر ، فإذا صلوها قرءوا سورة الكهف ثم انصرفوا . وسافرت من إخميم الى مدينة (هو) مدينة كبيرة بساحل النيل (وضبطها بضم الهاء) . نزلت منها بمدرسة تقى الدين بن السراج ، ورأيتهم يقرءون بها فى كل يوم بعد صلاة الصبح حزبا من القرآن ، ثم يقرءون أوراد الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، وحزب البحر . وبهذه المدينة السيد الشريف أبو محمد عبد الله الحسنى ، من كبار الصالحين .

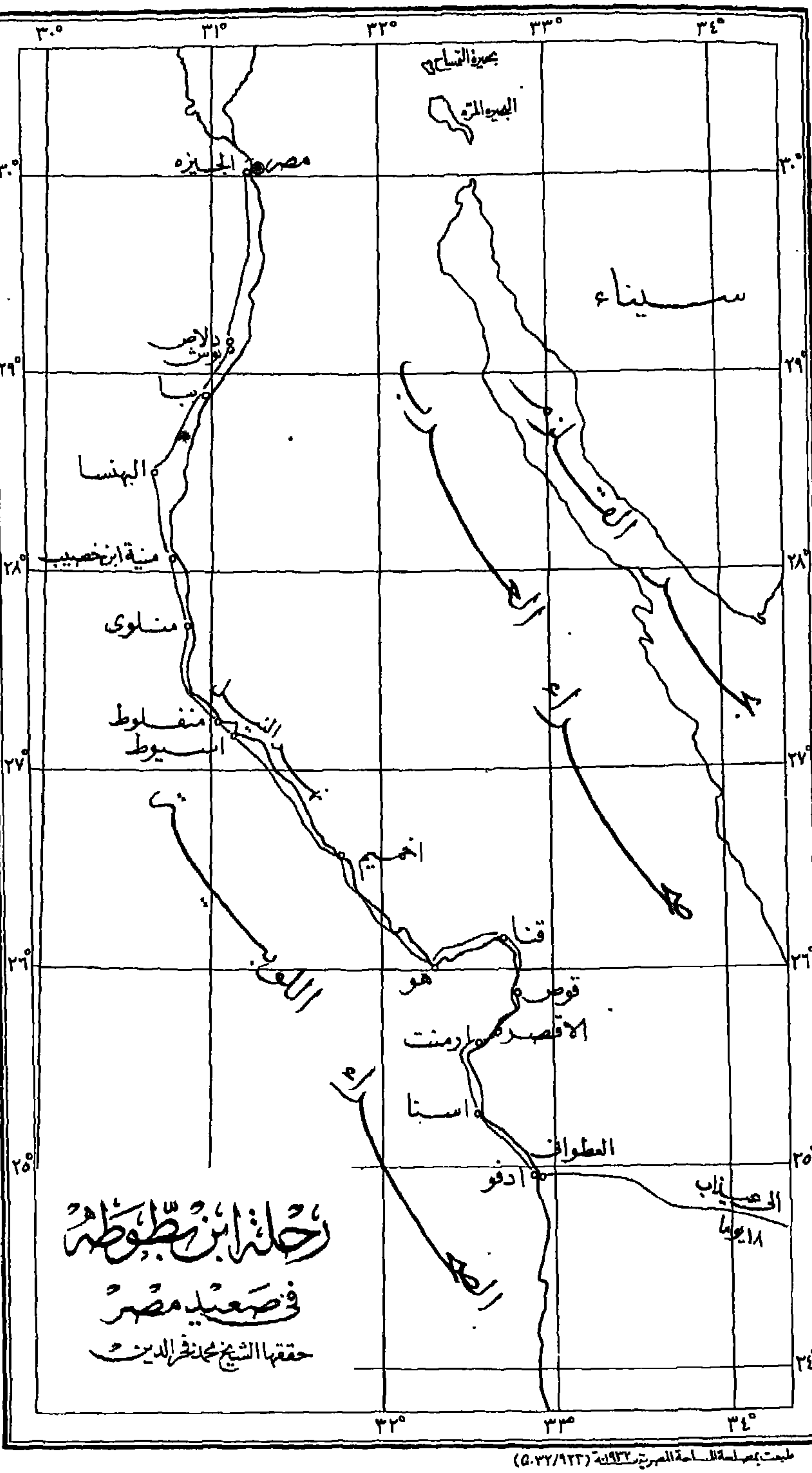

طبعت بمصلحة المساحة المصرية سنة ١٩٣٢ (G.٣٢/٩٢٣)

كرامة له : دخلت إلى هذا الشريف متبركا برؤيتـه والسلام عليه ، فسألنى عن قصدى ، فأخبرته أنى أريد حج البيت الحرام على طريق جُدّة ، فقال لى : لا يحصل لك هذا فى هذا الوقت ، فارجع وإنما تحج أول حجة على الدرب الشامى . فانصرفت عنه ولم أعمل على كلامه ، ومضيت فى طريق حتى وصلت عَيذَاب ، فلم يمكن السفر ، فعدت راجعا إلى مصر ، ثم إلى الشام ، وكان طريقى فى أول حجاتى على الدرب الشامى ، على ما أخبرنى الشريف (نفع الله به) .

ثم سافرت إلى مدينة قنا ، وهى صغيرة حسنة الأسواق وبها قبر الشريف الصالح الولى ، صاحب البراهين العجيبة ، والكرامات الشهيرة عبد الرحيم القناوى (رحمة الله عليه) . ورأيت بالمدرسة السيفية منها حفيـده شهاب الدين أحمد .

وسافرت من هذا البلد إلى مدينة قُوص ، مدينة عظيمة ، لهـا خيرات عميمـة ، بساتينها مورقة ، وأسـواقها مُونِقة ، ولهـا المساجد الكثيرة ، والمدارس الأثيرة ، وهى منزل ولاة الصعيد ، وبخارجهـا زاوية الشـيخ شهاب الدين بن عبد الغفار ، وبها اجتماع الفقراء المتجردين فى شهر رمضان من كل سنة . ومن علمائها القاضى جمـال الدين بن السديد ، والخطيب بها فتح الدين بن دقيق العيد ، أحد الفصحاء البلغاء الذين حصل لهم السبق فى ذلك ، لم أر من يمـاثله إلا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبرى ، وخطيب مدينة خُوارِزم حسام الدين الشاطبى (وسيقع ذكرهما) . ومنهم الفقيه بهاء الدين بن عبد العزيز ، المدرس بمدرسة المـالكية ، ومنهم الفقيه برهان الدين إبراهيم الأندلسى ، له زاوية عالية .

ثم سافرت إلى مدينة الأقْصُر وهى صغيرة حسنة ، وبها قبر الصالح العابد أبى الحجاج الأقصرى ، وعليه زاوية . وسافرت منها إلى مدينة أرمَنْت ، وهى صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل ، أضافنى قاضيها (وأنسيت اسمه) . ثم سافرت منها إلى مدينة أَسْنَا ، مدينة عظيمة ، متسعة الشوارع ، ضخمة المنافع ، كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع ، لها أسواق حسان ، وبساتين ذات أفنان ؛ قاضيها قاضى القضاة شهاب الدين بن مسكين ، أضافنى وأكرمنى وكتب إلى نوابه بإكرامى . وبها من الفضلاء الشيخ الصالح نور الدين على ، والشيخ الصالح عبد الواحد المِكْناسى ، وهو على هذا العهد صاحب زاويةٍ بقوص . ثم سافرت منها إلى مدينة أَدْفو ، وبينها وبين مدينة أسنا مسيرة يوم وليلة فى صحراء . ثم جزنا النيل من مدينة أدفو الى مدينة العَطْوَانِى ، ومنها اكترينا الجمال ، وسافرنا مع طائفة من العرب تعرف بدُغَيْم ، فى صحراء لا عمارة بها ، إلا أنها آمنة السبل ، وفى بعض منازلها نزلنا حَمَيْثَرا حيث قبر ولى الله أبى الحسن الشاذلى ، وقد ذكرنا كرامته فى إخباره أنه يموت بها . وأرضها كثيرة الضباع ؛ ولم نزل ليلة مبيتنا بها نحارب الضباع ، ولقد قصدت رحلى ضبع منها فمزقت عِدْلا كان به ، واجترت منه جراب تمر ، وذهبت به ، فوجدناه لما أصبحنا ممزقا ، مأكولا معظم ما كان فيه .

ثم لما سرنا خمسة عشر يوما ، وصلنا إلى مدينة عِيذاب[1] ، وهى مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن ؛ ويحمل إليها الزرع والتمر من صعيد مصر ، وأهلها البُجَاةُ ، وهم سود الألوان يلتحفون ملاحف صفرا ، ويشدون على رءوسهم عصائب يكون عرض العصابة منها إصبعا ؛ وهم لا يورثون

(١) يقال : عَيذاب وعِيذاب .

البنات ، وطعامهم ألبان الإبل ، ويركبون المهارِى[1] ويسمونها الصُّهْب . وثلث المدينة للملك الناصر، وثلثاها لملك البجاة وهو يعرف بالحَدْرَبى . وبمدينة عيذاب مسجد ينسب للقَسْطَلَّانِى، شهير البركة ، رأيته وتبركت به . وبها الشيخ الصالح موسى ، والشيخ المسن محمد المرَّاكُشِى ، زعم أنه ابن المرتضى ملك مراكش ، وأن سنه خمس وتسعون سنة .

ولما وصلنا إلى عيذاب ، وجدنا الحدربى سلطان البجاة يحارب الأتراك[2]، وقد خرق المراكب وهرب الترك أمامه، فتعذر سفرنا فى البحر، فبعنا ما كنا أعددناه من الزاد ؛ وعدنا مع العرب الذين اكترينا الجمال منهم إلى صعيد مصر ، فوصلنا إلى مدينة قوص التى تقدم ذكرها .

عودته إلى شمال مصر

وانحدرنا منها فى النيل ؛ وكان أوان مدّه ، فوصلنا بعد مسيرة ثمان من قوص إلى مصر ، فبت بمصر ليلة واحدة ، وقصدت بلاد الشام ، وذلك فى منتصف شعبان سنة ست وعشرين، فوصلت إلى مدينة بَلْبَيْس[3] وهى مدينة كبيرة ، ذات بساتين كثيرة ، ولم ألق بها من يجب ذكره . ثم وصلت إلى الصالحِية ، ومنها دخلنا الرمال ونزلنا منازلها ، وبكل منزل منها فُنْدُق ، وهم يسمونه الخان، ينزله المسافرون بدوابهم، وبخارج كل خان ساقية للسبيل، وحانوت يشترى منه المسافر ما يحتاج إليه لنفسه ودابته . ومن منازلها قَطْيَا المشهورة ، والناس يبدلون ألفها هاء تأنيث ؛ وبها تؤخذ الزكاة من التجار، وتفتش أمتعتهم ، ويبحث عما لديهم أشد البحث ؛ وفيها الدواوين والعمال،

---

(١) نسبة إلى مَهْرة ، حىّ من العرب ، الواحدة مَهْرِيّة .

(٢) المماليك .

(٣) ويقال أيضا : بُلْبَيْس . قاموس .

والكتّاب والشهود ، ومجباها فى كل يوم ألف دينار من الذهب . ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر، ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام ، احتياطا على أموال النـاس ، وتوقيا من الجواسيس العراقيين . وطريقها فى ضمان العرب، وقد وكلوا بحفظه ، فإذا كان الليـل مسحوا على الرمل لا يبقى به أثر، ثم يأتى الأمـير صباحا فينظر إلى الرمل ، فإن وجد به أثرا طالب العرب بإحضار مؤثره ، فيذهبون فى طلبه فلا يفوتهم ، فيأتون به الأمير فيعاقبه بمـا شاء . وكان بها فى عهد وصولى إليها عز الدين أستاذ الدار أقمـارِى، من خيار الأمراء ، أضافنى وأكرمنى ، وأباح الجواز لمن كان معى .

دخول الشام ووصف مدنه

ثم سرنا حتى وصلنا إلى مدينة غزة وهى أول بلاد الشام مما يلى مصر، متسعة الأقطار ، كثيرة العمارة ، حسنة الأسواق ، بها المساجد الكثيرة ، والأسوار عليها ، وكان بها مسجد جامع حسن . والمسجد الذى تقام الآن به الجمعة فيها ، بناه الأمير المعظم الجاولِىّ ، وهو أنيق البناء ، محكم الصنعة ، ومنبره من الرُّخام الأبيض . وقاضى غزة بدر الدين السَّلْخَتِى الحَوْرَانى ، ومدرِّسها علم الدين بن سالم . وبنو سالم كبراء هذه المدينة . ومنهم شمس الدين قاضى القدس . ثم سافرت من غزة إلى مدينة الخليل (صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليما) . وهى مدينة صغيرة الساحة ، كبيرة المقدار، مشرقة الأنوار، حسنة المنظر ، عجيبة المخبر ، فى بطن واد ؛ ومسجدها أنيق الصنعة، محكم العمل، بديع الحسن، سامى الارتفاع، مبنى بالصخر المنحوت ، فى أحد أركانه صخرة أحد أقطارها سبعة وثلاثون شبرا . ويقال : إن سليمان عليه السلام أمر الجن ببنائه . وفى داخل المسجد الغار المكرم المقدس ، فيه قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب ،

(صلوات الله على نبينا وعليهم) . ويقابلها قبور ثلاثة ، هى قبور أزواجهم .
وعن يمين المنبر بلصق جدار القبلة موضع يهبط منه على درج رخام محكمة العمل ، إلى مسلك ضيق ، يفضى إلى ساحة مفروشة بالرخام ، فيها صور القبور الثلاثة ، ويقال إنها محاذية لها ؛ وكان هنالك مسلك إلى الغار المبارك وهو الآن مسدود . وقد نزلت بهذا الموضع مرات . ومما ذكره أهل العلم دليلا على صحة كون القبور الثلاثة الشريفة هنالك ، ما نقلته من كتاب على ابن جعفر الرازى ، الذى سماه (المسفر للقلوب ، عن صحة قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب) ، أسند فيه إلى أبى هريرة . قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : لما أسرى بى إلى بيت المقدس ، مر بى جبريل على قبر إبراهيم ، فقال : انزل فصل ركعتين ، فإن هنا قبر أبيك إبراهيم ، ثم مر بى على بيت لحم وقال : انزل فصل ركعتين ، فإن هنا ولد أخوك عيسى (عليه السلام) ، ثم أتى بى إلى الصخرة (وذكر بقية الحديث) . ولما لقيت بهذه المدينة المدرس الصالح المُعَمَّر الإمام الخطيب برهان الدين الجَعْبَرى ، أحد الصلحاء المرضيين ، والأئمة المشهورين ، سألته عن صحة كون قبر الخليل (عليه السلام) هنالك ، فقال لى : كل من لقيته من أهل العلم يصححون أن هذه القبور قبور إبراهيم وإسحاق ويعقوب (على نبينا وعليهم السلام) ، وقبور زوجاتهم . ولا يطعن فى ذلك إلا أهل البدع ، وهو نقل الخلف عن السلف ، لا يشك فيه . ويذكر أن بعض الأئمة دخل إلى هذا الغار ووقف عند قبر سارّة ، فدخل شيخ فقال له : أىّ هذه القبور هو قبر إبراهيم ؟ فأشار له إلى قبره المعروف ، ثم دخل شاب فسأله كذلك ، فأشار له إليه ، ثم دخل صبى فسأله أيضا ، فأشار له إليه ؛ فقال الفقيه : أشهد أن هذا قبر ابراهيم (عليه السلام) لا شك ، ثم دخل إلى المسجد فصلى به ، وارتحل من الغد .
وبداخل هذا المسجد أيضا قبر يوسف (عليه السلام) . وبشرقىّ حرم

الخليل تربة لوط (عليه السلام)، وهي على تل مرتفع يشرف منه على غور الشام، وعلى قبره أبنية حسنة، وهو فى بيت منها حسن البناء مبيض ولا ستور عليه. وهنالك بحيرة لوط، وهى أُجَاج، يقال إنها موضع ديار قوم لوط. وبمقربة من تربة لوط مسجد اليقين، وهو على تل مرتفع، له نور وإشراق ليس لسواه، ولا يجاوره إلا دار واحدة، يسكنها قيِّمه. وفى المسجد بمقربة من بابه، موضع منخفض، فى حجر صلد، قد هيئ فيه صورة محراب، لا يسع إلا مصليا واحدا. ويقال إن إبراهيم سجد فى ذلك الموضع شكرا لله تعالى عند هلاك قوم لوط. وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين بن على (عليهما السلام). وبأعلى القبر وأسفله لوحان من الرخام، فى أحدهما مكتوب منقوش بخط بديع: بسم الله الرحمن الرحيم لله العزة والبقاء، وله ما ذرأ وبرأ، وعلى خلقه كتب الفناء، وفى رسول الله أسوة. هذا قبر أمِّ سلمة فاطمة بنت الحسين (رضى الله عنه). وفى اللوح الآخر منقوش: صنعه محمد بن أبى سهل النقاش بمصر، وتحت ذلك هذه الأبيات:

أسكنتُ من كان فى الأحشاء مسكنه ... بالرغم منى بين الترب والحجر
ياقبر فاطمّة، بنت ابن فاطمة ... بنت الأئمة، بنت الأنجم الزُّهُر
ياقبر، ما فيك من دين ومن ورع ... ومن عفاف ومن صون ومن خفَرَ؟

ثم سافرت من هذه المدينة إلى القدس، فزرت فى طريق إليه تربة يونس (عليه السلام)، وعليها بُنْيَة كبيرة ومسجد. وزرت أيضا بيت لحم، موضع ميلاد عيسى (عليه السلام)، وبه أثر جذع النخلة، وعليه عمارة كثيرة، والنصارى يعظمونه أشد التعظيم، ويضيفون من نزل به.

ثم وصلنا إلى بيت المقدس (شرفه الله)، ثالث المسجدين الشريفين فى رتبة الفضل، ومصعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم تسليما) ومَعْرَجُه إلى السماء. والبلدة كبيرة مُنيفة، مبنية بالصخر المنحوت. وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب (جزاه الله عن الإسلام خيرا) لما فتح هذه المدينة، هدم بعض سورها، ثم أتمّ الملك الظاهر هدمه، خوفا أن يقصدها الروم فيتمنعوا بها. ولم يكن بهذه المدينة نهر فيما تقدم. وجلب لها الماء فى هذا العهد الأمير سيف الدين تَنْكِيز أمير دمشق.

ذكر المسجد المقدس

وهو من المساجد العجيبة الرائقة، الفائقة الحسن؛ يقال: إنه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه، وإن طوله من الشرق إلى الغرب سبعمائة واثنتان وخمسون ذراعا بالذراع المالكية(١)، وعرضه من القبلة إلى الجوف أربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعا؛ وله أبواب كثيرة فى جهاته الثلاث، وأما الجهة القبلية منه فلا أعلم بها إلا بابا واحدا، وهو الذى يدخل منه الإمام. والمسجد كله فضاء غير مَسْقُوف، إلا المسجد الأقصى فهو مسقوف، فى النهاية من إحكام العمل وإتقان الصنعة، مموّه بالذهب والأصبغة الرائقة؛ وفى المسجد مواضع سواه مسقوفة.

ذكر قبة الصخرة

وهى من أعجب المبانى وأتقنها وأغربها شكلا؛ قد توافر حظها من المحاسن، وأخذت من كل بديعة بطرف. وهى قائمة على نَشْز فى وسط المسجد، يصعد إليها فى درج رخام، ولها أربعة أبواب، والدائر بها مفروش

(١) الذراع المالكية: طولها ٣٢ إصبعا.

بالرخام أيضا ، محكم الصنعة ؛ وكذلك داخلها . وفى ظاهرها و باطنها من أنواع التزويق ، ورائق الصنعة ما يعجز الواصف ؛ وأكثر ذلك مغشى بالذهب. فهى تتلألأ نورا ، وتلمع لمعان البرق ، يحار بصر متأملها فى محاسنها ، و يقصر لسان رائيها عن تمثيلها . وفى وسط القبة الصخرة الكريمة ، التى جاء ذكرها فى الآثار ؛ فإن النبى (صلى الله عليه وسلم) عرج منها إلى السماء . وهى صخرة صماء ، ارتفاعها نحو قامة ، وتحتها مغارة فى مقدار بيت صغير ، ارتفاعها نحو قامة أيضا ، ينزل إليها على درج . وهنالك شكل محراب . وعلى الصخرة شباكان اثنان محكما العمل ، يغلقان عليها ؛ أحدهما (وهو الذى يلى الصخرة) من حديد بديع الصنعة ، والثانى من خشب ؛ وفى القبة دَرَقَة كبيرة من حديد معلقة هنالك ، والناس يزعمون أنها درقة حمزة بن عبد المطلب (رضى الله عنه) .

ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف

فمنها بِعُدْوة الوادى المعروف بوادى جهنم ، فى شرقى البلد ، على تل مرتفع هنالك ، بُنْية يقال : إنها مصعد عيسى عليه السلام إلى السماء . ومنها أيضا قبر رابعة البدوية (منسوبة إلى البادية) ، وهى خلاف رابعة العدوية الشهيرة . وفى بطن الوادى المذكور كنيسة يعظمها النصارى ، ويقولون : إن قبر مريم (عليها السلام) بها . وهنالك ايضا كنيسة أخرى معظمة يحجها النصارى ، و يعتقدون أن قبر عيسى (عليه السلام) بها . وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للسلمين . وهنالك موضع مهد عيسى عليه السلام يتبرك به .

ذكر بعض فضلاء القدس

فمنهم قاضيه العالم شمس الدين محمد بن سالم الغَزّى ، وهو من أهل غزة وكبرائها . ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين النابُلُسِى . ومنهم المحدث المفتى شهاب الدين الطبرى . ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانِقَاه الكريمة ، أبو عبد الله محمد بن مُثْبِت الغَرناطى ، نزيل القدس . ومنهم الشيخ الزاهد أبو على حسن المعروف بالمحجوب ، من كبار الصالحين . ومنهم الشيخ الصالح العابد كمال الدين المراغى . ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبدالرحيم عبد الرحمن بن مصطفى من أهل أَرْز الروم ، وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعى ، صحبته ولبست منه خرقة التصوف .

ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة ثغر عَسْقَلان . وهو خراب قد عاد رسوما طامسة ، وأطلالا دارسة . وقَلّ بلد جمع من المحاسن ما جمعته عسقلان : إتقانا وحسن وضع وأصالة مكان ، وجمعا بين مرافق البر والبحر. وبها المشهد الشهير ، حيث كان رأس الحسين بن على (عليه السلام) قبل أن ينقل إلى القاهرة . وهو مسجد عظيم سامى العلو ، فيه جب للماء ، أمر ببنائه بعض العُبَيْدِيين (وكتب ذلك على بابه) . وفى قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر ، لم يبق منه إلا حِيطانه ، وفيه أساطين رخام لا مثل لها فى الحسن ، وهى ما بين قائم وحصيد . ومن جملتها أسطوانة حمراء عجيبة ، يزعم الناس أن النصارى احتملوها إلى بلادهم ثم فقدوها ، فوجدت فى موضعها بعسقلان . وفى القبلة من هذا المسجد بئر تعرف ببئر إبراهيم (عليه السلام) ينزل إليها فى درج متسعة ، ويدخل منها إلى بيوت ، وفى كل جهة من جهاتها الأربع عين تخرج من أسراب مطوية بالحجارة ، وماؤها عذب وليس بالغزير . ويذكر الناس من فضائلها كثيرا . وبظاهر عسقلان

وادى النمل ، ويقال : إنه المذكور فى الكتاب العزيز . وبجبانة عسقلان من قبور الشهداء والأولياء ما لا يحصر لكثرته ؛ أوقفنا عليهم قيِّم المزار المذكور. وله جِراية يجريها له ملك مصر ، مع ما يصل إليه من صدقات الزوار .

ثم سافرت منها إلى مدينة الرَّملة (وهى فِلَسْطين) مدينة كبيرة ، كثيرة الخيرات ، حسنة الأسواق ؛ وبها الجامع الأبيض ، ويقال إن فى قبلته ثلثمائة من الأنبياء مدفونين (عليهم السلام) . وفيها من كبار الفقهاء مجد الدين النابلسى . ثم خرجت منها إلى مدينة نَابُلُس ، وهى مدينة عظيمة كثيرة الأشجار ، مطردة الأنهار ، من أكثر بلاد الشام زيتونا ؛ ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق . وبها تصنع حلواء الخروب ، وتجلب إلى دمشق وغيرها . (وكيفية عملها) : أن يطبخ الخروب ، ثم يعصر ، ويؤخذ ما يخرج منه من الرُّبّ فتصنع منه الحلواء . ويجلب ذلك الرب أيضا إلى مصر والشام . وبها البطيخ المنسوب إليها ، وهو طيب عجيب . والمسجد الجامع فى نهاية من الإتقان والحسن ؛ وفى وسطه بركة ماء عذب .

ثم سافرت منها إلى مدينة عَجْلُون ، وهى مدينة حسنة ، لها أسواق كثيرة ، وقلعة خطيرة ، ويشقها نهر ماؤه عذب . ثم سافرت منها بقصد اللاذقية ، فمررت بالغَوْر ، وهو واد بين تلال ، به قبر أبى عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة (رضى الله عنه) . زرناه ، وعليه زاوية فيها الطعام لأبناء السبيل . وبتنا هنالك ليلة ، ثم وصلنا إلى القُصَيْر ، وبه قبر مُعَاذ بن جَبَل (رضى الله عنه) ، تبركت أيضا بزيارته . ثم سافرت على الساحل ، فوصلت إلى مدينة عَكَّة وهى خراب . وكانت عكة قاعدة بلاد الإفرنج بالشام ، ومرسى سفنهم . وتشبه قُسطنطينية العظمى . وبشرقيها عين ماء تعرف بعين البقر ، يقال : إن الله تعالى أخرج منها البقر لآدم (عليه السلام)(1) ، وينزل إليها فى درج ؛ وكان عليها مسجد بقى منه محرابه . وبهذه المدينة قبر صالح (عليه السلام) .

(1) لا يعرف هذا فى الآثار الصحيحة .

وصف مدينة صُور

ثم سافرت منها إلى مدينة صور وهى خراب، وبخارجها قرية معمورة . وأكثر أهلها أرفاض[1]؛ ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء، فأتى بعض أهل تلك القرية ليتوضأ، فبدأ بغسل رجليه، ثم غسل وجهه، ولم يتمضمض، ولا استنشق، ثم مسح بعض رأسه. فأخذت عليه فى فعله، فقال لى : إن البناء إنما يكون ابتداؤه من الأساس . ومدينة صور هى التى يضرب بها المثل فى الحصانة والمَنَعَة؛ لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها؛ ولها بابان : أحدهما للبر، والثانى للبحر . ولبابها الذى يشرع للبر أربع فُصَلات، كلها فى ستائر محيطة بالباب . وأما الباب الذى للبحر فهو بين برجين عظيمين. وبناؤها ليس فى بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شأنا منه؛ لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها، وعلى الجهة الرابعة سور، تدخل السفن تحت السور وترسو هنالك. وكان فيما تقدم بين البرجين سلسلة حديد معترضة، لا سبيل إلى الداخل هنالك ولا إلى الخارج، إلا بعد حطها . وكان عليها الحراس والأمناء، فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج إلا على علم منهم . وكان لعكة أيضا ميناء مثلها، ولكنه لم يكن يحمل إلا السفن الصغار .

ثم سافرت منها الى مدينة صَيْدَاء، وهى على ساحل البحر، حسنة كثيرة الفواكه، يحمل منها التين والزبيب والزيت إلى بلاد مصر . نزلت عند قاضيها كمال الدين الأُشمونى المصرى، وهو حسن الأخلاق كريم النفس . ثم سافرت منها إلى مدينة طَبَرِيَّة، وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة، ولم يبق منها إلا رسوم تنبئ عن ضخامتها وعظم شأنها، وبها الحمامات

(١) أرفاض : فرقة من الشيعة .

العجيبة : لها بيتان أحدهما للرجال والثانى للنساء ، وماؤها شديد الحرارة. ولها البحيرة الشهيرة ، طولها نحو ستة فراسخ، وعرضها أزيد من ثلاثة فراسخ. وبطبرية مسجد يعرف بمسجد الأنبياء ، فيه قبر شعيب (عليه السلام) وبنته زوج موسى الكليم (عليه السلام) ، وقبر سليمان (عليه السلام) ، وقبر يهوذا ، وقبر رُوبِيل، (صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم). وقصدنا منها زيارة الجُب الذى أُلقِى فيه يوسف (عليه السلام) ، وهو فى صحن مسجد صغير، وعليه زاوية . والجب كبير عميق ، شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر ، وأخبرنا قَيِّمه أن الماء ينبع منه أيضا .

ثم سرنا إلى مدينة بَيْرُوت ، وهى صغيرة حسنة الأسواق ، وجامعها بديع الحسن ، وتجلب منها إلى ديار مصر الفواكه والحديد . وقصدنا منها زيارة أبى يعقوب يوسف ، الذى يزعمون أنه من ملوك المغرب . وهو بموضع يعرف بكَرَك نوح ، من بقاع العزيز . وعليه زاوية يطعم بها الوارد والصادر ؛ ويقال إن السلطان صلاح الدين وقف عليها الأوقاف . وقيل السلطان نورالدين، وكان من الصالحين، ويذكر أنه كان ينسج الحُصُر ويقتات بثمنها .

وصف مدينة طَرَابُلُس الشام

ثم وصلت إلى مدينة طرابلس ، وهى إحدى قواعد الشام ، وبلدانها الضخام ، تخترقها الأنهار ، وتَحُفّ بها البساتين والأشجار ، ويكنفها البحر بمرافقه العميمة ، والبر بخيراته المقيمة ، ولها الأسواق العجيبة ، والمسارح الخصيبة ، والبحر على ميلين منها ، وهى حديثة البناء . وأما طرابلس القديمة فكانت على ضِفة البحر وتملكها الروم زمنا ، فلما استرجعها الملك الظاهر خربت ، واتخذت هذه الحديثة . وبهذه المدينة نحو أربعين من أمراءِ الأتراك . وأميرها طَيْلان الحاجب المعروف بملك الأمراء ، ومسكنه

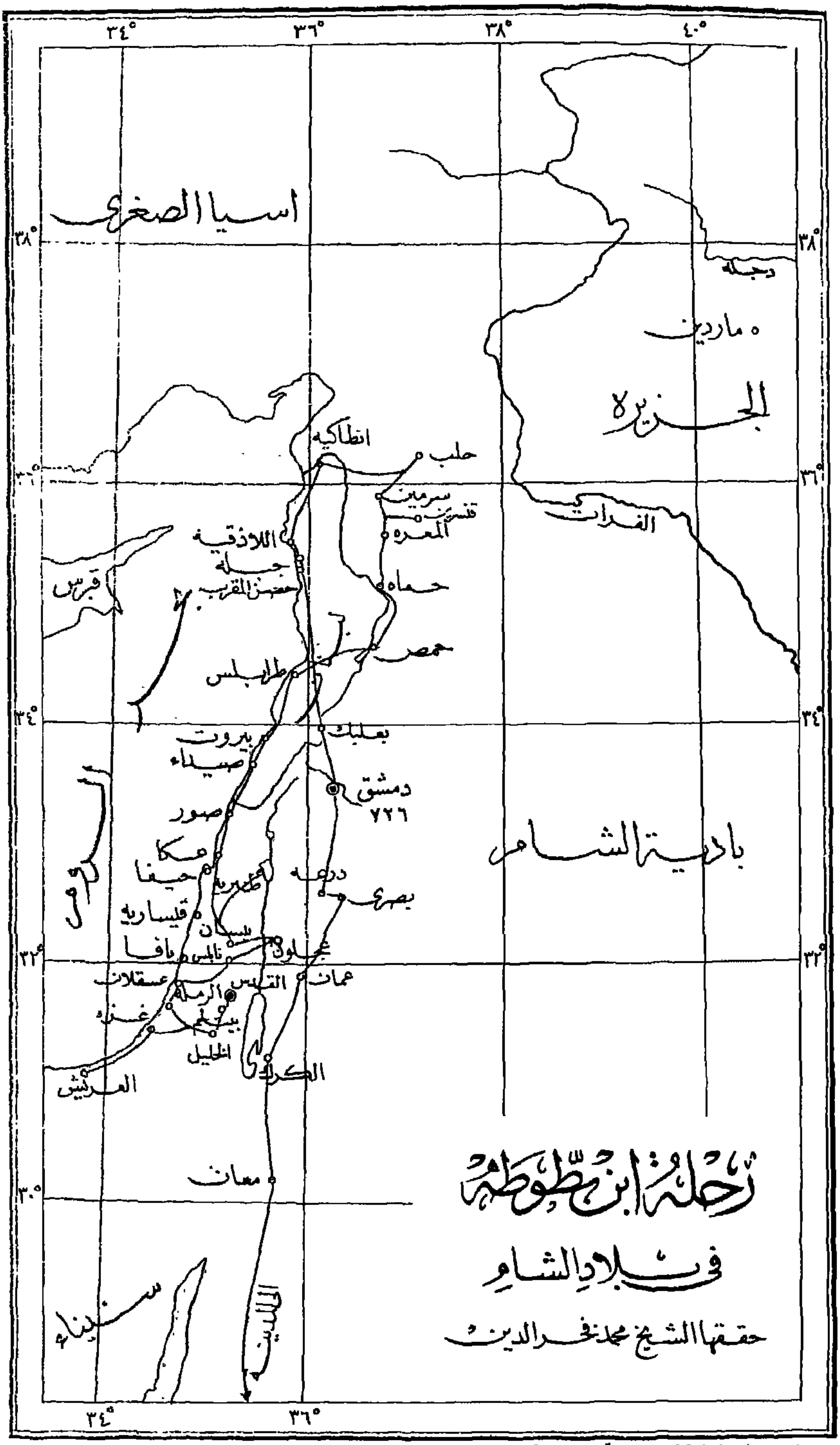

طبعت بمصلحة المساحة المصرية سنة ١٩٣٢ (G.٣٢/٩٢٣)

بالدار المعروفة بدار السعادة . ومن عاداته أن يركب فى كل يوم اثنين وخميس ، ويركب معه الأمراء والعساكر ، ويخرج إلى ظاهر المدينة ، فإذا عاد إليها وقارب الوصول إلى منزله ، ترجل الأمراء ونزلوا عن دوابهم ، ومشوا بين يديه ، حتى يدخل منزله ، وينصرفون ، وتضرب الطَّبْلَخانة (١) عند دار كل أمير منهم بعد صلاة المغرب من كل يوم ، وتوقد المشاعل . ومن كان بها من الأعلام كاتب السر بهاء الدين بن غانم أحد الفضلاء الحُسَبَاء ، معروف بالسخاء والكرم ، وأخوه حسام الدين هو شيخ القدس الشريف ، وقد ذكرناه ، وأخوهما علاء الدين كاتب السر بدمشق . ومنهم وكيل بيت المال قِوام الدين بن مِكين ، من أكابر الرجال . ومنهم قاضى قضاتها شمس الدين بن النقيب من أعلام علماء الشام . وبهذه المدينة حمامات حسان ، منها حمام القاضى القِرِمى ، وحمام سَنْدَمور . وكان سندمور أمير هذه المدينة . ويذكر عنه أخبار كثيرة فى الشدة على أهل الجنايات : منها أن امرأة شكت إليه أن أحد مماليكه الخواص ، تعدى عليها فى لبن كانت تبيعه فشربه ، ولم تكن لها بينة ، فأمر به فَوُسِّط (٢) فخرج اللبن من مُصرانه . وقد اتفق مثل هذه الحكاية للعتريس ، أحد أمراء الملك الناصر أيام إمارته على عيذاب ، واتفق مثلها للملك كِبَك سلطان تُرْكَستان .

ثم سافرت من طرابلس إلى حصن الأكراد ، وهو بلد صغير كثير الأشجار والأنهار بأعلى تل ، وبه زاوية تعرف بزاوية الإبراهيمى ، نسبة إلى بعض كبراء الأمراء ، ونزلت عند قاضيها ولا أحقق الآن اسمه . ثم سافرت إلى مدينة حِمْص ، وهى مدينة مليحة ، أرجاؤها مُونِقَة ، وأشجارها مورقة ، وأنهارها متدفقة ، وأسواقها فسيحة الشوارع ، وجامعها متميز بالحسن الجامع ، وفى وسطه بركة ماء . وأهل حمص عرب لهم فضل وكرم .

---

(١) الموسيقا العسكرية .

(٢) قطع نصفين .

وبخارج هذه المدينة قبر خالد بن الوليد سيف الله ورسوله ، وعليه زاوية ومسجد ، وعلى القبر كسوة سوداء . وقاضي هذه المدينة جمال الدين الشَّرِيشيّ ، من أجمل الناس صورة ، وأحسنهم سيرة . ثم سافرت منها إلى مدينة حَمَاه ، إحدى أمهات الشام الرفيعة ، ومدائنها البديعة ، ذات الحسن الرائق ، والجمال الفائق ، تَحُفّ بها البساتين والجنات ، عليها النواعير كالأفلاك الدائرات ، يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصى . ولها رَبَض سمى بالمنصورية ، أعظم من المدينة ، فيه الأسواق الحافلة والحمامات الحسان . وبحماة الفواكه الكثيرة ، ومنها المِشْمِش اللوزى ، إذا كسرت نواته وجدت فى داخلها لوزة حلوة . قال ابن جزى : وفى هذه المدينة ونهرها ونواعيرها وبساتينها يقول الأديب الرحال ، نور الدين أبو الحسن على بن موسى بن سعيد العَنْسِيّ العَمَّارى الغَرْناطى ، نسبة لعمار بن ياسر ، رضى الله عنه :

حمى الله من شطّى حماة مناظرا ... وقفت عليها السمع والفكر والطرفا
تغنى حمام أو تميل خمائل ... وتُزْهَى مبان تمنع الواصف الوصفا
يلومونى أن أعصى الصون والنُّهى ... وأنى أطيع الكأس واللهو والقَصْفا
وأشدو لدى تلك النواعر شَدْوَها ... وأغلبها رقصا وأشبهها غرفا
تئن وتُذرى دمعها فكأنها ... تهيم بمرآها وتسألها العطفا

ولبعضهم فى نواعيرها ذاهبا مذهب التورية :

وناعورة رقت لِعُظْمِ خطيئتى ... وقد عاينت قصدى من المنزل القاصى
بكت رحمة لى ثم باحت بِشَجْوِها ... وحسبك أن الخشب تبكى على العاصى

ولبعض المتأخرين فيها أيضا ، من التورية :

يا سادة سكنوا حماة وحقكم ... ما حلت عن تقوى وعن إخلاص
والطرف بعدكم إذا ذكر اللقا ... يُجرِى المدامع طائعا كالعاصى

(رجع) ثم سافرت إلى مدينـة المعَرَّة التى ينسب إليهـا الشاعر أبو العلاء المعرى وكثير سواه من الشعراء . قال ابن جزى : وإنمـا سميت بمعرة النعمان لأن النعمان بن بشـير الأنصارى ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، توفى له ولد أيام إمارته على حمص ، فدفنه بالمعرة ، فعرفت به ، وكانت قبل ذلك تسمى ذات القصور . وقيل إن النعمان جبـل مُطِلٌّ عليها سميت به .

(رجع) والمعرة مدينة كبيرة حسنة ، أكثر شجرها التين والفستق ، ومنها يحمل إلى مصر والشام . وبخارجها على فرسخ منها قبر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، ولا زاوية عليـه ولا خادم له . وسبب ذلك أنه وقع فى بلاد صـنف من الرافضـة أرجاس ، يبغضون العَشَرَة من الصحابة رضى الله عنهـم ، ولَعَنَ مبغضهم . ويبغضون كل من اسمه عمر ، وخصوصا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، لمـا كان من فعله فى تعظيم علىّ ، رضى الله عنه .

ثم سرنا منها إلى مدينة سَرْمِين ، وهى حسنة كثيرة البساتين . وأكثر شجرها الزيتون . وبها يصـنع الصابون الآجُرِّى ، ويجلب إلى مصر والشـام . ويصنع بها أيضا الصابون المطيّب ، لغسـل الأيدى ، ويصبغونه بالحمرة والصفرة . ويصـنع بها ثياب قطن حسان ، تنسب إليها . وأهلها سبابون يبغضون العَشَرَة[1] . ومن العجب أنهم لا يذكرون لفظ العشرة . وينادى سماسرتهم بالأسواق على السلع ، فإذا بلغوا إلى العشرة ، قالوا : تسعة وواحد . وحضر بها بعض الأتراك يوما فسمع سمسارا ينادى : تسعة وواحد ، فضربه بالدبوس[2] على رأسه وقال : قل عشرة بالدبوس . وبها مسجد جامع فيه تسع قباب ، ولم يجعلوها عشراً قياما بمذهبهم القبيح .

---

(١) هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) الدبوس كتنور واحد الدبابيس للمقـامع ، كأنه معرب . قاموس .

وصف مدينة حلب

ثم سرنا إلى مدينة حلب ، المدينة الكبرى ، والقاعدة العظمى . قال أبو الحسين ابن جُبَيْر فى وصفها : قدرها خطير، وذكرها فى كل زمان يطير، خُطَّابها من الملوك كثير ، ومحلها من النفوس أثير، فكم هاجت من كفاح ، وسل عليها من بيض الصفاح . لها قلعة شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، تنزهت حصانة من أن ترام أو تستطاع ، منحوتة الأرجاء ، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء ، قد طاولت الأيام والأعوام ، وشيعت الخواص والعوام . أين أمراؤها الحَمْدَانيون وشعراؤها ؟ فنى جميعهم ولم يبق إلا بناؤها . فيا عجبا لبلاد تبقى ويذهب أملاكها ، ويهلكون ولا يقضى هلاكها ، وتخطب بعدهم فلا يتعذر إملاكها ، وترام فيتيسر بأهون شىء إدراكها ! هذه حلب كم أدخلت ملوكها فى خبر كان ، ونسخت ظرف الزمان بالمكان ، أنث اسمها فتحلت بحلية الغوان ، وانجلت عروسا بعد سيف دولتها ابن حمدان . هيهات هيهات سَيَهْرَم شبابها ، ويعدم خطابها ، ويسرع فيها بعد حين خرابها .

وقلعة حلب تسمى الشهباء . وبداخلها جُبَّان ينبع منهما الماء ، فلا تخاف الظمأ . ويُطِيف بها سوران ، وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء . وسورها متدانى الأبراج ، وقد انتظمت بها العلالى العجيبة المفتحة الطيقان ، وكل برج منها مسكون . والطعام لايتغير بهذه القلعة على طول العهد . وبها مشهد يقصده بعض الناس ، يقال : إن الخليل عليه السلام كان يتعبد به . وهذه القلعة تشبه قلعة رَحْبة مالك بن طوق التى على الفرات ،

بين الشام والعراق . ولما قصد قازان طاغية التتر مدينة حلب ، حاصر هذه القلعة أياما ، ونكص عنها خائبا . قال ابن جزى : وفى هذه القلعة يقول الخالدىّ شاعر سيف الدولة :

وخرقاء قد قامت على من يرومها ... بمرقبها العالى وجانبها الصعبِ
يجر عليها الجو جيب غمامه ... ويلبسها عقدا بأنجمه الشهب
إذا ما سرى برق بدت من خلاله ... كما لاحت العذراء من خَلَل السحب
فكم من جنود قد أماتت بغصة ... وذى سطوات قد أبانت على عقب

وفيها يقول أيضا وهو من بديع النظم :

وقلعة عانق العنقاء سافلها ... وجاز مِنْطَقَة الجوزاء عاليها
لا تعرف القطر إذ كان الغمام لها ... أرضا تَوَطَّأُ قطريه مواشيها
يعد من أنجم الأفلاك مَرْقَبُها ... لو أنه كان يجرى فى مجاريها

(رجع) ويقال فى مدينة حلب : حلب إبراهيم ، لأن الخليل (صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه) كان يسكنها ، وكانت له الغنم الكثيرة فكان يسقى الفقراء والمساكين والوارد والصادر من ألبانها ، فكانوا يجتمعون ويسألون حلب إبراهيم ، فسميت بذلك . وهى من أعز البلاد التى لا نظير لها فى حسن الوضع ، وإتقان الترتيب واتساع الأسواق ، وانتظام بعضها ببعض . وأسواقها مسقوفة بالخشب ، فأهلها دائما فى ظل ممدود . ومسجدها الجامع من أجمل المساجد ، فى صحنه بركة ماء ، ويطيف به بلاط عظيم الاتساع ، ومنبرها بديع العمل مرصع بالعاج والأَبَنُوس . وبقرب جامعها مدرسة مناسبة له فى حسن الوضع ، وإتقان الصنعة ، تنسب لأمراء بنى حمدان[1] ، وبالبلد سواها ثلاث مدارس ، وبها مارَسْتان . وأما خارج المدينة فهو

(١) هم أمراء من أصل عربى حكموا مقاطعة حلب وما بين النهرين فى العصر العباسى الثالث من سنة ٩٢٩ الى سنة ١٠٠٣ م وأشهرهم سيف الدولة ممدوح المتنبى .

بسيط أفيح[١] ، عريض ، به المزارع العظيمة ، وشجرات الأعناب منتظمة به ، والبساتين على شاطئ نهرها ، وهو النهر الذى يمر بحماة ، ويسمى العاصى[٢] ، وقيل إنه سمى بذلك لأنه يخيل لناظره أن جريانه من أسفل إلى علو . والنفس تجد فى خارج مدينة حلب انشراحا وسرورا ونشاطا لا يكون فى سواها ، وهى من المدن التى تصلح للخلافة .

وبحلب ملك الأمراء أَرغون الدوادار ، أكبر أمراء الملك الناصر ، وهو من الفقهاء ، موصوف بالعدل لكنه بخيل . والقضاة بحلب أربعة للمذاهب الأربعة : فمنهم القاضى كمال الدين بن الزَّمْلَكانِى ، شافعى المذهب ، عالى الهمة ، كبير القدر ، كريم النفس ، حسن الأخلاق ، متفنن بالعلوم . وكان الملك الناصر قد بعث إليه ليوليه قضاء القضاة بحاضرة ملكه ، فلم يقض له ذلك ، وتوفى بِبُلْبِيْس وهو متوجه إليها . ولما ولى قضاء حلب قصدته الشعراء من دمشق وسواها ، وكان فيمن قصده شاعر الشام جمال الدين أبو بكر محمد ابن الشيخ المحدث شمس الدين أبى عبد الله ، محمد بن نباتة القرشى الأموى الفاروقى ، فامتدحه بقصيدة طويلة حافلة ، أولها :

أسِفت لفقدك جِلَّقُ[٣] الفيحاء ... وتباشرت لقدومك الشهباء
وعلا دِمشق ، وقد رحلت ، كآبة ... وعلا ربا حلب سنا وسناء
قد أشرقت دار سكنت فِناءها ... حتى غدت ولنورها لألاء
ياسائلا سَنَّ المكارم والعلا ... ممن يُحَصِّل عنده الكرماء
هذا كمال الدين لذ بجنابه ... تنعم ، فثم الفضل والنعماء

(١) أفيح متسع .
(٢) خطأ ظاهر لأن العاصى لا يمر فى حلب . والنهر الذى يمر فيها اسمه : "القويق" .
(٣) جِلَّق : دِمَشْق .

قاض زكا أصلا وفرعا فاعتلى شرفت به الآباء والابناء
منّ الإله على بنى حلب بهِ لله وضْعُ الفضل حيث يشاء
كشف المعمّى فهمه وبيانه فكأنما ذاك الذكاء ذُكاء
ياحاكم الحكام قدرك سابق عن أن تسرك رتبة شماء
إن المناصب دون همتك التى فى الفضل دون محلها الجوزاء
لك فى العلوم فضائل مشهورة كالصبح شق له الظلام ضياء
ومناقب شهد العدوّ بفضلها والفضل ماشهدت به الأعداء

وهى أزيد من خمسين بيتا ، وأجازه عليها بكسوة ودراهم . وانتقد عليه الشعراء ابتداءه بلفظ أسفت، قال ابن جزى : وليس كلامه فى هذه القصيدة بذاك ، وهو فى المقطعات أجود منه فى القصائد ، وإليه انتهت الرياسة فى الشعر على هذا العهد فى جميع بلاد الشرق. وهو من ذرية الخطيب أبى يحيى عبد الرحيم بن نباتة، منشئ الخطب الصغيرة . ومن بديع مقطعاته فى التورية قوله :

علّقتُها غيداء حالية العلا تجنى على عقل المحب وقلبه
بخلت بلؤلؤ ثغرها عن لاثم فغدت مطوقة بما بخلت به

ثم سافرت منها إلى مدينة تِيزِين وهى على طريق قِنَّسْرين، وهى حديثة اتخذها التُّركمان . وأسواقها حسان ومساجدها فى نهاية من الإتقان ، وقاضيها بدر الدين العسقلانى . وكانت مدينة قنسرين قديمة كبيرة، ثم خربت ولم يبق إلا رسومها . ثم سافرت إلى مدينة أَنْطاكِيَة وهى مدينة عظيمة ، وكان عليها سور محكم لا نظير له فى أسوار بلاد الشام . فلما فتحها الملك الظاهر هدم سورها . وأَنْطاكِيَة كثيرة العمارة ، ودورها حسنة البناء كثيرة الأشجار والمياه . وبخارجها نهر العاصى . وبها قبر حبيب النجار رضى

الله عنه ، وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر ، شيخها الصالح المعمر محمد بن على ، سنه تُنَيِّف على المائة ، وهو ممتع بقوته ، دخلت عليه مرة فى بستان له وقد جمع حطبا ورفعه على كاهله ليأتى به منزله بالمدينة . ورأيت ابنه قد أناف على الثمانين ، إلا أنه محدودب الظهر لا يستطيع النهوض ، ومن يراهما يظن الوالد منهما ولدا والولد والدا . ثم سافرت إلى حصن بُغْراس ، وهو حصن منيع لا يرام ، عليه البساتين والمزارع ، ومنه يدخل الى بلاد سِيس ، وهى بلاد كفار الأرمن ، وهم رعية للملك الناصر ، يؤدون إليه مالا ؛ ودراهمهم فضة خالصة . وأمير هذا الحصن صارم الدين بن الشيبانى ، وله ولد فاضل اسمه علاء الدين ، وابن أخ اسمه حسام الدين ، فاضل كريم يسكن الموضع المعروف بالرُّصُص ، ويحفظ الطريق إلى بلاد الأرمن .

حكاية

شكا الأرمن مرة إلى الملك الناصر من الأمير حسام الدين ، وزوّروا عليه أمورا لا تليق ، فنفذ أمره لأمير الأمراء بحلب ان يَخْنُقَه . فلما توجه الأمير ، بلغ ذلك صديقا له من كبار الأمراء فدخل على الملك الناصر وقال : يا خُوند(1) إن الأمير حسام الدين هو من خيار الأمراء ، ينصح للمسلمين ويحفظ الطريق ، وهو من الشجعان ، والأرمن يريدون الفساد فى بلاد المسلمين ، فيمنعهم ويقهرهم ، وإنما أرادوا إضعاف شوكة المسلمين بقتله . ولم يزل به حتى أنفذ أمرا ثانيا بسراحه ، والخلع عليه ورده لموضعه . ودعا الملك الناصر بريديا يعرف بالأَقُوش ، وكان لا يبعث إلا فى مهم ، أمره بالإسراع والجد فى السير ، فسار من مصر إلى حلب فى خمس ، وهى مسيرة شهر ، فوجد أمير حلب قد أحضر حسام الدين وأخرجه إلى الموضع الذى يخنق به الناس ، فخلصه الله تعالى ، وعاد إلى موضعه .

---

(1) يا سيدى .

ثم سافرت إلى حصن القُصَيْر، تصغير قصر، وهو حصن حسن، أميره علاء الدين الكردى، وقاضيه شهاب الدين الأَرْمَنْتى، من أهل الديار المصرية. ثم سافرت إلى حصن الشُّغْرُبُكاس، وهو منيع فى رأس شاهق، أميره سيف الدين الطُّنْطَاش، فاضل، وقاضيه جمال الدين بن شجرة، من أصحاب ابن تَيْمِيَّة. ثم سافرت إلى مدينة صِهيون، وهى مدينة حسنة، بها الأنهار المطردة، والأشجار المورقة، ولها قلعة جيدة، وأميرها يعرف بالإبراهيمى، وقاضيها محيْى الدين الحِمْصى، وبخارجها زاوية فى وسط بستان، فيها الطعام للوارد والصادر، وهى على قبر الصالح العابد عيسى البدوى رحمه الله، وقد زرت قبره. ثم سافرت منها فمررت بحصن القَدْمُوس، ثم بحصن المَيْنَقَة، ثم بحصن العُلَيِّقة، واسمه على لفظ واحدة العليق، ثم بحصن مِصْيَاف، ثم بحصن الكهف. وهذه الحصون لطائفة يقال لهم الإسماعيلية، ويقال لهم الفِداوية، ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم، وهم سهام الملك الناصر، بهم يصيب من يعدو عليه من أعدائه بالعراق وغيرها، ولهم المرتبات. وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدوّ له أعطاه ديته، فإن سلم بعد تأتِّى ما يراد منه، فهى له، وإن أصيب فهى لولده. ولهم سكاكين مسمومة، يضربون بها من بعثوا إلى قتله. وربما لم تصح حيلهم فقتلوا، كما جرى لهم مع الأمير قَراسَنْقُور، فإنه لما هرب إلى العراق بعث إليه الملك الناصر جملة منهم، فقتلوا ولم يقدروا عليه لأخذه بالحزم.

حكاية

كان قَراسَنْقُور من كبار الأمراء، وممن حضر قتل الملك الأشرف أخى الملك الناصر، وشارك فيه . ولما تمهد الملك للملك الناصر، وقربه القرار، واشتدت أواخى(1) سلطانه، جعل يتتبع قتلة أخيه فيقتلهم واحدا واحدا إظهارا للأخذ بثار أخيه، وخوفا أن يتجاسروا عليه بما تجاسروا على أخيه . وكان قراسنقور أمير الأمراء بحلب، فكتب الملك الناصر إلى جميع الأمراء أن ينفروا بعساكرهم، وجعل لهم ميعادا يكون فيه اجتماعهم بحلب ونزولهم عليها، حتى يقبضوا عليه. فلما فعلوا ذلك خاف قراسنقور على نفسه، وكان له ثمانمائة مملوك، فركب فيهم وخرج على العساكر صباحا فاخترقهم وأعجزهم سبقا، وكانوا فى عشرين ألفا، وقصد منزل أمير العرب مَهْنا بن عيسى، وهو على مسيرة يومين من حلب . وكان مهنا فى قنص له، فقصد بيته ونزل عن فرسه وألقى العمامة فى عنق نفسه، ونادى: الجوار يا أمير العرب . وكانت هنالك أم الفضل زوج مهنا وبنت عمه، فقالت له : "قد أجرناك وأجرنا من معك" فقال : " إنما أطلب أولادى ومالى" فقالت له : " لك ما تحب فانزل فى جوارنا " ففعل ذلك. وأتى مهنا فأحسن نُزُله وحكمه فى ماله فقال: " إنما أحب أهلى ومالى الذى تركته بحلب ". فدعا مهنا بإخوته وبنى عمه فشاورهم فى أمره، فمنهم من أجابه إلى ما أراد، ومنهم من قال له : كيف نحارب الملك الناصر، ونحن فى بلاده بالشام ؟ فقال لهم مهنا : أما أنا فأفعل لهذا الرجل ما يريده، وأذهب معه إلى سلطان العراق. وفى أثناء ذلك ورد عليهم الخبر بأن أولاد قراسنقور سُيِّروا على البريد إلى مصر، فقال مهنا لقراسنقور : " أما أولادك فلا حيلة فيهم وأما مالك فنجتهد فى خلاصه "

---

(1) الأواخى : مفرده أخيَّة، عود فى حائط أو فى حبل يدفن طرفاه فى الأرض و يبرز طرفه كالحلقة تشد فيها الدابة . والكلام على التشبيه .

فركب فيمن أطاعه من أهله ، واستنفر من العرب نحو خمسة وعشرين ألفا ، وقصدوا حلب ، فأحرقوا باب قلعتها وتغلبوا عليها ، واستخلصوا منها مال قراسنقور ومن بقى من أهله ، ولم يتعدوا إلى سوى ذلك . وقصدوا ملك العراق وصحبهم أمير حمص الأفرم ، ووصلوا إلى الملك محمد خُدَا بَنْدَه سلطان العراق ، وهو بموضع مصيفه المسمى قراباغ ، وهو ما بين السلطانية وتَبْريز . فأكرم نزلهم وأعطى مهنا عراق العرب ، وأعطى قراسنقور مدينة مَرَاغة من عراق العجم ، وتسمى دمشق الصغيرة ، وأعطى الأفرم هَمْدَان . وأقاموا عنده مدة مات فيها الأفرم ، وعاد مهنا إلى الملك الناصر ، بعد مواثيق وعهود أخذها منه ، وبقى قراسنقور على حاله . وكان الملك الناصر يبعث له الفِداوية مرة بعد مرة . فمنهم من يدخل عليه داره فيقتل دونه ، ومنهم من يرمى بنفسه عليه وهو راكب فيضربه . وقتل بسببه من الفداوية جماعة . وكان لا يفارق الدرع أبدا . فلما مات السلطان محمد وولى ابنه أبو سعيد ، وقع ما سنذكره من أمر الجُوبان ، كبير أمرائه وفرار ولده الدِّمُرْطاش إلى الملك الناصر . ووقعت المراسلة بين الملك الناصر وبين أبى سعيد واتفقا على أن يبعث أبو سعيد إلى الملك الناصر برأس قراسنقور ، ويبعث إليه الملك الناصر برأس الدمرطاش . فبعث الملك الناصر برأس الدمرطاش إلى أبى سعيد . فلما وصله أمر بحمل قراسنقور إليه . فلما عرف قراسنقور ذلك أخذ خاتما كان له مجوفا فى داخله سم ناقع ، فنزع فصه وامتص ذلك السم فمات لحينه . فعرف أبو سعيد بذلك الملك الناصر ولم يبعث له برأسه .

ثم سافرت من حصون الفداوية إلى مدينة جَبَلة ، وهى ذات أنهار مطردة وأشجار ، والبحر على نحو ميل منها ، وبها قبر الولى الصالح الشهير إبراهيم ابن أدهم رضى الله عنه ، وهو الذى نبذ الملك ، وانقطع إلى الله تعالى كما شهر ذلك . ولم يكن إبراهيم من بيت ملك كما يظنه الناس ، إنما ورث الملك عن جده أبى أمه ، وأما أبوه أدهم فكان من الفقراء الصالحين السائحين المتعبدين الورعين المنقطعين .

حكاية أدهم (١)

يذكر أنه مر ذات يوم ببساتين مدينـة بخارى وتوضأ من بعض الأنهار التي تتخللها ، فإذا بتفاحة يحملها ماء النهر ، فقال : هذه لا خطر لها ، فأكلها ، ثم وقع فى خاطره من ذلك وَسْـواس ، فعزم على أن يستحل من صاحب البستان ، فقرع باب البستان فخرجت إليه جارية فقال لها : ادعى لى صاحب المنزل ، فقالت : إنه لامرأة ، فقال : استأذنى لى عليها ، ففعلت ، فأخبر المرأة بخبر التفاحة ، فقالت له : إن هذا البستان نصفه لى ونصفه للسلطان ، والسلطان يومئذ ببَلْخ ، وهى مسيرة عشرة من بخارى ، وأحلته المرأة من نصفها . وذهب إلى بلخ فاعترض السلطان فى مَوْكبه ، فأخبره الخبر واستحله ، فأمره أن يعود إليه من الغد . وكان للسلطان بنت بارعة الجمـال ، قد خطبها أبناء الملوك فتمنعت ، وحببت إليها العبادة وحب الصالحين ، وهى تحب أن تتزوج من ورع زاهد فى الدنيا . فلما عاد السلطان إلى منزله ، أخبر بنته بخبر أدهم ، وقال : ما رأيت أورع من هذا ، يأتى من بخارى إلى بلخ لأجل نصف تفاحة ! فرغبت فى تزوجه ، فلما أتاه من الغد قال : لا أحلك إلا أن تتزوج ببنتى ، فانقاد لذلك بعد استعصاء وتمنع ، فتزوج منها ، فولدت إبراهيم . ولم يكن لجده ولد ، فأسند الملك إليه ، وكان من تخليه عن الملك ما اشتهر .

وعلى قبر إبراهيم بن أدهم زاوية حسنة فيها بركة ماء ، وبها الطعام للصادر والوارد ، وخادمها إبراهيم الجُمحى من كبار الصالحين . والناس يقصدون هذه الزاوية ليلة النصف من شعبان من سائر أقطار الشام ، ويقيمون بها ثلاثا . ويقوم بها خارج المدينـة سوق عظيم فيه من كل شىء . ويَقْـدَمُ الفقراء المتجردون من الآفاق لحضور هـذا الموسم ، وكل من يأتى من الزوار لهذه

(١) تكاد تكون غير معقولة .

التربة يعطى خادمها شمعة ، فيجتمع من ذلك قناطير كثيرة . وأكثر أهل هذه السواحل هم الطائفة النُّصَيْرية ، الذين يعتقدون أن علىّ بن أبى طالب إله . وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يصومون . وكان الملك الظاهر ألزمهم بناء المساجد بقراهم ، فبنوا بكل قرية مسجدا بعيدا عن العمارة ، ولا يدخلونه ، ولا يعمرونه ، وربما أوت إليه مواشيهم ودوابهم ، وربما وصل الغريب إليهم فيتزل بالمسجد ويؤذن للصلاة فيقولون له : لا تَنْهَقْ ، علفك يأتيك . وعددهم كثير .

حكاية

ذكر لى أن رجلا مجهولا وقع ببلاد هذه الطائفة ، فادعى الهداية ، وتكاثروا عليه ، فوعدهم بتملك البلاد ، وقسم بينهم بلاد الشام . وكان يعين لهم البلاد ويأمرهم بالخروج إليها ، ويعطيهم من ورق الزيتون ويقول لهم : " استظهروا بها فإنها كالأوامر لكم " ، فإذا خرج أحدهم إلى بلد أحضره أميرها ، فيقول له : "إن الإمام المهدى أعطانى هذا البلد" فيقول له : أين الأمر؟ فيخرج ورق الزيتون ، فيضرب ويحبس . ثم إنه أمرهم بالتجهيز لقتال المسلمين ، وأن يبدءوا بمدينة جَبَلة ، وأمرهم أن يأخذوا عوض السيوف قضبان الآس ، ووعدهم أنها تصير فى أيديهم سيوفا عند القتال . فغدروا مدينة جبلة وأهلها فى صلاة الجمعة ، فدخلوا الدور وهتكوا الحريم ، وثار المسلمون من مسجدهم ، فأخذوا السلاح وقتلوهم كيف شاءوا . واتصل الخبر باللاذقية ، فأقبل أميرها بَهادِر عبد الله بعسكره ، وطيرت الحمام إلى طرابلس ، فأتى أمير الأمراء بعساكره ، وأتبعوهم حتى قتلوا منهم نحو عشرين ألفا ، وتحصن الباقون بالجبال . وراسلوا ملك الأمراء ، والتزموا أن يعطوه دينارا عن كل رأس إن هو حاول إبقاءهم . وكان الخبر قد طير به الحمام

إلى الملك الناصر ، وصدر جوابه أن يحمل عليهم السيف ، فراجعه ملك الأمراء ، وألقى له أنهم عمال المسلمين فى حراثة الأرض ، وأنهم إن قتلوا ضعف المسلمون لذلك ، فأمر بالإبقاء عليهم .

ثم سافرت إلى مدينة اللاذقية وهى مدينة عتيقة على ساحل البحر، يزعمون أنها مدينة الملك الذى كان يأخذ كل سفينة غصبا . وكنت إنما قصدتها لزيارة الولى الصالح عبد المحسن الإسكندرى . فلما وصلتها وجدته غائبا بالحجاز الشريف ، فلقيت من أصحابه الشيخين الصالحين سعيدا البِجائى ويحيي السَلَاوى ، وهما بمسجد علاء الدين بن البهاء ، أحد فضلاء الشام وكبرائها ، صاحب الصدقات والمكارم . وكان قد عمر لهما زاوية بقرب المسجد وجعل بها الطعام للوارد والصادر . وقاضيها الفقيه الفاضل جلال الدين عبد الحق المصرى المالكى ، فاضل كريم ، تعلق بِطَيْلان ملك الأمراء فولاه قضاءها .

وبخارج اللاذقية الدّيْر المعروف بدير الفاروص ، وهو أعظم دير بالشام ومصر ، يسكنه الرهبان ، ويقصده النصارى من الآفاق ، وكل من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيفونه ، وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخل والكَبَر . وميناء هذه المدينة عليه سلسلة بين برجين ، لا يدخله أحد ولا يخرج منه حتى تحط له السلسلة ، وهو من أحسن المراسى بالشام .

ثم سافرت إلى حصن المرقب وهو من الحصون العظيمة ، يماثل حصن الكَرَك ، ومبناه على جبل شامخ ، وخارجه ربض ينزله الغرباء ، ولا يدخلون قلعته . وافتتحه من أيدى الروم الملك المنصور قلاوون . وعليه ولد ابنه الملك الناصر . وكان قاضيه برهان الدين المصرى ، من أفاضل القضاة وكرمائهم .
ثم سافرت إلى الجبل الأقرع ، وهو أعلى جبل بالشام ، وأول ما يظهر منها من البحر . وسكانه التُّركمان ، وفيه العيون والأنهار . وسافرت منه إلى جبل لُبْنَان ، وهو من أخصب جبال الدنيا ، فيه أصناف الفواكه وعيون الماء ، والظلال الوافرة ، ولا يخلو من المنقطعين إلى الله تعالى والزهاد والصالحين ، وهو شهير بذلك . ورأيت به جماعة من الصالحين قد انقطعوا إلى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه .

حكاية

أخبرنى بعض الصالحين الذين لقيتهم به ، قال : كنا بهـذا الجبل مع جماعة من الفقراء أيام البرد الشـديد ، فأوقدنا نارا عظيمة وأحدقنا بها ، فقال بعض الحاضرين : يصلح لهذه النار ما يشوى فيها . فقال أحد الفقراء ممن تزدريه الأعين ولا يعبأ به : " إنى كنت عند صلاة العصر بمتعبد إبراهيم ابن أدهم ، فرأيت بمقربة منه حمار وحش قد أحدق الثلج به من كل جانب ، وأظنه لا يقدر على الحراك . فلو ذهبتم إليه لقدرتم عليه وشويتم لحمه فى هذه النار ، قال : فقمنا إليه فى خمسة رجال ، فلقيناه كما وصف لنا ، فقبضناه وأتينا به أصحابنا ، وذبحناه وشوينا لحمه فى تلك النار . وطلبنا الفقير الذى نبه عليه فلم نجده ، ولا وقعنا له على أثر ، فطال عجبنا منه .

ثم وصلنا من جبل لبنان إلى مدينة بَعْلَبَك ، وهى حسنة قديمة من أطيب مدن الشام ، تحـدق بها البساتين الشريفة ، والجنات المنيفة ، وتخـترق أرضها الأنهار الجارية ، وتضاهى دمشق فى خيراتها المتناهية ، وبها يصنع الدِبس المنسوب إليها ، وهو نوع من الرُّب يصنعونه من العنب ، ولهم تربة يضعونها فيه ، فيجمد ، وتكسر القلة التى يكون بها فيبقى قطعة واحدة . وتصنع منه الحلواء ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمونها حلواء بالمُلَبَّن ، ويسمونها أيضا بجـلد الفرس . وهى كثيرة الألبان وتجلب منها إلى دمشق ، وبينهما مسيرة يوم للجد ، وأما الرفاق فيخرجون من بعلبك فيبيتون ببلدة صغيرة تعرف بالزَّبَدَانِى ، كثيرة الفواكه ، ويغدون منها إلى دمشق . ويصـنع ببعلبك الثياب المنسوبة إليها من الإحرام وغيره . ويصنع بها أوانى الخشب وملاعقه التى لا نظير لها فى البلاد ، وهم يسمون الصحاف بالدسوت ، وربمـا صنعوا

الصَّحفة وصنعوا صحفة أخرى تسع فى جوفها أخرى إلى أن يبلغوا العشر، يخيل لرائيها أنها صحفة واحدة . وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرا واحدة فى جوف واحدة، ويصنعون لها غشاء من جلد ، ويمسكها الرجل فى حزامه . وإذا حضر طعاما مع أصحابه أخرج ذلك فيظن رائيه أنها مِلْعقة واحدة ، ثم يخرج من جوفها تسعا . وكان دخولى لبعلبك عشية النهار ، وخرجت منها بالغُدُوّ لفرط اشتياقى إلى دمشق .

وصف دِمَشْق

ووصلت يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم، عام ستة وعشرين إلى مدينة دمشق الشام ، فنزلت منها بمدرسة المالكية المعروفة بالشرابشية . ودمشق هى التى تفضل جميع البلاد حسنا وتتقدمها جمالا . وكل وصف وإن طال فهو قاصر عن محاسنها، ولا أبدع مما قاله أبو الحسين ابن جبير رحمه الله تعالى فى ذكرها . قال : وأما دمشق فهى جنة المشرق ، ومطلع نورها المشرق ، وخاتمة بلاد الإسلام التى استقريناها ، وعروس المدن التى اجتليناها ، قد تحلت بأزاهير الرياحين ، وتجلت فى حلل سندسية من البساتين ، وحلت موضع الحسن بالمكان المكين ، وتزينت فى منصتها أجمل تزيين ، وتشرفت بأن أوى المسيح عليه السلام وأمه منها إلى رَبْوة ذات قرار ومعين . ظل ظليل ، وماء سلسبيل ، ورياض يحيى النفوس نسيمها العليل ، تتبرج لناظريها بمُجْتَلًى صقيل، وتناديهم : هلموا إلى مُعَرس للحسن ومَقِيل . وقد سئمت أرضها كثرة الماء ، حتى اشتاقت إلى الظَّمَاء، فتكاد تناديك بها الصم الصلاب : أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . وقد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر، والأكمام بالثمر،

وامتدت بشرقيها غُوطَتُها الخضراء امتداد البصر ، ولله صدق القائلين عنها : إن كانت الجنة فى الأرض فدمشق لا شك فيها ، و إن كانت فى السماء فهى تساميها وتحاذيها . قال ابن جزىّ : وقد نظم بعض شعرائها فى هذا المعنى فقال :

إن تكن جنة الخلود بأرض فدمشق ولا تكون سواها
أو تكن فى السماء فهى عليها قد أَبَدَّتْ(١) هواءها وهواها
بلد طيب ورب غفور فاغتنمها عشية وضحاها

وذكرها شيخنا المحدث الرحال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر بن حسان القَيْسى الوادى آشى ، نزيل تونس . ونَصَّ كلام ابن جبير ، ثم قال : ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد ، وتَوَّقَ الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد . قال ابن جزى : والذى قالته الشعراء فى وصف محاسن دمشق لا يحصر كثرة . وكان والدى رحمه الله كثيرا ما ينشد فى وصفها هذه الأبيات ، وهى لشرف الدين بن محسن رحمه الله تعالى :

دمشق بنا شوق إليها مُبَرِّحٌ و إن لَجَّ واش أو ألح عذول
بلاد بها الحصباء در وتربها عبير وأنفاس الشَمال شَمُول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق وصحّ نسيم الروض وهو عليل

وهذا من النمط العالى من الشعر . وقال فيها عرقلة الدمشقى الكلبي :

الشام شامة وجنة الدنيا كما إنسان مقلتها الغضيضة جِلَّق
من آسها لك جنة لا تنقضى ومن الشقيق جهنم لا تحرق

(١) يقال : أَبَدَّ العطاء بين الناس أعطى كلا بُدَّته أى حاجته .

وقال أيضا فيها :

أما دمشق بجنات معجلة ... للطالبين بها الولدان والحور
ما صاح فيها على أوتاره قمر ... إلا يغنيه قُمْرِيٌّ وشُحْرُور
ياحبذا ودروع الماء تنسجها ... أنامل الريح إلا أنها زور

وله فيها أشعار كثيرة سوى ذلك .

وقال فيها أبو الحسن على بن موسى بن سعد العَنْسى الغَرْناطى ، المدعو نور الدين :

دمشق منزِلنا حيث النعيم بدا ... مكملا وهو فى الآفاق مختصر
القُضْبُ راقصة والطير صادحة ... والزهر مرتفع والماء منحدر
وقد تجلت من اللذات أوجهها ... لكنها بظلال الدَّوْح تستتر
وكل واد به موسى يفجره ... وكل روض على حَافَاته الخَضِرُ

وقال فيها أيضا :

أما دمشق بجنة ... ينسى بها الوطنَ الغريب
لله أيام السبو ... ت بها ومنظرها العجيب
انظر بعينك هل ترى ... إلا محبا أو حبيب
فى موطن غنى الحما ... م به على رقص القضيب
وغدت أزاهر روضه ... تختال فى فرح وطيب

وأهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملا ، إنما يخرجون الى المتنزهات وشطوط الأنهار ، ودَوْحات الأشجار، بين البساتين النَضْرة، والمياه الجارية، فيكونون بها يومهم إلى الليل . وقد طال بنا الكلام فى محاسن دمشق ، فلنرجع إلى كلام الشيخ أبى عبد الله .

ذكر جامع دمشق المعروف بجامع بنى أمية

وهو أعظم مساجد الدنيا احتفالا ، وأتقنها صناعة ، وأبدعها حسنا وبهجة وكمالا ، ولا يعلم له نظير ، ولا يوجد له شبيه . وكان الذى تولى بناءه وإتقانه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان ، ووجّه إلى ملك الروم بقسطنطينية يأمره أن يبعث إليه الصناع ، فبعث إليه اثنى عشر ألف صانع . وكان موضع المسجد كنيسة ، فلما افتتح المسلمون دمشق ، دخل خالد بن الوليد رضى الله عنه من إحدى جهاتها بالسيف ، فانتهى إلى نصف الكنيسة ، ودخل أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه من الجهة الغربية صلحا ، فانتهى إلى نصف الكنيسة ، فصنع المسلمون من نصف الكنيسة الذى دخلوه عَنْوة مسجدا ، وبقى النصف الذى صالحوا عليه كنيسة . فلما عزم الوليد على زيادة الكنيسة فى المسجد ، طلب من الروم أن يبيعوا منه كنيستهم تلك بما شاءوا من عوض ، فأبوا عليه ، فانتزعها من أيديهم . وكانوا يزعمون أن الذى يهدمها يجن ، فذكروا ذلك للوليد ، فقال : أنا أول من يجن فى سبيل الله ، وأخذ الفأس وجعل يهدم بنفسه . فلما رأى المسلمون ذلك تتابعوا على الهدم ، وأكذب الله زعم الروم . وزين هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفُسَيْفِسَاء ، تخالطها أنواع الأصبغة الغريبة الحسن .

وذَرْع المسجد فى الطول من الشرق إلى الغرب مائتا خطوة ، وهى ثلاثمائة ذراع ، وعرضه من القبلة إلى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة ، وهى مائتا ذراع[1] ، وعدد شمسات الزجاج الملونة التى فيه أربع وسبعون ، وبلاطاته ثلاثة مستطيلة من شرق إلى غرب ، سعة كل بلاط منها ثمانى عشرة خطوة ، وقد قامت على أربع وخمسين سارية وثمانى أرجل جِصّية تتخللها ،

(١) الأصح : مائتا ذراع وذراعان ونصف ذراع .

وست أرجل مرخمة مرصعة بالرُّخام الملون ، قد صور فيها أشكال محاريب وسواها ، وهى تُقِلّ قبة الرَّصاص التى أمام المحراب المسماة بقبة النَّسْر ، كأنهم شبهوا المسجد نسرا طائرا ، والقبة رأسه . وهى من أعجب مبانى الدنيا ، ومن أى جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ذاهبة فى الهواء ، مُنِيفة على جميع مبانى البلد ، وتستدير بالصحن بلاطات ثلاثة من جهاته الشرقية والغربية والجوفية ، سعة كل بلاط منها عشر خُطا . وبها من السوارى ثلاث وثلاثون ، ومن الأرجل أربع عشرة ، وسعة الصحن مائة ذراع ، وهو من أجمل المناظر وأتمها حسنا . وبها يجتمع أهل المدينة بالعشايا ، فمن قارئ ومحدث ، ويكون انصرافهم بعد العشاء الأخيرة . وإذا لقى أحد كبرائهم من الفقهاء وسواهم صاحبا له أسرع كل منهما نحو صاحبه وحطّ رأسه . وفى هذا الصحن ثلاث من القباب ، إحداها فى غربيّه وهى أكبرها ، وتسمى قبة عائشة أم المؤمنين ، وهى قائمة على ثمانى سوار من الرخام ، مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة مَسْقُوفة بالرصاص ، يقال إن مال الجامع كان يُختزن بها . وذكر لى أن فوائد مُسْتَغَلَّات الجامع وجبايته نحو خمسة وعشرين ألف دينار ذهبا فى كل سنة . والقبة الثانية من شرقى الصحن على هيئة الأخرى إلا أنها أصغر منها ، قائمة على ثمان من سوارى الرخام ، وتسمى قبة زين العابدين . والقبة الثالثة فى وسط الصحن وهى صغيرة مثمنة من رخام عجيب محكم الإلصاق ، قائمة على أربع سوار من الرخام الناصع ، وتحتها شُبّاك حديد فى وسطه أنبوب نحاس ، يمج الماء إلى عُلُوّ فيرتفع ثم ينثنى كأنه قضيب لجين ، وهم يسمونه قفص الماء ، ويستحسن الناس وضع أفواههم فيه للشرب . وفى الجانب الشرقى من الصحن باب يفضى إلى مسجد بديع الوضع ، يسمى مشهد على بن أبى طالب رضى الله عنه . وفى قبلة المسجد المقصورة العظمى التى يؤم فيها إمام الشافعية . وفى الركن الشرقى منها إزاء المحراب خزانة

كبيرة فيها المصحف الكريم الذى وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى الشام . وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة ، فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم . وهنالك يحلف الناس غرماءهم ومن ادعوا عليه شيئا . وعن يسار المقصورة محراب الصحابة ، ويذكر أهل التاريخ أنه أول محراب وضع فى الإسلام ، وفيه يؤم إمام المالكية ، وعن يمين المقصورة محراب الحنفية وفيه يؤم إمامهم ، ويليه محراب الحنابلة وفيه يؤم إمامهم .

ولهذا المسجد ثلاث صوامع ، إحداها بشرقيه وهى من بناء الروم ، وبابها داخل المسجد ، وبأسفلها مَطْهَرة وبيوت للوضوء ، يغتسل فيها المعتكفون والملازمون للمسجد ويتوضئون . والصومعة الثانية بغربيه ، وهى أيضا من بناء الروم ، والصومعة الثالثة بشماله وهى من بناء المسلمين . وعدد المؤذنين به سبعون مؤذنا . وفى شرقى المسجد مقصورة كبيرة فيها صِهريج ماء ، وهى لطائفة الزيالعة[1] السودان . وفى وسط المسجد قبر زكريا عليه السلام ، وعليه تابوت معترض بين أسطوانتين ، مكسو بثوب حرير أسود مُعْلَم ، فيه مكتوب بالأبيض (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحي) . وهذا المسجد شهير الفضل . وقرأت فى فضائل دمشق عن سفيان الثَّوْرى أن الصلاة فى مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة . وفى الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : يُعبد الله فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة . ويقال إن الجدار القبلى منه وضعه نبى الله هود عليه السلام ، وأن قبره به . وقد رأيت على مقربة من مدينة ظَفَار اليمن ، بموضع يقال له الأحقاف بُنْيَة فيها قبر مكتوب عليه : هذا قبر هود بن عابر صلى الله عليه وسلم . ومن فضائل هذا المسجد أنه لا يخلو عن قراءة القرآن والصلاة ، إلا قليلا من الزمان ، كما سنذكره . والناس يجتمعون

(١) نسبة إلى زيلع على بحر الحبشة .

به كل يوم إثر صلاة الصبح ، فيقرءون سُبُعا من القرآن ، ويجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية ، يقرءون فيها من سورة الكوثر إلى آخر القرآن . وللمجتمعين على هـذه القراءة مرتبات تجرى لهم ، وهم نحو ستمائة إنسان ، ويدور عليهم كاتب الغَيْبَة ، فمن غاب منهم قطع له عند دفع المرتب بقدر غيبته .

وفى هـذا المسجد جماعة كبيرة من المجاورين لا يخرجون منه ، مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر لا يَفْتُرُون عن ذلك ، ويتوضئون من المطاهر التى بداخل الصـومعة الشرقية التى ذكرناها . وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيئا من ذلك . وفى هـذا المسجد أربعـة أبواب : باب قبلى يعرف بباب الزيادة ، وبأعلاه قطعـة من الرمح الذى كانت فيه راية خالد بن الوليد رضى الله عنه . ولهذا الباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين[1] ومنه يذهب إلى دار الخيل . وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين[2] ، وهى سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلى ، من أحسن أسواق دمشق . وبموضع هذه السوق كانت دار معاوية بن أبى سـفيان رضى الله عنه ودور قومه ، وكانت تسـمى الخضراء ، فهـدمها بنو العباس رضى الله عنهم وصار مكانهـا سوقا ، وباب شرقى وهو أعظم أبواب المسجد ، ويسمى بباب جَيْرُون ، وله دِهْليز عظيم يُخْرج منه إلى بلاط عظيم طويل ، أمامه خمسة أبواب لها ستة أعمدة طوال . وفى جهة اليسار منه مشهد عظيم كان فيه رأس الحسين رضى الله عنه . وبإزائه مسجد صغير ينسب إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وبه ماء جار . وقد انتظمت أمام البلاط درج يُنْحدر فيها إلى الدهليز ، وهو كالخندق العظيم ، يتصل بباب عظيم الارتفاع ، تحته أعمدة كالجذوع طوال . وبجانبى هذا الدهليز أعمدة قد

---

(١) جمع سقاط وهو بائع السقط وهو ردىء المتاع .

(٢) الصفارون صناع النحاس وهو الصُّفْر .

قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين[١] وغيرهم، وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع أوانى الزجاج العجيبة. وفى الرَّحَبَة المتصلة بالباب الأول دكاكين لكبار الشهود، منها دكانان للشافعية، وسائرها لأصحاب المذاهب، يكون فى الدكان منها الخمسة والستة من العدول، والعاقد للزواج من قبل القاضى. وسائر الشهود مفترقون فى المدينة، وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الورّاقين الذين يبيعون الكاغَد والأقلام والمداد. وفى وسط الدهليز المذكور حوض من الرخام كبير مستدير عليه قبة لا سقف لها تُقِلُّها أعمدة رخام. وفى وسط الحوض أنبوب نحاس يمج الماء بقوة، فيرتفع فى الهواء أزيد من قامة الانسان، يسمونه الفوّارة، منظره عجيب. وعن يمين الخارج من باب جَيْرُون وهو باب الساعات، غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار مفتحة، لها أبواب على عدد ساعات النهار. والأبواب مصبوغ باطنها بالخضرة وظاهرها بالصفرة، فإذا ذهبت ساعة من النهار انقلب الباطن الأخضر ظاهرا والظاهر الأصفر باطنا. ويقال إن بداخل الغرفة من يتولى قلبها بيده عند مضى الساعات. والباب الغربى يعرف بباب البريد، وعن يمين الخارج منه مدرسة للشافعية، وله دهليز فيه حوانيت للشماعين وسماط لبيع الفواكه. وبأعلاه باب يصعد إليه فى درج، له أعمدة سامية فى الهواء. وتحت الدرج سِقايتان[٢] عن يمين وشمال مستديرتان. وعن يمين الخارج منه خانقاه فى وسطها صِهْريج ماء، ولها مطاهر يجرى فيها الماء. ويقال إنها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه. وعلى كل باب من أبواب المسجد الأربعة، دار وضوء يكون فيها نحو مائة بيت تجرى فيها المياه الكثيرة.

---

(١) بائعو الثياب.

(٢) السِقّاية ما يُستقى منه.

ذكر المدرسين والمعلمين به

ولهذا المسجد حلقات التدريس فى فنون العلم ، والمحدثون يقرءون كتب الحديث على كراسىّ مرتفعة . وقراء القرآن يقرءون بالأصوات الحسنة صباحا ومساء ، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سوارى المسجد ، يلقن الصبيان ويقرئهم . وهم لا يكتبون القرآن فى الألواح تنزيها لكتاب الله تعالى ، وإنما يقرءون القرآن تلقينا . ومعلم الخط غير معلم القرآن ، يعلمهم بكتب الأشعار وسواها ، فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب ، وبذلك جاد خطه ، لأن المعلم للخط لا يعلم غيره . ومن المدرسين بالمسجد المذكور العالم الصالح برهان الدين بن الفَرْكَح الشافعىّ ؛ ومنهم العالم الصالح نور الدين أبو اليسر بن الصائغ ، من المشتهرين بالفضل والصلاح . ولما ولى القضاء بمصر جلال الدين القَزوينى وجه إلى أبى اليسر الخِلعة والأمر بقضاء دمشق ، فامتنع من ذلك . ومنهم الإمام العالم شهاب الدين بن جَهْبَل من كبار العلماء ، هرب من دمشق لما امتنع أبو اليسر من قضائها ، خوفا من أن يقلد القضاء ، فاتصل ذلك بالملك الناصر ، فولى قضاء دمشق شيخ الشيوخ بالديار المصرية قطب العارفين ، لسان المتكلمين ، علاء الدين القُونَوى ، وهو من كبار الفقهاء . ومنهم الإمام الفاضل بدر الدين على السخاوىّ المالكى ، رحمة الله عليهم أجمعين .

حكاية

وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقى الدين بن تَيْمِيَّة ، كبير الشام ، يتكلم فى الفنون إلا أن فى عقله شيئا . وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم ، ويعظهم على المنبر . وتكلم مرة بأمر أنكره الفقهاء ، ورفعوه إلى

الملك الناصر، فأمر بإشخاصه إلى القاهرة ، وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر، وتكلم شرف الدين الزواوى المالكى وقال : إن هذا الرجل قال كذا وكذا وعدّد ما أنكر على ابن تيمية ، وأحضر العقود بذلك ، ووضعها بين يدى قاضى القضاة ، وقال قاضى القضاة لابن تيمية : ما تقول ؟ قال : لا إله إلا الله ، فأعاد عليه فأجاب بمثل قوله ، فأمر الملك الناصر بسجنه ، فسجن أعواما ، وصنف فى السجن كتابا فى تفسير القرآن ، سماه بالبحر المحيط ، فى نحو أربعين مجلدا . ثم إن أمه تعرضت للملك الناصر وشكت إليــه ، فأمر بإطلاقه إلى أن وقع منه مثل ذلك ثانية . وكنت إذ ذاك بدمشق ، فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم ، فكان من جملة كلامه أن قال : إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولى هذا . ونزل درجة من درج المنبر ، فعارضه فقيه مالكى يعرف بابن الزهراء ، وأنكر ما تكلم به . فقامت العامة إلى هذا الفقيه ، وضربوه بالأيدى والنعال ضربا كثيرا ، حتى سقطت عمامته ، وظهر على رأسه (شاشيّة) حرير فأنكروا عليه لباسها ، واحتملوه إلى دار عز الدين بن مسلم قاضى الحنابلة ، فأمر بسجنه وعزّره بعد ذلك . فأنكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيره ، ورفعوا الأمر إلى ملك الأمراء سيف الدين تَنكِز ، وكان من خيار الأمراء وصلحائهم ، فكتب إلى الملك الناصر بذلك ، وكتب عقــدا شرعيا على ابن تيمية بأمور منكرة : منهـا أن المطلق بالثلاث فى كلمة واحدة لا تلزمه إلا طلقة واحدة ، ومنها أنّ المسافر الذى ينوى بسفره زيارة القبر الشريف (زاده الله طيبا) ، لا يقصر الصلاة ، وسوى ذلك مما يشبهه ، وبعث العقد إلى الملك الناصر ، فأمر بسجن ابن تيمية بالقلعة ، فسجن بها حتى مات فى السجن .

ذكر مدارس دمشق

اعلم أن للشافعية بدمشق جملة من المدارس ، أعظمها العادلية ، وبها يحكم قاضى القضاة . وتقابلها المدرسة الظاهرية ، وبها قبر الملك الظاهر ، وبها جلوس نواب القاضى ، ومن نوابه فخر الدين القبطى ، كان والده من كتّاب القبط وأسلم ، ومنهم جمال الدين بن جُمْلة ، وقد تولى قضاء قضاة الشافعية بعد ذلك ، وعزل لأمر أوجب عزله .

ذكر أبواب دمشق

ولمدينة دمشق ثمانية أبواب : منها باب الفراديس ، ومنها باب الجابِيَة ، ومنها الباب الصغير ، وفيما بين هذين البابين مقبرة فيها العدد الجم من الصحابة والشهداء فمن بعدهم . قال محمد بن جزى : لقد أحسن بعض المتأخرين من أهل دمشق فى قوله :

دمشق فى أوصافها جنة خلد راضية
أما ترى أبوابها قد جعلت ثمانية

ذكر بعض المشاهد والمزارات بها

فنها بالمقبرة التى بين البابين باب الجابية والباب الصغير ، قبر أم حَبِيبَة بنت أبى سفيان أم المؤمنين ، وقبر أخيها أمير المؤمنين معاوية ، وقبر بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم أجمعين ، وقبر أُوَيْس القَرَنى ، وقبر كعب الأحبار رضى الله عنهما . ووجدت فى كتاب المُعْلَم فى شرح صحيح مسلم للقرطبى أن جماعة من الصحابة صحبهم أويس القرنى من المدينة إلى الشام ، فتوفى فى أثناء الطريق فى برية لا عمارة فيها ولا ماء ،

فتحير وافى أمره، فنزلوا فوجدوا حَنُوطا وكفنا وماء، فعجبوا من ذلك وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه، ثم ركبوا . فقال بعضهم: كيف نترك قبره بغير علامة؟ فعادوا للوضع فلم يجدوا للقبر من أثر. قال ابن جزى: ويقال إن أويسا قتل بِصِفِّين مع على(١) عليه السلام وهو الأصح. ويلى باب الجابية باب شرقى عنده جبانة فيها قبر أُبَىّ بن كعب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حكاية

شاهدت أيام الطاعون الأعظم بدمشق فى أواخر شهر ربيع الثانى سنة تسع وأربعين، من تعظيم أهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منه: وهو أن ملك الأمراء نائب السلطان أرْغُون شاه، أمر مناديا ينادى بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام، ولا يطبخ أحد بالسوق ما يؤكل نهارا. وأكثر الناس بها إنما يأكلون الطعام الذى يصنع بالسوق، فصام الناس ثلاثة أيام متوالية كان آخرها يوم الخميس — ثم اجتمع الأمراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها فى الجامع، حتى غَصّ بهم، وباتوا ليلة الجمعة به ما بين مصل وذاكر وداع — ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعا على أقدامهم وبأيديهم المصاحف، والأمراء حفاة، وخرج جميع أهل البلد ذكورا وإناثا صغارا وكبارا، وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بإنجيلهم ومعهم النساء والولدان، وجميعهم باكون متضرعون متوسلون إلى الله بكتبه وأنبيائه، وقصدوا مسجد الأقدام، وأقاموا به فى تضرعهم ودعائهم إلى قرب الزوال، وعادوا إلى البلد، فصلوا الجمعة. وخفف الله تعالى عنهم بعد ما انتهى عدد الموتى إلى ألفين فى اليوم الواحد. وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر إلى أربعة وعشرين ألفا فى يوم واحد .

(١) أى أنه كان فى جيش علىّ .

ذكر أرباض دمشق

وتدور بدمشق من جهاتها ما عدا الشرقية أرباض فسيحة الساحات ، دواخلها أملح من داخل دمشق ، لأجل الضيق الذى فى سككها . وبالجهة الشمالية منها رَبَض الصالحية ، وهى مدينة عظيمة ، لها سوق لا نظير لحسنه ، وفيها مسجد جامع ومَارَستَان ، وبها مدرسة تعرف بمدرسة ابن عمر ، موقوفة على من أراد أن يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول ، وتجرى لهم ولمن يعلمهم كفايتهم من المآكل والملابس . وبداخل البلد أيضا مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن مُنَجّى . وأهل الصالحية كلهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه .

ذكر قاسيُون ومشاهده المباركة

وقاسيون جبل فى شمال دمشق ، والصالحية فى سفحه ، وهو شهير البركة لأنه مصعد الأنبياء عليهم السلام . ومن مشاهده الكريمة الغار الذى ولد فيه إبراهيم الخليل عليه السلام ، وهو غار مستطيل ضيق ، عليه مسجد كبير ، وله صومعة عالية . ومن ذلك الغار رأى الكوكب والقمر والشمس على ما ورد فى الكتاب العزيز . وفى ظهر الغار مقامه الذى كان يخرج إليه . وقد رأيت ببلاد العراق قرية تعرف ببُرْص ما بين الحِلّة وبغداد ، يقال : إن مولد إبراهيم عليه السلام كان بها . وهى بمقربة من بلد ذى الكِفْل عليه السلام ، وبها قبره . ومن مشاهده بالغرب منه مغارة الدم ، وفوقها بالجبل دم هابيل ابن آدم عليه السلام ، وقد أبقى الله منه فى الحجارة أثرا محمرا ، وهو الموضع الذى قتله أخوه به ، واجتره إلى المغارة (١) . ويذكر أن تلك المغارة صلى

(١) هذا إلى الخرافة أقرب .

فيها إبراهيم وموسى وعيسى وأيوب ولوط صلى الله عليهم أجمعين وعليها مسجد متقن البناء ، يصعد إليه على درج ، وفيه بيوت ومرافق للسكنى ، ويفتح فى كل يوم اثنين وخميس ، والشمع والسرج توقد فى المغارة . ومنها كهف بأعلى الجبل ينسب لآدم عليه السلام وعليه بناء ، وأسفل منه مغارة تعرف بمغارة الجوع ، يذكر أنه أَوَى إليها سبعون من الأنبياء عليهم السلام ، وكان عندهم رغيف ، فلم يزل يدور عليهم وكل منهم يؤثر صاحبه به حتى ماتوا جميعا ، صلى الله عليهم[1] . وعلى هذه المغارة مسجد مبنى ، والسرج توقد به ليلا ونهارا . ولكل مسجد من هذه المساجد أوقاف كثيرة معينة . ويذكر أن فيما بين باب الفراديس وجامع قاسيون ، مدفن سبعمائة نبى . وخارج المدينة المقبرة العتيقة ، وهى مدفن الأولياء والصالحين ، وفى طرفها مما يلى البساتين أرض منخفضة ، غلب عليها الماء .

ذكر الرَّبوة والقرى التى تواليها

وفى آخر جبل قاسيون الربوة المباركة المذكورة فى كتاب الله ، ذات القرار والمَعين ، ومأوى المسيح عيسى وأمه عليهما السلام . وهى من أجمل مناظر الدنيا ومتنزهاتها . وبها القصور المشيدة ، والمبانى الشريفة ، والبساتين البديعة . والمأوى المبارك مغارة صغيرة فى وسطها كالبيت الصغير ، وإزاءها بيت يقال إنه مُصَلَّى الخَضِر عليه السلام ، يبادر الناس إلى الصلاة فيها . وللمأوى باب حديد صغير ، والمسجد يدور به ، وله شوارع دائرة ، وسِقاية حسنة ، ينزل لها الماء من علو ، وينْصَبُّ فى شَاذَرْوَان[2] فى الجدار ، يتصل بحوض من رخام ، ويقع فيه الماء ، ولا نظير له فى الحسن وغرابة الشكل . وبقرب ذلك مطاهر للوضوء يجرى فيها الماء . وهذه الربوة المباركة هى رأس بساتين دمشق ، وبها منابع مياهها . وينقسم الماء الخارج منها

(١) ذلك أشبه بالأساطير .

(٢) الشاذروان هنا مجرى . وتتضمن هذه الكلمة بالفارسية التغطية والستر . وهو هنا كذلك .

على سبعة أنهار ، كل نهر آخذ فى جهة ، ويعرف ذلك الموضع بالمقاسم . وأكبر هـذه الأنهار، النهر المسمى بِتَوْرَة ، وهو يشق تحت الربوة ، وقد نحت له مجرى فى الحجر الصلد كالغار الكبير ، وربمـا انغمس ذوالجسارة من العوامين فى النهر من أعلى الربوة ، واندفع فى المـاء حتى يشق مجراه ويخرج من أسفل الربوة ، وهى مخاطرة عظيمة . وهذه الربوة تشرف على البساتين الدائرة بالبلد ، ولها من الحسن واتساع مسرح الأبصار ما ليس لسواها . وتلك الأنهار السبعة تذهب فى طرق شتى ، فتحار الأعين فى حسن اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانصبابها . وجمال الربوة وحسنها التام أعظم من أن يحيط به الوصف ؛ ولها الأوقاف الكثيرة من المزارع والبساتين ، تقام منها وظائفها للإمام والمؤذن والصادر والوارد. وبأسفل الربوة قرية النَّيْرب ، وقد تكاثرت بساتينها ، وتكاثفت ظلالها ، وتدانت أشجارها ، فلا يظهر من بنائها إلا ما سما ارتفاعه ، ولها حمام مليح ، ولها جامع بديع مفروش صحنه بفصوص الرخام ، وفيه سقاية ماء رائقة الحسن ، ومطهرة فيها بيوت عِدَّة يجرى فيها المـاء . وفى القبلى من هذه القرية قرية المِزَّة وتعرف بمزة كلب ، نسبة إلى قبيـلة كلب ، وكانت إقطاعا لهم . وإليها ينسب الإمام حافظ الدنيا ، جمال الدين يوسف بن الزكى الكلبي المِزِّى ، وكثير سواه من العلماء . وهى من أعظم قرى دمشق ، بهـا جامع كبير عجيب وسقاية مَعِينة . وأكثر قرى دمشق فيهـا الحمامات والمساجد الجامعة والأسواق ، وسكانها كأهل الحاضرة فى مناحيهم . وفى شرقى البلد قرية تعرف ببيت الآلهة ، وكانت فيها كنيسة يقال إن آزر[1] كان يَنْحِت فيها الأصـنام ، فيكسرها الخليل عليه السلام . وهى الآن مسجد جامع بديع مزين بفصوص الرخام الملونة المنظمة بأعجب نظام وأزين التئام .

---

(١) آزر : هو أبو سيدنا ابراهيم عليه السلام .

ذكر الأوقاف بدمشق وبعض فضائل أهلها وعاداتهم

والأوقاف بدمشق لاتحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها : فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج ، تعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته ، ومنها أوقاف تجهيز البنات إلى أزواجهن ، وهنّ اللواتى لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن ، ومنها أوقاف لِفَكاك الأُسارى ، ومنها أوقاف لأبناء السبيل ، يعطون منها مايأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ، ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها ، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان فى جنبيه يمر عليهما المترجلون، ويمر الركبان بين ذلك، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير.

حكاية

مررت يوما ببعض أزقة دمشق ، فرأيت به مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صَحْفة من الفَخّار الصينى، وهم يسمونها الصحن، فتكسرت ، واجتمع عليه الناس، فقال له بعضهم: "اجمع شَقَفَها[1] واحملها معك لصاحب أوقاف الأوانى"، فجمعها وذهب الرجل معه إليه فأراه إياها ، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن . وهذا من أحسن الأعمال ، فإن سيد الغلام لابد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره، وهو أيضا ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك . فكان هذا الوقف جبرا للقلوب . جزى الله خيرا من تسامت همته فى الخير إلى مثل هذا .

وأهل دمشق يتنافسون فى عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد، وهم يحسنون الظن بالمغاربة ، ويطمئنون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد. وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لابد أن يتأتى له وجه من المعاش : من إمامة مسجد ، أو قراءة بمدرسة، أو ملازمة مسجد يجىء إليه فيه رزقه ، أو قراءة القرآن ، أوخدمة مشهد من المشاهد المباركة ، أو يكون

---

(١) الشَّقَفُ الخَزَف أو مكسره .

بجملة الصوفية بالخوانق تجرى له النفقة والكسوة . فمن كان بها غريبا على خير لم يزل مصونا عن بذل وجهه ، محفوظا عما يزرى بالمروءة ، ومن كان من أهل المِهْنَة والخدمة فله أسباب أُخَر من حراسة بستان ، أو أمانة طاحونة ، أو كَفَالة صبيان يغدو معهم إلى التعليم ويروح . ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك .

ومن فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر أحد منهم فى ليالى رمضان وحده البتة : فمن كان من الأمراء والقضاة ، والكبراء ، فإنه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده ، ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك ، ومن كان من الضعفاء والبادية ، فإنهم يجتمعون كل ليلة فى دار أحدهم أو فى مسجد ، ويأتى كل أحد بما عنده ، فيفطرون جميعا . ولما وردت دمشق وقعت بينى وبين نور الدين السخاوى مدرس المالكية صحبة ، فرغب منى أن أفطر عنده فى ليالى رمضان فحضرت عنده أربع ليال ، ثم أصابتنى الحمى فغبت عنه ، فبعث فى طلبى فاعتذرت بالمرض فلم يسعنى عذرا ، فرجعت إليه وبت عنده . فلما أردت الانصراف بالغد منعنى من ذلك ، وقال لى : احْسُبْ دارى كأنها دارك أو دار أبيك أو أخيك ، وأمر بإحضار طبيب ، وأن يصنع لى بداره كل مايشتهيه الطبيب من دواء أو غذاء . وأقمت كذلك عنده إلى يوم العيد ، وحضرت المصلى وشفانى الله تعالى مما أصابنى . وقد كان ماعندى من النفقة نَفِد ، فعلم بذلك ، فاكترى لى جمالا وأعطانى الزاد وسواه ، وزادنى دراهم ، وقال لى : تكون لما عسى أن يعتريك من أمر مُهم ، (جزاه الله خيرا) . وكان بدمشق فاضل من كتاب الملك الناصر يسمى عماد الدين القَيْصَرَانى ، من عادته أنه متى سمع أن مغربيا وصل إلى دمشق بحث عنه وأضافه وأحسن إليه ، فإن عرف منه الدين والفضل أمره بملازمته ، وكان يلازمه منهم جماعة . وعلى هذه الطريقة أيضا كاتب السر

الفاضل علاء الدين بن غانم وجماعة غيره . وكان بها فاضل من كبرائها وهو الصاحب عزالدين القَلَانِسي ، له مآثر ومكارم وفضائل وإيثار، وهو ذو مال عريض ؛ وذكروا أن الملك الناصر لما قدم دمشق أضافه وجميع أهل دولته ومماليكه وخواصه ثلاثة أيام ، فسماه إذ ذاك بالصاحب.

ومما يؤثر من فضائلهم أن أحد ملوكهم السالفين لما نزل به الموت ، أوصى أن يدفن بقبلة الجامع المكرم ويخفى قبره ، وعيّن أوقافا عظيمة لقراء يقرءون سُبُعا من القرآن الكريم فى كل يوم إثْر صلاة الصبح ، بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضى الله عنهم حيث قبره ، فصارت قراءة القرآن على قبره لا تنقطع أبدا ، وبقى ذلك الرسم الجميل بعده مخلدا . ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد أنهم يخرجون بعد صلاة العصر من يوم عرفة ، فيقفون بصحون المساجد كبيت المقدس ، وجامع بنى أمية وسواها ، ويقف بهم أئمتهم كاشفى رءوسهم داعين خاضعين خاشعين ملتمسين البركة . ويتوخون الساعة التى يقف فيها وفد الله تعالى ، وحجاج بيته بعرفات ؛ ولا يزالون فى خضوع ودعاء وابتهال وتوسل إلى الله تعالى بحجاج بيته إلى أن تغيب الشمس ، فينفِرون كما ينفِر الحاج باكين على ما حُرموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات ، داعين إلى الله تعالى أن يوصلهم إليها ولا يخيبهم من بركة القبول فيما فعلوه . ولهم أيضا فى اتباع الجنائز رتبة عجيبة ، وذلك أنهم يمشون أمام الجنازة ، والقراء يقرءون القرآن بالأصوات الحسنة ، والتلاحين المبكية ، التى تكاد النفوس تطير لها رقة(١) . وهم يصلون على الجنائز بالمسجد الجامع ، قُبَالة المقصورة . فإن كان الميت من أئمة الجامع أو مؤذنيه أو خدامه أدخلوه بالقراءة إلى موضع الصلاة عليه ، وإن كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد ، وأدخلوا الجنازة . وبعضهم يجتمع له بالبلاط الغربى من الصحن

(١) لا يزال فى مصر شيء من ذلك وهو بدعة غير مستحسنة شرعا .

بمقربة من باب البريد ، فيجلسون وأمامهم ربعات القرآن يقرءون فيها ويرفعون أصواتهم بالنداء لكل من يصل للعزاء من كبار البلدة وأعيانها ، ويقولون : باسم الله ، فلان الدين ، من كمال وجمال وشمس وبدر وغير ذلك. فإذا أتموا القراءة قام المؤذنون فيقولون : افتكروا واعتبروا ؛ صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم ، ويصفونه بصفات من الخير ، ثم يصلون عليه ويذهبون به إلى مدفنه .

ولأهل الهند رتبة عجيبة فى الجنائز أيضا ، زائدة على ذلك ، وهى أنهم يجتمعون بروضة الميت صبيحة الثالث من دفنه ، وتفرش الروضة بالثياب الرفيعة ، ويكسى القبر بالأكسية الفاخرة ، وتوضع حوله الرياحين من الورد والنسرين[1] والياسمين ، وذلك النوار لا ينقطع عندهم . ويأتون بأشجار الليمون والأترج ، ويجعلون فيها حبوبها إن لم تكن فيها ، ويجعل سرادق يظلل الناس نحوه ، ويأتى القضاة والأمراء ومن يماثلهم فيقعدون ويقابلهم القراء ، ويؤتى بالربعات الكرام ، فيأخذ كل واحد منهم جزءا . فإذا تمت القراءة من القراء بالأصوات الحسان يدعو القاضى ويقوم قائما ، ويخطب خطبة معدة لذلك ، ويذكر فيها الميت ويرثيه بأبيات شعر ، ويذكر أقاربه ويعزيهم عنه ، ويذكر السلطان داعيا له . وعند ذكر السلطان يقوم الناس ويحطون رءوسهم إلى سمت الجهة التى بها السلطان . ثم يقعد القاضى ، ويأتون بماء الورد ، فيصب على الناس صبا ، يبدأ بالقاضى ثم من يليه كذلك إلى أن يعم الناس أجمعين . ثم يؤتى بأوانى السكر ، وهو الجُلّاب محلولا بالماء فيسقون الناس منه ، ويبدءون بالقاضى ومن يليه ، ثم يؤتى بالتَّانَبُول ، وهو اليقطين الهندى ، وهم يعظمونه ويكرمون من يأتى لهم به . فإذا أعطى السلطان أحدا منه فهو أعظم من إعطاء الذهب والخلع . وإذا مات الميت لم يأكل أهله التانبول إلا فى ذلك اليوم ، فيأخذ القاضى أو من يقوم مقامه أوراقا منه ، فيعطيها ولىّ الميت فيأكلها ، وينصرفون حينئذ . وسيأتى ذكر التانبول إن شاء الله تعالى .

(١) ورد أبيض عطرى قوى الرائحة .

ذكر سماعى بدمشق ومن أجازنى من أهلها

ولما استهل شوال من السنة المذكورة خرج الركب الحجازى إلى خارج دمشق ، ونزلوا القرية المعروفة بالكسوة ، فأخذت فى الحركة معهم . وكان أمير الركب سيف الدين الجَوْبان من كبار الأمراء، وقاضيه شرف الدين الأَذْرَعى الحَوْرانى . وحج فى تلك السنة مدرس المالكية صدر الدين الغِمارى . وكان سفرى مع طائفة من العرب تدعى العَجَارِمة، أميرهم محمد بن رافع ، كبير القدر فى الأمراء. وارتحلنا من الكسوة إلى قرية تعرف بالصَّنَمَيْن عظيمة . ثم ارتحلنا منها إلى بلدة زَرْعة، وهى صغيرة من بلاد حَوْران. نزلنا بالقرب منها . ثم ارتحلنا إلى مدينة بُصْرَى ، وهى صغيرة ، ومن عادة الركب أن يقيم بها أربعا ليلحق بهم من تخلف بدمشق لقضاء مآربه . وإلى بصرى وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعث فى تجارة خديجة ، وبها مبرك ناقته ، قد بنى عليه مسجد عظيم . ويجتمع أهل حَوْران لهذه المدينة، ويتزود الحاج منها ثم يرحلون إلى بركة زِيزَى ، ويقيمون عليها يوما ، ثم يرحلون إلى اللَّجُّون وبها الماء الجارى . ثم يرحلون إلى حصن الكَرَك ، وهو من أعجب الحصون وأمنعها وأشهرها ، ويسمى بحصن الغراب ؛ والوادى يطيف به من جميع جهاته . وله باب واحد قد نحت المدخل إليه فى الحجر الصلد ، ومدخل دهليزه كذلك . وبهذا الحصن يتحصن الملوك ، وإليه يلجئون فى النوائب . وله لجأ الملك الناصر ، لأنه ولى الملك وهو صغير السن، فاستولى على التدبير مملوكه سلّار النائب عنه ، فأظهر الملك الناصر أنه يريد الحج ، ووافقه الأمراء على ذلك . فتوجه إلى الحج ، فلما وصل عقبة أَيْلَة لجأ إلى الحصن وأقام به أعواما ، إلى أن قصده أمراء الشام واجتمعت عليه المماليك. وكان قد ولى الملك فى تلك المدة بيبرس الشَشْنَكِير ، وهو أمير الطعام . وتسمى بالملك المظفر . وهو الذي بنى الخانِقاه البِيبرسيّة بمقربة من خانِقاه

سعيد السعداء ، التى بناها صلاح الدين بن أيوب . فقصده الملك الناصر بالعساكر ففر بيبرس إلى الصحراء . فتبعته العساكر وقبض عليه ، وأتى به إلى الملك الناصر فأمر بقتله فقتل . وقبض على سلّار وحبس فى جب حتى مات جوعا . ويقال إنه أكل جيفة من الجوع ، نعوذ بالله من ذلك .

وأقام الركب بخارج الكَرَك أربعة أيام ، بموضع يقال له الثَّنِيَّة ، وتجهزوا لدخول البرية . ثم ارتحلنا إلى معَان وهو آخر بلاد الشام ، ونزلنا من عقبة الصَّوَّان إلى الصحراء التى يقال فيها : داخلها مفقود وخارجها مولود . وبعد مسيرة يومين نزلنا ذات حج وهى حِسْيان[1] لا عمارة بها ، ثم إلى وادى بَلْدَح ، ولا ماء به .

وصف تَبُوك

ثم إلى تبوك وهو الموضع الذى غزاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها عين ماء كانت تَبِضُّ[2] بشىء من الماء ، فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوضأ منها ، جادت بالماء المعين ، ولم يزل إلى هذا العهد ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن عادة حجاج الشام إذا وصلوا منزل تبوك ، أخذوا أسلحتهم ، وجردوا سيوفهم ، وحملوا على المنزل وضربوا النخيل بسيوفهم ، ويقولون : هكذا دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وينزل الركب العظيم على هذه العين فَيَرْوَى منها جميعهم ، ويقيمون أربعة أيام للراحة وإرواء الجمال ، واستعداد الماء للبرية المخوفة التى بين العُلَا وتبوك . ومن عادة السقائين أنهم ينزلون على جوانب هذه العين ، ولهم أحواض مصنوعة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام ، يسقون منها الجمال ويملئون الرَّوَايَا والقرب ، ولكل أمير أو كبير حوض يسقى منه جماله وجمال أصحابه ، ويملأ رواياهم .

(١) لم نر هذا الجمع . وفى القاموس : الحَسْىُ ويكسر والحِسَى كإلى سهل من الأرض يستنقع فيه الماء . جمعه أحساء وحِساء اهـ باختصار .

(٢) تسيل .

وسواهم من الناس من يتفق مع السقائين على سق جمله وملء قربته بشيء معلوم من الدراهم . ثم يرحل الركب من تبوك ويجدّون السير ليلا ونهارا خوفا من هذه البرية ، وفى وسطها الوادى الأُخَيْضِر كأنه وادى جهنم ، أعاذنا الله منها . وأصاب الحجاج به فى بعض السنين مشقة بسبب ريح السَّمُوم التى تهب ، فانتشفت المياه ، وانتهت شربة الماء إلى ألف دينار ، ومات مشتريها وبائعها ، وكتب ذلك فى بعض صخر الوادى . ومن هنالك ينزلون بركة المُعَظَّم ، وهى ضخمة ، نسبتها إلى الملك المعظم من أولاد أيوب ، ويجتمع بها ماء المطر فى بعض السنين وربما جف فى بعضها .

وفى الخامس من أيام رحيلهم عن تبوك يصلون الى بئر الحِجْر : حجر ثمود ، وهى كثيرة الماء ، ولكن لا يردها أحد من الناس مع شدة عطشهم ، اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بها فى غزوة تبوك ، فأسرع براحلته وأمر ألا يسقى منها أحد . وهنالك ديار ثمود فى جبال من الصخر الأحمر منحوته ، لها عَتَب منقوشة ، يظن رائيها أنها حديثة الصنعة . وعظامهم نخرة فى داخل تلك البيوت ، إن فى ذلك لعبرة . ومبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبلين هنالك . وبينهما أثر مسجد يصلى الناس فيه . وبين الحجر والعُلَا نصف يوم أودونه ، والعلا قرية كبيرة حسنة لها بساتين النخل والمياه المَعِينة ، يقيم بها الحجاج أربعا ، يتزودون ويغسلون ثيابهم ويَدَعُون بها ما يكون عندهم من فضل زاد ، ويستصحبون قدر الكفاية . وأهل هذه القرية أصحاب أمانة ، وإليها ينتهى تجار نصارى الشام لايتعدونها ، ويبايعون الحجاج بها الزاد وسواه . ثم يرحل الركب من العلا فينزلون فى غد رحيلهم الوادى المعروف بالعُطاس ، وهو شديد الحر تَهُبُّ فيه السَّمُوم المهلكة ، هبت بعض السنين على الركب فلم يخلص منهم إلا اليسير ، وتعرف تلك السنة بسنة الأمير الجَالِق . ومنه ينزلون هُدَيَّة ، وهى حِسْيان ماء بواد يحفرون به فيخرج الماء وهو زُعَاق . وفى اليوم الثالث ينزلون بظاهر البلد المقدس الكريم الشريف .

طَيْبَة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرَّف وكرّم

وفى عشيّ ذلك اليوم، دخلنا الحرم الشريف وانتهينا إلى المسجد الكريم، وقفنا بباب السلام مسلمين، وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم، واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذى حنّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهى ملصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة . وأدينا حق السلام على سيد الأولين والآخرين، وشفيع العصاة والمذنبين، الرسول النبي الهاشمى الأبطحى، محمد صلى الله عليه وسلم تسليما، وشرف وكرم، وحقّ السلام على ضجيعيه وصاحبيه أبى بكر الصديق وأبى حفص عمر الفاروق، رضى الله عنهما . وانصرفنا إلى رَحْلنا مسرورين بهذه النعمة العظمى، مستبشرين بنيل هذه المنة الكبرى، حامدين الله تعالى على البلوغ إلى معاهد رسوله الشريفة، ومشاهده العظيمة المنيفة، داعين ألا يجعل ذلك آخر عهدنا بها، وأن يجعلنا ممن قبلت زيارته وكتبت فى سبيل الله سَفْرته .

ذكر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروضته الشريفة

المسجد المعظم مستطيل، تَحُفُّ به من جهاته الأربع بلاطات دائرة به، ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل . ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت . والروضة المقدسة صلوات الله وسلامه على ساكنها فى الجهة القبلية مما يلى الشرق من المسجد الكريم . وشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله، وهى مدورة بالرخام البديع النحت الرائق النعت، قد علاها تضميخ المسك والطيب مع طول الأزمان . وفى الصفحة القبلية منها مسمار فضة، هو قُبَالة الوجه الكريم . وهنالك يقف الناس للسلام مستقبلين الوجه

الكريم ، مستدبرين القبلة ، فيسلمون ، وينصرفون يمينا إلى وجه أبى بكر الصديق . ورأس أبى بكر رضى الله عنه عند قدمى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم ينصرفون إلى عمر بن الخطاب . ورأس عمر عند كتفى أبى بكر رضى الله عنهما . وفى الجوفى من الروضة المقدسة (زادها الله طيبا) ، حوض صغير مرخَّم فى قبلته شكل محراب ، يقال إنه كان بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، ويقال أيضا : هو قبرها والله أعلم .

وفى سط المسجد الكريم دَفَّة[١] مُطْبِقة على وجه الأرض مقفلة على سرداب له درج يفضى إلى دار أبى بكر رضى الله عنه خارج المسجد ، وعلى ذلك السرداب كان طريق بنته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها إلى داره . ولا شك أنه هو الخَوْخَة التى ورد ذكرها فى الحديث ، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم تسليما بإبقائها وسد ما سواها . وبإزاء دار أبى بكر رضى الله عنه دار عمر ودار ابنه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما . وبشرقى المسجد الكريم دار إمام المدينة أبى عبد الله مالك بن أنس رضى الله عنه . وبمقربة من باب السلام سِقَاية ينزل إليها على درج . ماؤها مَعين وتعرف بالعين الزرقاء .

ذكر ابتداء بناء المسجد الكريم

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما المدينة الشريفة دار الهجرة يوم الاثنين الثالث عشر من شهر ربيع الأول ، فنزل على بنى عمرو بن عوف ، وأقام عندهم ثنتين وعشرين ليلة ، وقيل أربع عشرة ليلة ، وقيل أربع ليال . ثم توجه إلى المدينة فنزل على بنى النجار بدار أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه ، وأقام عنده سبعة أشهر حتى بنى مساكنه ومسجده . وكان موضع المسجد مِرْبَدًا[٢] لسهل وسهيل ابنى رافع بن أبى عمرو بن عائذ بن ثعلبة بن غانم بن مالك

---

(١) شىء كاللوح .

(٢) المِرْبَدُ : موضع الإبل أو موضع التمر .

ابن النجار ، وهما يتيمان فى حِجْر أسعد بن زُرَارة ، رضى الله عنهم أجمعين . وقيل كانا فى حجر أبى أيوب رضى الله عنه . فابتاع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ذلك المِربد ، وقيل بل أرضاهما أبو أيوب عنه ، وقيل إنهما وهباه لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما . فبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما المسجد ، وعمل فيه مع أصحابه ، وجعل عليه حائطا ، ولم يجعل له سقفا ولا أساطين ، وجعله مربعا طوله مائة ذراع وعرضه مثل ذلك ، وقيل إن عرضه كان دون ذلك ، وجعل ارتفاع حائطه قدر القامة . فلما اشتد الحر تكلم أصحابه فى سَقْفه ، فأقام له أساطين من جذوع النخل ، وجعل سقفه من جريدها . فلما أمطرت السماء وَكَفَ[1] المسجد ، فكلم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمله بالطين ، فقال : كلا ! عَرِيش كعريش موسى ، أو ظُلة كظُلة موسى ، والأمر أقرب من ذلك ! قيل : وما ظلة موسى ؟ قال صلى الله عليه وسلم : كان إذا قام أصاب السقف رأسه . وجعل للمسجد ثلاثة أبواب ثم سد الجنوبى منها حين حولت القبلة . وبقى المسجد على ذلك حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وحياة أبى بكر رضى الله عنه . فلما كانت أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه زاد فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما . ثم زاد فيه عثمان رضى الله عنه ، وبناه بقوة وباشره بنفسه ، فكان يظل فيه نهاره ، وبيّضه وأتقن محله بالحجارة المنقوشة ووسعه من جهاته ، إلا جهة الشرق منها ، وجعل له سوارى حجارة مثبتة بأعمدة الحديد والرصاص وسقفه بالساج[2] ، وصنع له محرابا . وقيل إن مروان هو أول من بنى المحراب ، وقيل عمر بن عبد العزيز فى خلافة الوليد . ثم زاد فيه الوليد بن عبد الملك ، تولى ذلك عمر بن عبد العزيز فوسعه وحسنه وبالغ فى إتقانه وعمله بالرخام والساج المذهب . وكان الوليد بعث إلى ملك الروم :

---

(١) وَكَفَ : سَالَ .

(٢) نوع من الشجر .

إنى أريد أن أبنى مسجد نبينا صلى الله عليه وسلم تسليما فأعِنّى فيه . فبعث إليه الفعلة وثمانين ألف مثقال من الذهب . وأمر الوليد بإدخال حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تسليما فيه ، فاشترى عمر من الدور ما زاده فى ثلاث جهات من المسجد . فلما صار إلى القبلة امتنع عبيد الله بن عبد الله بن عمر من بيع دار حفصة ، وطال بينهما الكلام حتى ابتاعها عمر على أن لهم ما بقى منها ، وعلى أن يخرجوا من باقيها طريقا إلى المسجد ، وهى الخوخة التى فى المسجد . وجعل عمر للمسجد أربع صوامع فى أربعة أركانه ، وكانت إحداها مطلة على دار مروان . فلما حج سليمان بن عبد الملك نزل بها ، فأطل عليه المؤذن حين الأذان فأمر بهدمها . وجعل عمر للمسجد محرابا ، ويقال : هو أول من أحدث المحراب . ثم زاد فيه المهدى بن أبى جعفر المنصور ، وكان أبوه همّ بذلك ولم يقض له . وكتب إليه الحسن بن زيد يرغبه فى الزيادة فيه من جهة الشرق ، ويقول : إنه إن زيد فى شرقيه توسطت الروضة الكريمة المسجد الكريم . فاتهمه أبو جعفر بأنه إنما أراد هدم دار عثمان رضى الله عنه ، فكتب إليه : إنى قد عرفت الذى أردت فاكفف عن دار عثمان . وأمر أبو جعفر أن يظلل الصحن أيام القيظ بستور تنشر على حبال ممدودة على خشب تكون فى الصحن ، لتُكِنّ المصلين من الحر . وكان طول المسجد فى بناء الوليد مائتى ذراع ، فبلّغه المهدى إلى ثلاثمائة ذراع ، وسوّى المقصورة بالأرض ، وكانت مرتفعة عنها بمقدار ذراعين ، وكتب اسمه على مواضع من المسجد .

ثم أمر الملك المنصور قَلَاوُون ببناء دار للوضوء عند باب السلام ، فتولى بناءها الأمير الصالح علاء الدين المعروف بالأقمر ، وأقامها متسعة الفِناء تستدير بها البيوت ، وأجرى إليها الماء . وأراد أن يبنى بمكة ، شرفها الله تعالى ، مثل ذلك فلم يتم له ، فبناه ابنه الملك الناصر بين الصفا والمروة ، وسيذكر إن شاء الله .

وقبلة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما قبلة قَطْع[١] لأنه صلى الله عليه وسلم تسليما أقامها ، وقيل : أقامها جبريل عليه السلام ، وقيل : كان يشير جبريل له إلى سَمْتِها وهو يقيمها . وبكل اعتبار فهى قبلة قطع . وكانت القبلة أول ورود النبي صلى الله عليه وسلم تسليما المدينة إلى بيت المقدس ، ثم حولت إلى الكعبة بعد ستة عشر شهرا وقيل : بعد سبعة عشر شهرا .

ذكر المنبر الكريم

وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما كان يخطب إلى جذع نخلة بالمسجد ، فلما صنع له المنبر وتحوّل إليه حَنَّ الجذع حنين الناقة إلى حُوَارها . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما نزل إليه فالتزمه فسكن . وقال : لو لم ألتزمه لحنّ إلى يوم القيامة[٢] . واختلفت الروايات فيمن صنع المنبر الكريم . فروى أن تِميا الدّارىّ رضى الله عنه هو الذى صنعه ، وقيل : إن غلاما للعباس رضى الله عنه صنعه ، وقيل : غلام لامرأة من الأنصار . وورد ذلك فى الحديث الصحيح . وصنع من طَرْفَاء[٣] الغابة ، وقيل من الأثْل . وكان له ثلاث درجات ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد على عُلياهن ، ويضع رجليه الكريمتين فى وُسطاهن . فلما ولى أبو بكر الصديق رضى الله عنه قعد على وسطاهن ووضع رجليه على أولاهن . فلما ولى عمر رضى الله عنه جلس على أولاهن وجعل رجليه على الأرض . وفعل ذلك عثمان رضى الله عنه صَدْراً من خلافته ، ثم ترقى إلى الثالثة . ولما أن صار الأمر إلى معاوية رضى الله عنه أراد نقل المنبر إلى الشام فضج المسلمون . فلما رأى ذلك معاوية تركه وزاد فيه ست درجات من أسفله ، فبلغ تسع درجات .

---

(١) أى قبلة مقطوع بصحتها .

(٢) لم يثبت حنين الجذع ثبوت قطع .

(٣) الطرفاء والأثل نوعان من الشجر .

ذكر الخطيب والإمام بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وكان الإمام بالمسجد الشريف فى عهد دخولى إلى المدينة ، بهاء الدين ابن سلامة ، من كبار أهل مصر ، وينوب عنه العالم الصالح الزاهد بقية المشايخ عزالدين الواسطى ، نفع الله به ، وكان يخطب قبله . ويقضى بالمدينة الشريفة سراج الدين عمر المصرى .

حكاية

يذكر أن سراج الدين هذا أقام فى خُطّة القضاء بالمدينة والخطابة بها نحو أربعين سنة . ثم إنه أراد الخروج بعد ذلك إلى مصر فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ثلاث مرات ، فى كل مرة ينهاه عن الخروج منها ، وأخبره باقتراب أجله ، فلم ينته عن ذلك ، وخرج فمات بموضع يقال له سُوَيْس ، على مسيرة ثلاث من مصر قبل أن يصل إليها . وكان ينوب عنه الفقيه أبو عبد الله محمد بن فرحون رحمه الله . وابناه الآن بالمدينة الشريفة : أبو محمد عبدالله مدرس المالكية ونائب الحكم ، وأبو عبد الله محمد . وأصلهم من مدينة تونس ، ولهم بها حسب وأصالة . وتولى الخطابة والقضاء بالمدينة الشريفة بعد ذلك جمال الدين الأسيوطى من أهل مصر ، وكان قبل ذلك قاضيا بحصن الكَرَك .

ذكر خدام المسجد الشريف والمؤذنين به

وخدام هذا المسجد الشريف وسَدَنَته فتيان من الأحابيش وسواهم . وهم على هيئات حسان وصور نظاف وملابس ظراف ، وكبيرهم يعرف بشيخ

الخدام . وهو فى هيئة الأمراء الكبار . ولهم المرتبات بديار مصر والشام ، ويؤتى إليهم بها فى كل سنة . ورئيس المؤذنين بالحرم الشريف الإمام المحدث الفاضل جمال الدين المطَرِى ، من مَطَرِيَّة ، قرية بمصر ، وولده الفاضل عفيف الدين عبد الله ، والشيخ المجاور الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد الغَرْناطى

ذكر أمير المدينة الشريفة

كان أمير المدينة كُبَيْش بن منصور بن جَمَّاز ، وكان قد قتل عمه مقبلا . ويقال : إنه توضأ بدمه . ثم إن كبيشا خرج سنة سبع وعشرين إلى الفلاة فى شدة الحر ومعه أصحابه ، فأدركتهم القائلة فى بعض الأيام ، فتفرقوا تحت ظلال الأشجار ، فما راعهم إلا وأبناء مقبل فى جماعة من عبيدهم ينادون : يا لثارات مقبل ! فقتلوا كبيش بن منصور صبرا ، ولعقوا دمه . وتولى بعده أخوه طفيل بن منصور .

ذكر بعض المشاهد الكريمة بخارج المدينة الشريفة

فمنها بقيع الغَرْقَد ، وهو بشرقى المدينة المكرمة ، ويخرج إليه على باب يعرف بباب البقيع . فأول ما يلقى الخارج إليه على يساره عند خروجه من الباب قبر صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها ، وهى عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، وأم الزبير بن العوام رضى الله عنه . وأمامها قبر إمام المدينة أبى عبد الله مالك[1] بن أنس رضى الله عنه ، وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء . وأمامه قبر السلالة الطاهرة المقدسة النبوية الكريمة ، إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، وعليه قبة بيضاء . وعن يمينها تربة عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، وهو المعروف بأبى شَحْمَة .

---

(١) سيدنا مالك صاحب المذهب المشهور رضى الله عنه .

وبإزائه قبر عَقِيل بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقبر عبد الله بن ذى الجناحين جعفر بن أبى طالب رضى الله عنهما . وبازائهم روضة يذكر أن قبور أمهات المؤمنين بها رضى الله عنهن . ويليها روضة فيها قبر العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقبر الحسن بن على بن أبى طالب عليهم السلام . وهى قبة ذاهبة فى الهواء ، بديعة الإحكام عن يمين الخارج من باب البقيع ، ورأس الحسن إلى رجلى العباس عليهما السلام . وقبراهما مرتفعان عن الأرض ، متسعان مُغَشَّيَان بألواح بديعة الإلصاق مرصعة بصفائح الصُّفر[1] البديعة العمل .

وبالبقيع قبور المهاجرين والأنصار ، وسائر الصحابة رضى الله عنهم ، إلا أنها لا يعرف أكثرها . وفى آخر البقيع قبر أمير المؤمنين أبى عمر عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وعليه قبة كبيرة . وعلى مقربة منه قبر فاطمة بنت أسد بن هاشم أم على بن أبى طالب رضى الله عنها وعن ابنها . ومن المشاهد الكريمة قُباء وهو قبلى المدينة نحو ميلين منها ، والطريق بينهما فى حدائق النخل ، وبه المسجد الذى أسس على التقوى والرضوان ، وهو مسجد مربع فيه صَوْمَعة بيضاء طويلة ، تظهر على البعد ، وفى وسطه مَبْرَك الناقة بالنبى صلى الله عليه وسلم تسليما ، يتبرك الناس بالصلاة فيه . وفى الجهة القبلية من صحنه محراب على مِصْطَبة ، هو أول موضع ركع فيه النبى صلى الله عليه وسلم تسليما . وفى قبلى المسجد دار كانت لأبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه ، ويليها دور تنسب لأبى بكر وعمر وفاطمة وعائشة رضى الله عنهم . وبإزائه بئر أَرِيس وهى التى عاد ماؤها عذبا لما تَفَل فيه النبى صلى الله عليه وسلم تسليما بعد أن كان أجاجا[2] ، وفيها وقع الخاتم الكريم من عثمان رضى الله عنه . ومن المشاهد

---

(١) الصُّفر : النحاس .

(٢) ليس بثابت ثبوتا قطعيا .

قبة حجز الزيت بخارج المدينة الشريفة ، يقال إن الزيت رشح من حجر هنالك للنبي صلى الله عليه وسلم تسليما[1] . و إلى جهة الشمال منه بئر بُضاعة. وعلى شفير الخندق الذى حفره رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما عند تحزب الأحزاب حصن خرب ، يعرف بحصن العُزَّاب ؛ يقال إن عمر بناه لعزاب المدينة . وأمامه إلى جهة الغرب بئر رُومة التى اشترى أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه نصفها بعشرين ألفا . ومن المشاهد الكريمة أُحُد وهو الجبل المبارك الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما : إن أحدا جبل يحبنا ونحبه . وهو بجوار المدينة الشريفة على نحو فرسخ منها ، وبازائه الشهداء المكرمون رضى الله عنهم . وهنالك قبر حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورضى عنه ، وحوله الشهداء المُسْتَشْهَدُون فى أحد رضى الله عنهم ، وقبورهم لقبلىّ أحد . وفى طريق أحد مسجد ينسب لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، ومسجد ينسب إلى سَلْمَان الفارسى رضى الله عنه ، ومسجد الفتح ، حيث أنزلت سورة الفتح على رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما .

وكانت إقامتنا بالمدينة الشريفة فى هذه الوجهة أربعة أيام ، وفى كل ليلة نبيت بالمسجد الكريم ، والناس قد حلقوا فى صحنه حَلَقًا وأوقدوا الشمع الكثير ، و بينهم رَبْعات القرآن الكريم يتلونه ، و بعضهم يذكرون الله ، و بعضهم فى مشاهدة التربة الطاهرة (زادها الله طيبا) ، والحُدَاة بكل جانب يترنمون بمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، وهكذا دأب الناس فى تلك الليالى المباركة ، و يجودون بالصدقات الكثيرة على المجاورين والمحتاجين . وكان فى صحبتى فى هذه الوجهة من الشام إلى المدينة الشريفة رجل من أهلها فاضل ، يعرف بمنصور بن شَكْل ، واجتمعنا بعد ذلك بحلب و بخارى : وكان فى صحبتى أيضا قاضى الزَّيْدِيّة شرف الدين قاسم بن سِنَان . وصحبنى أيضا أحد الصلحاء الفقراء من أهل غَرْناطة ، يسمى بعلى بن حجر الأموى .

(1) ليس هذا بثابت ثبوتا قطعيا .

حكاية

لما وصلنا إلى المدينة ، كرمها الله ، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام ، ذكر لى على بن حجر هذا أنه رأى تلك الليلة فى النوم قائلا يقول له : اسمع منى واحفظ عنى :

هنيئا لكم يا زائرين ضريحه   أمِنْتُم به يوم المعاد من الرجس
وصلتم إلى قبر الحبيب بِطَيْبَةٍ   فطوبى لمن يُضْحِى بطيبة أو يُمْسِى

وجاور هـذا الرجل بعد صحبه بالمدينة ، ثم رحل الى مدينة دِهلى قاعدة بلاد الهند ، فى سنة ثلاث وأربعين ، فنزل فى جوارى . وذكرت حكاية رؤياه بين يدى ملك الهند ، فأمر بإحضاره ، فحضر بين يديه وحكى له ذلك ، فأعجبه واستحسنه ، وقال له كلاما جميلا بالفارسية ، وأمر بإنزاله وأعطاه ثلاثمائة تَنْكة من ذهب ، ووزن التنكة من دنانير المغرب ديناران ونصف دينار ، وأعطاه فرسا محلَّى السرج واللجام ، وخِلْعة ، وعين له مرتبا فى كل يوم . وكان هنالك فقيه طيب من أهل غَرْناطة ومولده ببِجَاية ، يعرف هنالك بجمال الدين المغربى ، فصحبه علىّ بن حجر وواعده على أن يزوجه بنته ، وأنزله بدويرة خارج داره ، واشترى جارية وغلاما . وكان يترك الدنانير فى مفرش ثيابه ولا يطمئن بها لأحد . فاتفق الغلام والجارية على أخذ ذلك الذهب ، وأخذاه وهربا . فلما أتى الدار لم يجد لهما أثرا ، ولا للذهب . فامتنع من الطعام والشراب ، واشتد به المرض أسفا على ما جرى عليه . فعرضت قضيته بين يدى الملك ، فأمر أن يُخْلَف له ذلك ، فبعث إليه من يعلمه بذلك ، فوجده قد مات رحمه الله تعالى .

وصف الطريق إلى مكة

وكان رحيلنا من المدينة نريد مكة (شرفهما الله تعالى) . فنزلنا بقرب مسجد ذى الحُلَيْفَة الذى أحرم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، والمدينة منه على خمسة أميال ، وهو منتهى حرم المدينة ، وبالقرب منه وادى العقيق . وهنالك تجردت من مَخيط الثياب ، واغتسلت ولبست ثوب إحرامى وصليت ركعتين ، وأحرمت بالحج مفردا . ولم أزل مليبا فى كل سهل وجبل وصعود وحُدور ، إلى أن أتيت شِعْبَ على عليه السلام ، وبه نزلت تلك الليلة — ثم رحلنا منه ونزلنا بالرَّوْحاء ، وبها بئر تعرف ببئر ذات العَلَم ، ويقال إن عليا عليه السلام قاتل بها الجن — ثم رحلنا ونزلنا بالصفراء ، وهو واد معمور فيه ماء ونخل وبنيان ، وقصر يسكنه الشرفاء الحسنيون وسواهم ، وفيها حصن كبير ، وتواليه حصون كثيرة وقرى متصلة — ثم رحلنا منه ونزلنا ببَدْر حيث نصر الله رسوله صلى الله عليه وسلم تسليما ، وأنجز وعده الكريم ، واستأصل صناديد المشركين . وهى قرية فيها حدائق نخل متصلة ، وبها حصن منيع ، يُدْخَل إليه من بطن واد بين جبال . وببدر عين فوّارة يجرى ماؤها . وموضع القَليب[1] الذى سُحب به أعداء الله المشركون هو اليوم بستان ، وموضع الشهداء رضى الله عنهم خلفه . وجبل الرحمة الذى نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه إلى الصفراء . وبإزائه جبل الطبول وهو شبه كثيب الرمل ممتد . ويزعم أهل تلك البلدة أنهم يسمعون هنالك مثل أصوات الطبول فى كل ليلة جمعة . وموضع عَريش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان به يوم بدر يناشد ربه جل وتعالى متصل بسفح جبل الطبول . وموضع الوقيعة أمامه . وعند نخل القليب مسجد يقال له : مبرك ناقة النبى صلى الله عليه وسلم تسليما . وبين بدر والصفراء نحو بريد[2] فى واد بين جبال تطّرد فيه العيون ، وتتصل حدائق النخل .

(١) القليب : البئر .

(٢) أربعة فراسخ

ورحلنا من بدر إلى الصحراء المعروفة بقاع البَزْواء ، وهى برية يضل بها الدليل، ويَذْهَل عن خليله الخليل، مسيرة ثلاث، وفى منتهاها وادى رابغ، يتكوّن فيه بالمطر غدران يبقى بها الماء زمانا طويلا ، ومنه يحرم حجاج مصر والمغرب وهو دون الجُحْفة . وسرنا من رابغ ثلاثا إلى خُلَيص ، ومررنا بعقبة السَّوِيق ، وهى على مسافة نصف يوم من خليص، كثيرة الرمل ، والحجاج يقصدون شرب السويق بها ، ويستصحبونه من مصر والشام برسم ذلك ، ويسقونه الناس مخلوطا بالسكر . والأمراء يملئون منه الأحواض ويسقونها الناس . ثم نزلنا بركة خُلَيْص وهى فى بسيط من الأرض كثيرة حدائق النخل ، لها حصن مشيد فى قُنَّة جبل . وفى البسيط حصن خرب ، وبها عين فوّارة قد صنعت لها أخاديد فى الأرض وسُرِّبَتْ إلى الضياع . وصاحب خليص شريف حسنى النسب، وعرب تلك الناحية يقيمون هنالك سوقا عظيمة يجلبون إليها الغنم والتمر والإدام(١) .

ثم رحلنا إلى عُسْفَان وهى فى بسيط من الأرض بين جبال، وبها آبار ماء مَعين، تنسب إحداها إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه. والمَدْرج المنسوب إلى عثمان أيضا على مسافة نصف يوم من خليص، وهو مضيق بين جبلين ، وفى موضع منه بلاط على صورة دَرَج، وأثر عمارة قديمة . وهنالك بئر تنسب إلى على عليه السلام ، ويقال إنه أحدثها . وبعُسْفان حصن عتيق وبرج مشيد، قد أوهنه الخراب ، وبه من شجر المُقْل كثير . ثم رحلنا من عسفان ونزلنا بطن مَرّ الظَّهْرَان ، وهو واد مخصب كثير النخل ذوعين فوارة سيالة تسقى تلك الناحيــة . ومن هذا الوادى تجلب الفواكه والخُضَر إلى مكة

---

(١) ما يؤدم به .

(شرفها الله تعالى) . ثم أدلجنا(١) من هذا الوادى المبارك والنفوس مستبشرة ببلوغ آمالها ، مسرورة بحالها ومآلها ، فوصلنا عند الصباح إلى البلد الأمين مكة (شرفها الله تعالى) ، فوردنا منها على حرم الله ومُبَوَّإ خليله إبراهيم ، ومبعث صفيه محمد صلى الله عليه وسلم . ودخلنا البيت الحرام الشريف الذى من دخله كان آمنا ، من باب بنى شَيْبَة ، وشاهدنا الكعبة الشريفة زادها الله تعظيما ، وهى كالعروس تجلى على مِنصة الجلال ، وترفُل فى برود الجمال ، محفوفة بوفود الرحمن ، موصلة إلى جنة الرضوان . وطفنا بهـا طواف القدوم ، واستلمنا الحجر الكريم ، وصلينا ركعتين بمقام إبراهيم ، وتعلقنا بأستار الكعبة عند المُلْتَزَم ، بين الباب والحجر الأسود ، حيث يستجاب الدعاء . وشربنا من ماء زمزم وهو لِمَـا شُرِب له ، على ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم تسليما . ثم سعينا بين الصفا والمروة ، ونزلنا هنالك بدار بمقربة من باب إبراهيم . والحمد لله الذى شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم ، وجعلنا ممن بلغته دعوة الخليل عليه الصلاة والتسليم ، ومتّع أعيننا بمشاهدة الكعبة الشريفة والمسجد العظيم والحِجْر الكريم ، وزمزم والحطيم(٢) . ومن عجائب صنع الله تعالى أنه طبع القلوب على النزوع إلى هذه المشاهد المنيفة ، والشوق إلى المثول بمعاهدها الشريفة ، وجعل حبها متمكنا فى القلوب ، فلا يَحُلُّها أحد إلا أخذت بمجامع قلبه ، ولا يفارقها إلا أسفا لفراقها متولها لبعاده عنها ، شديد الحنين إليها ، ناويا لتكرار الوفادة عليها . فأرضها المباركة نُصْب الأعين ، ومحبتها حشو القلوب ، حكمة من الله بالغة ، وتصديقا لدعوة خليله عليه السلام . والشوق يحضرها وهى نائية ، ويمثلها وهى غائبـة ، ويهون على قاصدها ما يلقاه من المشاق ، ويعانيه من العناء . وكم من ضعيف يرى الموت عِيانا دونها ، ويشاهد التلف فى طريقها .

---

(١) أدلج : سار ليلا .

(٢) الحطيم : حِجْر الكعبة حيث يحطم الناس للدعاء .

فإذا جمع الله بها شمله تلقاها مسرورا مستبشرا ، كأنه لم يذق لها مرارة ، ولا كابد محنة ولا نصبا ! إنه لأمر إلهى وصنع ربانى ، ودلالة لا يشوبها لبس ، ولا تغشاها شبهة ، ولا يطرقها تمويه ، وتعز فى بصيرة المستبشرين ، وتبدو فى فكرة المتفكرين . ومن رزقه الله تعالى الحلول بتلك الأرجاء ، والمثول بذلك الفناء ، فقد أنعم الله عليه النعمة الكبرى ، وخوَّله خير الدارين : الدنيا والأخرى . فَحَقّ عليه أن يكثر الشكر على ما خوله ، ويديم الحمد على ما أولاه . جعلنا الله تعالى ممن قبلت زيارته ، وربحت فى قصدها تجارته ، وكتبت فى سبيل الله آثاره ، ومحيت بالقبول أوزاره ، بمنه وكرمه .

ذكر مدينة مكة المعظمة

وهى مدينة كبيرة متصلة البنيان ، مستطيلة فى بطن واد تَحُفُّ به الجبال ، فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها . وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ . والأَخْشَبان من جبالها هما : جبل أبى قبيس ، وجبل قُعيقِعان[1] ، وفى الشمال منها الجبل الأحمر . ومن جهة أبى قبيس أجياد الأكبر وأجياد الأصغر ، وهما شِعْبان ، والخَنْدَمة ، وهى جبل . (والمناسك كلها : مِنًى وعرفة والمُزْدَلِفَة) بشرقى مكة شرفها الله .

ولمكة من الأبواب ثلاثة : باب المَعْلَى بأعلاها ، وباب الشُّبَيْكَة من أسفلها ، ويعرف أيضا بباب الزاهر ، وبباب العُمْرة ، وهو إلى جهة المغرب ، وعليه طريق المدينة الشريفة ومصر والشام وجُدَّة ، ومنه يتوجه إلى التَّنْعِيم ، وسيذكر ذلك ، وباب المَسْفَلَة وهو من جهة الجنوب ، ومنه دخل خالد ابن الوليد رضى الله عنه يوم الفتح . ومكة ، شرفها الله ، كما أخبر الله فى كتابه

---

(١) قُعَيقِعَانُ : جبل بمكة وجْهُهُ إلى أبى قبيس كانت جُرْهُم تصنع أسلحتها فيه فتقعقع اهـ (قاموس) .

العزيز حاكيا عن نبيه الخليل، بواد غير ذى ذرع ، ولكن سبقت لها الدعوة المباركة ، فكل طُرْفة تجلب إليها ، وثمرات كل شىء تجبى إليها . ولقد أكلت بها من الفواكه : العنب، والتين، والخوخ، والرطب، ما لا نظير له فى الدنيا. وكذلك البِطّيخ المجلوب إليها لا يماثله سواه طيبا وحلاوة . واللحوم بها سمان لذيذات الطعوم . وكل مايفترق فى البلاد من السلع فيها اجتماعه . وتجلب لها الفواكه والخُضَر من الطائف ، ووادى نخلة ، وبطن مَرّ الظَّهْران ، لطفاً من الله بسكان حرمه الأمين ومجاورى بيته العتيق .

وصف المسجد الحرام شرفه الله وكرمه

والمسجد الحرام فى وسط البلد، وهو متسع الساحة، طوله من شرق إلى غرب أزيد من أربعمائة ذراع (حكى ذلك الأزرقى) وعرضه يقرب من ذلك، والكعبة العظمى فى وسطه . ومنظره بديع، ومرآه جميل، لا يتعاطى اللسان وصف بدائعه، ولا يحيط الواصف بحسن كماله . وارتفاع حيطانه نحو عشرين ذراعا، وسقفه على أعمدة طوال ، مصطفة ثلاثة صفوف ، بأتقن صناعة وأجملها . وقد انتظمت بلاطاته الثلاثة انتظاما عجيبا، كأنها بلاط واحد . وعدد سواريه الرُخامية أربعمائة وإحدى وتسعون سارية ، ماعدا الجِصّية التى فى دار[1] الندوة المزيدة فى الحرم ، وهى داخلة فى البلاط الآخذ فى الشمال، ويقابلها المقام مع الركن العراقى، وفضاؤها متصل يدخل من هذا البلاط إليه . ويتصل بجدار هذا البلاط مصاطب تحت قِسِىّ حنايا ، يجلس بها المقرئون والناسخون والخياطون . وفى جدار البلاط الذى يقابله مصاطب تماثلها . وسائر البلاطات تحت جُدْرانها مصاطب بدون حنايا . وعند باب إبراهيم مدخل من البلاط

---

(١) دار النَّدْوَة : بناها قُصَىّ ، لأنهم كانوا يَنْدُون فيها أى يجتمعون (مصباح) .

الغربي فيه سوارجصية . وللخليفة المهدى محمد ابن الخليفة أبى جعفر المنصور رضى الله عنهما آثار كريمة فى توسيع المسجد الحرام، وإحكام بنائه. وفى أعلى جدار البلاط الغربى مكتوب : " أمر عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعمارته ، فى سنة سبع وستين ومائة " .

ذكر الكعبة المعظمة الشريفة ، زادها الله تعظيما وتكريما

والكعبة ماثلة فى وسط المسجد وهى بُنْيَة مربعة ارتفاعها فى الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعا ، ومن الجهة الرابعة التى بين الحجر الأسود والركن اليمانى تسع وعشرون ذراعا ، وعرض صفحتها التى من الركن العراقى إلى الحجر الأسود أربعة وخمسون شبرا ، وكذلك عرض الصفحة التى تقابلها من الركن اليمانى إلى الركن الشامى . وعرض صفحتها التى من الركن العراقى إلى الركن الشامى من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبرا، وكذلك عرض الصفحة التى تقابلها من الركن الشامى إلى الركن العراقى . وأما خارج الحِجْر فإنه مائة وعشرون شبرا . والطواف إنما هو خارج الحجر . وبناؤها بالحجارة الصُّم السمر ، قد ألصقت بأبدع الإلصاق وأحكمه وأشَدِّه ، فلا تغيرها الأيام ولا تؤثر فيها الأزمان . وباب الكعبة المعظمة فى الصَّفْح[1] الذى بين الحجر الأسود والركن العراقى ، وبينه وبين الحجر الأسود عشرة أشبار . وذلك الموضع هو المسمى بالمُلْتَزَم حيث يستجاب الدعاء . وارتفاع الباب عن الأرض أحد عشر شبرا ونصف شبر، وسعته ثمانية أشبار، وطوله ثلاثة عشر شبرا، وعرض الحائط الذى ينطوى عليه خمسة أشبار . وهو مصفح بصفائح الفضة، بديع الصنعة، وعِضَادتاه وعتبته العليا مصفحات بالفضة . ويفتح الباب الكريم فى كل يوم جمعة بعد الصلاة ، ويفتح فى يوم مولد رسول الله صلى الله عليه

(١) الجهة .

وسلم تسليما . ورسمهم فى فتحه أن يضعوا كرسيا شبه المنبر له دَرَج وقوائم خشب ، لها أربع بكرات يجرى الكرسى عليها ، ويلصقونه إلى جدار الكعبة الشريفة ، فيكون درجه الأعلى متصلا بالعتبة الكريمة ، ثم يصعد كبير الشَّيبيين[١] وبيده المفتاح الكريم ، ومعه السَّدَنة ، فيمسكون الستر المسبل على باب الكعبة المسمى بالبرقع ، بخلال مايفتح رئيسهم الباب ، فإذا فتحه قبّل العتبة الشريفة ودخل البيت وحده ، وسد الباب ، وأقام قدر مايركع ركعتين . ثم يدخل سائر الشيبيين ، ويسدون الباب أيضا ويركعون ، ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول . وفى أثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم بأبصار خاشعة ، وقلوب ضارعة ، وأيد مبسوطة إلى الله تعالى . فإذا فتح كبروا ونادوا : اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين . وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزّع وحيطانه كذلك ، وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج ، بين كل عمود منها وبين الآخر أربع خُطا . وهى متوسطة فى الفضاء داخل الكعبة الشريفة ، يقابل الأوسط منها نصف عرض الصفح الذى بين الركنين العراقى والشامى . وستور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود مكتوب فيها بالأبيض ، وهى تتلألأ عليها نورا وإشراقا ، وتكسو جميعها من الأعلى إلى الأرض : ومن عجائب الآيات فى الكعبة الكريمة أن بابها يفتح والحرم غاص بأمم لايحصيها إلا الله الذى خلقهم ورزقهم ، فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم . ومن عجائبها أنها لا تخلو عن طائف أبدا ليلا ولا نهارا ، ولم يذكر أحد أنه رآها قط دون طائف . ومن عجائبها أن حمام مكة على كثرته وسواه من الطير لاينزل عليها ولا يعلوها فى الطيران ، وتجد الحمام يطير على أعلى الحرم كله ، فإذا حاذى الكعبة الشريفة عرج عنها إلى إحدى الجهات ولم يعلها[٢] .

(١) الشيبيون : بنو شيبة بن عثمان الحجبى ، بيدهم مفاتيح الكعبة ولهم سدانتها .

(٢) كلام فيه نظر .

ذكر الميزاب المبارك

والميُزاب فى أعلى الصَّفْح الذى على الحِجْر، وهو من الذهب وسعته شبر واحد، وهو بارز بمقدار ذراعين، والموضع الذى تحت الميزاب مَظِنَّة استجابة الدعاء. وتحت الميزاب فى الحجر قبر إسمـاعيل عليـه السلام، وعليه رُخامة خضراء مستطيلة على شكل محراب، متصلة برخامة خضراء مستديرة، وكلتاهما سعتها مقدار شبر ونصف شبر، وكلتاهما غريبة الشكل رائقة المنظر. وإلى جانبه مما يلى الركن العراقى قبر أمه هَاجَر عليها السلام، وعلامته رخامة خضراء مستديرة سعتها مقدار شبر ونصف. وبين القبرين سبعة أشبار.

ذكر الحجر الأسود

وأما الحجر الأسود فارتفاعه عن الأرض ستة أشبار، فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله، والصغير يتطاول إليـه. وهو ملصق فى الركن الذى إلى جهة المشرق، وسعته ثلثا شبر، وطوله شبر وعقد. ولا يعلم قدر ما دخل منه فى الركن، وفيه أربع قطع ملصقة. وجوانب الحجر مشدودة بصَفيحة من فضة، يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم، فتجتلى منه العيون حسنا باهرا. ولتقبيله لذة يتنعم بها الفم، ويود لاثمه ألا يفارق لثمه، خاصَّةٌ مودعة فيه، وعناية ربانية به. وكفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه يمين الله فى أرضه. نفعنا الله باستلامه ومصافحته، وأوفد عليه كل شَيِّق إليه. وفى القطعة الصحيحة من الحجر الأسود، مما يلى جانبه الموالى ليمين مستلمه، نقطة بيضاء

صغيرة مشرقة ، كأنها خال فى تلك الصحيفة البهية ؛ وترى الناس إذا طافوا بها يتساقط بعضهم على بعض ازدحاما على تقبيله ، فقلما يتمكن أحد من ذلك إلا بعد المزاحمة الشديدة ، وكذلك يصنعون عند دخول البيت الكريم . ومن عند الحجر الأسود ابتداء الطواف ، وهو أول الأركان التى يلقاها الطائف ، فإذا استلمه تقهقر عنه قليلا ، وجعل الكعبة الشريفة عن يساره ، ومضى فى طوافه ، ثم يلقى بعده الركن العراقى ، وهو إلى جهة الشمال ، ثم يلقى الركن الشامى وهو إلى جهة الغرب ، ثم يلقى الركن اليمانى وهو إلى جهة الجنوب ، ثم يعود إلى الحجر الأسود وهو إلى جهة الشرق .

ذكر المقام الكريم

اعلم أن بين الكعبة ، (شرفها الله) ، و بين الركن العراقى موضعا طوله آثنا عشر شبرا ، وعرضه نحو النصف من ذلك ، وارتفاعه نحو شبرين ، وهو موضع المقام فى مدة إبراهيم عليه السلام ، ثم صرفه النبى صلى الله عليه وسلم إلى الموضع الذى هو الآن مصلّى . وبقى ذلك الموضع شبه الحوض ، و إليه ينصب ماء البيت الكريم إذا غسل ، وهو موضع مبارك يزدحم الناس للصلاة فيه . وموضع المقام الكريم يقابل ما بين الركن العراقى والباب الكريم ، وهو إلى الباب أميل ، وعليه قبة تحتها شُبّاك حديد متجاف عن المقام الكريم قدر ما تصل أصابع الانسان ، إذا أدخل يده من ذلك الشباك إلى الصندوق . والشباك مقفل ، ومن ورائه موضع محوز قد جعل مصلّى لركعتى الطواف . وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما لما دخل المسجد أتى البيت فطاف به سبعا ، ثم أتى المقام فقرأ : (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى) ، وركع خلفه ركعتين . وخلف المقام مصلى إمام الشافعية فى الحطيم الذى هنالك .

ذكر الحِجْر والمطاف

ودَوْرُ جدار الحِجْر تسع وعشرون خطوة ، وهى أربعة وتسعون شبرا من داخل الدائرة ، وهو بالرخام البديع المجزع المحكم الإلصاق . وارتفاعه خمسة أشبار ونصف شبر ، وسعته أربعة أشبار ونصف شبر ، وداخل الحجر بلاط واسع مفروش بالرخام المجزَّع المنظم المعجز الصنعة ، البديع الإتقان . وبين جدار الكعبة الشريفة الذى تحت الميزاب ، وبين ما يقابله من جدار الحجر على خط استواء أربعون شبرا . وللحجر مدخلان : أحدهما بينه وبين الركن العراقى وسعته ستة أذرع . وهذا الموضع هو الذى تركته قريش من البيت حين بنته ، كما جاءت الآثار الصحاح . والمدخل الآخر عند الركن الشامى ، وسعته أيضا ستة أذرع . وبين المدخلين ثمانية وأربعون شبرا . وموضع الطواف مفروش بالحجارة السود ، محكمة الإلصاق ، وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطا ، إلا فى الجهة التى تقابل المقام الكريم ، فإنها امتدت إليه حتى أحاطت به . وسائر الحرم ، مع البلاطات ، مفروش برمل أبيض . وطواف النساء فى آخر الحجارة المفروشة .

ذكر زمزم المباركة

وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الأسود ، وبينهما أربع وعشرون خطوة . والمقام الكريم عن يمين القبة ، ومن ركنها إليه عشر خطا . وداخل القبة مفروش بالرُخام الأبيض . وتَنُّور(١) البئر المباركة فى وسط القبة مائلا إلى الجدار المقابل للكعبة الشريفة ، وهو من الرخام البديع الإلصاق ، مُفْرَغ بالرَّصاص ، ودوْره أربعون شبرا ، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف شبر . وعمق البئر

---

(١) تَنُّور البئر : مَفجَر الماء أو موضع اجتماعه .

إحدى عشرة قامة. وهم يذكرون أن ماءها يتزايد فى كل ليلة جمعة . وباب القبة إلى جهة الشرق، وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر وعمقها مثل ذلك ، وارتفاعها عن الأرض نحو خمسة أشبار ، تملأ ماء للوضوء . وحولها مِصْطبة يقعد الناس عليها للوضوء. ويلى قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة إلى العباس رضى الله عنه ، وبابها إلى جهة الشمال . وهى الآن يجعل بها ماء زمزم فى قِلال يسمونها الدوارق، وكل دَوْرَق له مَقْبِض واحد ، وتترك بها ليبرد فيها الماء فيشرب به الناس. وبها اختزان المصاحف الكريمة، والكتب التى للحرم الشريف . وبها خزانة تحتوى على تابوت مبسوط متسع فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت رضى الله عنه ، منتَسخ سنة ثمانى عشرة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما . وأهل مكة إذا أصابهم قحط أو شدة أخرجوا هذا المصحف الكريم ، وفتحوا باب الكعبة الشريفة ، ووضعوه على العتبة الشريفة ، ووضعوه فى مقام إبراهيم عليه السلام، واجتمع الناس كاشفين رءوسهم ، داعين متضرعين متوسلين بالمصحف العزيز ، والمقام الكريم، فلا ينْفصلون إلا وقد تداركهم الله برحمته، وتغمدهم بلطفه.

ذكر أبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد الشريفة

وأبواب المسجد الحرام، (شرفه الله تعالى)، تسعة عشر بابا. وأكثرها مفتحة على أبواب كثيرة . فمنها باب الصفا وهو مفتح على خمسة أبواب ،. وكان قديما يعرف بباب بنى مخزوم ، وهو أكبر أبواب المسجد ، ومنه يخرج إلى المسعى . ويستحب للوافد على مكة أن يدخل المسجد الحرام شرفه الله من باب بنى شَيْبة ، ويخرج بعد طوافه من باب الصفا ، جاعلا طريقه بين الأسطوانتين اللتين أقامهما أمير المؤمنين المهدى، رحمه الله، علَما على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما إلى الصفا . ومنها باب أجْياد الأصغر

مفتح على بابين، ومنها باب الخياطين، مفتّح على بابين ، ومنها باب العباس رضى الله عنه، مفتح على ثلاثة أبواب ،ومنها باب النبي صلى الله عليه وسلم تسليما، مفتح على بابين، ومنها باب بنى شيبة، وهو فى ركن الجدار الشرقى من جهة الشمال أمام باب الكعبة الشريفة متياسرا ، وهومفتح على ثلاثة أبواب، وهو باب بنى عبد شمس، ومنه كان دخول الخلفاء، ومنها باب صغير إزاء باب بنى شيبة لا اسم له ، ومنها باب النَّدْوة — ويسمى بذلك ثلاثة أبواب : اثنان متنظمان ، والثالث فى الركن الغربى من دار الندوة . ودار الندوة قد جعلت مسجدا شارعا فى الحرم مضافا إليه ، وهى تقابل الميزاب . ومنها بابٌ صغير لدار العَجَلة ، مُحْدَث ، ومنها باب السِّدْرة ، واحد ، ومنها باب العُمْرة، واحد ، وهو من أجامل أبواب الحرم، ومنها باب إبراهيم، واحد . والناس مختلفون فى نسبته : فبعضهم ينسبه إلى إبراهيم الخليل عليه السلام . والصحيح أنه منسوب لإبراهيم الخُوزِىّ من الأعاجم . ومنها باب الحَزْوَرَة، مفتح على بابين ، ومنها باب أجياد الأكبر، مفتح على بابين ، ومنها باب ينسب إلى أجياد أيضا ، مفتح على بابين، وباب ثالث ينسب إليه، مفتح على بابين ، ويتصل بباب الصفا . ومن الناس من ينسب البابين ، من هذه الأربعة المنسوبة لأجياد ، إلى الدقاقين .

وصوامع المسجد الحرام خمس: إحداهن على ركن أبى قُبَيْس عند باب الصفا ، والأخرى على ركن باب بنى شيبة ، والثالثة على باب دار الندوة ، والرابعة على ركن باب السِّدرة ، والخامسة على ركن أجياد . وبمقربة من باب العمرة مدرسة عمرها السلطان المعظم يوسف بن رسول ملك اليمن المعروف بالملك المظَفَّر ، الذى تنسب إليه الدراهم المظفرية باليمن . وكان يكسو الكعبة إلى أن غلبه على ذلك الملك المنصور قلاوون . وبخارج باب

إبراهيم زاوية كبيرة فيها دار إمام المالكية الصالح أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل . وعلى باب إبراهيم قبة عظيمة مفرطة السمو، قد صنع فى داخلها من غرائب صنع الجص مايعجز عنه الوصف . وبإزاء هذا الباب عن يمين الداخل إليه كان يقعد الشيخ العابد جلال الدين محمد بن أحمد الأَقْشَهْرى . وخارج باب إبراهيم بئر تنسب كنسبته . وعنده أيضا دار الشيخ الصالح دانيال العجمى ، الذى كانت صدقات العراق فى أيام السلطان أبى سعيد تأتى على يديه . وبمقربة منه رباط المُوَفَّق وهو من أحسن الرباطات ، سكنته أيام مجاورتى بمكة المعظمة . وكان به فى ذلك العهد الشيخ الصالح أبو عبد الله الزواوى المغربى . وسكن به أيضا الشيخ الصالح الطيار سعادة الحَرَّانى ، ودخل يوما إلى بيته بعد صلاة العصر فوُجِد ساجدا مستقبل الكعبة الشريفة ميتا من غير مرض كان به ، رضى الله عنه . وسكن به الشيخ الصالح شمس الدين محمد الشامى نحوا من أربعين سنة . وسكن به الشيخ الصالح شعيب المغربى من كبار الصالحين ، دخلت عليه يوما فلم يقع بصرى فى بيته على شىء سوى حصير ، فقلت له فى ذلك ، فقال لى آستر على ما رأيت.

وحول الحرم الشريف دور كثيرة لها مناظر وسطوح يخرج منها إلى سطح الحرم ، وأهلها فى مشاهدة البيت الشريف على الدوام ، ودور لها أبواب تفضى إلى الحرم ، منها دار زُبَيْدة زوج الرشيد أمير المؤمنين . ومنها دار العَجَلة ودار الشرابى وسواها . ومن المشاهد الكريمة بمقربة من المسجد الحرام قبة الوحى ، وهى فى دار خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها ، بمقربة من باب النبى صلى الله عليه وسلم . وفى البيت قبة صغيرة حيث ولدت فاطمة عليها السلام . وبمقربة منها دار أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ويقابلها جدار مبارك فيه حجر مبارك بارز طرفه من الحائط يستلمه الناس .

ذكر الصفا والمَرْوَة

ومن باب الصفا الذى هو أحد أبواب المسجد الحرام إلى الصفا ست وسبعون خطوة ، وسعة الصفا سبع عشرة خطوة ، وله أربع عشرة درجة ، عُلياهن كأنها مِصطبة . وبين الصفا والمروة أربعمائة وثلاث وتسعون خطوة ، منها من الصفا إلى الميل الأخضر ثلاث وتسعون خطوة ، ومن الميل الأخضر الى الميلين الأخضرين خمس وسبعون خطوة ، ومن الميلين الأخضرين إلى المروة ثلاثمائة وخمس وعشرون خطوة . وللمروة خمس درجات ، وهى ذات قوس واحدة كبيرة . وسعة المروة سبع عشرة خطوة . والميل الأخضر هو سارية خضراء مثبتة مع ركن الصومعة التى على الركن الشرقى من الحرم ، عن يسار الساعى إلى المروة . والميلان الأخضران هما ساريتان خضراوان إزاء باب علىّ من أبواب الحرم ، إحداهما فى جدار الحرم عن يسار الخارج من الباب ، والأخرى تقابلها . وبين الميل الأخضر والميلين الأخضرين يكون الرَّمَل(١) ذاهبا وعائدا . وبين الصفا والمروة مَسِيل فيه سوق عظيمة ، يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه . والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لازدحام الناس على حوانيت الباعة . وليس بمكة سوق منتظمة سوى هذه ، إلا البزازون والعطارون عند باب بنى شيبة . وبين الصفا والمروة دار العباس رضى الله عنه ، وهى الآن رباط يسكنه المجاورون ، عمره الملك الناصر رحمه الله ، وبنى أيضا دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين ، وجعل لها بابين أحدهما فى السوق المذكور ، والآخر فى سوق العطارين ، وعليها ربع يسكنه خدامها . وتولى بناء ذلك الأمير علاء الدين بن هلال . وعن يمين المروة دار أمير مكة سيف الدين عُطَيْفَة بن أبى نُمَىّ . وسنذكره .

---

(١) الهــرولة .

ذكر الجبانة المباركة

وجبانة مكة خارج باب المَعْلَى ، ويعرف ذلك الموضع أيضا بالحَجُون . وإياه عنى الحارث بن مُضَاض الجُرْهُمِى بقوله :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يَسْمُر بمكة سامر
بلى ، نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالى والجدود العواثر

وبهذه الجبانة مدفن الجم الغفير من الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين والأولياء ، إلا أن مشاهدهم دَثَرتْ وذهب عن أهل مكة علمها ، فلا يعرف منها إلا القليل . فمن المعروف منها قبر أم المؤمنين ووزير سيد المرسلين خديجة بنت خُوَيْلِد ، أم أولاد النبى صلى الله عليه وسلم تسليما كلهم ، ما عدا إبراهيم ، وجدة السِّبطين الكريمين صلوات الله وسلامه على النبى صلى الله عليه وسلم تسليما وعليهم أجمعين . وبمقربة منه قبر الخليفة أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور ، وعبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، رضى الله عنهم أجمعين . وفيها الموضع الذى صلب فيه عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما . وعن يمين مستقبل الجبانة مسجد خراب يقال إنه المسجد الذى بايعت الجن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما . وعلى هذه الجبانة طريق الصاعد إلى عرفات وطريق الذاهب إلى الطائف وإلى العراق .

ذكر بعض المشاهد خارج مكة

فمنها الحَجُون وقد ذكرناه . ويقال أيضا إن الحجون هو الجبل المطل على الجبانة ، ومنها المُحَصَّب ، وهو أيضا الأبطح ، وهو يلى الجبانة المذكورة ، وفيه خَيْف بنى كنانة الذى نزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، ومنها

ذو طُوى، وهو واد يهبط على قبور المهاجرين التى بالحَصْحَاص ، دون ثَنِيّة كَدَاء ، ويخرج منه إلى الأعلام الموضوعة حجزًا بين الحل والحرام . وكان عبدالله بن عمر رضى الله عنه إذا قدم مكة "شرفها الله تعالى" يبيت بذى طوى ثم يغتسل منه ويغدو إلى مكة ، ويذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فعل ذلك . ومنها ثَنِيّة كُدَىً (بضم الكاف) وهى بأعلى مكة ، ومنها دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع إلى مكة ، ومنها ثنية كَداء (بفتح الكاف) ، ويقال لها الثنية البيضاء وهى بأسفل مكة ، ومنها خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما عام الوداع ، وهى بين جبلين ، وفى مَضيقها كُوم حجارة موضوع على الطريق ، وكل من يمر به يرجمه بحجر . ويقال إنه قبر أبى لهب وزوجه حمالة الحطب . وبين هذه الثنية وبين مكة بسيط سهل ينزله الركب إذا صدروا عن مِنى . وبمقربة من هذا الموضع على نحو ميل من مكة "شرفها الله" مسجد بإزائه حَجَر موضوع على الطريق ، كأنه مِصْطبة ، يعلوه حجر آخر كان فيه نقش فَدَثَر رسمه ، يقال إن النبى صلى الله عليه وسلم تسليما قعد بذلك الموضع مستريحا عند مجيئه من عُمْرته ، فيتبرك الناس بتقبيله ، ويستندون إليه . ومنها التنعيم وهو على فرسخ من مكة ، ومنه يعتمر أهل مكة ، وهو أدنى الحِلّ إلى الحرم . ومنه اعتمرت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها حين بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فى حجة الوداع مع أخيها عبد الرحمن رضى الله عنه ، وأمره أن يُعَمِّرها من التنعيم . وبنيت هنالك مساجد ثلاثة على الطريق ، تنسب كلها إلى عائشة رضى الله عنها . وطريق التنعيم طريق فسيح ، والناس يتحرون كنسه فى كل يوم ، رغبة فى الأجر والثواب ، لأن من المعتمرين من يمشى فيه حافيا . وفى هذا الطريق الآبار العذبة التى تسمى الشُّبَيْكة . ومنها الزاهر وهو على

نحو ميلين من مكة على طريق التنعيم ، وهو موضع على جانبي الطريق فيه أثر دور وبساتين وأسواق . وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الشرب وأوانى الوضوء ، يملؤها خادم ذلك الموضع من آبار الزاهر ، وهى بعيدة القعر جدا . والخادم من الفقراء المجاورين ، وأهل الخير يعينونه على ذلك ، لما فيه من المَرْفَقَة للعتمرين من الغسل والشرب والوضوء . وذو طوى يتصل بالزاهر .

ذكر الجبال المُطيفة بمكة

فمنها جبل أبى قُبَيْس ، وهو فى جهة الجنوب والشرق من مكة ، حرسها الله ، وهو أحد الأَخْشَبَيْن ، وأدنى الجبال من مكة شرفها الله ، ويقابل ركن الحجر الأسود ، وبأعلاه مسجد وأثر رباط وعمارة . وكان الملك الظاهر رحمه الله أراد أن يعمره . وهو مطل على الحرم الشريف وعلى جميع البلد ، ومنه يظهر حسن مكة ، شرفها الله ، وجمال الحرم واتساعه والكعبة المعظمة . وفى جبل أبى قُبَيْس موضع موقف النبى صلى الله عليه وسلم حين انشق له القمر ، ومنها قُعَيْقِعان وهو أحد الأخشبَيْن(١) . ومنها الجبل الأحمر ، وهو فى جهة الشمال من مكة شرفها الله ، ومنها الخَنْدَمة وهو جبل عند الشِعبين المعروفين بأجيادٍ الأكبر وأجيادٍ الأصغر ، ومنها جبل الطير وهو على أربعة عن جهتى طريق التنعيم ، يقال إنها الجبال التى وضع عليها الخليل عليه السلام أجزاء الطير ثم دعاها ، على ما نص الله فى كتابه العزيز ، وعليها أعلام من حجارة . ومنها جبل حِراء وهو فى الشمال من مكة شرفها الله تعالى ، على

(١) الوارد بالقاموس أن الأخشبين هما أبو قبيس والأحمر .

نحو فرسخ منها ، وهومشرف على منى ، ذاهب فى الهواء ، عالى القُنَّة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعبد فيه كثيرا قبل المبعث ، وفيه أتاه الحق من ربه وبدأ الوحى ، وهو الذى اهتز تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اثبت فما عليك إلا نبى وصِدِّيق وشهيد . واختلف فيمن كان معه يومئذ ، وروى أن العشرة كانوا معه . وقد روى أن جبل ثَبِير اهتز تحته أيضا . ومنها جبل ثَوْر ، وهو على مقدار فرسخ من مكة شرفها الله تعالى ، على طريق اليمن ، وفيه الغار الذى أوى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما حين خروجه مهاجرا من مكة شرفها الله ، ومعه الصِّدِّيق رضى الله عنه ، على ما ورد فى الكتاب العزيز . فلما دخل رسول الله واطمأن به ، وصاحبه الصديق معه ، نسجت العنكبوت من حينها على باب الغار ، وصنعت الحمامة عشا وفَرَّخت[1] فيه بإذن الله تعالى . فانتهى المشركون ومعهم قُصَّاص الأثر إلى الغار ، فقالوا : هاهنا انقطع الأثر ، ورأوا العنكبوت قد نسج على فم الغار ، والحمام مُفَرِّخة . فقالوا : مادخل أحدهنا ، وانصرفوا . والناس يقصدون زيارة هذا الغار المبارك ، فيرومون دخوله من الباب الذى دخل منه النبى صلى الله عليه وسلم تبركا بذلك .

حكاية

ومما اتفق بهذا الجبل لصاحبين من أصحابى : أحدهما الفقيه المكرم أبو محمد عبد الله بن فرحان الإفريقى التَّوْزِىّ ، والآخر أبو العباس أحمد الأندلسى الآشى ، أنهما قصدا (الغار) فى حين مجاورتهما بمكة (شرفها الله تعالى) فى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ، وذهبا منفردين لم يستصحبا دليلا عارفا بطريقه ، فتاها وضلا طريق الغار ، وسلكا طريقا سواها منقطعة ،

---

(١) صار لها فرخ .

وذلك فى أوان اشتداد الحر . فلما نَفِد ما كان عندهما من الماء وهما لم يصلا إلى الغار ، أخذا فى الرجوع إلى مكة (شرفها الله تعالى) فوجدا طريقا فاتبعاه ، وكان يفضى إلى جبل آخر ، واشتد بهما الحر وأجهدهما العطش ، وعاينا الهلاك ، وعجز الفقيه أبو محمد بن فرحان عن المشى جملة ، وألقى بنفسه إلى الأرض ، ونجا الأندلسى بنفسه ، وكان فيه فضل قوة . ولم يزل يسلك تلك الجبال حتى أفضى به الطريق إلى أَجْياد ، فدخل إلى مكة (شرفها الله تعالى) وقصدنى وأعلمنى بهذه الحادثة ، وبما كان من أمر عبد الله التَّوَّزى وانقطاعه فى الجبل ، وكان ذلك فى آخر النهار . ولعبد الله المذكور ابن عم اسمه حسن ، وهو من سكان وادى نخلة ، وكان إذ ذاك بمكة . فأعلمته بما جرى على ابن عمه . وقصدت الشيخ الصالح الإمام أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بخليل ، إمام المالكية (نفع الله به) ، فأعلمته بخبره ، فبعث جماعة من أهل مكة عارفين بتلك الجبال والشعاب فى طلبه . وكان من أمر عبد الله التَّوَّزى : أنه لما فارقه رفيقه لجأ إلى حجر كبير فاستظل بظله ، وأقام على هذه الحالة من الجُهد والعطش ، والغربان تطير فوق رأسه وتنتظر موته ؛ فلما انصرم النهار وأتى الليل ، وجد فى نفسه قوة ، وأنعشه برد الليل فقام عند الصباح على قدميه ، ونزل من الجبل إلى بطن واد حجبت الجبال عنه الشمس ، فلم يزل ماشيا إلى أن بدت له دابة فقصد قصدها ، فوجد خَيْمة للعرب ، فلما رآها وقع إلى الأرض ولم يستطع النهوض ، فرأته صاحبة الخيمة ، وكان زوجها قد ذهب إلى وِرْد الماء ، فسقته ما كان عندها من الماء ، فلم يَرْوَ ، وجاء زوجها فسقاه قربة ماء فلم يرو ، وأركبه حمارا له وقدم به مكة ، فوصلها عند صلاة العصر من اليوم الثانى متغيرا كأنه قام من قبر .

ذكر أميرى مكة

وكانت إمارة مكة فى عهد دخولى إليها للشريفين الأجلين الاخوين : أسد الدين رُمَيْثة ، وسيف الدين عُطَيْفة ، ابنى الأمير أبى نُمَىّ بن أبى سعد ابن على بن قتادة الحسنيين . ورميثة أكبرهما سنا ، ولكنه كان يقدم اسم عطيفة فى الدعاء له بمكة لعدله . ودار عطيفة عن يمين المروة ، ودار أخيه رميثة برباط الشرابى عند باب بنى شيبة . وتضرب الطبول على باب كل واحد منهما عند صلاة المغرب من كل يوم .

ذكر أهل مكة وفضائلهم

ولأهل مكة الأفعال الجميلة ، والمكارم التامة ، والأخلاق الحسنة ، والإيثار للضعفاء والمنقطعين ، وحسن الجوار للغرباء . ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها بإطعام الفقراء المنقطعين المجاورين ، ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق ، ثم يطعمهم . وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران حيث يطبخ الناس أخبازهم ، فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله يتبعه المساكين ، فيعطى كل واحد منهم ما قسم له ولا يردهم خائبين ، ولو كانت له خبزة واحدة ، فإنه يعطى ثلثها أو نصفها ، طَيِّب النفس بذلك من غير ضجر . ومن أفعالهم الحسنة أن الأيتام الصغار يقعدون بالسوق ، ومع كل واحد منهم قُفَّتان : كبرى وصغرى ، وهم يسمون القفة مِكْتَلا ، فيأتى الرجل من أهل مكة إلى السوق ، فيشترى الحبوب واللحم والخضر ، ويعطى ذلك الصبى ، فيجعل الحبوب فى إحدى قفتيه ، واللحم والخضر فى الأخرى ، ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها ، ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته ، فلا يذكر أن أحدا من الصبيان خان الأمانة فى ذلك قط ، بل يؤدى ما حمل على أتم الوجوه . ولهم على ذلك

أجرة معلومة من فلوس . وأهل مكة لهم ظَرْف ونظافة فى الملابس . وأكثر لباسهم البياض ، فترى ثيابهم أبدا ناصعة ساطعة ، ويستعملون الطيب كثيرا ، ويكتحلون ، ويكثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر . ونساء مكة فائقات الحسن ، بارعات الجمال ، ذوات صلاح وعفاف . وهن يكثرن التطيب ، حتى إن إحداهن لتبيت طاوية وتشترى بقوتها طيبا . وهن يقصدن الطواف بالبيت فى كل ليلة جمعة ، فيأتين فى أحسن زىّ ، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن ، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبِقا . ولأهل مكة عادات حسنة فى الموسم وغيره .

ذكر عادة أهل مكة فى صلواتهم ومواضع أئمتهم

فمن عادتهم أن يصلى أول الأئمة إمام الشافعية وهو المقدم من قِبل أولى الأمر . وصلاته خلف المقام الكريم مقام إبراهيم الخليل (عليه السلام)، فى حَطِيم له هنالك بديع . وجمهور الناس بمكة على مذهبه . والحطِيم خشبتان موصول ما بينهما بأذرع شبه السلم تقابلهما خشبتان على صِفتهما ، وقد عقدت على أرجل مجصصة ، وعرض على أعلى الخشب خشبة أخرى فيها خطاطيف حديد ، يعلق منها قناديل زجاج . فإذا صلى الإمام الشافعى صلى بعده إمام المالكية فى محراب قُبَالة الركن اليمانى ، ويصلى إمام الحنبلية معه فى وقت واحد ، مقابلا ما بين الحجر الأسود والركن اليمانى ، ثم يصلى إمام الحنفية قُبَالة المِيزاب المكرم تحت حطيم له هنالك . ويوضع بين أيدى الأئمة فى محاريبهم الشمع ، وترتيبهم هكذا فى الصلوات الأربع . وأما صلاة المغرب فإنهم يصلونها فى وقت واحد ، كل إمام يصلى بطائفته . ويدخل على الناس من ذلك سهو وتخليط ، فربما ركع المالكى بركوع الشافعى ، وسجد الحنفى بسجود الحنبلى ، وتراهم مصيخين كل واحد إلى صوت المؤذن الذى يسمع طائفته لئلا يدخل عليه السهو .

ذكر عادتهم فى الخطبة وصلاة الجمعة

وعادتهم فى يوم الجمعة أن يلصق المِنبر المبارك إلى صَفْح الكعبة الشريفة فيما بين الحجر الأسود والركن العراقى ، ويكون الخطيب مستقبلا المقام الكريم . فإذا خرج الخطيب أقبل لابسا ثوب سواد معتما بعمامة سوداء وعليه طيلسان أسود ، كل ذلك من كُسْوة الملك الناصر ، وعليه الوقار والسكينة ، وهو يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من المؤذنين ، وبين يديه أحد القَوَمة فى يده الفرقعة ، وهى عود فى طرفه جلد رقيق مفتول ، ينفُضه فى الهواء فيسمع له صوت عال ، يسمعه من بداخل الحرم وخارجه ، فيكون إعلاما بخروج الخطيب . ولا يزال كذلك الى أن يقرب من المنبر ، فيقبل الحجر الأسود ويدعو عنده .. ثم يقصد المنبر ، والمؤذن الزمزمى ، وهو رئيس المؤذنين ، بين يديه لابسا السواد وعلى عاتقه السيف ، ممسكا له بيده . وتُركز الرايتان عن جانبى المنبر ، فإذا صعد أول درجة من درج المنبر قلده المؤذن السيف ؛ فيضرب بنصل السيف ضربة فى الدرجة يُسْمِع بها الحاضرين ، ثم يضرب فى الدرجة الثانية ضربة ثم فى الثالثة أخرى . فإذا استوى فى عليا الدرجات ضرب ضربة رابعة ، ووقف داعيا بدعاء خفى مستقبلا الكعبة . ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله ، ويرد عليه الناس ، ثم يقعد . ويؤذن المؤذنون فى أعلى قبة زمزم فى حين واحد ، فإذا فرغ الأذان خطب الخطيب خطبة يكثر بها من الصلاة على النبى (صلى الله عليه وسلم) ، ويقول فى أثنائها : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا البيت طائف ، (ويشير بإصبعه إلى البيت الكريم) ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما وقف

بعرفة واقف ، ويترضى عن الخلفاء الأربعة وعن سائر الصحابة وعن عمّى النبى (صلى الله عليه وسلم) وسِبْطيه وأمهما وخديجة جدتهما (على جميعهم السلام) . ثم يدعو للملك الناصر ، ثم للسلطان المجاهد نور الدين على ابن الملك المؤيد داود ابن الملك المظفر يوسف بن على بن رسول . ثم يدعو للسيدين الشريفين الحسنيين أميرى مكة : سيف الدين عُطَيْفة ، وهو أصغر الأخوين ويقدم اسمه لعدله ، وأسد الدين رُمَيْثة ابنى أبى نُمَىّ بن أبى سعد بن على بن قتادة . وقد دعا لسلطان العراق مرة ثم قطع ذلك . فإذا فرغ من خطبته صلى وانصرف ، والرايتان عن يمينه وشماله والفرقعة أمامه ، إشعارا بانقضاء الصلاة . ثم يعاد المنبر إلى مكانه إزاء المقام الكريم .

ذكر عادتهم فى استهلال الشهور

وعادتهم فى ذلك أن يأتى أمير مكة فى أول يوم من الشهر وقواده يَحُفُّون به وهو لابس البياض ، معتم متقلد سيفا ، وعليه السكينة والوقار ، فيصلى عند المقام الكريم ركعتين ، ثم يقبل الحجر ، ويشرع فى طواف أسبوع ، ورئيس المؤذنين على أعلى قبة زمزم . فعند ما يكمل الأمير شوطا واحدا ويقصد الحجر لتقبيله يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء والتهنئة بدخول الشهر رافعا بذلك صوته . ثم يذكر شعرا فى مدحه ومدح سلفه الكريم ، ويفعل به هكذا فى السبعة الأشواط . فإذا فرغ منها ركع عند المُلْتَزَم ركعتين ، ثم ركع خلف المقام أيضا ركعتين ، ثم انصرف . ومثل هذا سواء يفعل إذا أراد سفرا وإذا قدم من سفر أيضا .

ذكر عادتهم فى شهر رجب

وإذا هلّ هلال رجب ، أمر أمير مكة بضرب الطبول والبوقات إشعارا بدخول الشهر ، ثم يخرج فى أول يوم منه راكبا ، ومعه أهل مكة فُرسانا ورجالا على ترتيب عجيب ، وكلهم بالأسلحة يلعبون بين يديه ، والفرسان يجولون ويجرون ، والرجّالة يتواثبون ويرمون بحرابهم إلى الهواء ويَلْقَفُونها ، والأمير رُمَيْثة والأمير عُطَيْفة معهما أولادهما وقوادهما مثل محمد بن إبراهيم ، وعلى وأحمد ابنى صبيح ، وعلى بن يوسف ، وشداد بن عمر ، وغيرهم من كبار أولاد الحسن ، ووجوه القواد ، وبين أيديهم الرايات والطبول ، وعليهم السكينة والوقار ، ويسيرون حتى ينتهوا إلى الميقات . ثم يأخذون فى الرجوع على معهود ترتيبهم إلى المسجد الحرام ، فيطوف الأمير بالبيت والمؤذن الزمزمى بأعلى قبة زمزم يدعو له عند كل شوط ، على ما ذكرناه من عادته . فإذا طاف صلى ركعتين عند الملتزم ، وصلى عند المقام وتمسّح به ، وخرج إلى المَسْعَى فسعى راكبا ، والقواد يَحُفُّون به ، ثم يسير إلى منزله . وهذا اليوم عندهم عيد من الأعياد ، ويلبسون فيه أحسن الثياب ، ويتنافسون فى ذلك .

ذكر عُمْرة رجب

وأهل مكة يحتفلون لعمرة رجب الاحتفال الذى لا يعهد مثله . وهى متصلة ليلا ونهارا ، وأوقات الشهر كله معمورة بالعبادة ، وخصوصا أول يوم منه ويوم خمسة عشر والسابع والعشرين ، فإنهم يستعدون لها قبل ذلك بأيام : شاهدتهم فى ليلة السابع والعشرين منه ، وشوارع مكة قد غَصّت بالهوادج عليها أَكْسِيَة الحرير والكتّان الرفيع ، كل أحد يفعل بقدر استطاعته ،

والجمال مزينة مقلدة بقلائد الحرير ، وأستار الهوادج ضافية ، تكاد تمس الأرض ، فهي كالقباب المضروبة . ويخرجون إلى ميقات التنعيم فتسيل أباطح مكة بتلك الهوادج ، والنيران مشعلة بجنبتي الطريق ، والشمع والمشاعل أمام الهوادج ، والجبال تجيب بصداها إهلال المهللين ، فترقّ النفوس ، وتنهمل الدموع . فإذا قضوا العمرة وطافوا بالبيت خرجوا إلى السعي بين الصفا والمروة ، بعد مضي شيء من الليل ، والمسعى متقد السُّرُج ، غاصّ بالناس ، والساعيات في هوادجهن ، والمسجد الحرام يتلألأ نورا .

وهم يسمون هذه العُمْرة بالعمرة الأَكَمية ، لأنهم يحرمون بها من أَكَمَة أمام مسجد عائشة (رضي الله عنها) ، على مقربة من المسجد المنسوب إلى علي (رضي الله عنه) . والأصل في هذه العمرة أن عبد الله بن الزبير (رضي الله عنهما) لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة ، خرج ماشيا حافيا مُعْتَمِرا ومعه أهل مكة ، وذلك في اليوم السابع والعشرين من رجب ، وانتهى إلى الأكمة فأحرم منها ، وجعل طريقه على ثَنِيَّة الحَجُون إلى المَعْلى من حيث دخل المسلمون يوم الفتح ، فبقيت تلك العمرة سُنَّة عند أهل مكة إلى هذا العهد . وكان يوم عبد الله مذكورا أهدى فيه بُدْنًا كثيرة ، وأهدى أشراف مكة وأهل الاستطاعة منهم ، وأقاموا أياما يَطْعَمُون ويُطْعِمُون ، شكرا لله تعالى على ما وهبهم من التيسير والمعونة في بناء بيته الكريم على الصفة التي كان عليها في أيام الخليل (صلوات الله عليه) . ثم لما قُتل ابن الزبير ، نقض الحَجَّاج الكعبة وردها إلى بنائها في عهد قريش ، وكانوا قد اقتصروا في بنائها ، وأبقاها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على ذلك لِحِدْثان عهدهم بالكفر . ثم أراد الخليفة أبو جعفر المنصور أن يعيدها إلى بناء ابن الزبير ، فنهاه مالك (رحمه الله) عن ذلك ، وقال : يا أمير المؤمنين لا تجعل البيت مَلْعَبة

للملوك ، متى أراد أحدهم أن يغيره فعل . فتركه على حاله سَدًّا للذَّرِيعة . وأهل الجهات المواليـة لمكة ، يبادرون لحضور عمرة رجب ، ويجلبون إلى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب واللوز ، فترخُص الأسعار بمكة ويَرْغَد عيش أهلها وتعمهم المرافق . ولولا أهل هـذه البلاد لكان أهل مكة فى شَظَف[1] من العيش . ويذكر أنهم متى أقاموا ببلادهم ولم يأتوا بهذه الميرة أجدبت بلادهم ووقع الموت فى مواشـيهم ، ومتى أوصلوا المِيرة أخصبت بلادهم وظهرت فيهـا البركة ونمت أموالهم . فهم إذا حان وقت مِيرتهـم وأدركهم كسل عنها ، اجتمعت نساؤهم فأخْرَجْنَهُم . وهذا من لطائف صنع الله تعالى وعنايته ببلده الأمين . وبلاد السَّرْو[2] مخصبة كثيرة الأعناب وافرة الغلات ، وأهلها فصحاء الألسن لهم صـدق نية وحسن اعتقاد . وهم إذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها لائذين بجوارها ، متعلقين بأستارها ، داعين بأدعية تتصدع لرقتها القلوب ، وتدمع العيون الجامدة ، فترى الناس حولهم باسـطى أيديهم ، مؤمنين على أدعيتهم ، ولا يمكن غيرهم الطواف معهم ، ولا استلام الحجر لتزاحمهم على ذلك . وهم شجعان أنجاد ، ولباسهم الجلود ، وإذا وردوا مكة هابت أعراب الطريق مَقْدَمهم ، وتجنبوا اعتراضهم ، ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم . وذكر أن النبى (صلى الله عليه وسلم) ذكرهم وأثنى عليهم خيرا وقال : علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء . وكفاهم شرفا دخولهم فى عموم قوله (صلى الله عليه وسلم) : الإيمـان يمانٍ والحكمة يمانيّة . وذكر أن عبد الله بن عمر (رضى الله عنهما) كان يتحرى وقت طوافهم ويدخل فى جملتهم تبركا بدعائهم . وشأنهم عجيب كله . وقد جاء فى أثر : زاحموهم فى الطواف فإن الرحمة تنصب عليهم صبا .

---

(١) الشظف : الضيق والشدة . (٢) مَحَـلَّةٌ حِمْيَر . قاموس .

ذكر عادتهم فى ليلة النصف من شعبان

وهذه الليلة من الليالى المعظمة عند أهل مكة ، يبادرون فيها إلى أعمال البر من الطواف والصلاة جماعات وأفذاذا والاعتمار ، ويجتمعون فى المسجد الحرام جماعات ، لكل جماعة إمام ، ويوقدون السُرُج والمصابيح والمشاعل . ويقابل ذلك ضوء القمر ، فتتلألأ الأرض والسماء نورا . ويصلون مائة ركعة ، يقرءون فى كل ركعة بأم القرآن وسورة الإخلاص يكررونهما عشرا . وبعض الناس يصلون فى الحِجْر منفردين ، وبعضهم يطوفون بالبيت الشريف ، وبعضهم قد خرجوا للاعتمار .

ذكر عادتهم فى شهر رمضان المعظم

وإذا هل هلال رمضان تضرب الطبول عند أمير مكة ، ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام ، من تجديد الحُصُر وتكثير الشمع والمشاعل ، حتى يتلألأ الحرم نورا ، ويسطع بهجة وإشراقا . وتتفرق الأئمة فرقا : وهم الشافعية ، والحنفية ، والحنبلية ، والزَيْدية . وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء يتناوبون القراءة ويوقدون الشمع . ولا تبقى فى الحرم زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارئ يصلى بجماعته ، فيرتج المسجد لأصوات القراء ، وترق النفوس ، وتحضر القلوب ، وتَهْمُل الأعين . ومن الناس من يقتصر على الطواف والصلاة فى الحِجر منفردا . والشافعية أكثر الأئمة اجتهادا . وعاداتهم أنهم إذا أكملوا التراويح المعتادة (وهى عشرون ركعة) يطوف إمامهم وجماعته ، فإذا فرغ من الأسبوع ضربت الفرقعة التى ذكرنا أنها تكون بين يدى الخطيب يوم الجمعة ، وكان ذلك إعلاما بالعودة إلى الصلاة ، ثم يصلى ركعتين ، ثم يطوف أسبوعا ، هكذا إلى أن يتم عشرين ركعة أخرى . ثم يصلون الشفع والوتر وينصرفون . وسائر الأئمة لا يزيدون عن العادة شيئا . وإذا كان وقت السحور

يتولى المؤذن الزمزمى التسحير فى الصومعة التى بالركن الشرقى من الحرم ، فيقوم داعيا ومذكرا ومحرضا على السحور ، والمؤذنون فى سائر الصوامع ، فإذا تكلم أحد منهم أجابه صاحبه . وقد نصبت فى أعلى كل صومعة خشبة على رأسها عود معترض قد علق فيه قنديلان من الزجاج كبيران يوقدان . فإذا قرب الفجر ، حط القنديلان وابتدأ المؤذنون بالأذان ، وأجاب بعضهم بعضا .

ولديار مكة (شرفها الله) سطوح ، فمن بعدت داره بحيث لا يسمع الأذان يبصر القنديلين المذكورين فيتسحر ، حتى إذا لم يبصرهما أقلع عن الأكل . وفى كل ليلة وتر من ليالى العشر الأواخر من رمضان يختمون القرآن ، ويحضر الختم القاضى والفقهاء الكبراء ، ويكون الذى يختم بهم أحد أبناء كبراء أهل مكة . فإذا ختم نصب له منبر مزين بالحرير ، وأوقد الشمع ، وخطب . فإذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناس إلى منزله ، فأطعمهم الأطعمة الكثيرة والحلاوات . وكذلك يصنعون فى جميع ليالى الوتر . وأعظم تلك الليالى عندهم ليلة سبع وعشرين ، واحتفالهم لها أعظم من احتفالهم لسائر الليالى ، ويختم بها القرآن العظيم خلف المقام الكريم . وتقام إزاء حطيم الشافعية خشب عظام توصل بالحطيم ، وتعرض بينها ألواح طوال ، وتجعل ثلاث طبقات وعليها الشمع وقناديل الزجاج ، فيكاد يُغشى الأبصار شعاع الأنوار . ويتقدم الإمام فيصلى فريضة العشاء الآخرة ، ثم يبتدئ بقراءة سورة القدر ، وإليها يكون انتهاء قراءة الأئمة فى الليلة التى قبلها . وفى تلك الساعة يمسك جميع الأئمة عن التراويح تعظيما لختمة المقام ، ويحضرونها متبركين ، فيختم الإمام فى تسليمتين ، ثم يقوم خطيبا مستقبل المقام ، فإذا فرغ من ذلك عاد الأئمة إلى صلاتهم ، وانفض الجمع . ثم يكون الختم ليلة تسع وعشرين فى المقام المالكى فى منظر مختصر ، وعن المباهاة منزه موقر .

ذكر عادتهم فى شوّال

وعادتهم فى شوال (وهو مفتتح أشهر الحج المعلومات) أن يوقدوا المشاعل ليلة استهلاله ، ويسرجون المصابيح والشمع على نحو فعلهم فى ليلة سبع وعشرين من رمضان ، وتوقد السُرج فى الصوامع من جميع جهاتها ، ويوقد سطح المسجد الذى بأعلى أبى قُبَيْس ، ويقيم المؤذنون ليلتهم تلك فى تهليل وتكبير وتسبيح ، والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاء . فإذا صلوا صلاة الصبح أخذوا فى أهبة العيد ، ولبسوا أحسن ثيابهم ، وبادروا لأخذ مجالسهم بالحرم الشريف ، به يصلون صلاة العيد ، لأنه لا موضع أفضل منه . ويكون أول من يبكر إلى المسجد الشَّيْبيون ، فيفتحون باب الكعبة المقدسة ، ويقعد كبيرهم فى عتبتها وسائرهم بين يديه ، إلى أن يأتى أمير مكة فيتلقونه . ويطوف بالبيت أسبوعا ، والمؤذن الزمزمى فوق سطح قبة زمزم على العادة ، رافعا صوته بالثناء عليه والدعاء له ولأخيه كما ذكر . ثم يأتى الخطيب بين الرايتين السوداوين ، والفرقعة أمامه وهو لابس السواد ، فيصلى خلف المقام الكريم ، ثم يصعد المنبر ويخطب خطبة بليغة . ثم إذا فرغ منها أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام والمصافحة والاستغفار . ويقصدون الكعبة الشريفة فيدخلونها أفواجا ، ثم يخرجون إلى مقبرة باب المَعْلى ، تبركا بمن فيها من الصحابة وصدور السلف ، ثم ينصرفون .

ذكر إحرام الكعبة

وفى اليوم السابع والعشرين من شهر ذى القَعْدَة تشمر أستار الكعبة الشريفة (زادها الله تعظيما) إلى نحو ارتفاع قامة ونصف من جهاتها الأربع ، صونا لها من الأيدى أن تنتهبها . ويسمون ذلك إحرام الكعبة ، وهو يوم مشهود بالحرم الشريف ، ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنقضى الوقفة بعرفة .

ذكر شعائر الحج وأعماله

وإذا كان أول يوم من شهر ذى الحجة تضرب الطبول فى أوقات الصلوات بكرة وعشية ، إشعارا بالموسم المبارك ، ولا تزال كذلك إلى يوم الصعود إلى عرفات . فإذا كان اليوم السابع من ذى الحجة خطب الخطيب إثر صلاة الظهر خطبة بليغة ، يعلم الناس فيها مناسكهم ويعلمهم بيوم الوقفة . فإذا كان اليوم الثامن بكر النـاس بالصعود إلى مِنى . وأمراء مصر والشام والعراق وأهل العـلم يبيتون تلك الليلة بمنى . وتقع المباهاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق فى إيقاد الشمع ، ولكن الفضل فى ذلك لأهل الشام دائمـا . فإذا كان اليوم التاسع رحلوا من منى بعـد صلاة الصبح إلى عرفة ، فيمرون فى طريقهم بوادى مُحَسِّر ويهرولون ، (وذلك سنة) . ووادى محسر هو الحد مابين مُزْدَلِفَة ومنى ؛ ومُزْدَلِفَة بسيط من الأرض فسيح بين جبلين ، وحولها مصانع وصهاريج للماء مما بنته زبيدة ابنة جعفر بن أبى جعفر المنصور ، زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد . وبين منى وعرفة خمسة أميال ، وكذلك بين منى ومكة أيضا خمسة أميال . ولعرفة ثلاثة أسماء وهى عرفة وجَمْع والمشعر الحرام . وعرفات بسيط من الأرض فسيح أَفْيَح تُحْدق به جبال كثيرة . وفى آخر بسـيط عرفات جبل الرحمة وفيه الموقف ، وفيما حوله . والعَلَمان قبله بنحو ميل ، وهما الحد ما بين الحِلّ والحرم . وبمقربة منهما ممـا يلى عرفه عُرَنَة[1] . وجبل الرحمة الذى ذكرناه قائم فى وسط بسيط جَمْع ، منقطع عن بطن الجبال ، وهو من حجارة منقطع بعضها عن بعض . وفى أعلاه قبة تنسب إلى أم سَلَمة (رضى الله عنها) ، وفى وسطها مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه ، وحوله سطح فسيح يشرف على بسيط عرفات ، وفى قبليّه جدار فيه محاريب منصوبة يصلى فيها الناس . وعن يسار العلمين للمستقبل أيضا وادى الأراك ،

---

(١) بطن بعرفات .

و به أراك أخضر يمتـد فى الأرض امتدادا طويلا . وإذا حان وقت النَّفْر أشار الإمام المـالكى بيده ونزل عن موقفه ، فدفع الناس بالنفر دفعة ترتج لهـا الأرض وترجف الجبال . فياله موقفا كريمـا ومشهـدا عظيما ترجو النفوس حسن عقباه ، وتطمح الآمال إلى نفحات رُحْماه . جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه .

وكانت وقفتى الأولى يوم الخميس سـنة ست وعشرين ، وأمير الركب المصرى يومئـذ أَرغُون الدَّوادار نائب الملك النـاصر . وحجت فى تلك السـنة آبنـة الملك الناصر ، وهى زوجة أبى بكر بن أرغون هذا . وحجت فيها زوجة الملك الناصر المسماة بالخُونْدَة ، وهى بنت السلطان المعظم محمد أُوزْبَك ملك السَّرَاوخُوَارَزم . وأمير الركب الشامىّ سيف الدين الجُوبان. ولمـا وقع النفر بعد غروب الشمس وصلنا مزدلفة عنـد العشاء الآخرة ، فصلينا بها المغرب والعشاء جمعا بينهما ، على ما جرت سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . ولمـا صلينا الصبح بمزدلفة غدونا منها إلى مِنًى بعد الوقوف والدعاء بالمشعر الحرام . ومزدلفة كلها موقف إلا وادى مُحَسِّر ، ففيه تقع الهرولة حتى يخرج عنه . ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حَصَيَات الجمـار ، وذلك مستحب . ومنهم من يَلْقُطُها حول مسجد الخَيْف ، والأمر فى ذلك واسع . ولمـا انتهى الناس إلى منى بادروا لرمى جَمْرة العقبة ، ثم نحروا وذبحوا ثم حلقوا وحلوا من كل شىء إلا النسـاء والطيب ، حتى يطوفوا طـواف الإفاضة . ورَمْىُ هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر . ولمـا رموها توجه أكثر الناس بعد أن ذبحوا وحلقوا إلى طواف الإفاضـة ، ومنهم من أقام إلى اليوم الثانى . وفى اليوم الثانى رمى الناس عند زوال الشمس بالجمرة الأولى سبع حصيات ، وبالوسطى كذلك ، ووقفوا للدعاء بهاتين الجمرتين ، اقتداء بفعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . ولمـا كان اليوم الثالث تعجل الناس الانحدار إلى مكة (شرفها الله) ، بعد أن كمل لهم رمى تسع وأربعين حصاة . وكثير منهم أقام اليوم الثالث بعد يوم النحر حتى رمى سبعين حصاة .

ذكر كُسْوة الكعبة

وفى يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصرى إلى البيت الكريم فوضعت فى سطحه . فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشَّيْبيون فى إسبالها على الكعبة الشريفة . وهى كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتّان ، وفى أعلاها طِراز مكتوب فيه بالبَياض (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما) الآية . وفى سائر جهاتها طُرُز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن ، وعليها نور لائح مشرق من سوادها . ولما كسيت شُمِّرت أذيالها صونا من أيدى الناس . والملك الناصر هو الذى يتولى كسوة الكعبة الكريمة ، ويبعث مرتبات القاضى والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقَوَمَة ، وما يحتاج له الحرم الشريف من الشمع والزيت فى كل سنة . وفى هذه الأيام تفتح الكعبة الشريفة فى كل يوم للعراقيين والخُراسانيين وسواهم ممن يصل مع الركب العراقى . وهم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين الشامى والمصرى أربعة أيام ، فيكثرون فيها الصدقات على المجاورين وغيرهم . ولقد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليلا ، فمن لقوه فى الحرم من المجاورين أو المكيين أعطوه الفضة والثياب . وربما وجدوا إنسانا نائما فجعلوا فى فيه الذهب والفضة حتى يفيق . ولما قدمت معهم من العراق سنة ثمان وعشرين فعلوا من ذلك كثيرا . وفى هذه السنة ذكر اسم السلطان أبى سعيد ملك العراق على المنبر وقبة زمزم .

ذكر الانفصال عن مكة شرفها الله تعالى

وفى الموفى عشرين لذى الحجة خرجت من مكة فى صحبة أمير ركب العراق البَهْلَوان[1] محمد الحُوَيْج ، وهو من أهل الموصل ، وكان يلى إمارة الحاج بعد

(١) البُهْلُول الضحاك والسيد الجامع لكل خير ، تعريب بهلوان . ويظهر أن هذا لقبه أو لقب أسرته .

موت الشيخ شهاب الدين قَلَنْدَر . وكان شهاب الدين سخيا فاضلا عظيم الحرمة عند سلطانه ، يحلق لحيته وحاجبيه على طريقة القلندرية . وخرجت من مكة (شرفها الله تعالى) فى صحبة الأمير البهلوان بعد طواف الوداع إلى بطن مَرّ ، فى جمع من العراقيين والخُراسانيين والفارسيين والأعاجم لا يحصى عديدهم ، تموج بهم الأرض موجا ، ويسيرون سير السحاب المتراكم . فمن خرج عن الركب لحاجة ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضل عنه لكثرة الناس . وفى هذا الركب نواضح كثيرة لأبناء السبيل يستقون منها الماء ، وجمال لرفع الزاد للصدقة ورفع الأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه مرض . وإذا نزل الركب طبخ الطعام فى قدور نحاس عظيمة تسمى الدسوت ، وأطعم منها أبناء السبيل ومن لا زاد معه . وفى الركب جملة من الجمال يحمل عليها من لا قدرة له على المشى ، كل ذلك من صدقات السلطان أبى سعيد ومكارمه . قال ابن جُزَىّ : كرم الله هذه الكُنْية الشريفة ، فما أعجب أمرها فى الكرم ، وحسبك بمولانا بحر المكارم ، ورافع رايات الجود ، الذى هو آية فى الندى والفضل ، امير المؤمنين أبى سعيد ابن مولانا قامع الكفار ، والآخذ للاسلام بالثار ، أمير المسلمين أبى يوسف ، قدس الله أرواحهم الكريمة ، وأبقى الملك فى عقبهم الطاهر إلى يوم الدين .

(رجع) وفى هذا الركب الأسواق الحافلة والمرافق العظيمة وأنواع الأطعمة والفواكه . وهم يسيرون بالليل ويوقدون المشاعل ، فترى الأرض تتلألأ أنوارا ، والليل قد عاد نهارا ساطعا . ثم رحلنا من بطن مَرّ إلى عُسْفان ثم إلى خُلَيْص ، ثم رحلنا أربع مراحل ، ونزلنا وادى السمك ، ثم رحلنا خمسا ونزلنا فى بَدْر . وهذه المراحل ثنتان فى اليوم : إحداهما بعد الصبح والأخرى بالعشىّ . ثم رحلنا من بدر فنزلنا الصفراء وأقمنا بها يوما مستريحين ، ومنها إلى المدينة الشريفة مسيرة ثلاث . ثم رحلنا فوصلنا إلى طَيْبَة مدينة رسول الله

(صلى الله عليه وسلم) ، وحصلت لنا زيارة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثانيا ، وأقمنا بالمدينة (كرمها الله تعالى) ستة أيام ، واستصحبنا منها الماء لمسيرة ثلاث . ورحلنا عنها فنزلنا فى الثالثة بوادى العَرُوس ، فتزودنا منه الماء من(١) حِسْيَان يحفرون عليها فى الأرض فينْبُطون ماء عذبا مَعينا . ثم رحلنا من وادى العروس ودخلنا أرض نجد ، وهو بسيط من الأرض مد البصر ، فتنسمنا نسيمه الطيب الأرِج ؛ ونزلنا بعد أربع مراحل على ماء يعرف بالعُسَيلة ؛ ثم رحلنا عنه ونزلنا ماء يعرف بالنُّقْرَة ، فيه آثار مصانع كالصهاريج العظيمة ؛ ثم رحلنا إلى ماء يعرف بالقارورة ، وهى مصانع مملوءة بماء المطر ، مما صنعته زُبَيْدة ابنة جعفر (رحمها الله ونفعها) . وهذا الموضع هو وسط أرض نجد ، فسيح طيب النسيم صحيح الهواء نقى التربة ، معتدل فى كل فصل . ثم رحلنا من القارورة ونزلنا بالحاجِر ، وفيه مصانع للماء . ثم رحلنا ونزلنا سُمَيْرَة ، وهى أرض غائرة فى بسيط فيه شبه حصن مسكون ، وماؤها كثير فى آبار إلا أنه زُعاق . ويأتى عرب تلك الأرض بالغنم والسمن واللبن فيبيعون ذلك من الحجاج بالثياب (الخام) ولا يبيعون بسوى ذلك . ثم رحلنا ونزلنا بالجبل المخروق وهو فى بيداء من الأرض ، وفى أعلاه ثَقْب نافذ تخرِقه(٢) الريح . ثم رحلنا منه إلى وادى الكُرُوش ولا ماء به . ثم أسرينا ليلا وصَبَّحنا حصن فَيْد ، وهو حصن كبير فى بسيط من الأرض يدور به سور وعليه رَبَض ، وساكنوه عرب يتعيشون مع الحاج فى البيع والتجارة . وهنالك يترك الحجاج بعض أزوادهم حين وصولهم من العراق إلى مكة (شرفها الله تعالى) ، فإذا عادوا وجدوه . وهو نصف الطريق من مكة إلى بغداد ، ومنه إلى الكوفة مسيرة اثنى عشر يوما فى طريق سهل به المياه فى المصانع . ومن عادة الركب أن يدخلوا هذا الموضع على تعبئة وأهبة للحرب ، إرهابا للعرب المجتمعين هنالك ، وقطعا لأطماعهم عن الركب . وهنالك

---

(١) تقدم الكلام على هذا الجمع فى الحواشى . (٢) تمر فيه .

لقينا أميرى العرب : وهما فياض وحيار ، وهما ابنا الأمير مُهَنَّا بن عيسى ، ومعهما من خيل العرب ورجالهم من لا يحصون كثرة ، فظهر منهما المحافظة على الحاج والرحال والحيطة لهم . وأتى العرب بالجمال والغنم فاشترى منهم الناس ما قدروا عليه . ثم رحلنا ونزلنا الموضع المعروف بالأَجْفَر ، ويشتهر باسم العاشِقَيْن جميل وبثينة . ثم رحلنا ونزلنا بالبيداء . ثم أسرينا ونزلنا زَرُود ، وهى بسيط من الأرض فيه رمال مُنْهالة ، وبه دور صغار قد أداروها شبه الحصن ،وهنالك آبار ماء ليست بالعذبة . ثم رحلنا ونزلنا الثَّعْلَبِيَّة ، ولها حصن خرِب بازائه مصنع هائل ينزل إليه فى دَرَج ، وبه من ماء المطر مايعم الركب . ويجتمع من العرب بهذا الموضع جمع عظيم ، فيبيعون الجمال والغنم والسمن واللبن . ومن هذا الموضع إلى الكوفة ثلاث مراحل . ثم رحلنا فنزلنا بِبِركة المرجوم ، وهو مشهد على الطريق عليه كُوم عظيم من حجارة ، وكل من مر به رجمه ؛ ويذكر أن هذا المرجوم كان رافضيا فسافر مع الركب يريد الحج ، فوقعت بينه وبين أهل السُّنَّة من الأتراك مشاجرة ، فسب بعض الصحابة فقتلوه بالحجارة . وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب . ويقصدون الركب بالسمن واللبن وسوى ذلك . وبه مصنع كبير يعم جميع الركب ، مما بنته زبيدة (رحمة الله عليها) . وكل مصنع أو بركة أو بئر بهذه الطريق التى بين مكة وبغداد ، فهى من كريم آثارها (جزاها الله خيرا ووفى لها أجرها) ؛ ولولا عنايتها بهذه الطريق ما سلكها أحد . ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالمشقوق ، فيه مصنعان بهما الماء العذب الصافى ؛ وأراق الناس ما كان عندهم من الماء وتزودوا منهما . ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالتنانير ، وفيه مصنع ممتلئ بالماء . ثم أسرينا منه واجتزنا ضحوة بِزُمالة (١) وهى قرية معمورة بها قصر للعرب ومصنعان للماء وآبار كثيرة ، وهى من

---

(١) فى معجم البلدان (زُبالة) وينطبق عليها هذا الوصف .

مناهل هذا الطريق . ثم رحلنا فنزلنا الهَيْثَمَيْن ، وفيه مصنعان للماء . ثم رحلنا فنزلنا دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان ، وصعدنا العقبة فى اليوم الثانى ، وليس بهذا الطريق وَعْر سواها ، على أنها ليست بصعبة ولا طائلة . ثم نزلنا موضعا يسمى وَاقِصة ، فيه قصر كبير ومصانع للماء ، معمور بالعرب ، وهو آخر مناهل هذا الطريق . وليس فيما بعده إلى الكوفة مَنْهل مشهور ، إلا مشارع ماء الفرات ، وبه يتلقى كثير من أهل الكوفة الحاج ، ويأتون بالدقيق والخبز والتمر والفواكه ، ويُهَنِّئُ الناس بعضهم بعضا بالسلامة . ثم نزلنا موضعا يعرف بِلُورة ، فيه مصنع كبير للماء . ثم نزلنا موضعا يعرف بالمساجد فيه ثلاثة مصانع . ثم نزلنا موضعا يعرف بمنارة القرون ، وهى منارة فى بيداء من الأرض بائنة الارتفاع مجللة بقرون الغِزلان ، ولا عمارة حولها . ثم نزلنا موضعا يعرف بالعُذَيْب ، وهو واد مخصب عليه عمارة وحوله فلاة خصبة فيها مسرح للبصر . ثم نزلنا القادِسيّة حيث كانت الوقعة الشهيرة على الفُرْس ، التى أظهر الله فيها دين الإسلام ، وأذل المجوس عبدة النار ، فلم تقم لهم بعدها قائمة ، واستأصل الله شأفتهم . وكان أمير المسلمين يومئذ سعد بن أبى وَقَّاص (رضى الله عنه) . وكانت القادسية مدينة عظيمة افتتحها سعد (رضى الله عنه) . وخَرِبت فلم يبق منها الآن إلا مقدار قرية كبيرة ، وفيها حدائق النخل ، وبها مشارِع من ماء الفرات . ثم رحلنا منها فنزلنا مدينة مشهد على بن أبى طالب (رضى الله عنه) بالنَّجَف ، وهى مدينة حسنة فى أرض فسيحة صُلْبة ، من أحسن مدن العراق وأكثرها ناسا وأتقنها بناء ، ولها أسواق حسنة نظيفة . دخلناها من باب الحضرة ، فاستقبلنا سوق البقالين والطباخين والخبازين ، ثم سوق الفاكهة ثم سوق الخياطين ثم سوق العطارين ثم باب الحضرة حيث القبر الذى يزعمون أنه قبر على (عليه السلام) . وبإزائه المدارس والزوايا والخوانق ، معمورة أحسن عمارة ، وحيطانها بالقاشانى .

ذكر الروضة والقبور التى بها

ويدخل من باب الحضرة إلى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ، ولكل وارد عليها ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين فى اليوم . ومن تلك المدرسة يدخل إلى باب القبة ، وعلى بابها الحجاب والنقباء . فعند ما يصل الزائر يقوم إليه أحدهم أو جميعهم (وذلك على قدر الزائر) ، فيقفون معه على العتبة ويستأذنون له ، ويقولون : عن أمركم يا أمير المؤمنين ، هذا العبد الضعيف يستأذن على دخوله للروضة العلية ، فإن أذنتم له وإلا رجع ، وإن لم يكن أهلا لذلك فأنتم أهل المكارم والستر . ثم يأمرونه بتقبيل العتبة وهى من الفضة وكذلك العضادتان . ثم يدخل القبة ، وهى مفروشة بأنواع البسط من الحرير وسواه ، وبها قناديل الذهب والفضة منها الكبار والصغار . وفى وسط القبة مِصْطَبة مربعة مكسوة بالخشب عليه صفائح الذهب المنقوشة المحكمة العمل ، مسمرة بمسامير الفضة ، قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه أى شيء . وارتفاعها دون القامة ، وفوقها ثلاثة من القبور ، يزعمون أن أحدها قبر آدم (عليه الصلاة السلام) ، والثانى قبر نوح (عليه الصلاة والسلام) ، والثالث قبر علىّ (رضى الله تعالى عنه) . وبين القبور طُسُوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وأنواع الطيب ، يغمس الزائر يده فى ذلك ويَدْهُنُ به وجهه تبركا . وللقبة باب آخر عتبته أيضا من الفضة ، وعليه ستور من الحرير الملون ، يفضى إلى مسجد مفروش بالبسط الحسان ، مستورة حيطانه وسقفه بستور الحرير ، وله أربعة أبواب عتباتها فضة وعليها ستور الحرير . وأهل هذه المدينة كلهم رافضية .

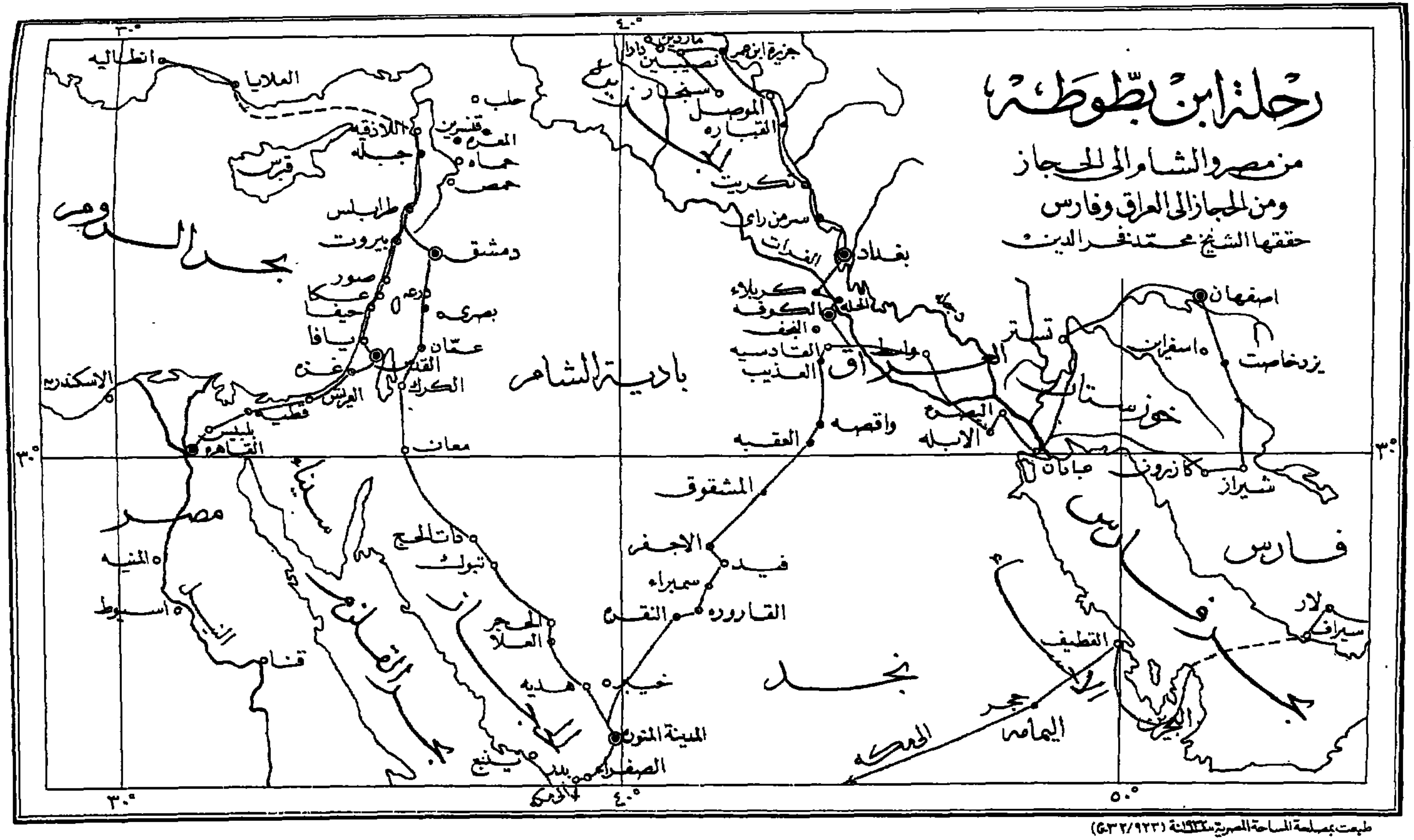

طبعت بمصلحة المساحة المصرية سنة ١٩٣٣ (٩٢٣/٣٢ G)

ذكر نقيب الأشراف

ونقيب الأشراف مقدم من ملك العراق ، ومكانه عنده مكين ، ومنزلته رفيعة. وله الأعلام والأطبال ، وتضرب (الطبلخانة) عند بابه مساء وصباحا، وإليه حكم هذه المدينة ولا والى بها سواه. وكان النقيب فى عهد دخولى إليها نظام الدين حسين بن تاج الدين الآوى (نسبة إلى بلده آوة من عراق العجم أهلها رافضة) . وكان قبله جماعة يلى كل واحد منهم بعد صاحبه ، منهم جلال الدين بن الفقيه ، ومنهم قوام الدين بن طاوس، ومنهم ناصر الدين مُطَهَّر ابن الشريف الصالح شمس الدين محمد الأوهرى، من عراق العجم، وهو الآن بأرض الهند ، من ندماء ملكها .

ولما تمت لنا زيارة أمير المؤمنين علىّ عليه السلام ، سافر الركب إلى بغداد ، وسافرت إلى البصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خَفَاجة . وهم أهل تلك البلاد ، ولهم شوكة عظيمة و بأس شديد، ولا سبيل للسفر فى تلك الأقطار إلا فى صحبتهم . فاكتريت جملا على يد أمير تلك القافلة شَامِر بن درّاج الخفاجى . وخرجنا من مشهد علىّ عليه السلام، فنزلنا الخَوَرْنَق ، موضع سكنى النعمان بن المنذر وآبائه من ملوك بنى ماء السماء. و به عمارة و بقايا قباب ضخمة، فى فضاء فسيح على نهر يخرج من الفرات . ثم رحلنا عنه فنزلنا موضعا يعرف بقائم الواثق، و به أثر قرية خربة ومسجد خرب لم يبق منه إلا صومعته. ثم رحلنا عنه آخذين مع جانب الفُرات بالموضع المعروف بالعِذار ، وهو غابة قصب فى وسط الماء، يسكنها أعراب يعرفون بالمَعَادى، وهم قطاع الطريق رافضية المذهب ، خرجوا على جماعة من الفقراء تأخروا عن رفقتنا فسلبوهم حتى النعال . وهم يتحصنون بتلك الغابة ويمتنعون بها ممن يريدهم . والسباع بها كثيرة . ثم وصلنا مدينة واسِط .

مدينة واسِط

وهى حسنة الأقطار ، كثيرة البساتين والأشجار . وأهلها من خيار أهل العراق ، بل هم خيرهم على الإطلاق ، أكثرهم يحفظون القرآن الكريم ويجيدون تجويده بالقراءة الصحيحة ، وإليهم يأتى أهل بلاد العراق لتعلمه . وكان فى القافلة التى وصلنا فيها جماعة من الناس أتوا لتجويد القرآن على من بها من الشيوخ . وبها مدرسة عظيمة حافلة ، فيها نحو ثلاثمائة خلوة ينزلها الغرباء القادمون لتعلم القرآن ، عمرها الشيخ تقى الدين عبد المحسن الواسطى ، وهو من كبار أهلها وفقهائها . ويعطى كل متعلم بها كسوة فى السنة ، ويجرى له نفقته فى كل يوم ، ويقعد هو وإخوانه وأصحابه لتعليم القرآن بالمدرسة . وقد لقيته وأضافنى وزودنى تمرا ودراهم .

ولما نزلنا مدينة واسط أقامت القافلة ثلاثا بخارجها للتجارة ، فسنح لى زيارة قبر الولى أبى العباس أحمد الرفاعى ، وهو بقرية تعرف بأم عُبَيْدَة ، على مسيرة يوم من واسط ، فطلبت من الشيخ تقى الدين أن يبعث معى من يوصلنى إليها ، فبعث معى ثلاثة من عرب بنى أسد ، وهم قطان تلك الجهة ، وأركبنى فرسا له . وخرجت ظهرا فبت تلك الليلة بِحَوْش بنى أسد . ووصلنا فى ظهر اليوم الثانى إلى الرُّواق ، وهو رباط عظيم فيه آلاف من الفقراء ، وصادفنا به قدوم الشيخ أحمد قَوْجَك حفيد ولى الله أبى العباس الرفاعى ، الذى قصدنا زيارته . وقد قدم من موضع سكناه من بلاد الروم لزيارة قبر جده ، وإليه انتهت الشُيُوخة بالرواق . ولما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف وأخذ الفقراء فى الرقص ، ثم صلوا المغرب وقدموا السماط ، وهو خبز الأرز والسمك واللبن والتمر فأكل الناس . ثم صلوا العشاء الآخرة وأخذوا فى الذكر ، والشيخ أحمد قاعد على سجادة جده .

ثم أخذوا فى السماع ، وقد أعدوا أحمالا من الحطب فأججوها نارا ودخلوا فى وسطها يرقصون ، ومنهم من يتمرغ فيها ، ومنهم من يأكلها بفمه حتى أطفئوها جميعا ، وهذا دأبهم . وهذه الطائفة الأحمدية مخصوصون بهذا ، وفيهم من يأخذ الحية العظيمة فيعض بأسنانه على رأسها حتى يقطعه .

ولما حصلت لى زيارة الشيخ أبى العباس الرفاعى (نفع الله به) عدت إلى مدينة واسط ، فوجدت الرُّفْقة التى كنت فيها قد رحلت ، فلحقتها فى الطريق ، ونزلنا ماء يعرف بالهُضَيْب . ثم رحلنا ونزلنا بوادى الكُرَاع ، وليس به ماء . ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالمُشَيْرِب . ثم رحلنا منه ونزلنا بالقرب من البصرة . ثم رحلنا فدخلنا ضحوة النهارِ إلى مدينة البصرة .

مدينة البصرة

فنزلنا بها رباط مالك بن دينار . وكنت رأيت عند قدومى عليها على نحو ميلين منها بناء عاليا مثل الحصن ، فسألت عنه فقيل لى هو مسجد علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه) . وكانت البصرة من اتساع الخِطَّة وانفساح الساحة بحيث كان هذا المسجد فى وسطها ، وبينه الآن وبينها ميلان ، وكذلك بينه وبين السور الأول المحيط بها نحو ذلك ، فهو متوسط بينهما . ومدينة البصرة إحدى أمهات العراق ، الشهيرة الذكر فى الآفاق ، الفسيحة الأرجاء ، المونِقَة الأفناء ، ذات البساتين الكثيرة ، والفواكه الأثيرة ، توَافر قِسْمها[1] من النضارة والخصب ، لما كانت مجمع البحرين الأجاج والعذب . وليس فى الدنيا أكثر نخلا منها ، فيباع التمر فى سوقها بحساب أربعة عشر رطلا عراقية بدرهم . ولقد بعث إلىّ قاضيها حجة الدين بِقَوْصَرة[2] تمر يحملها الرجل على تكلّف ، فأردت بيعها فبيعت بتسعة دراهم ، أخذ الحمال منها ثلثها عن أجرة حملها من المنزل إلى السوق . ويصنع بها من التمر عسل طيب .

---

(١) حظّها . (٢) القوصرة وعاء للتمر .

والبصرة ثلاث مَحَلّات(١) : إحداها محلة هُذَيْل ، وكبيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الأثير ، من الكرماء الفضلاء ، أضافني و بعث إلى بثياب ودراهم. والمحلة الثانية محلة بني حَرَام ، كبيرها السيد الشريف مجد الدين موسى الحسني ، ذو مكارم وفواضل ، أضافني وبعث إلى التمر والدراهم . والمحلة الثالثة محلة العجم ، كبيرها جمال الدين بن اللُّوْكى . وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق و إيناس للغريب وقيام بحقه ، فلا يستوحش فيها بينهم غريب . وهم يصلون الجمعة فى مسجد أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه الذى ذكرته ، ثم يسدّ فلا يأتونه إلا فى الجمعة . وهذا المسجد من أحسن المساجد ، وصحنه متناهى الانفساح ، مفروش بالحصباء الحمراء التى يؤتى بها من وادى السباع . وفيه المصحف الكريم الذى كان عثمان رضى الله عنه يقرأ فيه لما قتل ، وأثر تغيير الدم فى الورقة التى فيها قوله تعالى : (فسيكفيهم الله وهو السميع العليم) .

حكاية اعتبار

شهدت مرة بهذا المسجد صلاة الجمعة ، فلما قام الخطيب به إلى الخطبة وسردها لحن فيها لحنا كثيرا جليا ، فعجبت من أمره ، وذكرت ذلك للقاضى حجة الدين ، فقال لى : إن هذا البلد لم يبق به من يعرف شيئا من علم النحو . وهذه عبرة لمن تفكر فيها ، فسبحان مغير الأشياء ومقلب الأمور ! هذه البصرة التى إلى أهلها انتهت رياسة النحو ، وفيها أصله وفرعه ، ومن أهلها إمامه الذى لاينكر سبقه ، لايقيم خطيبها خطبة الجمعة على دُءوبه عليها !

ولهذا المسجد سبع صوامع : إحداها الصومعة(٢) التى تتحرك بزعمهم عند ذكر علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه) ، صعدت إليها من أعلى سطح المسجد ومعى بعض أهل البصرة ، فوجدت فى ركن من أركانها مَقْبِض خشب

(١) المحلة منزل القوم ، مختار .
(٢) المئذنة .

مسمّرا فيها، كأنه مقبض مِمْلَسة(١) البناء. فجعل الرجل الذى كان معى يده فى ذلك المَقْبِض وقال : بحق رأس أمير المؤمنين على (رضى الله عنه) تحركى ! وهز المقبض فتحركت الصومعة، فجعلت أنا يدى فى المَقْبِض وقلت له : وأنا أقول: بحق رأس أبى بكر خليفة رسول الله(صلى الله عليه وسلم) تحركى، وهززت المقبض، فتحركت الصومعة، فعجبوا من ذلك. وأهل البصرة على مذهب السنة والجماعة، ولا يخاف من يفعل مثل فعلى عندهم . ولو جرى مثل هذا بمشهد علىّ أو مشهد الحسين، أو بالحِلَّة، أو بالبحرين، أو قُمّ، أو قاشان، أو ساوة، أو آوة أو طُوس . لهلك فاعله ؛ لأنهم رافضة غالية(٢) . قال ابن جُزَىّ : قد عاينت بمدينة بَرْشَانة من وادى المنصورة من بلاد الأندلس (حاطها الله) صومعة تهتز من غير أن يذكر لها أحد من الخلفاء أو سواهم .

ذكر المشاهد المباركة بالبصرة

فمنها مشهد طَلْحة بن عُبَيْد الله أحد العشرة (رضى الله عنهم)، وهو بداخل المدينة، وعليه قبة ومسجد وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر، وأهل البصرة يعظمونه تعظيما شديدا . ومنها مشهد الزبير بن العوّام حَوَارِىّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وابن عمته (رضى الله عنه)، وهو بخارج البصرة ولا قبة عليه . وله مسجد وزاوية فيها الطعام لأبناء السبيل . ومنها قبر حليمة السعدية، أم رسول الله عليه وسلم من الرضاعة (رضى الله عنها) . وإلى جانبها قبر ابنها رضيع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . ومنها قبر أبى بَكْرَة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم) وعليه قبة. وعلى ستة أميال منها بقرب وادى السباع

(١) فى الأساس : وملس أرضه بالملّاسة والمِمْلَسة ، وهى الخشبة التى يُملّس بها .

(٢) غالية : مبالغون .

قبر أَنَس بن مالك خادم رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ولا سبيل لزيارته إلا فى جمع كثيف، لكثرة السباع وعدم العمران. ومنها قبر الحسن بن أبى الحسن البصرى سيد التابعين (رضى الله عنه). ومنها قبر محمد بن سِيرين (رضى الله عنه). ومنها قبر محمد بن واسع (رضى الله عنه). ومنها قبر عُتْبَة الغلام (رضى الله عنه). ومنها قبر مالك بن دينار (رضى الله عنه). ومنها قبر حبيب العجمى (رضى الله عنه). ومنها قبر سهل بن عبد الله التُّسْتَرِى (رضى الله عنه). وعلى كل قبر منها قبة مكتوب فيها اسم صاحب القبر ووفاته. وذلك كله داخل السور القديم. وهى اليوم بينها وبين البلد نحو ثلاثة أميال. وبها سوى ذلك قبور الجم الغفير من الصحابة والتابعين المستَشْهَدين يوم الجَمَل. وكان أمير البصرة حين ورودى عليها يسمى بركن الدين العجمى التُّوْرِيزى، أضافنى فأحسن إلىّ.

والبصرة على ساحل الفرات ودِجْلة، وبها المد والجزر كمثل ما هو بوادى سَلاَ من بلاد المغرب وسواه. والخليج المِلْح الخارج من بحر فارس على عشرة أميال منها، فإذا كان المد غلب الماء المالح على العذب، وإذا كان الجزر غلب الماء الحلو على الملح، فيستسقى أهل البصرة الماء لدورهم، ولذلك يقال: إن ماءهم زُعاق؛ قال ابن جزى: وبسبب ذلك كان هواء البصرة غير جيد، وألوان أهلها مصفرة كاسفة، حتى ضرب بهم المثل. وقال بعض الشعراء وقد أحضرت بين يدى الصاحب[1] أُتْرُجَّة:

لله أترج غـدا بيننـا ... معبِرا عن حال ذى عَبْرَة
لمـا كسا الله ثيـاب الضنا ... أهل الهوى وساكنى البصرة

(رجع) ثم ركبت من ساحل البصرة فى (صنبوق) وهو القارِب الصغير، إلى الأُبُلَّة، وبينها وبين البصرة عشرة أميال، فى بساتين متصلة ونخيل مظلة عن اليمين واليسار، والباعة فى ظلال الأشجار يبيعون الخبز والسمك والتمر واللبن

(١) الصاحب بن عبّاد.

والفواكه . وفيما بين البصرة والأبلة متعبَّد سهل بن عبد الله التُّسْتَرِى ، فإذا حاذاه الناس بالسفن تراهم يشربون المـاء مما يحاذيه من الوادى ، ويدعون عند ذلك تبركا بهـذا الولى (رضى الله عنه). وكانت الأبلة مدينـة عظيمة يقصدها تجار الهند وفارس ، فخربت ، وهى الآن قرية بها آثار قصور وغيرها دالة على عظمها . ثم ركبنا فى الخليج الخارج من بحر فارس فى مركب صغير لرجل من أهل الأبلة يسمى بمُغَامِس، وذلك فيما بعد المغرب فصبَّحنا عَبَّادان ، وهى قرية كبيرة فى سَبَخَة (١) لا عمارة بها . وفيها مساجد كثيرة ومتعبدات ورِباطات للصالحين ، و بينها و بين الساحل ثلاثة أميال . قال ابن جُزَىّ : عبَّادان كانت بلدا فيما تقدم ، وهى مجدبة لا زرع بها ، وإنما يجلب إليها ، والمـاء أيضا بها قليل . وقد قال فيها بعض الشعراء :

من مبلغ أندلسا أننى ... حللت عبادان أقصى الثرى
أَوْحَشُ ما أبصرت لكننى ... قصدت فيها ذكرها فى الورى
الخـبز فيهـا يتهـادَوْنه ... وشربة المـاء بهـا تشترى

(رجع) وعلى سـاحل البحر منهـا رابطة تعرف بالنسـبة إلى الخَضِر وإلياس (عليهما السلام). وبإزائها زاوية يسكنهـا أربعة من الفقراء بأولادهم يخدُمون الرابطـة والزاوية ، وكل من يمر بهم يتصـدق عليهم . وذكر لى أهل هذه الزاوية أن بعبَّادان عابداً كبير القدر ولا أنيس له ، يأتى هذا البحر مرة فى الشهر فيصطاد فيه ما يقوته شهرا ، ثم لا يرى إلا بعد تمام شهر ، وهو على ذلك منذ أعوام . فلما وصلنا عبادان لم يكن لى شأن إلا طلبه ، فاشتغل من كان معى بالصلاة فى المساجد والمتعبدات ، وانطلقت

---

(١) السَّبَخة بفتح الباء وسكونها أرض ذات نزّ وملح .

طالبا له ، بجئت مسجدا خربا ، فوجدته يصلى فيه ، بجلست فى جانبه ، فأوجز فى صلاته . ولما سلم أخذ بيدى وقال لى : بلغك الله مرادك فى الدنيا والآخرة . فقد بلغت بحمد الله مرادى فى الدنيا وهو السياحة فى الأرض ، وبلغت من ذلك مالم يبلغه غيرى (فيما أعلمه) . وبقيت الأخرى ، والرجاء قوىّ فى رحمة الله وتجاوزه ، وبلوغ المراد من دخول الجنة . ولما أتيت أصحابى أخبرتهم خبر الرجل وأعلمتهم بموضعه ، فذهبوا إليه فلم يجدوه ولا وقعوا له على خبر ، فعجبوا من شأنه . وعدنا بالعشىّ إلى الزاوية فبتنا بها . ودخل علينا أحد الفقراء الأربعة بعد صلاة العشاء الآخرة ، ومن عادة ذلك الفقير أن يأتى عبّادان كل ليلة فيُسْرِج السروج بمساجدها ، ثم يعود إلى زاويته ، فلما وصل إلى عبادان وجد الرجل العابد ، فأعطاه سمكة طرية ، وقال له : أوصل هذه إلى الضيف الذى قَدِم اليوم . فقال لنا الفقير عند دخوله علينا : من رأى منكم الشيخ اليوم؟ فقلت له : أنا رأيته . فقال يقول لك : هذه ضيافتك . فشكرت الله على ذلك . وطبخ لنا الفقير تلك السمكة ، فأكلنا منها كلنا أجمعون . وما أكلت قط سمكا أطيب منها . وهجس فى خاطرى الإقامة بقية العمر فى خدمة ذلك الشيخ ، ثم صرفتنى النفس اللَّجوج عن ذلك .

ثم ركبنا البحر عند الصبح بقصد بلدة ماجُول . ومن عادتى فى سفرى ألا أعود على طريق سلكتها ماأمكننى ذلك ، وكنت أحب قصد بغداد العراق ، فأشار علىّ بعض أهل البصرة بالسفر إلى أرض اللُّور ، ثم إلى عراق العجم ، ثم إلى عراق العرب ، فعملت بمقتضى إشارته . ووصلنا بعد أربعة أيام إلى بلدة ماجُول ، وهى صغيرة على ساحل هذا الخليج الذى ذكرنا أنه يخرج من بحر فارس ، وأرضها سَبْخَة لا شجر فيها ولا نبات ، ولها سوق عظيمة من

أكبر الأسواق . وأقمت بها يوما واحدا ؛ ثم اكتريت دابة لركوبى من الذين يجلبون الحبوب من رامز إلى ماجول ، وسرنا ثلاثا فى صحراء يسكنها الأكراد فى بيوت الشعر ، ويقال : إن أصلهم من العرب . ثم وصلنا إلى مدينة رامز ، وهى مدينة حسنة ذات فواكه وأنهار ، ونزلنا بها عند القاضى حسام الدين محمود ، ولقيت عنده رجلا من أهل العلم والدين والورع ، هندىّ الأصل يدعى بهاء الدين ويسمى إسماعيل ، وهو من أولاد الشيخ بهاء الدين أبى زكريا المُلْتانى ، وقرأ على مشايخ تَوْريز وغيرها . وأقمت بمدينة رامز ليلة واحدة . ثم رحلنا منها ثلاثا فى بسيط فيه قرى يسكنها الأكراد ، وفى كل مرحلة منها زاوية فيها للوارد الخبز واللحم والحلواء . وحلواؤهم من رُبّ العنب مخلوطا بالدقيق والسمن . وفى كل زاوية الشيخ والإمام والمؤذنون والخادم للفقراء والعبيد ، والخدم يطبخون الطعام . ثم وصلت الى مدينة تُسْتَر وهى آخر البسيط من بلاد أتابك ، وأول الجبال .

وصف مدينة تُسْتَر

مدينة كبيرة رائقة نَضِرة ، وبها البساتين الشريفة ، والرياض المنيفة ، ولها المحاسن البارعة ، والأسواق الجامعة . وهى قديمة البناء ، افتتحها خالد بن الوليد . والى هذه المدينة ينسب إلى سهل بن عبد الله . ويحيط بها النهر المعروف بالأزرق ، وهو عجيب ، فى نهاية من الصفاء ، شديد البرودة فى أيام الحر ، ولم أر كزرقته إلا نهر بَلَخْشَان . ولها باب واحد للمسافرين . ولها أبواب غيره شارعة إلى النهر . وعلى جانبى النهر البساتين والدواليب . والنهر عميق وعلى باب المسافرين منه جسر على القوارب كجسر بغداد والحِلّة .

والفواكه بتستر كثيرة ، والخيرات متيسرة غزيرة ، ولا مثل لأسواقها في الحسن . وبخارجها تربة معظمة يقصدها أهل تلك الأقطار للزيارة ، ولها زاوية بها جماعة من الفقراء ، وهم يزعمون أنها تربة زين العابدين علىّ ابن الحسين بن علىّ بن أبى طالب . وكان نزولى من مدينة تستر فى مدرسة الشيخ الإمام الصالح المتفنن شرف الدين موسى ، ابن الشيخ الصالح الإمام العالم صدر الدين سليمان ، وهو من ذرية سهل بن عبد الله . وهذا الشيخ ذو مكارم وفضائل ، جامع بين العلم والدين والصلاح والإيثار . وله مدرسة وزاوية ، وخدامها فِتْيان له أربعة : سنبل ، وكافور ، وجوهر ، وسرور . أحدهم موكل بأوقاف الزاوية ، والثانى متصرف فيما يُحتاج إليه من النفقات فى كل يوم ، والثالث خادم السماط بين أيدى الواردين ومرتب الطعام لهم ، والرابع موكل بالطباخين والسقائين والفراشين . فأقمت عنده ستة عشر يوما . فلم أر أعجب من ترتيبه ولا أرغد من طعامه : يقدم بين يدى الرجل ما يكفى الأربعة من طعام الأرز المفلفل المطبوخ فى السمن ، والدجاج المقلى والخبز واللحم والحلواء . وهذا الشيخ من أحسن الناس صورة وأقومهم سيرة ، وهو يعظ الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع . ولما شاهدت مجالسه فى الوعظ صَغُر لدىّ كل واعظ رأيته قبله بالحجاز والشام ومصر ؛ ولم ألق فيمن لقيتهم مثله . حضرت يوما عنده ببستان له على شاطئ النهر ، وقد اجتمع فقهاء المدينة وكبراؤها ، وأتى الفقراء من كل ناحية ، فأطعم الجميع . ثم صلى بهم صلاة الظهر ، وقام خطيبا وواعظا بعد أن قرأ القراء أمامه بالتلاحين المبكية ، والنغمات المحركة المهيّجة . وخطب خطبة بسكينة ووقار ، وتصرف فى فنون العلم من تفسير كتاب الله ، وإيراد حديث رسول الله والتكلم على معانيه . ثم ترامت عليه الرِقاع من كل ناحية . ومن عادة الأعاجم أن يكتبوا المسائل فى رقاع ويرموها إلى الواعظ فيجيب عنها . فلما رُمى إليه

بتلك الرقاع جمعها فى يده وأخذ يجيب عنها واحدة بعد واحدة بأبدع جواب وأحسنه . وحان وقت صلاة العصر فصلى بالقوم وآنصرفوا . وكان مجلسه مجلس علم ووعظ وبركة ، وتبادر التائبون فأخذ عليهم العهد ، وجزّ نواصيهم ، وكانوا خمسة عشر رجلا من الطلبة قدموا من البصرة لذلك ، وعشرة رجال من عوام تستر .

ثم سافرنا من مدينة تستر ثلاثا فى جبال شامخة ، وبكل منزل زاوية كما تقدم ذكر ذلك . ووصلنا إلى مدينة إيذَج ، وهى حضرة السلطان أتابِك . وعند وصولى إليها اجتمعت بشيخ شيوخها العالم الورع نور الدين الكِرْمَانى ، وله النظر فى جميع الزوايا ، وهم يسمونها المدرسة ، والسلطان يعظمه ويقصد زيارته ، وكذلك أرباب الدولة وكبراء الحضرة يزورونه غدوّا وعشيا . فأكرمنى وأضافنى وأنزلنى بزاوية تعرف باسم الدِّينَوَرِى ، وأقمت بها أياما . وكان وصولى فى أيام القيظ ، وكنا نصلى صلاة الليل ثم ننام بأعلى سطحها ، ثم ننزل إلى الزاوية ضحوة . وكان فى صحبتى آثنا عشر فقيرا منهم إمام وقارئان مجيدان وخادم ، ونحن على أحسن ترتيب .

ذكر ملك إيذَج وتُسْتَر

وملك إيذج فى عهد دخولى إليها السلطان أتا بِك أَفْرَاسْيَاب ، ابن السلطان أتابك أحمد ، وأتا بك عندهم : سمة لكل من يلى هذه البلاد من ملك . وتسمى هذه البلاد بلاد اللُّور . وولى هذا السلطان بعد أخيه أتا بك يوسف ، وولى يوسف بعد أبيه أتابك أحمد . وكان أحمد ملكا صالحا ، سمعت من الثقات ببلاده أنه عمر أربعمائة وستين زاوية ببلاده ، منها بحضرة إيذج أربع وأربعون . وقسم خراج بلاده أثلاثا : فالثلث منه لنفقة الزوايا والمدارس ، والثلث منه لمرتب العساكر ، والثلث لنفقته ونفقة عياله وعبيده وخدامه .

ويبعث منه هـدية لملك العراق فى كل سنة ، وربما وفد عليه بنفسه .
وشاهدت من آثاره الصالحة ببلاده أن أكثرها فى جبال شامخة ، وقد نحتت الطرق فى الصخور والحجارة وسويت ووسعت ، بحيث تصعدها الدواب بأحمالها . وطول هـذه الجبال مسيرة سبعة عشر فى عرض عشرة ، وهى شاهقة متصل بعضها ببعض، تشقها الأنهار، وشجرها البلوط؛ وهم يصنعون من دقيقه الخبز . وفى كل منزل من منازلها زاوية يسمونها المدرسة ، فإذا وصل المسافر إلى مدرسة منها أُتى بما يكفيه من الطعام والعلف لدابته، سواء طلب ذلك أو لم يطلبه، فإن عادتهم أن يأتى خادم المدرسة فيعد من نزل بها من الناس ، ويعطى كل واحد منهم قرصين من الخبز ولحما وحلواء . وكل ذلك من أوقاف السلطان عليها . وكان السلطان أتابك أحمد زاهدا صالحا كما ذكرناه ، يلبس تحت ثيابه مما يلى جسده ثوب شعر .

حكاية

قدم السلطان أتابك أحمد مرة على ملك العراق أبى سعيد ، فقال له بعض خواصه : إن أتابك يدخل عليك وعليه الدرع (وظن ثوب الشعر الذى تحت ثيابه درعا)، فأمرهم باختبار ذلك على جهة من الانبساط ليعرف حقيقته . فدخل عليه يوما فقام إليه الأمير الجُوبان عظيم أمراء العراق ، والأمير سُوَيْتَه أمير ديار بكر ، والشيخ حسن الذى هو الآن سلطان العراق، وأمسكوا بثيابه كأنهم يمازحونه ويضاحكونه ، فوجدوا تحت ثيابه ثوب الشعر ، ورآه السلطان أبو سعيد ، وقام إليه وعانقه وأجلسه إلى جانبه ، وقال له : سن آطا . ومعناه بالتركية أنت أبى ، وعوضه عن هديته بأضعافها ، وكتب له ألا يطالبه بهدية بعدها هو ولا أولاده . وفى تلك السنة توفى، وولى ابنه أتابك يوسف عشرة أعوام ، ثم ولى أخوه أفراسياب . ولما دخلت مدينة إيذج أردت رؤية السلطان أفراسياب المذكور ، فلم يتأت لى ذلك

بسبب أنه لا يخرج إلا يوم الجمعة لإدمانه على الخمر . وكان له ابن هو ولىّ عهده وليس له سواه ، فمرض فى تلك الأيام . ولما كان فى إحدى الليالى أتانى أحد خدامه وسألنى عن حالى فعرفته ، وذهب عنى ، ثم جاء بعد صلاة المغرب ومعه طَيْفُوران[١] كبيران : أحدهما بالطعام ، والآخر بالفاكهة ، وخريطة فيها دراهم ، ومعه أهل السماع بآلاتهم ، فقال : اعملوا السماع حتى يُرهج[٢] الفقراء ويدعوا لابن السلطان ، فقلت له : إن أصحابى لا يدرون بالسماع ولا بالرقص . ودعونا للسلطان ولولده ، وقسمت الدراهم على الفقراء . ولما كان نصف الليل سمعنا الصراخ والنُّواح وقد مات المريض . ولما كان من الغد دخل علىّ شيخ الزاوية وأهل البلد وقالوا : إن كبراء المدينة من القضاة والفقهاء والأشراف والأمراء قد ذهبوا إلى دار السلطان للعزاء ، فينبغى لك أن تذهب فى جملتهم ، فأبيت ذلك ، فعزموا علىّ فلم يكن لى بد من المسير ، فسرت معهم ، فوجدت مشور[٣] دار السلطان ممتلئا رجالا وصبيانا من المماليك وأبناء الملوك والوزراء والأجناد ، وقد لبسوا التلاليس[٤] وَجِلال الدواب ، وجعلوا فوق رءووسهم التراب والتبن ، وبعضهم قد جزّ ناصيته . وانقسموا فرقتين : فرقة بأعلى (المشور) وفرقة بأسفله ، وتزحف كل فرقة إلى جهة الأخرى ، وهم ضاربون بأيديهم على صدورهم قائلون : خوندكارما ؟ ومعناه مولاى أنا : (مولانا) ، فرأيت من ذلك أمرا هائلا ومنظرا فظيعا لم أعهد مثله .

---

(١) الطيفور : وعاء للطعام يظهر أنه على شكل طائر ، لأن الطيفور لغة طوير .

(٢) من معانى الارهاج الصخب ، والمراد هنا التواجد والرقص .

(٣) المشور كلمة أعجمية يراد بها مجلس السلطان للاستقبال . وقد ضبطها بعض المستشرقين هكذا : مشْوَر .

(٤) التلاليس : لعله جمع تِلّيسة ، هنة تسوى من الخوص ، وتطلق على الجوالق والزكائب فى الصعيد .

حكاية

ومن غريب ما اتفق لى يومئـذ أنى دخلت فرأيت القضاة والخطباء والشرفاء قد استندوا إلى حيطان (المشور)، وهو غاصّ بهم من جميع جهاته، وهم بين باك ومتباك ومطرق ، وقد لبسـوا فوق ثيابهم ثيـابا من غليظ القطن غير محكمة الخياطة ، بطائنها إلى أعلى و وجوهها ممـا يلى أجسادهم ، وعلى رأس كل واحد منهم قطعة خرقة أو مئزر أسود . وهكذا يكون فعلهم إلى تمـام أربعين يوما ، وهى نهاية الحزن عندهم . و بعدها يبعث السلطان لكل من فعل ذلك كسوة كاملة . فلما رأيت جهات (المشور) غاصة بالناس نظرت يمينا وشمـالا أرتاد موضعا لجلوسى ، فرأيت هنالك سقيفة مرتفعة عن الأرض بمقدار شبر، وفى إحدى زواياها رجل منفرد عن الناس قاعد ، عليه ثوب صوف شبه اللِّبْد، يلبسه بتلك البلاد ضعفاء الناس أيام المطر والثلج وفى الأسـفار . فتقدمت إلى حيث الرجل ، وانقطع عنى أصحابى لمـا رأوا إقدامى نحوه ، وعجبوا منى وأنا لا علم عندى بشىء من حاله . فصعدت السقيفة وسلمت على الرجل ، فرد السلام وارتفع عن الأرض كأنه يريد القيام، وقعدت فى الركن المقابل له . ثم نظرت إلى النـاس وقد رمونى بأبصارهم جميعا ، فعجبت منهـم ، ورأيت الفقهاء والمشايخ والأشراف مستندين إلى الحائط تحت السقيفة . وأشار إلىّ أحد القضاة أن أنحطّ إلى جانبه فلم أفعل. وحينئذ استشعرت أنه السلطان . فلمـا كان بعـد ساعة أتى شيخ المشايخ نور الدين الكِرْمانى الذى ذكرناه قبل، فصعد إلى السقيفة وسلم على الرجل، فقام إليه وجلس فيما بينى و بينه، فحينئذ علمت أن الرجل هو السلطان . ثم جىء بالجنازة وهى بين أشجار الأُتْرُجّ والليمون والنارَنْج، وقد ملئـوا أغصانها بثمارها، والأشجار بأيدى الرجال ، فكأن الجنازة تمشى فى بستان ، والمشاعل فى رماح طوال بين يديها ، والشمع كذلك ، فصلى عليها ، وذهبت الناس معها إلى مدفن الملوك ، على أربعة أميال من المدينة . وهنالك مدرسة عظيمة يشقها

النهر ، و بداخلها مسجد تقام فيه الجمعة ، و بخارجها حمام ، ويَحُفّ بها بستان عظيم ، و بها الطعام للوارد والصادر . ولم أستطع أن أذهب معهم إلى مدفن الجنازة لبعد الموضع ، فعدت إلى المدرسة . فلما كان بعد أيام بعث إلىّ السلطان رسوله الذى أتانى بالضيافة أولا ، يدعونى إليه ، فذهبت معه إلى باب يعرف بباب السر ، وصعدنا فى درج كثيرة ، إلى أن انتهينا إلى موضع لا فرش به ، لأجل ماهم فيه من الحزن ، والسلطان جالس فوق مخدة وبين يديه آنيتان قد غطيتا : إحداهما من الذهب والأخرى من الفضة . وكانت بالمجلس سجّادة خضراء ، ففرشت لى بالقرب منه وقعدت عليها ، وليس بالمجلس إلا حاجبه الفقيه محمود ، ونديم له لا أعرف اسمه . فسألنى عن حالى وبلادى ، وسألنى عن الملك الناصر و بلاد الحجاز ، فأجبته عن ذلك . ثم جاء فقيه كبير هو رئيس فقهاء تلك البلاد ، فقال لى السلطان : هذا مولانا فُضَيْل ، والفقيه ببلاد الأعاجم كلها إنما يخاطب بمولانا ، و بذلك يدعوه السلطان وسواه . ثم أخذ فى الثناء على الفقيه المذكور ، وظهر لى أن السكر غالب عليه ، وكنت قد عرفت إدمانه على الخمر . ثم قال لى باللسان العربى (وكان يحسنه) تكلم ! فقلت له : إن كنت تسمع منى أقل لك : أنت من أولاد السلطان أتابك أحمد المشهور بالصلاح والزهد ، وليس فيك ما يقدح فى سلطنتك غير هذا (وأشرت الى الآنيتين) ، فخجل من كلامى وسكت . وأردت الانصراف فأمرنى بالجلوس وقال لى : الاجتماع مع أمثالك رحمة . ثم رأيته يتمايل ويريد النوم فانصرفت . وكنت تركت نعلى بالباب فلم أجدها ، فنزل الفقيه محمود فى طلبها ، وصعد الفقيه فُضَيْل يطلبها فى داخل المجلس ، فوجدها فى طاق هنالك ، فأتى إلىّ بها فأخجلنى برّه ، واعتذرت إليه ، فقبّل نعلى حينئذ ووضعها على رأسه ، وقال لى : بارك الله فيك ، هذا الذى قلته لسلطاننا لا يقدر أحد أن يقوله له غيرك ، والله إنى لأرجو أن يؤثر ذلك فيه .

ثم كان رحيلي من حضرة إيذَج بعد أيام ، فنزلت بمدرسة السلاطين التى بها قبورهم وأقمت بهـا أياما ، وبعث إلىّ السلطان بجملة دنانير وبعث بمثلها لأصحابى . وسافرنا فى بلاد هذا السلطان عشرة أيام فى جبال شامخة ، وفى كل ليلة ننزل بمدرسة فيها الطعام ، فمنها ماهو فى العمارة ، ومنها مالا عمارة حوله ، ولكن يجلب إليها جميع ما تحتاج إليه . وفى اليوم العاشر نزلنا بمدرسة تعرف بمدرسة كِرِيُو الرُّخ (وهى آخر بلاد هذا الملك) . وسافرنا منها فى بسيط من الأرض كثير المياه من عمالة (١) مدينة أصفهان . ثم وصلنا إلى بلدة أُشْتُرْكان ، وهى بلدة حسنة كثيرة المياه والبساتين ، ولهـا مسجد بديع يشقه النهر . ثم رحلنا منهـا إلى مدينة فَـيْرُوزان ، واسمها كأنه تثنيـة فيروز ، وهى مدينة صغيرة ذات أنهار وأشجار وبساتين ، وصلناها بعد صلاة العصر ، فرأينا أهلها قد خرجوا لتشييع جنازة ، وقد أوقدوا خلفها وأمامها المشاعل ، وأتبعوها بالمزامير والمغنيين بأنواع الأغانى المطربة ، فعجبنا من شأنهـم . وبتنا بها ليلة ، ومررنا بالغد بقرية يقال لها نُبْلَان وهى كبيرة على نهر عظيم ، وإلى جانبه مسجد فى النهاية من الحسن ، يصعد إليه فى درج وتَحُفُّ به البساتين .

وسرنا يومنا فيما بين البساتين والمياه والقرى الحسان الكثيرة أبراج الحمام ، ووصلنا بعد العصر الى مدينـة أَصْفَهان من عراق العجم . ومدينة أصفهان من كبار المدن وحسانها إلا أنهـا الآن قد خَرِبَ أكثرها بسبب الفتنة التى بهـا بين أهل السنة والروافض ، وهى متصلة بينهم حتى الآن ، فلا يزالون فى قتال . وبها الفواكه الكثيرة ومنها المِشمِش الذى لا نظير له ، يسمونه بقمر الدين ، وهم ييبسـونه ويدخرونه ، ونواه ينكسر عن لوز حلو .

(١) العمالة مثلثة العين أجر العامل . ولكن المراد هنـا نحو الإقليم ، وهو بعيد من المعنى اللغوى .

ومنها السَّفَرْجَل الذى لا مثــل له فى طيب المطعم وعظم الجرْم ، والأعناب الطيبة ، والبطيخ العجيب الشأن الذى ليس فى الدنيا مثله ، إلا ما كان من بطيخ بُخَارَى وخُوَارَزم ، وقشره أخضر وداخله أحمر ، وله حلاوة شديدة ، ومن لم يكن أَلِفَ أكله فإنه فى أول أمره يُسْهِلُه ، وكذلك اتفق لى لمــا أكلته بأصفهان .

وأهل أصفهان حسان الصور ، وألوانهم بيض زاهرة مشوبة بالحمرة ، والغالب عليهــم الشجاعة والنَّجْدة ، وفيهم كرم وتنافس عظيم فيما بينهــم من الأطعمة ، تؤثَر عنهم فيه أخبار غريبة ؛ وربمــا دعا أحدهم صاحبه فيقول له : اذهب معى لنأكل نانا وماسا ، (والنان بلسانهم : الخبز ، والمــاس : اللبن) ، فإذا ذهب معه أطعمه أنواع الطعام العجيب مُباهيا له بذلك . وأهــل كل صــناعة يقدمون على أنفسهم كبيرا منهم ، وكذلك كبار المدينة من غير أهــل الصــناعات . ولقد ذكر لى أن طائفة منهــم أضافت أخرى فطبخوا طعامهم بنار الشمع ، ثم أضافتها الأخرى فطبخوا طعامهم بالحرير . وكان نزولى بأصــفَهان فى زاوية تنسب للشيخ على بن سهل تلميــذ الجُنَيْد ، وهى معظمة يقصــدها أهل تلك الآفاق ويتبركون بزيارتها ، وفيها الطعام للوارد والصادر . وبهــا حمام عجيب مفروش بالرُّخام وحيطانه بالقاشانى ، وهو موقوف فى السبيل ، لا يلزم أحدا فى دخوله شىء . وشيخ هذه الزاوية الصالح العابد الورع قطب الدين حسين ابن الشيخ الصالح ولى الله شمس الدين محمد بن محمود بن على المعروف بالرجاء . وأخوه العالم المفتى شهاب الدين أحمد . أقمت عند الشيخ قطب الدين بهذه الزاوية أربعة عشر يوما ، فرأيت من اجتهاده فى العبادة وحبه فى الفقراء والمساكين وتواضعه لهم ما قضيت منه العجب ، وبالغ فى إكرامى وأحسن ضيافتى وكسانى كسوة حسنة . وساعة وصولى الزاوية بعث إلىّ بالطعام وبثلاث بطيخات من البطيخ الذى وصفناه آنفا ، ولم أكن رأيته قبل ولا أكلته .

كرامة لهذا الشيخ

دخل علىّ يوما بموضع نزولى من الزاوية ، وكان ذلك الموضع يشرف على بستان للشيخ ، وكانت ثيابه قد غسلت فى ذلك اليوم ونشرت فى البستان . ورأيت فى جملتها جبة بيضاء مبطَّنة فأعجبتنى وقلت فى نفسى : مثل هذه كنت أريد . فلما دخل على الشيخ نظر فى ناحية البستان وقال لبعض خدامه : ائتنى بذلك الثوب فأتوا به فكسانى إياه ، فأهويت إلى قدميه أقبلهما ، وطلبت منه أن يلبسنى (طاقية) من رأسه ويجيزنى فى ذلك بما أجازه والده عن شيوخه . فالبسنى إياها فى الرابع عشر لجُمادَى الآخرة سنة سبع وعشرين وسبعمائة بزاويته المذكورة .

ثم سافرنا من أَصْفَهان بقصد زيارة الشيخ مجد الدين بشيراز ، وبينهما مسيرة عشرة أيام ، فوصلنا إلى بلدة كَلِيل ، وبينها وبين أصفَهان مسيرة ثلاثة ، وهى بلدة صغيرة ذات أنهار وبساتين وفواكه : رأيت التفاح يباع فى سوقها خمسة عشر رطلا عراقية بدرهم . ونزلنا منها بزاوية عَمَّرها كبير هذه البلدة المعروف بخواجه كافى ، وله مال عريض قد أعانه الله على إنفاقه فى سبيل الخيرات ، من الصدقة وعمارة الزوايا وإطعام الطعام لأبناء السبيل . ثم سرنا من كَلِيل يومين ووصلنا إلى قرية كبيرة تعرف بِصُرْماء ، وبها زاوية فيها الطعام للوارد والصادر ، عمرها خواجه كافى أيضا . ثم سرنا منها الى يَزْدُخاص ، بلدة صغيرة متقنة العمارة حسنة السوق . والمسجد الجامع بها عجيب مبنى بالحجارة مسقوف بها ، والبلدة على ضِفة خندق فيه بساتينها ومياهها . وبخارجها رِباط ينزل به المسافرون عليه باب حديد ، وهو فى النهاية من الحصانة والمَنَعة . وبداخله حوانيت يباع فيها كل ما يحتاج إليه المسافرون . وهذا الرباط عمره الأمير محمد شاه ينْجُو والد السلطان أبى إسحق ملك شيراز . وفى يَزْدُخاص يصنع الجبن اليزدخاصى ، ولا نظير له فى طيبه ، وزن الجُبْنة منه من أوقيتين إلى أربع . ثم سرنا منها على طريق دَشْت الروم ، وهى صحراء يسكنها الأتراك . ثم سافرنا الى مايِين ، وهى بلدة صغيرة كثيرة الأنهار والبساتين حسنة الأسواق ، وأكثر أشجارها الجوز ، ثم سافرنا منها إلى مدينة شِيراز .

وصف شِيراز

وهى مدينة أصيلة البناء، فسيحة الأرجاء، شهيرة الذكر، منيفة القدر، لها البساتين المُونِقة ، والأنهار المتدفقة، والأسواق البديعة، والشوارع الرفيعة ، وهى كثيرة العمارة ، متقنة المبانى ، عجيبة الترتيب ؛ وأهل كل صناعة فى سوقها لا يخالطهم غيرهم ؛ وأهلها حسان الصور نظاف الملابس . وليس فى المشرق بلدة تدانى مدينة دمشق فى حسن أسواقها وبساتينها وأنهارها وحسن صور ساكنيها إلا شيراز . وهى فى بسيط من الأرض تَحُفّ بها البساتين من جميع الجهات، وتشقها خمسة أنهار : أحدها النهر المعروف برُكْن آباد، وهو عذب الماء شديد البرودة فى الصيف ، سخن فى الشتاء ، فينبعث من عين فى سفح جبل هنالك يسمى القُلَيْعَة . ومسجدها الأعظم يسمى بالمسجد العتيق، وهو من أكبر المساجد ساحة وأحسنها بناء ، وصحنه متسع مفروش بالمرمر ، ويغسل فى أوان الحر كل ليلة ، ويجتمع فيه كبار أهل المدينة كلّ عشية، ويصلون به المغرب والعشاء. وبشماله باب يعرف بباب حسن يفضى إلى سوق الفاكهة، وهى من أبدع الأسواق ؛ وأنا أقول بتفضيلها على سوق باب البريد من دمشق .

وأهل شيراز أهل صلاح ودين وعفاف ، وخصوصا نساءها ، وهن يلبسن الخِفَاف ، ويخرجن ملتحفات متبرقعات فلا يظهر منهن شىء ، ولهن الصدقات والإيثار . ومن غريب حالهن أنهن يجتمعن لسماع الواعظ فى كل يوم اثنين وخميس وجمعة بالجامع الأعظم، فربما اجتمع منهن الألف والألفان ، بأيديهن المراوح يروّحن بها على أنفسهن من شدة الحر . ولم أر اجتماع النساء فى مثل عددهن فى بلدة من البلاد . وعند دخولى إلى مدينة شيراز لم يكن لى همّ إلا قصد الشيخ القاضى الإمام قطب الأولياء ، فريد

الدهر ، ذى الكرامات الظاهرة مجد الدين إسماعيل بن محمد بن خُداد ، ومعنى خداد : عطية الله . فوصلت إلى المدرسة المَجْدِيَّة المنسوبة إليه ، وبها سكناه ، وهى من عمارته . فدخلت إليه رابع أربعة من أصحابى ، ووجدت الفقهاء وكبار أهل المدينة فى انتظاره ، فخرج إلى صلاة العصر ، ومعه محب الدين وعلاء الدين ابنا أخيه شقيقه ، روح الدين ، أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله . وهما نائباه فى القضاء لضعف بصره وكبر سنه . فسلمت عليه وعانقنى وأخذ بيدى إلى أن وصل إلى مصلاه ، فأرسل يدى ، وأومأ إلىّ أن أصلى إلى جانبه ففعلت . وصلى صلاة العصر ، ثم قرئ بين يديه من كتاب المصابيح وشوارق الأنوار للصّاغانى . وطالعه نائباه بما جرى لديهما من القضايا . وتقدم كبار المدينة للسلام عليه ، وكذلك عادتهم معه صباحا ومساء . ثم سألنى عن حالى وكيفيّة قدومى ، وسألنى عن المغرب ومصر والشام والحجاز فأخبرته بذلك . وأمر خدامه فأنزلونى بدُوَيرة صغيرة بالمدرسة . وفى غد ذلك اليوم وصل إليه رسول ملك العراق السلطان أبى سعيد ، وهو ناصر الدين الدَّرقَنْدى من كبار الأمراء ، خراسانى الأصل ، فعند وصوله إليه نزع (شاشيته) عن رأسه ، وقبل رجل القاضى ، وقعد بين يديه ممسكا أذن نفسه بيده . وهكذا فعل أمراء التتر عند ملوكهم . وكان هذا الأمير قد قدم فى نحو خمسمائة فارس من مماليكه وخدامه وأصحابه ، ونزل خارج المدينة ، ودخل إلى القاضى فى خمسة نفر ، ودخل مجلسه وحده منفردا تأدبا .

حكاية

هى السبب فى تعظيم هذا الشيخ وهى من الكرامات الباهرة

كان ملك العراق السلطان محمد خُدَابَنْدَه ، قد صحبه فى حال كفره فقيه من الروافض الإمامية يسمى جمال الدين بن مطهر . فلما أسلم السلطان وأسلمت بإسلامه التتر ، زاد فى تعظيم هذا الفقيه ، فزين له مذهب

الروافض وفضله على غيره ، وشرح له حال الصحابة والخلافة وقرَّر لديه أن أبا بكر وعمر كانا وزيرين لرسول الله ، وأن عليا ابن عمه وصهره هو وارث الخلافة ، ومثَّل له ذلك بما هو مألوف عنده من أن الملك الذى بيده إنما هو إرثه عن أجداده وأقاربه ، مع حِدْثان عهد السلطان بالكفر وعدم معرفته بقواعد الدين . فأمر السلطان بحمل الناس على الرَّفْض ، وكتب بذلك إلى العراقين وفارس وأَذَرْبِيجان وأَصْفَهان وكَرْمَان وخُراسان ، وبعث الرسل إلى البلاد ، فكان أول بلاد وصل إليها ذلك بغداد وشيراز وأصفَهان .

فأما أهل بغداد فامتنع أهل باب الأَزَج منهم ، وهم أهل السنة ، وأكثرهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، وقالوا : لا سمع ولا طاعة ! وأتوا المسجد الجامع يوم الجمعة فى السلاح وبه رسول السلطان . فلما صعد الخطيب المنبر قاموا إليه ، وهم نحو اثنى عشر ألفا فى سلاحهم ، وهم حُماة بغداد والمشار إليهم فيها ، فحلفوا له أنه إن غيَّر الخطبة المعتادة أو زاد فيها أو نقص منها فإنهم قاتلوه وقاتِلو رسول الملك ومستسلمون بعد ذلك لما شاءه الله .

وكان السلطان أمر بأن تسقط أسماء الخلفاء وسائر الصحابة من الخطبة ، ولا يذكر إلا اسم علىّ ومن تبعه كعَمَّار (رضى الله عنهم) . فخاف الخطيب من القتل وخطب الخطبة المعتادة ، وفعل أهل شيراز وأصفهان كفعل أهل بغداد . فرجعت الرسل إلى الملك فأخبروه بما جرى فى ذلك ، فأمر أن يؤتى بقضاة المدن الثلاث ، فكان أول من أتى به منهم القاضى مجد الدين قاضى شيراز ، والسلطان إذ ذاك فى موضع يعرف بِقَرَاباغ ، وهو موضع مَصيفه . فلما وصل القاضى أمر أن يرمى به إلى الكلاب التى عنده ، وهى كلاب ضخام فى أعناقها السلاسل معدة لأكل بنى آدم . فإذا أتى بمن يسلط عليه الكلاب جُعل فى رَحْبة كبيرة مطلقا غير مقيد ، ثم بُعثت تلك الكلاب عليه ، فيفر أمامها

ولا مفر له ، فتدركه فتمزقه وتأكل لحمه . فلما أرسلت الكلاب على القاضى مجدالدين ووصلت إليه بصبصتْ إليه وحركت أذنابها بين يديه ، ولم تَهْجُم عليه بشيء . فبلغ ذلك السلطان فخرج من داره حافى القدمين ، فأكبّ على رجلى القاضى يقبلهما ، وأخذ بيده وخلع عليه جميع ما كان عليه من الثياب . وهى أعظم كرامات السلطان عندهم . وإذا خلع ثيابه كذلك على أحد كانت شرفا له ولبنيه وأعقابه يتوارثونه ، ما دامت تلك الثياب أو شيء منها . وأعظمها فى ذلك السراويل . ولما خلع السلطان ثيابه على القاضى مجد الدين أخذ بيده وأدخله إلى داره وأمر نساءه بتعظيمه والتبرك به . ورجع السلطان عن مذهب الرفْض ، وكتب إلى بلاده أن يقر الناس على مذهب أهل السنة والجماعة ، وأجزل العطاء للقاضى وصرفه إلى بلاده مكرما معظما ، وأعطاه فى جملة عطاياه مائة قرية من قرى جَمْكان ، وهو خندق بين جبلين طوله أربعة وعشرون فرسخا يشقه نهر عظيم ، والقرى منتظمة بجانبيه ، وهو أحسن موضع بشيراز(١) .

ومن عجائب هذا الموضع المعروف بجمكان : أن نصفه مما يلى شيراز ، وذلك مسافة اثنى عشر فرسخا ، شديد البرد ، وينزل فيه الثلج ، وأكثر شجره الجوز ، والنصف الآخر مما يلى بلاد هُنْج وبلاد اللار ، فى طريق هُرْمُز ، شديد الحر وفيه شجر النخيل . وقد تكرر لى لقاء القاضى مجد الدين ثانية حين خروجى من الهند ، قصدته من هرمز متبركا بلقائه ، وذلك سنة ثمان وأربعين . وبين هرمز وشيراز مسيرة خمسة وثلاثين يوما ، فدخلت عليه ، وهو قد ضعف عن الحركة ، فسلمت عليه فعرفنى ، وقام إلى فعانقنى ، ووقعت يدى على مِرْفَقه ، وجلده لاصق بالعظم لا لحم بينهما . وأنزلنى بالمدرسة حيث أنزلنى أول مرة ، وزرته يوما فوجدت ملك شيراز السلطان أبا إسحاق (وسيقع ذكره) قاعدا بين يديه ممسكا بأذن نفسه ، وذلك

(١) فى هذه الحكاية مبالغة ظاهرة .

هو غاية الأدب عندهم ، ويفعله الناس إذا قعدوا بين يدى الملك . وأتيته مرة أخرى إلى المدرسة فوجدت بابها مسدودا ، فسألت عن سبب ذلك فأُخبرت أن أم السلطان وأخته نشأت بينهما خصومة فى ميراث ، فصرفهما إلى القاضى مجد الدين ، فوصلتا إليه إلى المدرسة وتحاكمتا عنده ، وفصل بينهما بواجب الشرع . وأهل شيراز لا يدعونه بالقاضى ، وإنما يقولون له : مولانا أعظم ، وكذلك يكتبون فى التسجيلات والعقود التى تفتقر إلى ذكر اسمه فيها . وكان آخر عهدى به فى شهر ربيع الثانى من عام ثمانية وأربعين وسبعمائة . ولاحت علىّ أنواره وظهرت لى بركاته (نفع الله به وبأمثاله) .

ذكر سلطان شيراز

وسلطان شيراز فى عهد قدومى عليها الملك الفاضل أبو اسحاق بن محمد شاه ينْجُو ، سماه أبوه باسم الشيخ أبى اسحاق الكَازَرُونى (نفع الله به) . وهو من خيار السلاطين ، حسن الصورة والسيرة والهيئة ، كريم النفس جميل الأخلاق متواضع صاحب قوة وملك كبير ، وعسكره يُنيف على خمسين ألفا من الترك والأعاجم . وبطانته الأدنون إليه أهل أصفهان ، وهو لا يأتمن أهل شيراز على نفسه ، ولا يستخدمهم ولا يقربهم ولا يبيح لأحد منهم حمل السلاح ، لأنهم أهل نَجْدة وبأس شديد وجراءة على الملوك . ومن وجد بيده السلاح منهم عوقب . ولقد شاهدت مرة رجلا تجره (الجنادرة)(١) وهم الشُّرَط إلى الحاكم وقد ربطوه فى عنقه ، فسألت عن شأنه فأُخبرت أنه وجدت فى يده قوس بالليل . فذهب السلطان المذكور إلى قهر أهل شيراز وتفضيل الأصفَهانيين عليهم ، لأنه يخافهم على نفسه . وكان أبوه محمد شاه ينْجُو واليا على شيراز من قِبَل ملك العراق ، وكان حسن السيرة محببا إلى أهلها . فلما توفى ولّى السلطان أبو سعيد مكانه الشيخ حسينا ، وهو ابن

---

(١) فارسية ، جمع جَنْدَار ، وهو حارس ذات الملك .

الجُوبان أمير الأمراء (وسيأتى ذكره)، وبعث معه العساكر الكثيرة، فوصل إلى شيراز وملكها ، وضبط مجابيها ؛ وهى من أعظم بلاد الله مَجْبًى : ذكر لى الحاج قِوَام الدين الطَّمَغْجِى، وهو والى المجبى بها : أنه ضمنها بعشرة آلاف دينار دراهم فى كل يوم ، وصرفها من ذهب المغرب ألفان وخمسمائة دينار ذهبا . وأقام بها الأمير حسين مدة ، ثم أراد القدوم على ملك العراق فقبض على أبى إسحاق بن محمد شاه ينجو، وعلى أخويه ركن الدين ومسعود بك، وعلى والدته طاش خاتون ، وأراد حملهم إلى العراق ليطالبوا بأموال أبيهم . فلما توسطوا السوق بشيراز كشفت طاش خاتون وجهها وكانت متبرقعة حيــاء أن تُرى فى تلك الحال، فإن عادة نساء الأتراك ألا يغطين وجوههن ، واستغاثت بأهل شيراز، وقالت : أهكذا يأهل شيراز أخرج من بينكم وأنا فلانة زوجة فلان؟ فقام رجل من النجارين يسمى بَهْلَوان محمود ، وقد رأيته بالسوق حين قدومى على شيراز، فقال : لا نتركها تخرج من بلدنا ولا نرضى بذلك ، فتابعه الناس على قوله ، وثارت عامتهم ودخلوا فى السلاح ، وقتلوا كثيرا من العسكر، وأخذوا الأموال وخلصوا المرأة وأولادها . وفر الأمير حسين ومن معه ، وقَدِم على السلطان أبى سعيد مهزوما ، فأعطاه العساكر الكثيفة، وأمره بالعود إلى شيراز والتحكم فى أهلها بما شاء . فلما بلغ أهلها ذلك علموا أنهم لا طاقة لهم به ، فقصدوا القاضى مجد الدين وطلبوا منه أن يحقِن دماء الفريقين ويوقع الصلح، فخرج إلى الأمير حسين، فترجل له الأمير عن فرسه وسلم عليه ووقع الصلح . ونزل الأمير حسين ذلك اليوم خارج المدينة . فلما كان من الغد برز أهلها للقائه فى أجمل ترتيب، وزينوا البلد وأوقدوا الشمع الكثير . ودخل الأمير حسين فى أبهة وحَفْل عظــيم ، وسار فيهم بأحسن ســيرة . فلمــا مات السلطان أبو سعيد وانقرض عقبه وتغلب كل أمير على ما بيده، خافهم الأمير حسين على نفسه وخرج عنهم . وتغلب السلطان أبو إسحاق عليها وعلى أَصْفَهان وبلاد فارس، وذلك مسيرة شهر ونصف شهر. واشتدت شوكته ، وطَمَحت همته

إلى تملك ما يليه من البلاد . فبدأ بالأقرب منها وهى مدينة يَزْد، مدينة حسنة نظيفة عجيبة الأسواق ذات أنهار مطردة وأشجار نضيرة . وأهلها تجار شافعية المذهب ، فحاصرها وتغلب عليها ، وتحصن الأمير مُظَفَّر شاه ابن الأمير محمد شاه بن مظفر بقلعة على ستة أميال منها منيعة تحدق بها الرمال ، فحاصره بها ، فظهر من الأمير مظفر من الشجاعة ما خرق المعتاد ولم يسمع بمثله : فكان يضرب على عسكر السلطان أبى إسحاق ليلا ، ويقتل ما شاء ويحرق المضارب والفساطيط ، ويعود إلى قلعته فلا يقدر على النيل منه . وضرب ليلة على دوّار[1] السلطان ، وقتل هنالك جماعة وأخذ من عِتاق خيله عشرة ، وعاد إلى قلعته . فأمر السلطان أن تركب فى كل ليلة خمسة آلاف فارس ويصنعوا له الكمائن ، ففعلوا ذلك . وخرج على عادته فى مائة من أصحابه فضرب على العسكر ، وأحاطت به الكمائن وتلاحقت العساكر ، فقاتلهم وخَلَص إلى قلعته ، ولم يصب من أصحابه إلا واحد ، أُتى به إلى السلطان أبى إسحاق فخلع عليه وأطلقه ، وبعث معه أمانا لمظفَّر لينزل إليه فأبى ذلك . ثم وقعت بينهما المراسلة ، ووقعت له محبة فى قلب السلطان أبى إسحاق ، لما رأى من شجاعته ، فقال : أريد أن أراه ، فإذا رأيته انصرفت عنه . فوقف السلطان فى خارج القلعة ، ووقف هو ببابها وسلم عليه ، فقال له السلطان : انزل على الأمان ، فقال له مظفَّر : إنى عاهدت الله ألا أنزل إليك حتى تدخل أنت قلعتى ، وحينئذ أنزل إليك ، فقال له : أفعلُ ذلك . فدخل إليه السلطان فى عشرة من أصحابه الخواص . فلما وصل باب القلعة ترجل مظفر ، وقبل رِكابه ، ومشى بين يديه مترجلا . فأدخله داره وأكل من طعامه ، ونزل معه إلى المحلة[2] راكبا ، فأجلسه السلطان إلى جانبه وخلع عليه ثيابه وأعطاه مالا عظيما . ووقع الاتفاق بينهما أن تكون الخطبة باسم السلطان أبى إسحاق ، وتكون البلاد لمظفر وأبيه . وعاد السلطان إلى بلاده .

---

(١) المراد هنا المخيم ، ولكنه ليس من معانى الدوار .

(٢) المراد المعسكر . وقد استعمل الرحالة هذه الكلمة كثيرا بهذا المعنى .

وكان السلطان أبو إسحاق طَمَح ذات مرة إلى بناء إيوان كإيوان كسرى، وأمر أهل شيراز أن يتولوا حفر أساسه، فأخذوا فى ذلك، وكان أهل كل صناعة يباهون كلّ من عداهم، فانتهوا فى المباهاة إلى أن صنعوا القِفاف لنقل التراب من الجلد وكسوها ثياب الحرير المزركش. وفعلوا نحو ذلك فى براذع الدواب وأخْرَاجها. وصنع بعضهم الفئوس من الفضة، وأوقدوا الشمع الكثير. وكانوا حين الحفر يلبسون أجمل ثيابهم ويربطون فُوَط الحرير على أوساطهم، والسلطان يشاهد أفعالهم من مَنْظَرة له. وقد شاهدت هذا المَبْنَى وقد ارتفع عن الأرض نحو ثلاثة أذرع. ولما بنى أساسه رفع عن أهل المدينة التخديم فيه، وصارت الفعلة تخدُم فيه بالأجرة، ويُحشر لذلك آلاف منهم. وسمعت والى المدينة يقول: إن معظم مَجْباها ينفق فى ذلك البناء. وقد كان الموكل به الأمير جلال الدين بن الفلكى التّوريزى، وهو من الكبار، كان أبوه نائبا عن وزير السلطان أبى سعيد المسمى على شاه جَيْلان. ولهذا الأمير جلال الدين الفلكى أخ فاضل اسمه هبة الله، ويلقب بهاء الملك، وَفَد على ملك الهند حين وفودى عليه، ووفد معنا شرف الملك أمير بَخْت، فخلع ملك الهند علينا جميعا، وقدم كل واحد فى شغل يليق به، وعين لنا المرتب والإحسان (وسنذكر ذلك). وهذا السلطان أبو إسحاق يريد التشبه بملك الهند فى الإيثار وإجزال العطايا، ولكن أين الثُّريا من الثَّرى؟ إذ أعظم ما تعرفْنا من عطيات أبى اسحاق أنه أعطى الشيخ زاده الخراسانى، الذى أتاه رسولا عن ملك هَرَاة سبعين ألف دينار. وأما ملك الهند فلم يزل يعطى أضعاف ذلك لمن لا يُحْصى كثرة من أهل خراسان وغيرهم.

حكاية

ومن عجيب فعل ملك الهند مع الخُراسانيين أنه قَدِم عليه رجل من فقهاء خراسان ، هَرَوِىّ الدار من سكان خُوَارَزم ، يسمى بالأمير عبد الله ، بعثته الخاتون تُرَابَك زوج الأمير قُطْلُودُمُور ، صاحب خوارزم ، بهدية إلى ملك الهند المذكور ، فقبلها وكافأ عنها بأضعافها ، وبعث ذلك إليها . واختار رسولها الإقامة عنده فصيره فى ندمائه . فلما كان ذات يوم قال له : ادخل إلى الخزانة فارفع منها قدر ما تستطيع أن تحمله من الذهب ، فذهب إلى داره فأتى بثلاث عشرة خريطة ، وجعل فى كل خريطة قدر ما وسعته ، وربط كل خريطة بعضو من أعضائه ، (وكان صاحب قوة) وقام بها . فلما خرج عن الخزانة وقع ولم يستطع النهوض ، فأمر السلطان بوزن ما خرج به فكان جملته ثلاثة عشر مَنًّا بأمنان دِهْلى ، والمَنّ الواحد : خمسة وعشرون رطلا مصرية . فأمره أن يأخذ جميع ذلك فأخذه وذهب به .

حكاية تناسبها

اشتكى مرة أمير بَخْت الملقب بشرف الملك الخراسانى ، وهو الذى تقدم ذكره آنفا ، بحضرة ملك الهند ، فأتاه الملك عائدا . ولما دخل عليه أراد القيام فحلف له الملك ألا ينزل عن كَتّه . والكت : هو السرير ، ووضع للسلطان متكأة فقعد عليها ، ثم دعا بالذهب والميزان فجىء بذلك ، وأمر المريض أن يقعد فى إحدى كِفّتى الميزان ، فقال : ياخوند[1] عَالَم ، لو علمت أنك تفعل هذا للبست علىّ ثيابا كثيرة ، فقال له : البس الآن جميع ما عندك من الثياب ، فلبس ثيابه المعدة للبرد المحشوة بالقطن ، وقعد فى كِفّة الميزان ، ووضع الذهب فى الكفة الأخرى حتى رجحه الذهب[2] .

(١) ياخوند عالم : يا ملك العالم . (٢) فى هذه الحكاية والتى قبلها مبالغة لا تخفى .

ذكر بعض المشاهد بشيراز

فمنها مشهد أحمد بن موسى أخى علىّ الرضا بن موسى بن جعفر بن محمد ابن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب (رضى الله تعالى عنهم). وهو مشهد معظم عند أهل شيراز، يتبركون به ويتوسلون إلى الله تعالى بفضله، وبنت عليه طاش خاتون أم السلطان أبى إسحاق مدرسة كبيرة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر. والقراء يقرءون القرآن على التربة دائما. ومن عادة الخاتون أنها تأتى إلى هذا المشهد فى كل ليلة اثنين، ويجتمع فى تلك الليلة القضاة والفقهاء والشرفاء. وشيراز من أكثر بلاد الله شرفاء، سمعت من الثقات: أن الذين لهم بها المرتبات من الشرفاء ألف وأربعمائة ونيِّف، بين صغير وكبير. ونقيبهم عضد الدين الحسينى. فإذا حضر القوم بالمشهد المبارك ختموا القرآن قراءة فى المصاحف، وقرأ القرّاء بالأصوات الحسنة، وأتى بالطعام والفواكه والحلواء. فإذا أكل القوم وعظ الواعظ. ويكون ذلك كله من بعد صلاة الظهر إلى العشىّ، والخاتون فى غرفة مطلة على المسجد لها شباك. ثم تضرب الطبول والأنقار والبوقات على باب التربة كما يفعل عند أبواب الملوك[1]. ومن المشاهد بها مشهد الإمام القطب الولىّ أبى عبد الله بن خفيف، المعروف عندهم بالشيخ، وهو قدوة بلاد فارس كلها، ومشهده معظم عندهم يأتون إليه بكرة وعشيا. وقد رأيت القاضى مجد الدين أتاه زائرا. وتأتى الخاتون إلى هذا المسجد فى كل ليلة جمعة. وعليه زاوية ومدرسة، ويجتمع به القضاة والفقهاء، ويفعلون به كفعلهم فى مشهد أحمد بن موسى. وقد حضرت الموضعين جميعا. وتربة الأمير محمد شاه ينجو والد السلطان أبى إسحاق متصلة بهذه التربة. والشيخ أبو عبد الله ابن خفيف كبير القدر فى الأولياء شهير الذكر، وهو الذى أظهر طريق جبل سرنديب بجزيرة سيلان من أرض الهند.

(١) البوقات جمع بوق (كما فى المصباح) وأما الأنقار فضرب من الأبواق، غير عربية، ولعلهم أخذوها من النقير وهو شبه الصفير كما فى القاموس.

كرامة لهذا الشيخ[1]

يحكى أنه قصد مرة جبل سرنديب ومعه نحو ثلاثين من الفقراء ، فأصابتهم مجاعة فى طريق الجبل حيث لا عمارة ، وتاهوا عن الطريق ، وطلبوا من الشيخ أن يأذن لهم فى القبض على بعض الفيلة الصغار ، وهى فى ذلك المحل كثيرة جداً ، ومنه تحمل إلى حضرة ملك الهند . فنهاهم الشيخ عن ذلك ، فغلب عليهم الجوع ، فتعدّوا قول الشيخ وقبضوا على فيل صغير منها ، وذكوه وأكلوا لحمه ، وامتنع الشيخ من أكله . فلما ناموا تلك الليلة اجتمعت الفيلة من كل ناحية وأتت إليهم فكانت تشمّ الرجل منهم وتقتله ، حتى أتت على جميعهم ، وشمت الشيخ ولم تتعرض له . وأخذه فيل منها ولفّ عليه خُرْطومه ورمى به على ظهره ، وأتى به الموضع الذى فيه العمارة . فلما رآه أهل تلك الناحية عجبوا منه واستقبلوه ليتعرفوا أمره . فلما قَرُبَ منهم أمسكه الفيل بخرطومه ووضعه عن ظهره إلى الأرض بحيث يرونه ، فجاءوا إليه وتمسحوا به ، وذهبوا به إلى ملكهم فعرفوه خبره (وهم كفار) ، وأقام عندهم أياما .

وذلك الموضع على خَوْر يسمى خور الخَيْزُران . وبذلك الموضع مغاص الجوهر . ويذكر أن الشيخ غاص فى بعض تلك الأيام بحضر ملكهم وخرج وقد ضم يديه معاً ، وقال للملك : اختر ما فى إحداهما ، فاختار ما فى اليمنى ، فرمى إليه بما فيها ، وكانت ثلاثة أحجار من الياقوت لا مثل لها ، وهى عند ملوكهم فى التاج يتوارثونها . وقد دخلتُ جزيرة سيلان هذه . وهم مقيمون على الكفر ، إلا أنهم يعظمون فقراء المسلمين ويؤوونهم إلى دورهم ، ويطعمونهم الطعام ، ويكونون فى بيوتهم بين أهليهم وأولادهم ،

(١) أشبه بالخرافات .

خلافا لسائر كفار الهند ، فإنهم لايقربون المسلمين ولا يطعمونهم فى آنيتهم ولا يسقونهم فيها ، مع أنهم لايؤذونهم ولايهْجونهم . ولقد كنا نُضطر إلى أن يطبخ لنا بعضهم اللحم فيأتون به فى قدورهم ويقعدون على بعد منا ، ويأتون بأوراق الموز فيجعلون عليها الأرز (وهو طعامهم) ، ويصبون عليه الكوشان (وهو الإدام) ويذهبون ، فنأكل منه ، وما فضل عنا تأكله الكلاب والطير . وإن أكل منه الولد الصغير الذى لا يعقل ضربوه وأطعموه رَوْث البقر ، وهو الذى يطهر ذلك فى زعمهم .

(رجع) وهذه المشاهد كلها بداخل المدينة ، وكذلك معظم قبور أهلها ، فإن الرجل منهم يموت ولده أو زوجه ، فيتخذ له تربة من بعض بيوت داره ويدفنه هناك ، ويفرش البيت بالحُصُر والبسط ، ويجعل الشمع الكثير عند رأس الميت ورجليه ، ويصنع للبيت بابا إلى ناحية الزُقاق ، وشُبّاك حديد ، فيدخل منه القراء يقرءون بالأصوات الحسان . وليس فى معمور الأرض أحسن أصواتا بالقرآن من أهل شيراز . ويقوم أهل الدار بالتربة ويَفْرُشونها ، ويوقدون السُرُج بها ، فكأن الميت لم يبرح . وذكر لى أنهم يطبخون فى كل يوم نصيب الميت من الطعام ويتصدقون به عنه .

حكاية

مررت يوما ببعض أسواق مدينة شيراز ، فرأيت بها مسجدا متقن البناء جميل الفرش ، وفيه مصاحف موضوعة فى خرائط حرير موضوعة فوق كرسى . وفى الجهة الشمالية من المسجد زاوية فيها شباك مفتوح إلى جهة السوق ، وهنالك شيخ جميل الهيئة واللباس وبين يديه مصحف يقرأ فيه . فسلمت عليه وجلست إليه ، فسألنى عن مَقْدَمى فأخبرته ، وسألته عن شأن هذا المسجد ، فأخبرنى أنه هو الذى عمره ووقف عليه أوقافا كثيرة للقراء وسواهم ،

وأن تلك الزاوية التى جلست إليه فيها هى موضع قبره إن قضى الله موته بتلك المدينة . ثم رفع بساطا كان تحته ، والقبر مغطى عليه ألواح خشب ، وأرانى صندوقا كان بإزائه فقال : فى هذا الصندوق كفنى وحَنُوطى ، ودراهم كنت استأجرت بها نفسى فى حفر بئر لرجل صالح ، فدفع لى هذه الدراهم ، فتركتها لتكون نفقة مُوَاراتى ، وما فَضَل منها يتصدق به ؛ فعجبت من شأنه ، وأردت الانصراف ، فحلف علىّ وأضافنى بذلك الموضع .

ومن المشاهد بخارج شيراز قبر الشيخ الصالح المعروف بالسعدى ، وكان أشعر أهل زمانه باللسان الفارسى ، وربما ألمع فى كلامه بالعربى . وله زاوية كان قد عمرها بذلك الموضع حسنة ، بداخلها بستان مليح . وهى بقرب رأس النهر الكبير المعروف بركن آباد . وقد صنع الشيخ هنالك أحواضا صغارا من المرمر لغسل الثياب ، فيخرج الناس من المدينة لزيارته ، ويأكلون من سِمَاطه ، ويغسلون ثيابهم بذلك النهر وينصرفون . وكذلك فعلت عنده (رحمه الله) . وبمقربة من هذه الزاوية زاوية أخرى تتصل بها مدرسة مبنية على قبر شمس الدين السِّمْنانى ، وكان من الأمراء الفقهاء ، ودفن هنالك بوصيّة منه بذلك . وبمدينة شيراز من كبار الفقهاء الشريف مُجِيد الدين ، وأمره فى الكرم عجيب ، وربما جاد بكل ما عنده ، وبالثياب التى كانت عليه ، ويلبس مرقّعة له ، فيدخل عليه كبراء المدينة فيجدونه على تلك الحال فيكسونه . ومرتبه فى كل يوم من السلطان خمسون دينارا دراهم . ثم كان خروجى من شيراز برسم زيارة قبر الشيخ الصالح أبى إسحاق الكازُرُونى بكازَرُون ، وهى على مسيرة يومين من شيراز ، فنزلنا أول يوم ببلاد الشُول ، وهم طائفة من الأعاجم يسكنون البريّة ، وفيهم الصالحون .

كرامة لبعضهم

كنت يوما ببعض المساجد بشيراز، وقد قعدت أتلو كتاب الله عز وجل إثر صلاة الظهر، فخطر بخاطرى أنه لو كان لى مصحف كريم لتلوت فيه، فدخل علىّ فى أثناء ذلك شاب وقال لى بكلام قوى : خذ! فرفعت رأسى إليه فألقى فى حجرى مصحفا كريما وذهب عنى، فختمته ذلك اليوم قراءة، وانتظرته لأرده له فلم يعد إلىّ ، فسألت عنه فقيل لى : ذلك بُهْلول الشُّولى ، ولم أره بعد .

ووصلنا فى عشى اليوم الثانى إلى كازَرُون ، فقصدنا زاوية الشيخ أبى إسحاق (نفع الله به) وبتنا بها تلك الليلة . ومن عادتهم أن يطعموا الوارد كائنا من كان من الهريسة المصنوعة من اللحم والقمح والسمن ، وتؤكل بالرُّقاق . ولا يتركون الوارد عليهم للسفر حتى يقيم فى الضيافة ثلاثة أيام ، ويعرض على الشيخ الذى بالزاوية حوائجه، ويذكرها الشيخ للفقراء الملازمين للزاوية، وهم يزيدون على مائة، منهم المتزوجون ومنهم الأعزاب المتجردون، فيختمون القرآن ويذكرون الذكر، ويدعون له عند ضريح الشيخ أبى إسحاق، فتقضى حاجته باذن الله . وهذا الشيخ أبو إسحاق معظم عند أهل الهند والصين . ومن عادة ركاب بحر الصين أنهم إذا تغير عليهم الهواء وخافوا اللصوص نذروا لأبى إسحاق نذورا وكتب كل منهم على نفسه ما نذره ، فإذا وصلوا بر السلامة صعد خدام الزاوية إلى المركب وأخذوا من كل ناذر نذره[1] . وما من مركب يأتى من الصين أو الهند إلا وفيه آلاف من الدنانير، فيأتى الوكلاء من جهة خادم الزاوية فيقبضون ذلك . ومن الفقراء من يأتى طالبا صدقة الشيخ، فيكتب له أمر بها، وفيه علامة الشيخ منقوشة

(١) مثل هذه النذور غير شرعى، كما نبهنا على ذلك فى الحواشى . وقراءة القرآن على الأضرحة، والدعاء عندها من البدع السيئة .

فى قالب من الفضة ، فيضعون القالب فى صِبْغ احمر ويلصقونه بالأمر ، فيبقى أثر الطابع فيه ، ويكون مُضَمَّنه أن من عنده نذر للشيخ أبى إسحاق فليعط منه فلانا كذا ، فيكون الأمر بالألف والمائة وما بين ذلك ودونه على قدر الفقير . فإذا وَجَد من عنده شيء من النذر قبض منه وكتب له رسما فى ظهر الأمر بما قبضه . ولقد نذر ملك الهند مرة للشيخ أبى إسحاق عشرة آلاف دينار ، فبلغ خبرها فقراء الزاوية ، فأتى أحدهم إلى الهند وقبضها وانصرف بها إلى الزاوية .

ثم سافرنا من كازَرُون إلى مدينة الزَّيْدَيْن . وسميت بذلك لأن فيها قبر زيد بن ثابت وقبر زيد بن أرقم الأنصاريين ، صاحبى رسول الله (صلى الله عليه وسلم تسليما ورضى الله عنهما) . وهى مدينة حسنة كثيرة البساتين والمياه ، مليحة الأسواق عجيبة المساجد ، ولأهلها صلاح وأمانة وديانة . ومن أهلها القاضى نور الدين الزَّيْدانى ، وكان ورد على أهل الهند فولى القضاء منها بِذِيبة المَهَل[1] ، وهى جزائر كثيرة ملكها جلال الدين بن صلاح الدين صالح ، وتزوج بأخت هذا الملك (وسيأتى ذكره وذكر بنته خديجة التى تولت الملك بعده بهذه الجزائر) . وبها توفى القاضى نور الدين المذكور . ثم سافرنا منها الى الحُوَيْزاء ، وهى مدينة صغيرة يسكنها العجم ، بينها وبين البصرة مسيرة أربع ، وبينها وبين الكوفة مسيرة خمس . ومن أهلها الشيخ الصالح العابد جمال الدين الحُوَيْزائى ، شيخ خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة . ثم سافرنا منها قاصدين الكوفة فى برية لاماء بها إلا فى موضع واحد يسمى الطُّرْفَاوى ، وردناه فى اليوم الثالث من سفرنا ، ثم وصلنا بعد اليوم الثانى من ورودنا عليه إلى مدينة الكوفة .

---

(١) جزائر ملديف ، كما سيأتى .

مدينة الكوفة

وهى إحدى أمهات البلاد العراقية، المتميزة فيها بفضل المزية، مَثْوَى الصحابة والتابعين، ومنزل العلماء والصالحين، وحضرة على بن أبى طالب أمير المؤمنين. إلا أن الخراب قد استولى عليها بسبب أيدى العدوان التى امتدت إليها، وفسادها من عرب خفاجة المجاورين لها، فإنهم يقطعون طريقها. ولا سور عليها، وبناؤها بالاجر، وأسواقها حسان، وأكثر ما يباع فيها التمر والسمك. وجامعها الأعظم جامع كبير شريف، بلاطاته سبعة قائمة على سوارى حجارة ضخمة منحوتة، قد صنعت قطعا ووضع بعضها على بعض، وأفرغت بالرصاص، وهى مفرطة الطول. وبهذا المسجد آثار كريمة. فمنها بيت إزاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة، يقال إن الخليل صلوات الله عليه كان له مصلى بذلك الموضع، وعلى مقربة منه محراب محلّق عليه بأعواد الساج مرتفع، وهو محراب علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، وهنالك ضربه الشقى ابن مُلْجَم، والناس يقصدون الصلاة به. وفى الزاوية من آخر هذا البلاط مسجد صغير محلّق عليه أيضا بأعواد الساج، يذكر أنه الموضع الذى فار منه التنور حين طوفان نوح (عليه السلام). وفى ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيت نوح (عليه السلام). وإزاءه بيت يزعمون أنه متعبد إدريس (عليه السلام). ويتصل بذلك فضاء متصل بالجدار القبلى من المسجد يقال إنه موضع إنشاء سفينة نوح (عليه السلام). وفى آخر هذا الفضاء دار علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه)، والبيت الذى غسل فيه. ويتصل به بيت يقال أيضا إنه بيت نوح (عليه السلام). والله أعلم بصحة ذلك كله؟ وفى الجهة الشرقية من الجامع بيت مرتفع يصعد إليه، فيه قبر مُسْلم بن عَقيل ابن أبى طالب (رضى الله عنه). وبمقربة منه خارج المسجد قبر عاتكة وسُكَيْنَة بنت الحسين (عليه السلام). وأما قصر الإمارة بالكوفة الذى بناه سعد بن أبى وقّاص (رضى الله عنه) فلم يبق منه إلا أساسه.

والفُرات من الكوفة على مسافة نصف فرسخ في الجانب الشرقي منها ، وهو منتظم بحدائق النخل الملتفة المتصل بعضها ببعض . ورأيت بغربي جبانة الكوفة موضعا مسوّدا شديد السواد في بسيط أبيض ، فأخبرت أنه قبر الشقيّ ابن مُلْجَم ، وأن أهل الكوفة يأتون في كل سنة بالحطب الكثير فيوقدون النار على موضع قبره سبعة أيام . وعلى قرب منه قبة أخبرت أنها على قبر المختار بن أبي عبيد .

ثم رحلنا ونزلنا بئر مَلَّاحة ، وهي بلدة حسنة بين حدائق نخل . ونزلت بخارجها وكرهت دخولها ، لأن أهلها روافض . ورحلنا منها الصبح فنزلنا مدينة الحِلّة وهي مدينة كبيرة مستطيلة مع الفرات وهو بشرقيها ، ولها أسواق حسنة جامعة للمرافق والصناعات ، وهي كثيرة العمارة ، وحدائق النخل منتظمة بها داخلا وخارجا ، ودورها بين الحدائق ، ولها جسر عظيم معقود على مراكب متصلة منتظمة فيما بين الشطين ، تَحُف بها من جانبيها سلاسل من حديد مربوطة في كلا الشطين إلى خشبة عظيمة مثبتة بالساحل . وأهل هذه المدينة كلها إماميّة إثنا عشرية ، وهم طائفتان : إحداهما تعرف بالأكراد ، والأخرى تعرف بأهل الجامِعَيْن . والفتنة بينهم متصلة والقتال قائم أبدا . وبمقربة من السوق الأعظم بهذه المدينة مسجد على بابه ستر حرير مسدول . وهم يسمونه مشهد صاحب الزمان . ومن عاداتهم : أنه يخرج في كل ليلة مائة رجل من أهل المدينة عليهم السلاح وبأيديهم سيوف مشهورة ، فيأتون أمير المدينة بعد صلاة العصر ، فيأخذون منه فرسا مسرجا ملجما أو بغلة كذلك ، ويضربون الطبول والأنقار والبوقات أمام تلك الدابة ، ويتقدمها خمسون منهم ويتبعها مثلهم ، ويمشي آخرون عن يمينها وشمالها ، ويأتون مشهد صاحب الزمان ، فيقفون بالباب ويقولون : باسم الله ياصاحب الزمان ، باسم الله اخرج ! قد ظهر الفساد وكثر الظلم ؛ وهذا أوان خروجك فَيَفْرُقُ

الله بك بين الحق والباطل . ولايزالون كذلك وهم يضربون الأبواق والأطبال والأنقار إلى صلاة المغرب. وهم يقولون : إن محمد بن الحسن العسكرى دخل ذلك المسجد وغاب فيه، وإنه سيخرج. وهو الإمام المنتظر عندهم. وقد كان غلب على مدينة الحِلّة، بعد موت السلطان أبى سعيد، الأمير أحمد بن رُمَيْثَة ابن أبى نُمَىّ أمير مكة، وحكمها أعواما. وكان حسن السيرة يحمده أهل العراق، إلى أن غلب عليه الشيخ حسن سلطان العراق، فعذبه وقتله، وأخذ الأموال والذخائر التى كانت عنده .

ثم سافرنا منها إلى مدينة (كَرْبَلاء) مشهد الحسين بن علىّ (عليهما السلام). وهى مدينة صغيرة تَحُفُّ بها حدائق النخل، ويسقيها ماء الفرات. والروضة المقدسة داخلها، وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر. وعلى باب الروضة الحجاب والقَوَمة، لا يدخل أحد إلا عن إذنهم، فيقبل العتبة الشريفة (وهى من الفضة) . وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة، وعلى الأبواب أستار الحرير. ثم سافرنا منها إلى بغداد .

مدينة بغداد

مدينة دار السلام، وحضرة الإسلام، ذات القدر الشريف، والفضل المنيف، مَثْوى الخلفاء، ومقر العلماء . قال أبو الحسين بن جبير (رضى الله عنه) : وهذه المدينة العتيقة وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية، ومثابة الدعوة الإمامية القرشية، فقد ذهب رسمها، ولم يبق إلا اسمها . وهى بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها، والتفات أعين النوائب إليها، كالطلل الدارس، أو تمثال الخيال الشاخص، فلا حسن فيها يستوقف البصر، إلا دِجلتها التى هى بين شرقيها وغربيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين،

أو العقد المنتظم بين لَبَّتين ، فهى تردها ولا تظمأ ، وتتطلع منها فى مرآة صقيلة لاتصدأ . قال ابن جزى : وكأن أبا تمام حبيب بن أوْس اطلع على ما آل إليه أمرها حين قال فيها :

لقد أقام على بغداد ناعيها ... فليبكها لخراب الدهر باكيها
كانت على مائها (والحرب موقدة ... والنار تطفأ) حسنا فى نواحيها
تُرْجى لها عودة فى الدهر صالحة ... فالآن أضمر منها اليأس راجيها
مثل العجوز التى ولت شبيبتها ... وبان عنها جمال كان يُحْظِيها

وقد نظم الناس فى مدحها وذكر محاسنها فأطنبوا ، ووجدوا مكان القول ذا سعة فأطالوا وأطابوا ، وفيها قال الإمام القاضى أبو محمد عبدالوهاب بن علىّ ابن نصر المالكى البغدادى ، وأنشدنيه والدى (رحمه الله) مرات :

طِيب الهواء ببغدادٍ يُشَوِّقنى ... قربا إليها ، وإن عاقت مقادير
وكيف أرحل عنها اليوم إذ جمعت ... طيب الهواءين ممدود ومقصور

وفيها يقول أيضا (رحمه الله تعالى ورضى عنه) :

سلام على بغداد فى كل موطن ... وحق لها منى السلام المضاعفُ
فوالله ما فارقتها عن قِلًى لها ... وإنى بشطىْ جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت علىّ برُحْبِها ... ولم تكن الأقدار فيها تساعف
وكانت كخِلّ كنت أهوى دنوه ... وأخلاقه تنأى به وتخالف

وفيها يقول أيضا مغاضبا لها ، وأنشدنيه والدى (رحمه الله) غير ما مرة :

بغداد دار لأهل المال واسعة ... وللصعاليك دار الضنك والضيق
ظَلِلْت أمشى مُضاعا فى أزقتها ... كأننى مصحف فى بيت زنديق

ولبعض نساء بغداد فى ذكرها :

آهًا على بغـــدادها وعراقها ... وظبائها والسحر فى أحداقها
ومَجالها عنـد الفرات بأوجه ... تبـــدو أهلّتها على أطواقها
متبخترات فى النعـــيم كأنما ... خُلِق الهوى العُذْرِىّ من أخلاقها
نفسى الفداء لها فأىّ محاسن ... فى الدهر تشرق من سنا إشراقها

(رجع) ولبغداد جسران اثنان معقودان على نحو الصفة التى ذكرناها فى جسر مدينة الحِلَّة ، والناس يَعْبُرونهما ليلا ونهارا رجالا ونسـاء ، فهم فى ذلك فى نزهة متصلة . وببغداد من المساجد التى يخطب فيها وتقام فيها الجمعة أحد عشر مسجدا ، منها بالجانب الغربى ثمـانية ، وبالجانب الشرقى ثلاثة ؛ والمساجد سواها كثيرة جدا ، وكذلك المدارس إلا أنها خَرِبَتْ . وحمامات بغداد كثيرة ، وهى من أبدع الحمامات . وأكثرها مطلية بالقار مُسَطَّحة به ، فيخيّل لرائيه أنه رُخام أسود . وهذا القار يجلب من عين بين الكوفة والبصرة تَنْبَع أبدا به ، ويصير فى جوانبها كالصلصال فيجرف منها ويجلب إلى بغداد . وفى كل حمـام منها خَلَوات كثيرة ، كل خلوة منها مفروشة بالقار ، مطلىّ نصف حائطها مما يلى الأرض به ، والنصف الأعلى مطلى بالجِصّ الأبيض الناصع ؛ فالضدان بهـا مجتمعان متقابل حسنهما . وفى داخل كل خلوة حوض من الرخام فيه أنبوبان ، أحدهما يجرى بالمـاء الحار والآخر بالمـاء البارد ؛ فيدخل الإنسـان الخلوة منها منفردا لا يشاركه أحد إلا إن أراد ذلك . وفى زاوية كل خلوة أيضا حوض آخر للاغتسال ، فيه أيضا أنبوبان يجريان بالحـارّ والبارد . وكل داخل يعطى ثلاثا من الفوط : إحْداها يتَّزر بها عند دخوله ، والأخرى يتَّزر بها عند خروجه ، والأخرى يَتَنَشَّف بها المـاء عن جسده . ولم أر هـــذا الإتقان كله فى مدينة سوى بغداد ؛ وبعض البلاد تقاربهـا فى ذلك .

ذكر الجانب الغربىّ من بغداد

الجانب الغربى منها هو الذى عمر أولا ، وهو الآن خراب أكثره . وعلى ذلك فقد بقى منه ثلاث عشرة مَحَلّة ، كل محلة كأنها مدينة، بها الحمامان والثلاثة . وفى ثمان منها المساجد الجامعة . ومن هذه المَحَلّات محلة باب البصرة ، وبها جامع الخليفة أبى جعفر المنصور (رحمه الله) ، والمارَسْتان فيما بين محلة باب البصرة ومحلة الشارع على دِجْلة ، وهو قصر كبير خرب، بقيت منه الآثار . وفى هذا الجانب الغربى من المشاهد قبر معروف الكَرْخى (رضى الله عنه) ، وهو فى محلة باب البصرة ، وبطريق باب البصرة مشهد حافل البناء فى داخله قبر متسع السَّنام عليه مكتوب : هذا قبر عَوْن ، من أولاد علىّ بن أبى طالب . وفى هذا الجانب قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، والد على بن موسى الرِّضا .

ذكر الجانب الشرقىّ منها

وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق عظيمة الترتيب ، وأعظم أسواقها سوق يعرف بسوق الثلاثاء ، كل صناعة فيه على حدة . وفى وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التى صارت الأمثال تضرب بحسنها . وفى آخره المدرسة المستنصِرية ، ونسبتها إلى أمير المؤمنين المستنصِر بالله أبى جعفر ابن أمير المؤمنين الظاهر ابن أمير المؤمنين الناصر . وبها المذاهب الأربعة ، لكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس ، وجلوس المدرس فى قبة خشب صغيرة على كرسى عليه البُسُط . ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار، لابسا ثياب السواد مُعْتَمّا ، وعلى يمينه ويساره مُعِيدان يعيدان كل ما يمليه ؛ وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة . وفى داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ، ودار الوضوء . وبهذه الجهة الشرقية

من المساجد التى تقام فيها الجمعة ثلاثة : أحدها جامع الخليفة وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم ، وهو جامع كبير فيه سقايات ومطاهر كثيرة للوضوء والغسل . لقيت بهذا المسجد الشيخ الإمام العالم الصالح مُسْنَد العراق، سراج الدين أباحفص عمر بن علىّ بن عمر القَزْوينى . وسمعت عليه فيه جميع مُسْنَد أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهْرام الدَّارِمى ، وذلك فى شهر رجب الفرد عام سبعة وعشرين وسبعمائة .

والجامع الثانى جامع السلطان، وهو خارج البلد، وتتصل به قصور تنسب للسلطان ، والجامع الثالث جامع الرُّصافة . وبينه وبين جامع السلطان نحو الميل .

ذكر قبور الخلفاء ببغداد ، وقبور بعض العلماء والصالحين بها

وقبور الخلفاء العباسيين (رضى الله عنهم) بالرُّصافة ، وعلى كل قبر منها اسم صاحبه ، فمنهم قبر المهدى ، وقبر الهادى ، وقبر الأمين ، وقبر المعتصم ، وقبر الواثق ، وقبر المتوكل ، وقبر المنتصر ، وقبر المستعين، وقبر المعتز، وقبر المهتدى، وقبر المعتمد، وقبر المعتضد، وقبر المكتفى، وقبر المقتدر، وقبر القاهر، وقبر الراضى، وقبر المتَّقِى ، وقبر المستكفى، وقبر المطيع لله، وقبر الطائع ، وقبر القائم وقبر القادر، وقبر المستظهر، وقبر المسترشد، وقبر الراشد، وقبر المقتفى ، وقبر المستنجد وقبر المستضىء، وقبر الناصر، وقبر الظاهر، وقبر المستنصر، وقبر المستعصم ، وهو آخرهم . وعليه دخل التتر بغداد بالسيف وذبحوه بعد أيام من دخولهم ، وانقطع من بغداد اسم الخلافة العباسية، وذلك فى سنة أربع وخمسين وستمائة . وبقرب الرُّصافة قبر الإمام أبى حنيفة (رضى الله عنه)، وعليه قبة عظيمة، وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر ، وليس بمدينة بغداد اليوم زاوية يطعم الطعام فيها ما عدا هذه الزاوية . فسبحان مبيد الأشياء ومغيرها . وبالقرب منها قبر الإمام أبى عبد الله أحمد بن حنبل (رضى الله عنه) ولا قبة عليه .

ويذكر أنها بنيت على قبره مرارا فتهدمت بقدرة الله تعالى . وقبره عند أهل بغداد معظم ، وأكثرهم على مذهبه . وبالقرب منه قبر أبى بكر الشِّبْلى، من أئمة المتصوفة (رحمه الله) ، وقبر سَرِىّ السَّقَطِى ، وقبر بِشْر الحافى ، وقبر داود الطائى ، وقبر أبى القاسم الجُنَيْد (رضى الله عنهم أجمعين). وأهل بغداد لهم يوم فى كل جمعة لزيارة شيخ من هؤلاء المشايخ ، ويوم لشيخ آخر يليه ، هكذا إلى آخر الأسبوع ؛ وببغداد كثير من قبور الصالحين والعلماء (رضى الله تعالى عنهم) . وهذه الجهة الشرقية من بغداد ليس بها فواكه ، وإنما تجلب إليها من الجهة الغربية ، لأن فيها البساتين والحدائق . ووافق وصولى إلى بغداد كون ملك العراق بها ، فلنذكره هاهنا :

ترتيب ملك العراق فى رحيله

(ولنعد إلى ما كنا بسبيله) . ثم خرجت من بغداد فى مَحَلَّة[١] السلطان أبى سعيد ، وغرضى أن أشاهد ترتيب ملك العراق فى رحيله ونزوله وكيفية تنقله وسفره . وعاداتهم أنهم يرحلون عند طلوع الفجر وينزلون عند الضحا . وترتيبهم أنه يأتى كل أمير من الأمراء بعسكره وطبوله وأعلامه ، فيقف فى موضع لا يتعداه ، قد عين له إما فى الميمنة أو الميسرة ، فإذا توافوا جميعا وتكاملت صفوفهم ، ركب الملك وضربت طبول الرحيل وبُوقاته وأنقاره ، وأتى كل أمير منهم فسلم على الملك وعاد إلى موقفه . ثم يتقدم أمام الملك الحجاب والنقباء ، ثم يليهم أهل الطرب ، وهم نحو مائة رجل ، عليهم الثياب الحسنة وتحتهم مراكب السلطان . وأمام أهل الطرب عشرة من الفُرْسان قد تقلدوا عشرة من الطبول ، وخمسة من الفرسان لديهم خمس صرنايات[٢] فيضربون تلك الأطبال والصرنايات ، ثم يمسكون . ويغنى عشرة من أهل الطرب نوْبتهم . فإذا

(١) المراد هنا : فى حاشيته وما يتبعها من آلات السفر وعدده . تسمية إصطلاحية لا لغوية .

(٢) الصرناية ضرب من الناى ، غير عربية .

قضوها ضربت تلك الأطبال والصرنايات ، ثم أمسكوا ، وغنى عشرة آخرون نوبتهم ، هكذا إلى أن تتم عشر نوبات ، فعند ذلك يكون النزول . ويكون عن يمين السلطان وشماله حين سيره كبار الأمراء وهم نحو خمسين ، ومن ورائه أصحاب الأعلام والأطبال والأنقار والبوقات ، ثم مماليك السلطان ، ثم الأمراء على مراتبهم . وكل أمير له أعلام وطبول و بوقات ، ويتولى ترتيب ذلك كله أمير الجنادرة[1] . وسافرت فى هذه المحلة عشرة أيام ، ثم صحبت الأمير علاء الدين محمدا إلى بلدة تبريز . وكان من الأمراء الكبار الفضلاء ، فوصلنا بعد عشرة أيام إلى مدينة تبْريز[2] ، ونزلنا بخارجها فى موضع يعرف بالشام ، وهنالك قبر قازان ملك العراق ، وعليه مدرسة حسنة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر ، من الخبز واللحم والأرز المطبوخ بالسمن والحلواء ؛ وأنزلنى الأمير بتلك الزاوية ، وهى ما بين أنهار متدفقه وأشجار مورقة . وفى غد ذلك اليوم دخلت المدينة على باب يعرف بباب بغداد ، ووصلنا إلى سوق عظيمة تعرف بسوق قازان ، أحسن سوق رأيتها فى بلاد الدنيا ، كل صناعة فيها على حدة لا تخالطها أخرى . واجتزت بسوق الجوهريين ، فحار بصرى مما رأيته من أنواع الجواهر ، وهى بأيدى مماليك حسان الصور ، عليهم الثياب الفاخرة ، وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير ، وهم بين أيدى التجار يعرضون الجواهر . وبتنا ليلة بتبريز . ثم وصل بالغد أمر السلطان أبى سعيد إلى الأمير علاء الدين بأن يصل إليه ، فعدت معه . ولم ألق بتبريز أحدا من العلماء . ثم سافرنا إلى أن وصلنا محلة السلطان ، فأعلمه الأمير المذكور بمكانى ، وأدخلنى عليه ، فسألنى عن بلادى وكسانى وأركبنى . وأعلمه الأمير أنى أريد السفر إلى الحجاز الشريف ، فأمر لى بالزاد والركوب فى السبيل مع المحمل ، وكتب لى بذلك إلى أمير بغداد خواجه معروف .

(١) سبق شرح هذه الكلمة . (٢) بفتح التاء وكسرها .

العودة إلى بغداد

عدت إلى مدينة بغداد، واستوفيت ما أمر لى به السلطان، وكان قد بقى لأوان سفر الركب أزيد من شهرين، فظهر لى أن أسافر إلى المَوْصِل وديار بكر، لاشاهد تلك البلاد وأعود إلى بغداد فى حين سفر الركب، فأتوجه إلى الحجاز الشريف. فخرجت من بغداد إلى منزل على نهر دُجَيْل، وهو يتفرع عن دِجْلة فيسقى قرى كثيرة. ثم نزلنا بعد يومين بقرية كبيرة تعرف بِحَرْبة، مخصبة فسيحة. ثم رحلنا فنزلنا موضعا على شط دجلة بالقرب من حصن يسمى المعشوق، وهو مبنى على دِجْلة. وفى العُدْوة الشرقية من هذا الحصن مدينة (سُرَّ من رأى)، وتسمى أيضا سَامَرَّا. وقد استولى الخراب على هذه المدينة فلم يبق منها إلا القليل، وهى معتدلة الهواء رائقة الحسن على دُروس معالمها. وفيها أيضا مشهد صاحب الزمان كما بالحِلَّة. ثم سرنا منها مرحلة ووصلنا مدينة تَكْرِيت، وهى مدينة كبيرة فسيحة الأرجاء مليحة الأسواق كثيرة المساجد، وأهلها موصوفون بحسن الأخلاق؛ ودِجْلة فى الجهة الشمالية منها؛ ولها قلعة حصينة على شطّ دجلة، والمدينة عتيقة البناء عليها سور يُطيف بها. ثم رحلنا منها مرحلتين، ووصلنا إلى قرية تعرف بالعَقْر على شط دِجْلة، وبأعلاها رَبْوة كان بها حصن، وبأسفلها الخان المعروف بخان الحديد، له أبراج، وبناؤه حافل، والقرى والعمارة متصلة من هنالك إلى المَوْصِل.

ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالقَيَّارة، بمقربة من دجلة، وهنالك أرض سوداء فيها عيون تَنْبَع بالقار، ويصنع له أحواض ويجتمع فيها؛ فتراه شبه الصلصال على وجه الأرض، حالك اللون صقيلا رطبا، وله رائحة طيبة. وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطُّحْلُب الرقيق، فتقذفه إلى جوانبها فيصير أيضا قارا. وبمقربة من هذا الموضع عين كبيرة، فإذا أرادوا نقل القار منها أوقدوا عليها النار، فَتَنْشَفُ النارُ ما هنالك من رطوبة مائية، ثم يقطعونه قطعا وينقلونه. وقد تقدم لنا ذكر العين التى بين الكوفة والبصرة على هذا النحو. ثم سافرنا من هذه العيون مرحلتين ووصلنا بعدهما إلى الموصل.

مدينة المَوْصِل

وهى مدينة عتيقة كثيرة الخصب، وقلعتها المعروفة بالحَدْباء عظيمة الشأن، شهيرة الامتناع ، عليها سور محكم البنـاء مشيد البروج ، وتتصـل بهادور السلطان ، وقد فصل بينها و بين البلد شارع متصل مستطيل من أعلى البلد إلى أسفله . وعلى البلد سوران اثنان وثيقان أبراجهما كثيرة متقاربة ، وفى باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره. ولم أر فى أسوار البلاد مثله إلا السور الذى على مدينة دِهْلى حضرة ملك الهند . وللموصل رَبَض[1] كبير فيه المساجد والحمامات والفنادق والأسواق ، و به مسجد جامع على شط دِجْلة ، تدور به شبابيك حديد ، وتتصل به مَصَاطب تشرف على دجلة ، فى النهاية من الحسن والإتقان ، وأمامه مارَسْتان . و بداخل المدينة جامعان أحدهما قديم والآخر حديث . (وقيسارية) الموصل مليحة لها أبواب حديد ، ويدور بها دكاكين و بيوت بعضها فوق بعض متقنة البناء . و بهذه المدينـة مشهد جِرْجِيس النبى (عليه السلام) وعليه مسجد ، والقبر فى زاوية منه عن يمين الداخل إليه ، وهو فيما بين الجامع الجديد و باب الجسر ، وقد حصلت لنا زيارته والصلاة بمسجده والحمد لله تعالى .

وهنالك تلّ يونس (عليه السلام)، وعلى نحو ميل منه العين المنسوبة إليه، يقال إنه أمر قومه بالتطهر فيها ، ثم صعدوا التل ودعا ودعوا ، فكشف الله عنهم العذاب . و بمقربة منه قرية كبيرة يقرب منها خراب ، يقال إنه موضع المدينة المعروفة بنِينَوَى مدينة يونس (عليه السلام) ، وأثر السور المحيط بها ظاهر . وفى التل بنـاء عظيم ورِباط فيـه بيوت كثيرة ومقاصر ومطاهر وسِقايات ، يضم الجميع باب واحد . وفى وسط الرباط بيت عليه ستر حرير، وله باب مرصع ، يقال إنه الموضع الذى به موقف يونس (عليه السلام) . ومحراب المسجد الذى بهذا الرباط يقال إنه كان بيتَ مُتَعَبَّده (عليه السلام) .

(١) رَبَضُ المدينة ما حولها .

وأهل الموصل يخرجون فى كل ليلة جمعة إلى هذا الرباط يتعبدون فيه . وأهل الموصل لهم مكارم أخلاق ولين كلام وفضيلة ومحبة فى الغريب و إقبال عليه . وكان أميرها حين قدومى عليها السيد الشريف الفاضل علاء الدين علىّ بن شمس الدين محمد الملقب بِحَيْدر . وهو من الكرماء الفضلاء ، أنزلنى بداره وأجرى علىّ الإنفاق مدة مُقَامى عنده . وله الصدقات والإيثار المعروف . وكان السلطان أبو سعيد يعظمه ، وفوض إليه أمر هذه المدينة وما يليها .

و يركب فى موكب عظيم من مماليكه وأجناده . ووجوه أهل المدينة وكبراؤها يأتون للسلام عليه غُدُوّا وعشيا ، وله شجاعة ومهابة . ثم رحلنا من الموصل ونزلنا قرية تعرف بعين الرَّصَد ، وهى على نهر عليه جسر مبنى ، وبها خان كبير . ثم رحلنا ونزلنا قرية تعرف بالمُوَيْلِحة . ثم رحلنا منها ونزلنا جزيرة ابن عمر ، وهى مدينة كبيرة حسنة ، محيط بها الوادى ، ولذلك سميت جزيرة ، أكثرها خراب ، ولها سوق حسنة ومسجد عتيق مبنى بالحجارة ، محكم العمل ، وسورها مبنى بالحجارة أيضا ، وأهلها فضلاء لهم محبة فى الغرباء . و يوم نزولنا بها رأينا جبل الجُودِىّ ، المذكور فى كتاب الله عز وجل ، الذى استوت عليه سفينة نوح (عليه السلام) وهو جبل عال مستطيل .

ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا إلى مدينة نَصِيبِين ، وهى مدينة عتيقة متوسطة ، قد خَرِب أكثرها ، وهى فى بسيط أفيح فسيح ، فيه المياه الجارية ، والبساتين الملتفة ، والأشجار المنتظمة ، والفواكه الكثيرة ، وبها يصنع ماء الورد الذى لا نظير له فى الطيب . و يدور بها نهر يعطف عليها انعطاف السوار ، منبعه من عيون فى جبل قريب منها ، وينقسم انقساما فيتخلل بساتينها ، ويدخل منه نهر إلى المدينة فيجرى فى شوارعها ودورها ، ويخترق صحن مسجدها الأعظم ، وينصبّ فى صِهْرِيجين ، أحدهما فى وسط الصحن ،

والآخر عند الباب الشرقى ؛ وبهذه المدينة مَارَسْتان ، ومدرستان ، وأهلها أهل صلاح ودين وصدق وأمانة . ولقد صدق أبو نُوَاس فى قوله :

طابت نَصِيبينُ لى يوما وطبت لها * ياليت حظى من الدنيا نصيبينُ

قال ابن جُزَىّ : والناس يصفون مدينة نصيبين بفساد الماء والوخامة .

ثم رحلنا إلى مدينة سِنْجار ، وهى مدينة كبيرة كثيرة الفواكه والأشجار والعيون المطردة والأنهار، مبنية فى سفح جبل، تشبّه بدمشق فى كثرة أنهارها وبساتينها . ومسجدها الجامع مشهور البركة . ويدور به نهر ماء ويشقه . وأهل سِنْجار أكراد ولهم شجاعة وكرم .

وممن لقيته بها الشيخ الصالح العابد الزاهد عبد الله الكُرْدى، أحد المشايخ الكبار ، صاحب كرامات ، يذكر عنه أنه لا يفطر إلا بعد أربعين يوما ، ويكون إفطاره على نصف قرص من الشعير، لقيته برابطة بأعلى جبل سنجار، ودعالى وزودنى دراهم لم تزل عندى إلى أن سلبنى كفار الهنود إياها . ثم سافرنا إلى مدينة دارا ، وهى عتيقة كبيرة بيضاء المنظر لها قلعة مشرفة ، وهى الآن خراب لا عمارة بها ، وفى خارجها قرية معمورة، بها كان نزولنا . ثم رحلنا منها فوصلنا إلى مدينة مارِدِين ، وهى عظيمة فى سطح جبل، من أحسن مدن الإسلام وأبدعها وأتقنها وأحسنها أسواقا . وبها تصنع الثياب المنسوبة إليها من الصوف المعروف بالمِرْعِزّ(١) ، ولها قلعة شمّاء فى قُنّة جبلها . قال ابن جزى : قلعة ماردين هذه تسمى الشهباء ، وإياها عنى شاعر العراق صفى الدين عبد العزيز بن سَرَايا الحِلِّى بقوله فى سِمْطه :

فدع ربوع الحِلَّة الفيحاء * وازورّ بالعيس عن الزوراء
ولا تقف بالمَوْصِل الحدباء * إن شهاب القلعة الشهباء
محرق شيطان صروف الدهر

(١) الزغب الذى تحت شعر العنز ، كما سيأتى فى الحواشى

وقلعة حلب تسمى الشهباء أيضا. وهذه المُسَمَّطة بديعة، مدح بها الملك المنصور سلطان ماردين، وكان كريما شهير الصيت، ولى الملك بها نحو خمسين سنة، وأدرك أيام قازان ملك التتر، وصاهر السلطان خُذَابَنْدَه بابنته دنيا خاتُون.

ذكر سلطان ماردين فى عهد دخولى إليها

وهو الملك الصالح ابن الملك المنصور الذى ذكرناه آنفا، ورث الملك عن أبيه، وله المكارم الشهيرة، وليس بأرض العراق والشام ومصر أكرم منه: يقصده الشعراء والفقهاء فيجزل لهم العطايا جريا على سنن أبيه. قصده أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسى المَرْوِىّ الكفيف مادحا فأعطاه عشرين ألف درهم. وله الصدقات والمدارس والزوايا لإطعام الطعام. وله وزير كبير القدر وهو الإمام العالم وحيد الدهر وفريد العصر جمال الدين السِنْجارى، قرأ بمدينة تِبْرِيز وأدرك العلماء الكبار. وقاضى قضاته الإمام الكامل برهان الدين المَوْصِلى. وهو ينتسب إلى الشيخ الولى فتح الموصلى. وهذا القاضى من أهل الدين والورع والفضل، يلبس الخشن من ثياب الصوف الذى لاتبلغ قيمته عشرة دراهم، ويعتمّ بنحو ذلك. وكثيرا ما يجلس للأحكام بصحن مسجد خارج المدرسة، كان يتعبد فيه، فإذا رآه من لا يعرفه ظنه بعض خدام القاضى وأعوانه.

الرجوع إلى بغـــداد

ثم رحلت عائدا إلى بغداد فوصلت إلى مدينة الموصل التى ذكرناها، فوجدت ركبها بخارجها متوجهين إلى بغداد، وفيهم امرأة صالحة عابدة تسمى بالست زاهدة، وهى من ذرية الخلفاء، حجت مرارا وهى ملازمة الصوم. سلمت عليها وكنت فى جوارها، ومعها جملة من الفقراء يخدُمونها.

وفى هذه الوجهة توفيت (رحمة الله عليها) وكانت وفاتها بزَرُود، ودفنت هنالك. ثم وصلنا إلى مدينة بغداد فوجدت الحاج فى أهبة الرحيل، فقصدت أميرها معروف خواجه، فطلبت منه ما أمر لى به السلطان، فعين لى زاد أربعة من الرجال وماءهم، وكتب لى بذلك، ووجهه إلى أمير الركب، وهو البهلوان محمد الحُوَيْج فأوصاه بى. وكانت المعرفة بينى وبينه متقدمة فزادها تأكيدا. ولم أزل فى جواره وهو يحسن إلىّ ويزيدنى على ما أمر لى به. وأصابنى عند خروجنا من الكوفة إسهال، فكانوا ينزلوننى من أعلى المَحْمِل مرات كثيرة فى اليوم، والأمير يتفقد حالى ويوصى بى، ولم أزل مريضا حتى وصلت مكة حرم الله تعالى (زادها الله شرفا وتعظيما). وطفت بالبيت الحرام (كرمه الله تعالى) طواف القُدوم. وكنت ضعيفا بحيث أؤدى المكتوبة قاعدا، فطفت وسعيت بين الصفا والمروة راكبا على فرس الأمير الحُوَيج. ووقفنا تلك السنة يوم الاثنين، فلما نزلنا مِنًى أخذت فى الراحة والإبلال من مرضى.

ولما انقضى الحج أقمت مجاورا بمكة تلك السنة. وجاور فى تلك السنة من المصريين جماعة من كبرائهم: منهم تاج الدين بن الكُوَيْك، ونور الدين القاضى، وزين الدين بن الأصيل، وابن الخليلىّ، وناصر الدين الأسيوطى. وسكنت تلك السنة بالمدرسة المظفَّرية، وعافانى الله من مرضى فكنت فى أنعم عيش، وتفرغت للطواف والعبادة والاعتمار. وأتى فى أثناء تلك السنة حجاج الصعيد، وقدم معهم الشيخ الصالح نجم الدين الأَصْفُونى (وهى أول حجة حجها)، والأخوان علاء الدين علىّ وسراج الدين عمر، ابنا القاضى الصالح نجم الدين البالِسى قاضى مصر، وجماعة غيرهم. وفى منتصف ذى القَعدة وصل الأمير سيف الدين يَلْمَلَك، وهو من الفضلاء، ووصل فى صحبته جماعة من أهل طَنجة بلدى (حرسها الله).

وكانت وقفتنا فى تلك السنة فى يوم الجمعة من عام ثمان وعشرين . ولما انقضى الحج أقمت مجاورا بمكة (حرسها الله) سنة تسع وعشرين . وفى هذه السنة وصل أحمد ابن الأمير رُمَيْثة ومبارك ابن الأمير عُطَيْفة، من العراق، فى صحبة الأمير محمد الحُوَيج والشيخ زاده الحَرْباوى والشيخ دَانِيال . وأتوا بصدقات عظيمة للمجاورين وأهل مكة من قبل السلطان أبى سعيد ملك العراق ؛ وفى تلك السنة ذكر اسمه فى الخطبة بعد ذكر الملك الناصر، ودعوا له بأعلى قبة زمزم، وذكروا بعده سلطان اليمن الملك المجاهد نور الدين. ووقفنا تلك السنة وهى سنة تسع وعشرين يوم الثلاثاء. ولما انقضى الحج أقمت مجاورا بمكة حرسها الله سنة ثلاثين . وفى موسمها وقعت الفتنة بين أمير مكة عُطَيْفة وبين آيْدَمُور أمير جَنْدار الناصرى . وسبب ذلك : أن تجارا من أهل اليمن سُرقوا ، فتشكوا إلى آيدمور بذلك، فقال آيدمور لمبارك ابن الأمير عطيفة : ايت بهؤلاء السراق ؛ فقال : لا أعرفهم فكيف نأتى بهم ؟ وبعد فأهل اليمن تحت حكمنا ولا حكم عليهم لك ، إن سُرِق لأهل مصر والشام شىء فاطلبنى به . فشتمه آيدمور ، وضربه على صدره ، فسقط ووقعت عمامته عن رأسه، وغضب له عبيده . وركب آيدمور يريد عسكره، فلحقه مبارك وعبيده فقتلوه وقتلوا ولده . ووقعت الفتنة بالحرم ، وكان به الأمير أحمد بن عم الملك الناصر ؛ ورمى الترك بالنُّشاب فقتلوا امرأة قيل إنها كانت تحرض أهل مكة على القتال . وركب من بالركب من الأتراك وأميرهم خَاص تُرك ، فخرج إليهم القاضى والأئمة والمجاورون ، وفوق رءوسهم المصاحف، وحاولوا الصلح ، ودخل الحجاج مكة فأخذوا مالهم بها وانصرفوا إلى مصر .

وبلغ الخبر الملك الناصر فشقّ عليه ، وبعث العساكر إلى مكة ، ففر الأمير عطيفة وابنه مبارك ، وخرج أخوه رُمَيْثة وأولاده إلى وادى نخلة . فلما وصل العسكر إلى مكة بعث الأمير رميثة أحد أولاده يطلب له الأمان

ولولده فأمنوا . وأتى رُمَيْثة وكَفَنُه فى يده إلى الأمير فخلع عليه، وسلمت إليه مكة ، وعاد العسكر إلى مصر . وكان الملك الناصر (رحمه الله) حليما فاضلا . فخرجت فى تلك الأيام من مكة (شرفها الله تعالى) قاصدا بلاد اليمن فوصلت إلى حَدَّة، وهى نصف الطريق ما بين مكة وجُدَّة، ثم وصلت إلى جُدَّة وهى بلدة قديمة على ساحل البحر ، يقال : إنها من عمارة الفرس ، وبخارجها مصانع قديمة ، وبها جِباب للماء منقورة فى الحجر الصلد يتصل بعضها ببعض، تفوت الإحصاء كثرة . وكانت هذه السنة قليلة المطر، وكان الماء يجلب إلى جدة على مسيرة يوم ، وكان الحجاج يسألون الماء من أصحاب البيوت .

حكاية

ومن غريب ما اتفق لى بجدة أنه وقف على بابى سائل أعمى يطلب الماء، يقوده غلام ، فسلم علىّ وسمانى باسمى وأخذ بيدى، ولم أكن عرفته قط ولا عرفنى . فعجبت من شأنه . ثم أمسك أصبعى بيده وقال : أين الفَتَخة[1] (وهى الخاتم)؟ وكنت حين خروجى من مكة قد لقينى بعض الفقراء وسألنى، ولم يكن عندى فى ذلك الحين شىء، فدفعت له خاتمى ؛ فلما سألنى عنه هذا الأعمى، قلت له : أعطيته فقيرا ، فقال : ارجع فى طلبه فإن فيه أسماء مكتوبة فيها سر من الأسرار ؛ فطال تعجبى منه ومن معرفته بذلك كله ، والله أعلم بحاله .

وكان الأمير بها أبا يعقوب بن عبد الرزاق ، وقاضيها وخطيبها الفقيه عبد الله من أهل مكة ، شافعى المذهب . وإذا كان يومُ الجمعة واجتمع الناس للصلاة ، أتى المؤذن وعد أهل جدة المقيمين بها ، فإن كملوا أربعين خطب وصلى بهم الجمعة ، وإن لم يبلغ عددهم أربعين صلى ظهرا

(١) الفتخة — خاتم كبير يكون فى اليد والرجل . قاموس .

أربعا . ولا يعتبر من ليس من أهلهـا ، وإن كانوا عددا كثيرا . ثم ركبنا البحر من جُدّة فى مركب يسمونه الجَلْبة ، وكان لرشـيد الدين الألفى اليمنى الحبشى الأصل ، وركب الشريف منصور بن أبى نُمَىّ فى جلبـة أخرى ، ورغب فى أن أكون معه ، فلم أفعل لكونه كان معه فى جلبته الجمال . نخفت من ذلك ، ولم أكن ركبت البحر قبلها . وكان هنالك جملة من أهل اليمن قد جعلوا أزوادهم وأمتعتهم فى (الجلب) وهم متأهبون للسفر .

حكاية

ولمـا ركبنا البحر أمر الشريف منصور أحد غلمانه أن يأتيه (بعديلة) دقيق (وهى نصف حمل) ، (و بطة) سمن ، يأخذهما من (جَلبِ) أهل اليمن ، فأخذهما وأتى بهما إليه ، فأتانى التجار باكين ، وذكروا لى أن فى جوف تلك العديلة عشرة آلاف درهم نُقْرة[1] ، ورغبوا منى أن أكلمه فى ردها وأن يأخذ سواها ، فأتيته وكلمته فى ذلك وقلت له : إن للتجار فى جوف هذه (العديلة) شيئا ، فقال : إن كان سَكَرا[2] فلا أرده إليهم ، وإن كان سوى ذلك فهو لهم ، ففتحوها فوجدوا الدراهم فردها إليهم ، وقال لى : لو كان عَجْلان ماردّها ، وعجلان هو ابن أخيه رُمَيثة ، وكان قد دخل فى تلك الأيام دار تاجر من أهل دمشق كان قاصدا لليمن ، فذهب بمعظم ما كان فيها ، وعجلان هو أمير مكة على هذا العهد . وقد صَلَح حاله وأظهر العدل والفضل .

ثم سافرنا فى هـذا البحر بالريح الطيبة يومين ، وتغيرت الريح بعد ذلك ، وصدتنا عن السـبيل التى قصدناها ، ودخلت أمواج البحر معنا فى المركب واشتد المَيْدُ[3] بالناس ، ولم نزل فى أهوال حتى خرجنا فى مَرْسى يعرف برأس

(١) من الفضة .

(٢) نبيذ التمر .

(٣) الميد : الحركة والاضطراب .

دوائر، فيما بين عَيْذاب وسواكن ، فنزلنا به ، ووجدنا بساحله عَرِيش قصب على هيئة مسجد ، وفيه كثير من قشور بيض النعام مملوءة ماء ، فشربنا منه وطبخنا . ورأيت بذلك المرسى عجبا : وهو خَوْر مثل الوادى يخرج من البحر ، فكان الناس يأخذون الثوب ويمسكون بأطرافه ويخرجون به وقد امتلأ سمكا ، كل سمكة منها قدر الذراع ، ويعرفونه بالبُورى . فطبخ منه الناس كثيرا واشتووا . وقصدت إلينا طائفة من البُجاة وهم سكان تلك الأرض ، سود الألوان ، لباسهم الملاحف الصفر ، ويشدون على رءوسهم عصائب حمرا فى عرض الأصبع . وهم أهل نَجْدة وشجاعة ، وسلاحهم الرماح والسيوف ، ولهم جمال يسمونها الصُّهْب ، يركبونها بالسروج . فاكترينا منهم الجمال وسافرنا معهم فى برية كثيرة الغزلان ، والبجاة لا يأكلونها ، فهى تأنس بالآدمى ولا تنفر منه . وبعد يومين من مسيرنا وصلنا إلى حى من العرب يعرفون بأولاد كاهلٍ ، مختلطين بالبجاة عارفين بلسانهم . وفى ذلك اليوم وصلنا إلى جزيرة سواكن ، وهى على نحو ستة أميال من البر ، ولا ماء بها ولا زرع ولا شجر ، والماء يجلب إليها فى القوارب ، وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر ، وهى جزيرة كبيرة ، وبها لحوم النعام والغزلان وحُمُر الوحش . والمعْزَى عندهم كثير ، والألبان والسمن ، ومنها يجلب إلى مكة ، وحبوبهم (الجُرْجُور)[1] وهو نوع من الذرة كبير الحب ، يجلب منها أيضا إلى مكة .

ذكر سلطانها

وكان سلطان جزيرة سواكن حين وصولى إليها الشريف زيد بن أبى نُمَىّ ، وأبوه أمير مكة ، وأخواه أميراها بعده ، وهما عُطَيْفة ورُمَيْثة اللذان تقدم ذكرهما ، وصارت إليه من قِبل البجاة ، فإنهم أخواله ، ومعه عسكر من البجاةِ وأولادِ كاهل وعربِ جُهَيْنة .

(١) الغالب أن اللفظ غير عربى بهذا المعنى .

وركبنا البحر من جزيرة سواكن نريد أرض اليمن ، وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره ، وإنما يسافرون فيه من طلوع الشمس إلى غروبها ، ويرسون وينزلون إلى البر . فإذا كان الصباح صعدوا إلى المركب ، وهم يسمون رئيس المركب الرُّبان ، ولا يزال أبدا فى مقدم المركب ينبه صاحب السُّكّان[1] على الأحجار ، وهم يسمونها النبات . وبعد ستة أيام من خروجنا عن جزيرة سواكن وصلنا إلى مدينة حَلِي وتعرف باسم ابن يعقوب ، وكان من سلاطين اليمن ساكنا بها قديما . وهى كبيرة حسنة العمارة ، يسكنها طائفتان من العرب وهم : بنو حَرَام ، وبنو كِنانة . وجامع هذه المدينة من أحسن الجوامع ، وفيه جماعة من الفقراء المنقطعين إلى العبادة ، منهم الشيخ الصالح العابد الزاهد قَبُولة الهندى ، من كبار الصالحين ، لباسه : مُرَقَّعة وقلنسوة لِبْد ، وله خلوة متصلة بالمسجد ، فرشها الرمل ، لا حصير بها ولا بساط ، ولم أر بها حين لقائى له شيئا إلا إبريق الوضوء ، وسُفْرة من خوص النخيل فيها كِسَر شعير يابسة ، وصُحَيْفَة فيها ملح وسَعْتر ، فإذا جاءه أحد قدَّم بين يديه ذلك ، من غير تكلف شىء . وإذا صلوا العصر اجتمعوا للذكر بين يدى الشيخ إلى صلاة المغرب . وإذا صلوا المغرب أخذ كل واحد منهم موقفه للتنفل ، فلا يزالون كذلك إلى صلاة العشاء الآخرة . فإذا صلوا العشاء الآخرة أقاموا على الذكر إلى ثلث الليل ، ثم انصرفوا . ويعودون فى أول الثلث الثالث إلى المسجد فيتهجدون إلى الصبح ، ثم يذكرون إلى أن تحين صلاة الإشراق فينصرفون بعد صلاتها . ومنهم من يقيم إلى أن يصلى صلاة الضُّحَا بالمسجد ، وهذا دأبهم أبدا . ولقد كنت أردت الإقامة معهم باقى عمرى فلم أوفق لذلك ، والله تعالى يتداركنا بلطفه وتوفيقه .

---

(١) ذنب السفينة ، وهو ما به تُوَجَّه .

ذكر سلطان حَلِي

وسلطانها عامر بن ذُؤَيب من بنى كنانة ، وهو من الفضلاء الأدباء الشعراء، صحبته من مكة إلى جُدَّة وكان قد حج فى سنة ثلاثين . ولما قدمت مدينته أنزلنى وأكرمنى، وأقمت فى ضيافته أياما . وركبت البحر فى مركب له ، فوصلت إلى بلدة السَّرْجَة ، بلدة صغيرة يسكنها طائفة من تجار اليمن ، أكثرهم ساكنون بصَعْـداء ، ولهم فضـل وكرم وإطعام لأبناء السـبيل . ويعينون الحجاج ويركبونهم فى مراكبهم ويزودونهم من أموالهم ، وقد عرفوا بذلك واشتهروا به . وكثر الله أموالهم وزادهم من فضله وأعانهم على فعل الخير . وليس بالأرض من يماثلهم فى ذلك إلا الشيخ بدر الدين النقاش الساكن ببلدة القَحْمة ، فله مثل ذلك من المآثر والإيثار . وأقمنا بالسرجة ليلة واحدة فى ضيافة المذكورين . ثم رحلنا إلى مرسى (الحادث) ولم ننزل به ، ثم إلى مرسى (الأبواب) ، ثم إلى مدينة زَبيد ، مدينة عظيمة باليمن ، بينها وبين صنعاء أربعون فرسخا . وليس باليمن بعد صـنعاء أكبر منها ولا أغنى من أهلها ، واسعة البساتين ، كثيرة الميـاه والفواكه من الموز وغيره ، وهى بَرِّيَّة لا شَـطِّيَّة ، إحدى قواعد بلاد اليمن ، مدينة كبيرة كثيرة العمارة ، بها النخل والبساتين والمياه ، أملح بلاد اليمن وأجملها ، ولأهلها لطافة الشمائل وحسن الأخلاق وجمال الصور ، ولنسائها الحسن الفائق الفائت . وهى وادى الحُصَيْب الذى يذكر فى بعض الآثار أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال لمعاذ فى وصيته : يامُعاذ ، إذا جئت وادى الحُصَيب فهرول . ولأهل هذه المدينة سُبُوت النخل المشهورة : وذلك أنهم يخرجون فى أيام البُسْر والرطب فى كل سبت إلى حدائق النخل ، ولا يبقى بالمدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء ، ويخرج أهل الطرب ، وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوات . ويخرج النساء

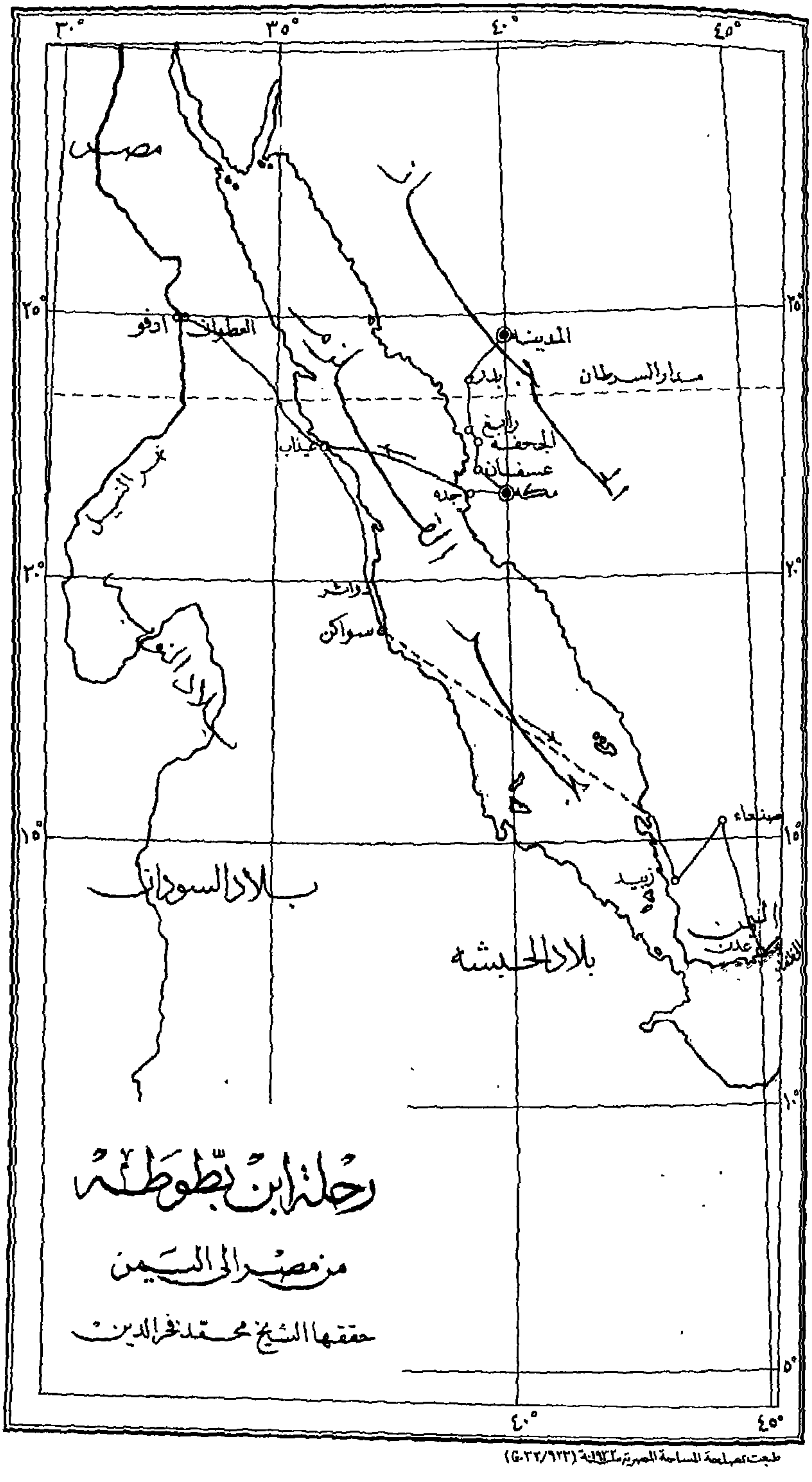

طبعت بمصلحة المساحة المصرية سنة ١٩٣٤ (G-٢٢/٩٢٣)

ممتطيات الجمال فى المحامل ، ولهن مع ماذكرناه من الجمال الفائت والأخلاق الحسنة والمكارم . وللغريب عندهن مزية ، ولا يمتنعن من تزوجه كما تفعله نساء بلادنا . فإذا أراد السفر خرجت معه وودعته . وإن كان بينهما ولد فهى تَكْفُلُه وتقوم بما يجب له إلى أن يرجع أبوه ، ولا تطالبه فى أيام الغيبة بنفقة ولا كُسْوة ولا سواها . وإذا كان مقيما فهى تقنع منه بقليل النفقة والكسوة . لكنهن لا يخرجن عن بلدهن أبدا . ولو أعطيت إحداهن ما عسى أن تعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل . وعلماء تلك البلاد وفقهاؤها أهل صلاح ودين وأمانة ومكارم وحسن خلق . لقيت بمدينة زبيد الشيخ العالم الصالح أبا محمد الصَّنْعانى ، والفقيه الصوفى المحقق أبا العباس الأَبْيانى ، والفقيه المحدث أبا على الزَّبيدى ، ونزلت فى جوارهم فأكرمونى وأضافونى ، ودخلت حدائقهم . واجتمعت عند بعضهم بالفقيه القاضى العالم أبى زيد عبد الرحمن الصوفى ، أحد فضلاء اليمن ، ووقع عنده ذكر العابد الزاهد الخاشع أحمد بن العُجَيْل اليمنى ، وكان من كبار الرجال وأهل الكرامات .

كرامــة له

ذكروا أن فقهاء الزيدية وكبراءهم أتوا مرة إلى زيارة الشيخ أحمد بن العُجيل ، بجلس لهم خارج الزاوية واستقبلهم أصحابه ، ولم يبرح الشيخ موضعه ، فسلموا عليه وصافحهم ورحب بهم ، ووقع بينهم الكلام فى مسألة القَدَر ، وكانوا يقولون أن لا قدر ، وأن المكلف يخلق أفعاله ، فقال لهم الشيخ : فإن كان الأمر على ماتقولون فقوموا عن مكانكم هذا ، فأرادوا القيام فلم يستطيعوا ، وتركهم الشيخ على حالهم ودخل الزاوية ، وأقاموا كذلك ، واشتد بهم الحر ، ولحقهم وهَج الشمس ، وضجوا مما نزل بهم ، فدخل أصحاب الشيخ إليه وقالوا له : إن هؤلاء القوم قد تابوا إلى الله ورجعوا عن مذهبهم

الفاسد ، فخرج عليهم الشيخ فأخذ بأيديهم ، وعاهدهم على الرجوع إلى الحق وترك مذهبهم السّيئ ، وأدخلهم زاويته فأقاموا فى ضيافته ثلاثا . وانصرفوا الى بلادهم[1]. وخرجت لزيارة قبر هذا الرجل الصالح ، وهو بقرية يقال لها غَسَّانة خارج زَبِيد ، ولقيت ولده الصالح أبا الوليد إسماعيل ، فأضافنى وبت عنده ، وزرت ضريح الشيخ وأقمت معه ثلاثا . وسافرت فى صحبته إلى زيارة الفقيه أبى الحسن الزَّيْلَعى ، وهو من كبار الصالحين . وأهل تلك البلاد وأعرابها يعظمونه ويحترمونه . فوصلنا إلى جَبَلة ، وهى بلدة صغيرة حسنة ذات نخل وفواكه وأنهار ، فلما سمع الفقيه أبو الحسن الزيلعى بقدوم الشيخ أبى الوليد ، استقبله وأنزله بزاويته . وسلمت عليه معه ، وأقمنا عنده ثلاثة أيام فى خير مُقَام . ثم انصرفنا ، وبعث معنا أحد الفقراء ، فتوجهنا إلى مدينة تَعِزّ ، حضرة ملك اليمن ، وهى من أحسن مدن اليمن وأعظمها . وأهلها ذوو تجبر وتكبر وفظاظة ، وكذلك الغالب على البلاد التى يسكنها الملوك . وهى ثلاث محلات : إحداها يسكنها السلطان ومماليكه وحاشيته وأرباب دولته ، وتسمى باسم لا أذكره ، والثانية يسكنها الأمراء والأجناد وتسمى عُدَيْنَة ، والثالثة يسكنها عامة الناس ، وبها السوق العظمى وتسمى المحَالِب .

ذكر سلطان اليمن

وهو السلطان المجاهد نور الدين على ابن السلطان المؤيد هِزَبْر الدين داود ابن السلطان المظفر يوسف بن علىّ بن رسول ؛ شهر جده برسول لأن أحد خلفاء بنى العباس أرسله إلى اليمن ليكون بها أميرا ، ثم استقلّ أولاده بالملك . وله ترتيب عجيب فى قعوده وركوبه . وكنت لما وصلت هذه المدينة مع الفقير الذى بعثه الشيخ الفقيه أبو الحسن الزيلعى فى صحبتى ، قصدنى إلى

(١) من المبالغات .

قاضى القضاة الإمام المحدث صفى الدين الطبرى المكى، فسلمنا عليه ورحب بنا، وأقمنا بداره فى ضيافته ثلاثا . فلما كان فى اليوم الرابع (وهو يوم الخميس) وفيه يجلس السلطان لعامة الناس، دخل بى عليه، فسلمت عليه . وكيفية السلام عليه : أن يمس الانسان الأرض بسبابته، ثم يرفعها إلى رأسه ويقول: أدام الله عزك ! ففعلت كمثل ما فعله القاضى . وقعد القاضى عن يمين الملك، وأمرنى فقعدت بين يديه، فسألنى عن بلادى وعن مولانا أمير المسلمين جواد الأجواد أبى سعيد (رضى الله عنه)، وعن ملك مصر وملك العراق وملك اللُّور، فأجبته عما سأل من أحوالهم . وكان وزيره بين يديه فأمره بإكرامى وإنزالى . وترتيب قعود هذا الملك : أنه يجلس فوق دكانة[1] مفروشة مزينة بثياب الحرير، وعن يمينه ويساره أهل السلاح، ويليه منهم أصحاب السيوف والدَّرَق، ويليهم أصحاب القِسِىّ، وبين أيديهم فى الميمنة والميسرة الحاجب وأرباب الدولة وكاتب السر، وأمير (جَنْدار) على رأسه، (والشَّاوُشِيَّة) وهم من (الجنادرة) وقوف على بعد . فإذا قعد السلطان صاحوا صيحة واحدة: باسم الله، فإذا قام فعلوا مثل ذلك، فيعلم جميع من بالمِشْوَر[2] وقت قيامه ووقت قعوده . فإذا استوى قاعداً دخل كل من عادته أن يسلم عليه، فسلم ووقف حيث رسم له فى الميمنة أو الميسرة، لا يتعدى أحد موضعه، ولا يقعد إلا من أمر بالقعود: يقول السلطان للأمير (جندار): مر فلانا يقعد، فيتقدم ذلك المأمور بالقعود عن موقفه قليلا، ويقعد على بساط هنالك بين أيدى القائمين فى الميمنة والميسرة . ثم يؤتى بالطعام، وهو طعامان : طعام العامة، وطعام الخاصة . فأما الطعام الخاص فيأكل منه السلطان وقاضى القضاة والكبار من الشرفاء ومن الفقهاء والضيوف . وأما

---

(١) الذى فى كتب اللغة (دكان) لا دكانة، وقد نبهنا على ذلك فى الحواشى الآتية :

(٢) سبق تفسيرها .

الطعام العـام فيأكل منه سائر الشرفاء والفقهاء والقضاة والمشايخ والأمراء ووجوه الأجناد . ومجلس كل إنسان للطعام معين لا يتعداه ولا يزاحم أحد منهم أحدا . وعلى مثل هـذا الترتيب سواء ، ترتيب ملك الهنـد فى طعامه، فلا أعلم أسلاطين الهنـد أخذوا ذلك عن سلاطين اليمن أم سـلاطين اليمن أخذوه عن سلاطين الهند ؟ وأقمت فى ضيافة سلطان اليمن أياما ، وأحسن إلىّ وأركبنى .

مدينة صَنْعاء

وانصرفت مسافرا إلى مدينـة صنعاء ، وهى قاعدة بلاد اليمن الأولى ، مدينة كبيرة حسنة العمارة بناؤها بالآجر والجص ، كثيرة الأشجـار والفواكه والزرع ، معتدلة الهواء طيبة المـاء . ومن الغريب أن المطر ببلاد الهنـد واليمن والحبشـة إنمـا ينزل فى أيام القيظ . وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم فى ذلك الأوان ، فالمسافرون لايستعجلون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر، وأهل المدينة ينصرفون إلى منازلهم لأن أمطارها وابلة متدفقة . ومدينة صنعاء مفروشة[1] كلها ، فإذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها . وجامع صنعاء من أحسن الجوامع ،وفيه قبر نبى من الأنبياء (عليهم السلام) .

مدينة عَدَن

ثم سافرت منها إلى مدينة عدن مَرْسى بلاد اليمن على ساحل البحر الأعظم ، والجبال تحف بها ،ولا مدخل إليها إلا من جانب واحد ، وهى مدينة كبيرة ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء ، وبها صهاريج يجتمع فيها المـاء أيام المطر ، والمـاء على بعد منها ، فربما منعته العرب وحالوا بين أهل المدينة و بينه حتى يصانعوهم

(١) مبلطة .

بالمال والثياب . وهى شديدة الحر . وهى مرسى أهل الهند ، تأتى إليها المراكب العظيمة . وتجار الهند ساكنون بها ، وتجار مصر أيضا . وأهل عدن مابين تجار وحمالين وصيادين للسمك . وللتجار منهم أموال عريضة ، وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع مافيه ؛ لايشاركه فيه غيره ، لسعة ما بين يديه من الأموال . ولهم فى ذلك تفاخر ومباهاة .

ونزلت فى عدن عند تاجر يعرف بناصر الدين الفارى ، فكان يحضر طعامه كل ليلة نحو عشرين من التجار ؛ وله غلمان وخدام أكثر من ذلك . ومع هذا كله فهم أهل دين وتواضع وصلاح ومكارم أخلاق ، يحسنون إلى الغريب ويؤثرون الفقير ، ويعطون حق الله من الزكاة على مايجب . ولقيت بهذه المدينة قاضيها الصالح سالم بن عبدالله الهندى ، وكان والده من العبيد الحمالين ، واشتغل ابنه بالعلم فَرَأَسَ وساد . وهو من خيار القضاة وفضلائهم ، أقمت فى ضيافته أياما . وسافرت من مدينة عدن فى البحر أربعة أيام ووصلت إلى مدينة زَيْلَع .

مدينة زَيْلَع

وهى مدينة البرابرة ، وهم طائفة من السودان شافعية المذهب ، وبلادهم صحراء مسيرة شهرين ، أولها زيلع وآخرها مَقْـدَشَوْ . ومواشيهم الجمال ، ولهم أغنام مشهورة السمن . وأهل زيلع سود الألوان ، وأكثرهم رافضة . وهى مدينة كبيرة لهاسوق عظيمة ، إلا أنها أقذر مدينة فى المعمور وأوحشها وأكثرها نَتْنا . وسبب نتنها كثرة سمكها ودماء الإبل التى ينحرونها فى الأزقة . ولما وصلنا إليها اخترنا المبيت بالبحر على شدة هوله ، ولم نبت بها لقذرها . ثم سافرنا منها فى البحر خمس عشرة ليلة ووصلنا مقدشو ، وهى مدينة متناهية فى الكبر ، وأهلها لهم جمال كثيرة ينحرون منها المِئِين فى كل يوم ، ولهم أغنام كثيرة . وهم تجار أقوياء . وبها تصنع الثياب المنسوبة إليها التى لانظير لها ،

ومنها تحمل إلى ديار مصر وغيرها . ومن عادة أهل هذه المدينة أنه متى وصل مركب إلى المرسى تصعد الصنابق[١] وهى القوارب الصغار إليه ، ويكون فى كل (صُنْبوق) جماعة من شبان أهلها ، فيأتى كل واحد منهم بطبق مغطى فيه الطعام ، فيقدمه لتاجر من تجار المركب ، ويقول : هذا نزيلى ! وكذلك يفعل كل واحد منهم . ولا ينزل التاجر من المركب إلا إلى دار نزيله من هؤلاء الشبان ، إلا من كان كثير التردد إلى البلد وعرف أهله ، فإنه ينزل حيث شاء . فإذا نزل عند نزيله باع له ما عنده واشترى له .

ولما صعد الشبان إلى المركب الذى كنت فيه جاء إلىّ بعضهم فقال له أصحابى : ليس هذا بتاجر ، وإنما هو فقيه ، فصاح بأصحابه وقال لهم : هذا نزيل القاضى ، وكان فيهم أحد أصحاب القاضى ، فعرّفه بذلك ، فأتى إلى ساحل البحر فى جملة من الطلبة ، وبعث إلىّ أحدهم ، فنزلت أنا وأصحابى ، وسلمت على القاضى وأصحابه ، وقال لى : باسم الله نتوجه للسلام على الشيخ ، فقلت : ومن الشيخ ؟ فقال السلطان ، وعادتهم أن يقولوا للسلطان الشيخ ، فقلت له : إذا نزلت توجهت إليه . فقال لى : إن العادة إذا جاء الفقيه أو الشريف أو الرجل الصالح لا ينزل حتى يرى السلطان ، فذهبت معهم إليه كما طلبوا .

ذكر سلطان مَقْدَشَوْ

وسلطان مقدشو ، كما ذكرناه ، إنما يقولون له الشيخ ، واسمه أبو بكر ابن الشيخ عمر . وهو فى الأصل من البرابرة ، وكلامه بالمقدشى ، ويعرف اللسان العربى . ومن عاداته أنه متى وصل مركب يصعد إليه صنبوق السلطان فيسأل عن المركب من أين قدم ؟ ومن صاحبه ؟ ومن رُبَّانه (وهو الرئيس)

---

(١) اللفظ غير عربى .

وما وسْقُه(١)؟ ومن قدم فيه من التجار وغيرهم ؟ فيعرف بذلك كله، ويعرض على السلطان ، فمن استحق أن ينزله عنده أنزله . ولما وصلت مع القاضى المذكور (وهو يعرف بابن البرهان المصرى الأصل) إلى دار السلطان ، خرج بعض الفتيان فسلم على القاضى ، فقال له : بلغ الأمانة ، وعرّف مولانا الشيخ أن هذا الرجل قد وصل من أرض الحجاز ، فبلّغ . ثم عاد وأتى بطبق فيه أوراق(٢) التانبُول والفَوْفَل(٣) ، فأعطانى عشر أوراق مع قليل من الفوفل ، وأعطى القاضى كذلك ، وأعطى أصحابى وطلبة القاضى ما بقى فى الطبق ، وجاء بِقُمْقُم من ماء الورد الدِمَشْقى فسكب علىّ وعلى القاضى ، وقال : إن مولانا أمر أن ينزل بدار الطلبة (وهى دار مُعَدَّة لضيافة الطلبة) ، فأخذ القاضى بيدى وجئنا إلى تلك الدار ، وهى بمقربة من دار الشيخ ، مفروشة مرتبة بما تحتاج إليه . ثم أتى بالطعام من دار الشيخ ومعه أحد وزرائه ، وهو الموكل بالضيوف ، فقال : مولانا يسلم عليكم ويقول لكم : قدمتم خير مَقْدَم . ثم وضع الطعام فأكلنا . وطعامهم الأرز المطبوخ بالسمن ، يجعلونه فى صَحْفة خشب كبيرة ، ويجعلون فوقه صحاف (الكوشان) ، وهو الإدام من الدجاج واللحم والحوت والبقول ، ويطبخون الموز قبل نضجه فى اللبن الحليب ، ويجعلونه فى صحفة ، ويجعلون اللبن الرائب فى صحفة ، ويجعلون عليه الليمون ، وعناقيد الفلفل المخلّل والمملوح ، والزنجبيل الأخضر ، والعنبا(٤) ، وهى مثل التفاح . ولكن لها نواة ، وهى إذا نَضِجت شديدةُ الحلاوة ، وتؤكل كالفاكهة ، وقبل نضجها حامضة كالليمون ،

---

(١) وَسْقُه : حَمْلُه .

(٢) ضرب من اليقطين طعم ورقه كالقرنفل ، مُشَهٌ مطرب . قاموس .

(٣) الفوفل : نوع من النخل كنخل النارجيل تحمل كبائس فيها الفوفل أمثال التمر . قاموس .

(٤) المنجو كما يأتى فى الحواشى والكلمة غير عربية .

يصبرونها فى الخل . وهم إذا أكلوا لقمة من الأرز أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخللات . والواحد من أهل مَقْدَشَوْ يأكل قدر ما تأكله الجماعة منا عادة ، وهم فى نهاية من ضخامة الجسوم وسمنها . ثم لما طَعِمْنا انصرف عنا القاضى . وأقمنا ثلاثة أيام يؤتى إلينا بالطعام ثلاث مرات فى اليوم (وتلك عادتهم) . فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الجمعة جاءنى القاضى والطلبة وأحد وزراء الشيخ وأتونى بكسوة . وكسوتهم فوطة خَزٍّ يشدها الإنسان فى وسطه عوض السراويل ، فإنهم لا يعرفونها ، ودُرّاعة من المقطع المصرى مُعْلَمَة ، وفرجية من القُدْسى[1] مبطنة ، وعمامة مصرية معلمة . وأتوا لأصحابى بكُسا تناسبهم . وأتينا الجامع فصلينا خلف المقصورة ؛ فلما خرج الشيخ من باب المقصورة سلمت عليه مع القاضى ، فرحب وتكلم بلسانهم مع القاضى ، ثم قال باللسان العربى : قدمت خير مقدم ، وشرفت بلادنا وآنستنا . وخرج إلى صحن المسجد ، فوقف على قبر والده (وهو مدفون هنالك) فقرأ ودعا ؛ ثم جاء الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد فسلموا . وعادتهم فى السلام كعادة أهل اليمن : يضع سبّابته فى الأرض ثم يجعلها على رأسه ويقول : أدام الله عزك ! ثم خرج الشيخ من باب المسجد ، فلبس نعليه ، وأمر القاضى أن ينتعل ، وأمرنى أن أنتعل ، وتوجه إلى منزله ماشيا وهو بالقرب من المسجد ، ومشى الناس كلهم حُفاة . ورفعت فوق رأسه أربع قِباب من الحرير الملون ، وعلى أعلى كل قبة صورة طائر من ذهب ؛ وكان لباسه فى ذلك اليوم فرجية قُدْسية خضراء ، وهو متقلد بفوطة حرير ، ومعتم بعمامة كبيرة . وضربت بين يديه الطبول والأبواق والأنفار ، وأمراء الأجناد أمامه وخلفه ، والقاضى والفقهاء والشرفاء معه . ودخل إلى (مشوره) على تلك الهيئة ، وقعد الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد فى سقيفة هنالك ، وفرش للقاضى بساط لا يجلس معه غيره عليه ، والفقهاء والشرفاء معه . ولم يزالوا كذلك

(١) نسبة الى القدس .

إلى صلاة العصر . فلمـا صلوا العصر مع الشيخ أتى جميع الأجنـاد ووقفوا صفوفا على قدر مراتبهم ، ثم ضربت الأطبال والأنفار والأبواق والصُّرنايات . وعند ضربها لا يتحرك أحد ولا يتزحزح من مقامه ، ومن كان ماشيا وقف فلم يتحرك إلى خلف ولا إلى أمام . فإذا فرغ من ضرب (الطبلخانة) سلموا بأصابعهم كما ذكرناه وانصرفوا . وتلك عادة لهم فى كل يوم جمعة . وإذا كان يوم السبت يأتى الناس إلى باب الشيخ فيقعدون فى سقائف خارج الدار ، ويدخل القاضى والفقهاء والشرفاء والصالحون والمشايخ والحجاج إلى (المشور) الثانى ، فيقعدون على دكاكين خشب معدة لذلك ، ويكون القاضى على دكان وحده ، وكل صنف على دكان لا يشاركهم فيه سواهم . ثم يجلس الشيخ بمجلسه ، ويبعث إلى القاضى فيجلس عن يساره ، ثم يدخل الفقهاء فيقعـد كبراؤهم بين يديه ، وسائرهم يسلمون وينصرفون ، ثم يدخل الشرفاء فيقعد كبراؤهم بين يديه ، ويسلم سائرهم وينصرفون ، وإن كانوا ضيوفا جلسوا عن يمينه . ثم يدخل المشايخ والحجاج فيجلس كبراؤهم ، ويسلم سائرهم وينصرفون ، ثم يدخل الوزراء ثم الأمراء ثم وجوه الأجناد : طائفة بعد طائفة أخرى ، فيسلمون وينصرفون . ويؤتى بالطعام فيأكل بين يدى الشيخ القاضى والشرفاء ومن كان قاعدا بالمجلس ، ويأكل الشيخ معهم . وإن أراد تشريف أحد من كبار أمرائه بعث إليـه فأكل معه ، ويأكل سائر النـاس بدار الطعام . وأكلهم على ترتيب مثل ترتيبهم فى الدخول على الشيخ . ثم يدخل الشيخ إلى داره ، ويقعد القاضى والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبار الأمراء للفصل بين الناس وأهل الشكايات ، فمـا كان متعلقا بالأحكام الشرعية حكم فيه القـاضى ، وما كان من سوى ذلك حكم فيه أهـل الشُّورى ، وهم الوزراء والأمراء . وما كان مفتقرا إلى مشاورة السلطان كتبوا إليه فيه ، فيخرج لهم الجواب من حينه ، على ظهر البطاقة بمـا يقتضيه نظره ، وتلك عادتهم دائمـا .

ثم ركبت البحر من مدينة مَقْدَشَوْ متوجها إلى بلاد السواحل قاصدا مدينة كُلْوَا من بلاد الزنوج .

مدينة كُلْوَا

فوصلنا إلى جزيرة مَنْبَسَى[1]، وهى جزيرة كبيرة بينها و بين أرض السواحل مسيرة يومين فى البحر ، ولا برّ لها . وأشجارها الموز والليمون والأُتْرُجّ ، ولهم فاكهة يسمونها الجُمُّون ، وهى شبه الزيتون، ولهانوى كنواه ، إلا أنها شديدة الحلاوة . ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة و إنما يجلب إليهم من السواحل ، وأكثر طعامهم الموز والسمك . وهم شافعية المذهب ، أهل دين وعفاف وصلاح . ومساجدهم من الخشب محكمة الإتقان ، وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والثنتان ، وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان ، فيستقون منها الماء بقدح خشب قد غرز فيه عود رقيق فى طول الذراع . والأرض حول البئر والمسجد مسطحة ، فمن أراد دخول المسجد غسل رجليه ودخل . ويكون على بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجليه . ومن أراد الوضوء أمسك القدح بين فخذيه وصب على يديه وتوضأ . وجميع الناس يمشون حفاة الأقدام .

وبتنا بهذه الجزيرة ليلة وركبنا البحر الى مدينة كُلْوَا ، وهى مدينة عظيمة ساحلية ، أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد ، ولهم شرطات فى وجوههم كما هى فى وجوه الليميين[2] من جَنَادة . وذكر لى بعض التجار أن مدينة سُفَالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوا ، وأن بين سُفَالة ويُوفِى من بلاد الليميين مسيرة شهر . ومن يوفى يؤتى بالتبر إلى سُفالة .

ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عمارة ، وكلها بالخشب . والأمطار بها كثيرة . وهم أهل جهاد لأنهم فى بر واحد متصل مع كفار الزنوج . والغالب عليهم الدين والصلاح ، وهم شافعية المذهب .

(١) فى ياقوت : مَنْبَسَة .

(٢) الليميين : فى بعض الكتب اليمنيين .

ذكر سلطان كُلْوَا

وكان سلطانها فى عهد دخولى إليها أبو المظفّر حسن ، وكان كثير الغزو إلى أرض الزنوج ، يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ، ويصرفه فى مصارفه المعينة فى كتاب الله تعالى ، ويجعل نصيب ذوى القربى فى خزانة على حدة ، فإذا جاءه الشرفاء دفعه إليهم . وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها ، ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة . وهذا السلطان له تواضع شديد ، ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ، ويعظم أهل الدين والشرف .

حكاية من مكارمه

حضرته يوم جمعة وقد خرج من الصلاة قاصدا إلى داره ، فتعرض له أحد الفقراء اليمنيين فقال له : يا أبا المواهب ! فقال : لبيك يافقير ، ماحاجتك ؟ قال أعطنى هذه الثياب التى عليك . فقال له : نعم أعطيكها ؛ قال : الساعة ؟ قال : نعم الساعة . فرجع إلى المسجد ودخل بيت الخطيب فلبس ثيابا سواها وخلع تلك الثياب ، وقال للفقير : ادخل فخذها . فدخل الفقير وأخذها وربطها فى منديل وجعلها فوق رأسه وانصرف . فعظم شكر الناس للسلطان على ما ظهر من تواضعه وكرمه ؛ وأخذ ابنه ولىّ عهده تلك الكسوة من الفقير وعوّضه عنها بعشرة من العبيد . وبلغ السلطان ما كان من شكر الناس له على ذلك ، فأمر للفقير أيضا بعشرة رءوس من الرقيق ، وحملين من العاج . ومعظم عطاياهم العاج وقلما يعطون الذهب . ولما توفى هذا السلطان الفاضل الكريم ، رحمة الله عليه ، ولى أخوه داود ، فكان على الضد من ذلك ، إذا أتاه سائل يقول له : مات الذى كان يعطى ولم يترك من بعده ما يعطى ؛ ويقيم الوفود عنده الشهور الكثيرة ، وحينئذ يعطيهم القليل ، حتى انقطع الوافدون عن بابه .

وركبنا البحر من كُلْوَا إلى مدينة ظَفَارِ الحُمُوض ، وهى آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندى ، ومنها تحمل الخيل العِتاق إلى الهند . ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند ، مع مساعدة الريح ، فى شهر كامل ، قد قطعته مرة من قَالِقُوط من بلاد الهند إلى ظفار فى ثمانية وعشرين يوما بالريح الطيبة ، لم ينقطع لنا جرى بالليل ولا بالنهار . وبين ظفارِ وعدن فى البرِ مسيرة شهر فى صحراء ، وبينها وبين حَضْرَمَوْت ستة عشر يوما ، وبينها وبين عُمان عشرون يوما . ومدينة ظفارِ فى صحراء منقطعة لا قرية بها ولا عمالة لها . والسوق خارج المدينة بربض يعرف بالحَرْجاء ، وهى من أقذر الأسواق وأشدها نَتْنا ، وأكثرها ذبابا ، لكثرة ما يباع بها من الثمرات والسمك . وأكثر سمكها النوع المعروف بالسردين ، وهو بها فى النهاية من السمن . ومن العجائب أن دوابهم إنما علفها من هذا السردين ، وكذلك غنمهم ؛ ولم أر ذلك فى سواها . وأكثر باعتها الخدم . وزرع أهلها الذرة وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء ، وكيفية سقيهم أنهم يصنعون دلوا كبيرة ويجعلون لها حبالا كثيرة ، ويتحزم بكل حبل عبد أو خادم ، ويجرون الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر ، ويصبونها فى صِهريج يسقون منه . ولهم قمح يسمونه العَلَس[1] وهو فى الحقيقة نوع من السُّلْت[2] . والأرز يجلب إليهم من بلاد الهند وهو أكثر طعامهم .

ودراهم هذه المدينة من النحاس والقَصْدير ولا تَنْفُق فى سواها . وهم أهل تجارة لا عيش لهم إلا منها . ومن عادتهم أنه إذا وصل مركب من بلاد الهند أو غيرها خرج عبيد السلطان إلى الساحل وصعدوا فى (صنبوق) إلى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله وللرُّبان ، وهو الرئيس ،

---

(١) فى القاموس : ضرب من البر تكون حبتان فى قشر ، وهو طعام صنعاء .

(٢) فى القاموس : ضرب من الشعير .

ولكاتب المركب . ويؤتى إليهم بثلاثة أفراس فيركبونها . وتضرب أمامهم الأطبال والأبواق من ساحل البحر إلى دار السلطان ، فيسلمون على الوزير وأمير جَنْدار . وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثا . وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان . وهم يفعلون ذلك استجلابا لأصحاب المراكب . وهم أهل تواضع وحسن أخلاق وفضيلة ومحبة للغرباء ، ولباسهم القطن وهو يجلب إليهم من بلاد الهند ، ويشدون الفوط فى أوساطهم عوض السراويل ، وأكثرهم يشد فوطة فى وسطه ويجعل فوق ظهره أخرى من شدة الحر . ويغتسلون مرات فى اليوم . وهى كثيرة المساجد ، ولهم فى كل مسجد مطاهر كثيرة معدة للاغتسال . ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جدا . والغالب على أهلها رجالا ونساء المرض المعروف بداء الفيل ، وهو انتفاخ القدمين . ومن عاداتهم الحسنة التصافح فى المسجد أثر صلاة الصبح والعصر ، يستند أهل الصف الأول إلى القبلة ويصافحهم الذين يلونهم ، وكذلك يفعلون بعد صلاة الجمعة ، يتصافحون أجمعون .

ومن خواص هذه المدينة وعجائبها أنه لا يقصدها أحد بسوء إلا عاد عليه مكروه . وحيل بينه وبينها ؛ وذكر لى : أن السلطان قطب الدين تَمَهْتَن بن طوران شاه صاحب هُرْمُز ، نازلها مرة فى البر والبحر ، فأرسل الله (سبحانه) عليه ريحا عاصفا كسرت مراكبه ، ورجع عن حصارها وصالح ملكها . وكذلك ذكر لى : أن الملك المجاهد سلطان اليمن عيّن ابن عم له بعسكر كبير لانتزاعها من يد ملكها (وهو أيضا ابن عمه) ، فلما خرج ذلك الأمير عن داره سقط عليه حائط وعلى جماعة من أصحابه فهلكوا جميعا ، ورجع الملك عن رأيه وترك حصارها وطلبها . ومن الغرائب أن أهل هذه المدينة أشبه الناس بأهل المغرب فى شئونهم : نزلت بدار الخطيب بمسجدها الأعظم وهو عيسى بن على ، كبير القدر كريم النفس ، فكان له جوار مسميات بأسماء

خدم المغرب ، إحداهن اسمها بخيتة والأخرى زاد المال . ولم أسمع هذه الأسماء فى بلد سواها . وأكثر أهلها رءوسهم مكشوفة لايجعلون عليها العمائم . وفى كل دار من دورهم سجادة الخوص معلقة فى البيت يصلى عليها صاحب البيت ، كما يفعل أهل المغرب . وأكلهم الذرة ؛ وهذا التشابه كله مما يقوى القول بأن صَنْهاجة وسواهم من قبائل المغرب أصلهم من حِمْيَر . ويقرب من هذه المدينة — بين بساتينها — زاوية الشيخ الصالح العابد أبى محمد بن أبى بكر ابن عيسى ، من أهل ظَفَار ؛ وهذه الزاوية معظمة عندهم يأتون إليها غدوا وعشيا ويستجيرون بها ، فإذا دخلها المستجير لم يقدر السلطان عليه ؛ رأيت بها شخصا ذكر لى : أن له بها مدة سنين مستجيرا لم يتعرض له السلطان . وفى الأيام التى كنت بها استجار بها كاتب السلطان وأقام فيها حتى وقع بينهما الصلح . أتيت هذه الزاوية فبت بها فى ضيافة الشيخين أبى العباس أحمد وأبى عبد الله محمد ابنى الشيخ أبى بكر المذكور ، وشاهدت لهما فضلا عظيما . ولما غسلنا أيدينا من الطعام أخذ أبو العباس منهما ذلك الماء الذى غسلنا به فشرب منه ، وبعث الخادم بباقيه إلى أهله وأولاده فشربوه ، وكذلك يفعلون بمن يتوسمون فيه الخير من الواردين عليهم . وكذلك أضافنى قاضيها الصالح أبو هاشم عبدالملك الزَّبيدى ، وكان يتولى خدمتى وغسل يدى بنفسه ولا يكل ذلك إلى غيره . وبمقربة من هذه الزاوية تربة سلف السلطان الملك المغيث ، وهى معظمة عندهم . ومن عادة الجند أنه إذا تم الشهر ولم يأخذوا أرزاقهم ، استجاروا بهذه التربة ، وأقاموا فى جوارها إلى أن يعطوا أرزاقهم . وعلى مسيرة نصف يوم من هذه المدينة الأحقاف وهى منازل عاد . وهنالك زاوية ومسجد على ساحل البحر ، وحوله قرية لصيادى السمك . وفى الزاوية قبر مكتوب عليه : هذا قبر هود بن عابر (عليه أفضل الصلاة والسلام) . وقد ذكرت أن بمسجد دمشق موضعا عليه مكتوب : هذا قبر هود بن عابر ؛ والأشبه أن يكون قبره بالأحقاف لأنها بلاده (والله أعلم) . ولهذه المدينة

بساتين فيها موز كثير كبير الجِرْم ، وُزِنت بمَحْضَرى حبة منه فكان وزنها اثنتى عشرة أوقية ، وهو طيب المطعم شديد الحلاوة ، وبها أيضا التانبُول والنارَجيل المعروف بجوز الهند ، ولا يكونان إلا ببلاد الهند وبمدينة ظفار هذه لشبهها بالهند وقربها منها ، اللهم الا أن فى مدينة زَبيد فى بستان السلطان شجيرات من النارَجيل . وإذ قد وقع ذكر التانبُول والنارَجيل فلنذكرهما ولنذكر خصائصهما .

ذكر التانبُول

والتانبول شجر يغرس كما تغرس دوالى العنب ، ويصنع له مُعَرَّشات من القصب كما يصنع لدوالى العنب ، أو يغرس فى مجاورة شجرة النارَجيل ، فيصعد فيها كما تصعد الدوالى ، وكما يصعد الفلفل ، ولا ثمر للتانبُول ، وإنما المقصود منه ورقه وهو يشبه ورق العُلَّيْق ، وأطيبه الأصفر ، وتجنى أوراقه فى كل يوم . وأهل الهند يعظمون التانبول تعظيما شديدا ، وإذا أتى الرجل دار صاحبه فأعطاه خمس ورقات منه فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها ، ولا سيما إن كان أميرا أو كبيرا . وإعطاؤه عندهم أعظم شأنا وأدل على الكرامة من إعطاء الفضة والذهب . وكيفية استعماله أن يؤخذ قبله الفَوْفَل وهو شبه جوز الطيب ، فيكسر حتى يصير أطرافا صغارا ، ويجعله الانسان فى فمه ويَعْلُكه ، ثم يأخذ ورق التانبُول فيجعل عليها شيئا من النُّورة ويمضغها مع الفوفل ؛ وخاصَّتُه أنه يطيب النكهة[1] ، ويذهب بروائح الفم ويهضم الطعام ، ويقطع ضرر شرب الماء على الريق ، ويفرح أكله . ويجعله الإنسان عند رأسه ليلا ، فإذا استيقظ من نومه أخذ منه فيذهب بما فى فمه من رائحة كريهة ؛ ولقد ذكر لى أن جوارى السلطان والأمراء ببلاد الهند لا يأكلن غيره . وسنذكره عند ذكر بلاد الهند .

---

(1) ريح الفم .

ذكر النَّارَجيل (1)

وهو جوز الهند ، وهذا الشجر من أغرب الأشجار شأنا وأعجبها أمرا . وشجره شبه شجر النخل لا فرق بينهما(2) ، إلا أن هذه تثمر جوزا وتلك تثمر تمرا . وجوزها يشبه رأس ابن آدم لأن فيها شبه العينين والفم ، وداخلها شبه الدماغ إذا كانت خضراء ، وعليها ليف شبه الشعر ، وهم يصنعون به حبالا يخيطون بها المراكب عوضا من مسامير الحديد ، ويصنعون منه الحبال للمراكب ، والجوزة منها (وخصوصا التى بجزائر ذِيبَة المَهَل) تكون بمقدار رأس الآدمى . ويزعمون أن حكيما من حكماء الهند فى غابر الزمان كان متصلا بملك من الملوك ومعظما لديه ، وكان للملك وزير بينه وبين هذا الحكيم معاداة ، فقال الحكيم للملك : إن رأس هذا الوزير إذا قطع ودفن تخرج منه نخلة تثمر ثمرا عظيما يعود نفعه على أهل الهند وسواهم من أهل الدنيا ؛ فقال له الملك : فإن لم يظهر من رأس الوزير ماذكرته ؟ قال : إن لم يظهر فاصنع برأسى كما صنعت برأسه . فأمر الملك برأس الوزير فقطع ، وأخذه الحكيم وغرس نواة تمر فى دماغه وعالجها حتى صارت شجرة ، وأثمرت هذا الجوز . وهذه الحكاية من الأكاذيب ، ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم . ومن خواص هذا الجوز تقوية البدن وإسراع السمن والزيادة فى حمرة الوجه ؛ ومن عجائبه : أنه يكون فى ابتداء أمره أخضر ، فمن قطع بالسكين قطعة من قشره وفتح رأس الجوزة شرب منها ماء فى النهاية من الحلاوة والبرودة .

---

(1) ضبطت هذه الكلمة فى القاموس بكسر الراء .

(2) فيه نظر .

ويُتغذى به ، ومنه كان غذائى أيام إقامتى بجزائر ذِيبَة المهَل مدة عام ونصف عام . وعجائبه أنه يصنع منه الزيت والحليب والعسل . فأما كيفية صناعة العسل منه فإن خدام النخل يصعدون إلى النخلة غدوا وعشيا إذا أرادوا أخذ مائها الذى يصنعون منه العسل ، فيقطعون العِذْق الذى يخرج منه الثمر، و يتركون منه مقدار أصبعين ، ويربطون عليه قِدْرا صغيرة ، فيقطرفيها الماء الذى يسيل من العذق . فإذا ربطها غُدْوة صعد إليها عَشِيًّا ومعه قدحان من قشر الجوز المذكور ، أحدهما مملوء ماء ، فيصب ما اجتمع من ماء العذق فى أحد القدحين و يغسله بالماء الذى فى القدح الآخر ، و يَنْجُر[1] من العذق قليلا ، و يربط عليه القدر ثانية . ثم يفعل غُدْوة كفعله عشيا ؛ فإذا اجتمع له الكثير من ذلك الماء طبخه كما يطبخ ماء العنب إذا صنع منه الرُّب ، فيصير عسلا عظيم النفع طيبا ، فيشتريه تجار الهند واليمن والصين ، ويحملونه إلى بلادهم و يصنعون منه الحلواء . وأما كيفية صنع الحليب منه فإن بكل دار شبه الكرسى ، تجلس فوقه المرأة ، ويكون بيدها عصا فى احد طرفيها حديدة مُشْرِفة ، فيفتحون فى الجوزة مقدار ما تدخل تلك الحديدة ، ويَجْرُشُون[2] ما فى بطن الجوزة ، وكل ما ينزل منها يجتمع فى صحفة حتى لا يبقى فى داخل الجوزة شىء . ثم يمرس[3] ذلك الجريش بالماء ، فيصير كلون الحليب بياضا ، و يكون طعمه كطعم الحليب ويَأْتَدِم به الناس . وأما كيفية صنع الزيت فإنهم يأخذون الجوز بعد نُضْجه وسقوطه عن شجره فيزيلون قشره ، ويقطعونه قطعا ويجعل فى الشمس ، فإذا ذَبُل طبخوه فى القدور واستخرجوا زيته ، و به يستصبحون و يأتدمون ، وتجعله النساء فى شعورهن ، وهو عظيم النفع .

---

(١) ينحت . (٢) جَرَش الشىء لم يُنعم دقَّه . (٣) ينقع ويمرث باليد .

ذكر سلطان ظَفَار

وهو السلطان الملك المغيث ابن الملك الفائز ابن عم ملك اليمن . وكان أبوه أميرا على ظفار من قِبَل صاحب اليمن ، وله عليه هدية يبعثها له فى كل سنة . ثم استبد الملك المغيث بملكها وامتنع من إرسال الهدية . وكان من عزم ملك اليمن على محاربته وتعيين ابن عمه لذلك ووقوع الحائط عليه ما ذكرناه آنفا . وللسلطان قصر بداخل المدينة يسمى الحصن ، عظيم فسيح ، والجامع بإزائه ، ومن عادته أن تضرب الطبول والبوقات والأنفار والصُّرنايات على بابه كل يوم بعد صلاة العصر . وفى كل يوم اثنين وخميس تأتى العساكر إلى بابه فيقفون خارج (المِشْوَر) ساعة وينصرفون . والسلطان لا يخرج ولا يراه أحد إلا فى يوم الجمعة ، فيخرج للصلاة ثم يعود إلى داره . ولا يمنع أحدا من دخول (المِشْوَر) ، وأمير (جَنْدار) قاعد على بابه وإليه ينتهى كل صاحب حاجة أو شكاية ، وهو يطالع السلطان ويأتيه الجواب للحين . وإذا أراد السلطان الركوب خرجت مراكبه من القصر وسلاحه ومماليكه إلى خارج المدينة ، وأُتى بجمل عليه مَحْمِل مستور بِسِتْر أبيض منقوش بالذهب ، فيركب السلطان ونديمه فى المحمل بحيث لا يرى . وإذا خرج إلى بستانه وأحب ركوب الفرس ركبه ونزل عن الجمل . وعادته ألا يعارضه أحد فى طريقه ولا يقف لرؤيته ولا لشكاية ولا غيرها ، ومن تعرض لذلك ضرب أشد الضرب . فتجد الناس إذا سمعوا بخروج السلطان فروا عن الطريق وتحاموها . ووزير هذا السلطان الفقيه محمد العَدَنى ، وكان معلم صبيان ، فعلّم هذا السلطان القراءة والكتابة ، وعاهده على أن يستوزره إن ملك ، فلما ملك استوزره ، فلم يكن يحسنها ، فكان الاسم له والحكم لغيره . ومن هذه المدينة ركبنا البحر نريد عُمَان فى مركب صغير لرجل يعرف بعلى بن إدريس المَصِيرى ، من أهل جزيرة مَصِيرة . وفى الثانى

لركوبنا نزلنا بمرسى حاسك، وبه ناس من العرب صيادون للسمك ساكنون هنالك . وعندهم شجر الكُنْدُر ، وهو رقيق الورق، وإذا شرطت الورقة منه قطر منها ماء شبه اللبن ثم عاد صمغا ، وذلك الصمغ هو اللُّبان ، وهو كثير جدا هنالك . ولا معيشة لأهل ذلك المرسى إلا من صيد السمك ، وسمكهم يعرف بالّخم ، وهو شبيه كلب البحر ، يُشَرَّح و يقدد و يقتات به . وبيوتهم من عظام السمك ، وسقفها من جلود الجمـال . وسرنا من مرسى حاسك أربعة أيام ووصلنا إلى جبل لُمْعان وهو فى وسط البحر ، وبأعلاه رابطة مبنية بالحجارة ، وسقفها من عظام السمك ، وبخارجها غدير ماء يجتمع من المطر .

ذكر ولىّ لقيناه بهذا الجبل

ولمـا أرسينا تحت هذا الجبل صعدناه إلى هذه الرابطة ، فوجدنا بها شيخا نائما، فسلمنا عليه فاستيقظ وأشار برد السلام، فكلمناه فلم يكلمنا ، وكان يحرك رأسه ، فأتاه أهل المركب بطعام فأبى أن يقبـله ، فطلبنا منه الدعاء فكان يحرك شفتيه ، ولا نعلم ما يقول، وعليه مُرَقَّعة وقَلَنْسُوة لِبْد ، وليس معه رَكْوَة[1] ولا إبريق ولا عكاز ولا نعل . وقال أهل المركب : إنهم ما رأوه قط بهذا الجبل . وأقمنا تلك الليلة بساحل هـذا الجبل وصلينا معه العصر والمغرب ، وجئناه بطعام فرده، وأقام يصلى إلى العشاء الآخرة ، ثم أذّن وصليناها معه . وكان حسن الصوت بالقراءة مجيدا لها . ولمـا فرغ من صلاة العشاء الآخرة أومأ إلينا بالانصراف ، فودعناه وانصرفنا ونحن نعجب من أمره . ثم إنى أردت الرجوع إليه لمـا انصرفنا ، فلما دنوت منه هِبته وغاب علىّ الخوف، ورجعت إلى أصحابى وانصرفت معهم وركبنا البحر ، ووصلنا بعد يومين إلى جزيرة الطير ، وليست بها عمارة ، فأرسينا وصعدنا إليها ، فوجدناها مَلْأَى

(١) وعاء للماء .

بطيور تشبه الشقاشق [1] إلا أنهـا أعظم منها ، وجاءت الناس ببيض تلك الطيور فطبخوها وأكلوها ، واصطادوا جملة من تلك الطيور فطبخوها دون ذكاة وأكلوها . وكان يجالسنى تاجر من أهـل جزيرة مَصِيرة ساكن بِظَفار اسمه مسلم ، فرأيته يأكل معهم تلك الطيور ، فأنكرت ذلك عليه ، فاشتد خجله وقال لى : ظننت أنهم ذبحوها ، وانقطع عنى بعد ذلك من الخجل ، فكان لا يَقْرَبنى حتى أدعوه . وكان طعامى فى تلك الأيام بذلك المركب التمر والسمك ، وكانوا يصطادون بالغـدوّ والعشىّ سمكا يسمى بالفارسـية (شير ما هى) ، ومعناه : أسد السمك ، لأن شِير : هو الأسد ، وما هى : السمك . وهم يقطعونه قطعا ويشوونه ويعطون كل من فى المركب قطعة، لا يفضلون أحدا على أحد ، ولا صاحب المركب ولا سواه ، ويأكلونه بالتمر . وكان عندى خبز وكعك استصحبتهما من ظَفار . فلما نَفِـدا كنت أقتات من ذلك السمك فى جملتهم . وعَيّدنا عيد الأضحى على ظهر البحر ، وهبّت علينا فى يومه ريح عاصفة بعـد طلوع الفجر ، ودامت إلى طلوع الشمس وكادت تغرقنا .

حكاية

وكان معنا فى المركب حاج من أهل الهند يسمى بخضر ، ويدعى بمولانا ، لأنه يحفظ القرآن ويحسن الكتابة ، فلما رأى هول البحر لف رأسه بعباءة كانت له وتناوم ، فلمـا فرج الله ما نزل بنا قلت له : يا مولانا خضر ، كيف رأيت ؟ قال : قد كنت عند الهول أفتح عينى أنظر هل أرى الملائكة الذين يقبضون الأرواح جاءوا ؟ فلا أراهم فأقول : الحمد لله ، لو كان الغرق لأتوا لقبض الأرواح ، ثم أغلق عينى ثم أفتحها فأنظر كذلك ، إلى أن فرج الله عنا . وكان قد تقـدمنا مركب لبعض التجار فغَرِق ولم ينج منه إلا رجل واحد ، خرج عوما بعد جَهْد شديد .

---

(1) لم نعثر على هذه الكلمة فيما لدينا من المراجع ، كما سيأتى فى حواشى الجزء الثانى .

وأكلت فى ذلك المركب نوعا من الطعام لم آكله قبله ولا بعده ، صنعه بعض تجار عُمَان وهو من الذرة ، طبخها من غير طحن وصب عليها عسل التمر وأكلناه . ثم وصلنا إلى جزيرة مَصِيرة التى منها صاحب المركب الذى كنّا فيه ، جزيرة كبيرة لا عيش لأهلها إلا من السمك ، ولم تنزل إليها لبعد مرساها عن الساحل ، وكنت قد كرهتهم لما رأيتهم يأكلون الطير من غير ذكاة . وأقمنا بها يوما ، وتوجه صاحب المركب فيه إلى داره وعاد إلينا . ثم سرنا يوما وليلة فوصلنا إلى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بِصُور ، ورأينا منها مدينة قَلْهات فى سفح جبل ، فخيل لنا أنها قريبة ، وكان وصولنا إلى المرسى وقت الزوال أو قبله . فلما ظهرت لنا المدينة أحببت المشى إليها والمبيت بها ، وكنت قد كرهت صحبة أهل المركب ، فسألت عن طريقها فأخبرت أنى أصل إليها عند العصر . فاكتريت أحد البحريين ليدلنى على طريقها ، وصحبنى خضر الهندى الذى تقدم ذكره ، وتركت أصحابى مع ما كان لى بالمركب ليلحقوا بى فى غد ذلك اليوم . وأخذت أثوابا كانت لى فدفعتها لذلك الدليل ليكفينى مُؤْنة حملها ، وحملت فى يدى رمحا ، فإذا ذلك الدليل يحب أن يستولى على أثوابى ، فأتى بنا إلى خليج يخرج من البحر فيه المد والجزر ، فأراد عبوره بالثياب فقلت له : إنما تعبر وحدك وتترك الثياب عندنا ، فإن قدرنا على الجواز جزنا وإلا صعدنا نطلب المجاز ، فرجع . ثم رأينا رجالا جازوه عوما ، فتحققنا أنه كان قصده أن يغرقنا ويذهب بالثياب . فحينئذ أظهرت النشاط وأخذت بالحزم وشددت وسطى ، وكنت أهزّ الرمح ، فهابنى ذاك الدليل . وصعدنا حتى وجدنا مجازا ؛ ثم خرجنا إلى صحراء لا ماء بها ، وعطِشنا واشتد بنا الأمر ، فبعث الله لنا فارسا فى جماعة من أصحابه وبيد أحدهم رَكْوَة ماء فسقانى وسقى صاحبى ، وذهبنا نَحْسَب المدينة قريبة منا ، وبيننا وبينها

خنادق تُمْشي فيها الأميال الكثيرة . فلما كان من العشيّ أراد الدليل أن يميل بنا إلى ناحية البحر، وهو لا طريق له لأن ساحله حجارة ، فأراد أن نَنْشَب فيها ويذهب بالثياب ، فقلت له : إنما نمشي على هـذه الطريق التي نحن عليها ، و بينها و بين البحر نحو ميل . فلما أظلم الليل قال لنا : إن المدينة قريبة منا ، فتعالوا نمش حتى نبيت بخارجها إلى الصباح ، فخفت أن يتعرض لنا أحد في طريقنا ، ولم أحقق مقدار ما بقي إليها ، فقلت له : إنما الحق أن نخرج عن الطريق فننام ، فاذا أصبحنا أتينا المدينة (إن شاء الله) .

وكنت قد رأيت جملة من الرجال في سفح جبل هنالك ، فخفت أن يكونوا لصوصا ، وقلت : التستر أولى ! وغلب العطش على صاحبي فلم يوافق على ذلك ، فخرجت عن الطريق ، وقصدت شجرة من شجر أم غَيْلان ، وقد أُعْيِيْتُ وأدركني الجَهْد ، لكني أظهرت قوة وتجلدا خوف الدليل . وأما صاحبي فمريض لا قوة له ، فجعلت الدليل بيني وبين صاحبي ، وجعلت الثياب بين ثوبي وجسدي . وأمسكت الرمح بيدي ، ورقد صاحبي ورقد الدليل ، وبقيت ساهرا ، فكلما تحرك الدليل كلمته وأريته أني مستيقظ . ولم نزل كذلك حتى أصبحنا ، فخرجنا إلى الطريق فوجدنا الناس ذاهبين بالمرافق إلى المدينة ، فبعثت الدليل ليأتينا بماء ، وأخذ صاحبي الثياب ، وكان بيننا وبين المدينـة مَهَاوٍ وخنادق ، فأتانا بالماء فشربنا وذلك أوان الحر .

ثم وصلنا إلى مدينة قَلْهات ، فأتيناها ونحن في جَهْـد عظيم ، وكنت قد ضاقت نعلي على رجلي حتى كاد الدم أن يخرج من تحت أظفارها . فلما وصلنا باب المدينة كان ختام المشقة أن قال لنا الموكل بالباب : لا بد لك أن تذهب معي إلى أمير المدينة ليعرف قضيتك ومن أين قدمت ؟ فذهبت معه إليه فرأيته فاضلا حسن الأخلاق ، وسألني عن حالي وأنزلني .

وأقمت عنده ستة أيام لا قدرة لى فيها على النهوض على قدمى لما لحقها من الآلام . ومدينة قَلْهات على الساحل ، وهى حسنة الأسواق ، ولها مسجد من أحسن المساجد ، حيطانه بالقاشانى ، وهو مرتفع يُنْظر منه إلى البحر والمرسى . وهو من عمارة الصالحة بيبى مريم ، ومعنى بيبى عندهم : الحرة . وأكلت بهذه المدينة سمكا لم آكل مثله فى إقليم من الأقاليم ، وكنت أفضله على جميع اللحوم فلا آكل سواه ، وهم يشوونه على ورق الشجر ويجعلونه على الأرز ويأكلونه . والأرز يجلب إليهم من أرض الهند . وهم أهل تجارة ، ومعيشتهم مما يأتى إليهم فى البحر الهندى . وإذا وصل إليهم مركب فرحوا به أشد الفرح . وكلامهم ليس بالفصيح مع أنهم عرب ، وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بلا فيقولون مثلا : تأكل لا ، تمشى لا ، تفعل كذا لا . وأكثرهم خوارج ، لكنهم لا يقدرون على إظهار مذهبهم ، لأنهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تَمَهْتَن ملك هرمز ، وهو من أهل السنة . وبمقربة من قَلْهات قرية (طيبى) واسمها على نحو اسم الطيب إذا أضافه المتكلم لنفسه . وهى من أجمل القرى وأبدعها حسنا ، ذات أنهار جارية وأشجار ناضرة وبساتين كثيرة ، ومنها تجلب الفواكه الى قلهات . وبها الموز وهو كثير بها . ويجلب منها إلى هرمز وسواها ، وبها أيضا التانبُول لكن ورقته صغيرة . والتمر يجلب إلى هذه الجهات من عُمان . ثم قصدنا بلاد عُمان فسرنا ستة أيام فى صحراء ، ثم وصلنا بلاد عمان فى اليوم السابع ، وهى خِصْبة ذات أنهار وأشجار وبساتين وحدائق نخل وفاكهة كثيرة مختلفة الأجناس . ووصلنا إلى قاعدة هذه البلاد وهى مدينة نَزْوا ، مدينة فى سفح جبل ، تَحُفُّ بها البساتين والأنهار ، ولها أسواق حسنة ومساجد معظمة نقية . وعادة أهلها أنهم يأكلون فى صحون المساجد ، يأتى كل إنسان بما عنده ، ويجتمعون للأكل فى صحن المسجد ،

ويأكل معهم الوارد والصادر . ولهم نَجْدة وشجاعة ، والحرب قائمة فيما بينهم أبدا . وهم إباضية[١] المذهب، ويصلون الجمعة ظهرا أربعا، فإذا فرغوا منها قرأ الإمام آيات من القرآن ، ونثر كلاما شبه الخطبة يترضّى[٢] فيه عن أبي بكر وعمر، ويسكت عن عثمان وعليّ . وهم إذا أرادوا ذكر عليّ (رضى الله عنه) كَنَوْا عنه، فقالوا : ذُكِر عن الرجل ، أو قال الرجل؛ ويترضّوْن عن الشقى اللعين ابن مُلْجَم ، ويقولون فيه: العبد الصالح قامع الفتنة . ونساؤهم يكثرن الفساد ، ولا غَيْرة عندهم ولا إنكار لذلك .

ذكر سلطان عُمان

وسلطانها عربى من قبيلة الأَزْد بن الغَوْث ، ويعرف بأبى محمد بن نبهان . وأبو محمد عندهم سِمَة لكل سلطان يلى عمان ، كما هى أَتَابَك عند ملوك اللُّور . وعادته أن يجلس خارج باب داره فى مجلس هنالك ولا حاجب له ولا وزير، ولا يمنع أحدا من الدخول إليه من غريب أو غيره ، ويكرم الضيف على عادة العرب، ويعين له الضيافة، ويعطيه على قدره. وله أخلاق حسنة. ويؤكل على مائدته لحم الحمار الإنسى، ويباع بالسوق، لأنهم قائلون بتحليله ، ولكنهم يخفون ذلك عن الوارد عليهم ولا يظهرونه بحضره . ومن مدن عمان مدينة زَكِى ، لم أدخلها ، وهى على ما ذكر لى مدينة عظيمة، ومنها : القُرَيَّات ، وَشَبَا ، وكَلْبَا . وكلها ذات أنهار وحدائق وأشجار ونخيل . وأكثر هذه البلاد فى عِمالة هُرْمُز .

---

(١) الإباضية : فرقة من الخوارج تبعوا عبد الله بن إباض المرى . وفى سنة ١٥٣ هـ تغلبوا على مملكة إفريقية وانتشروا فى طرابلس الغرب . ومعتقدهم فيما يختص بأصول الدين يوافق معتقد السنيين تقريبا .

(٢) يقول : رضى الله عنه

السفر إلى هُرْمُز

ثم سافرت من بلاد عمان إلى بلاد هرمز، وهرمز مدينة على ساحل البحر، وتقابلها فى البحر هرمز الجديدة، و بينهما فى البحر ثلاثة فراسخ. ووصلنا إلى هرمز الجديدة وهى جزيرة مدينتها تسمى جَرَوْن، وهى مدينة حسنة كبيرة لها أسواق حافلة. وهى مرسى الهند والسند، ومنها تحمل سِلَع الهند إلى العِراقيْن وفارس وخُرَاسان. وبهذه المدينة سكنى السلطان. والجزيرة التى فيها المدينة مسيرة يوم. وأكثرها سِباخ[1] وجبال ملح وهو الملح الدارانى، ومنه يصنعون الأوانى للزينة والمنارات التى يضعون السُّرُج عليها. وطعامهم السمك والتمر المجلوب إليهم من البصرة وعمان. والماء فى هذه الجزيرة له قيمة، وبها عيون ماء وصهاريج مصنوعة يجتمع فيها ماء المطر. وهى على بعد من المدينة. ويأتون إليها بالقرب فيملئونها ويرفعونها على ظهورهم إلى البحر، يوسقونها فى القوارب ويأتون بها إلى المدينة. ورأيت من العجائب عند باب الجامع فيما بينه وبين السوق رأس سمكة كأنه رابية، وعيناه كأنهما بابان، فترى الناس يدخلون من إحداهما ويخرجون من الأخرى. ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح السائح أبا الحسن الأقْصَرانى، وأصله من بلاد الروم، فأضافنى وزارنى وألبسنى ثوبا. وعلى ستة أميال من هذه المدينة مزار ينسب إلى الخَضِر وإلياس عليهما السلام، يذكر أنهما يصليان فيه، وظهرت له بركات وبراهين. وهنالك زاوية يسكنها أحد المشايخ، يخدُم بها الوارد والصادر، وأقمنا عنده يوما. وقصدنا من هنالك زيارة رجل صالح منقطع فى آخر

---

(١) جمع سَبَخَة. وقد تقدم شرحها فى الحواشى.

هـذه الجزيرة قد نحت غارا لسكناه ، فيه زاوية ومجلس ودار صغيرة له فيها جارية ، وله عبيد خارج الغار يرعون بقرا له وغنما . وكان هذا الرجل من كبار التجار ، فحج البيت وقطع العلائق ، وانقطع هنالك للعبادة ، ودفع ماله لرجل من إخوانه يتجر له به ؛ وبتنا عنده ليلة فأحسن القِرى وأجمل . (رضى الله تعالى عنه) .

ذكر سلطان هُرْمز

وهو السلطان قطب الدين تَمَهْتَن بن طُوران شاه . وهو من كرماء السلاطين ، كثير التواضع حسن الأخلاق ؛ وعادته أن يأتى لزيارة كل من يَقْدَم عليه من فقيه أو صالح أو شريف ، ويقوم بحقه . ولما دخلنا جزيرته وجدناه مهيأ للحرب مشغولا بها مع ابنى أخيه نظام الدين . والغلاء مستولى على الجزيرة . فأتى إلينا وزيره شمس الدين محمد بن على وقاضيه عماد الدين الشُّونكارى وجماعة من الفضلاء ، فاعتذروا بما هم عليه من مباشرة الحرب .

وأقمنا عندهم ستة عشر يوما ، فلما أردنا الانصراف قلت لبعض الأصحاب : كيف ننصرف ولا نرى هـذا السلطان ؟ فجئنا دار الوزير وكانت فى جوار الزاوية التى نزلت بها ، فقلت له : إنى أريد السلام على الملك ؛ فقال : باسم الله . وأخذ بيدى فذهب بى إلى داره وهى على ساحل البحر ، فإذا شيخ عليه أقبية ضيقة دَنِسة ، وعلى رأسه عمامة ، وهو مشدود الوسط بمنديل . فسلم عليه الوزير وسلمت عليه ، ولم أعرف أنه الملك ؛ وكان إلى جانبه ابن أخته وهو علىّ شاه بن جلال الدين الكيجى . وكانت بينى وبينه معرفة ، فأنشأت أحادثه وأنا لا أعرف الملك ، فعرفنى الوزير بذلك ، فخجلت منه لإقبالى بالحديث على ابن أخته دونه ، واعتذرت إليه . ثم قام فدخل داره وتبعه الأمراء والوزراء وأرباب الدولة ، ودخلت مع الوزير ، فوجدناه قاعدا على سرير ملكه وثيابه عليه لم يبدلها ، وفى يده سُبْحة جوهر لم تر العيون مثلها ، لأن مغاصات الجوهر تحت حكمه ، فجلس

أحد الأمراء إلى جانبه ، وجلست إلى جانب ذلك الأمير ، وسألنى عن حالى ومَقْدَمى وعمن لقيته من الملوك فأخبرته بذلك . وحضر الطعام فأكل الحاضرون ولم يأكل معهم . ثم قام فودعته وانصرفت . وسبب الحرب التى بينه وبين ابنى أخيه أنه ركب البحر مرة من مدينته الجديدة للنزهة فى هرمز القديمة وبساتينها ، وبينهما فى البحر ثلاثة فراسخ ، كما قدمناه ، فخالف[1] عليه أخوه نظام الدين ودعا لنفسه ، وبايعه أهل الجزيرة وبايعته العساكر . فخاف قطب الدين على نفسه ، وركب البحر إلى مدينة قَلْهات التى تقدم ذكرها ، وهى من جملة بلاده . فأقام بها شهورا وجهز المراكب وأتى الجزيرة ، فقاتله أهلها مع أخيه وهزموه . وعاد إلى قلهات وفعل ذلك مرارا . فلم تكن له حيلة إلا أن راسل بعض نساء أخيه فسمّته ومات . وأتى هو إلى الجزيرة فدخلها وفرّ ابنا أخيه بالخزائن والأموال والعساكر إلى جزيرة قَيْس ، حيث مغاص الجوهر ، وصاروا يقطعون الطريق على من يقصد الجزيرة من أهل الهند والسند ، ويغيرون على بلاده البحرية حتى تخرب معظمها .

ثم سافرنا من مدينة جَرَوْن برسم لقاء رجل صالح ببلد خُنْج بال . فلما جُزْنا البحر اكترينا دواب من التُّركمان ، وهم سكان تلك البلاد ، ولا يُسَافَر فيها إلا معهم لشجاعتهم ومعرفتهم بالطرق ؛ وفيها صحراء مسيرة أربع ، يقطع بها الطريقَ لصوصُ الأعراب . وتهب فيها ريح السَّموم فى شهرى تَمُّوز وحَزِيران ، فمن صادفته فيها قتلته . ولقد ذُكر لى أن الرجل إذا قتلته تلك الريح وأراد أصحابه غسله ينفصل كل عضو منه عن سائر الأعضاء . وبها قبور كثيرة للذين ماتوا فيها بهذه الريح . وكنا نسافر فيها بالليل ، فإذا طلعت الشمس نزلنا تحت ظلال الأشجار من أم غَيْلان ، ونرحل بعد العصر إلى طلوع الشمس . وفى هذه الصحراء وما والاها كان يقطع الطريقَ بها جَمال اللُّك الشهير الاسم هنالك .

---

(١) يريد خرج عليه . وهو تعبير كثير الدوران فى هذه الرحلة . ويظهر لنا أنه غير فصيح .

حكاية

كان جَمال اللُّك من أهل سِجِسْتَان أعجمى الأصل (واللك بضم اللام) معناه الأقطع[1]، وكانت يده قطعت فى بعض حروبه، وكانت له جماعة كثيرة من فرسان الأعراب والأعاجم يقطع بهم الطرق. وكان يبنى الزوايا و يطعم الوارد والصادر من الأموال التى يسلبها من الناس. ويقال: إنه كان يدعو ألا يُسَلَّط إلا على من لا يزكى ماله؛ وأقام على ذلك دهرا . وكان يُغِير هو وفرسانه ويسلكون برارى لا يعرفها سواهم، ويدفنون بها قِرب المـاء ورَوَايَاه[2]، فإذا تبعهم عسكر السلطان دخلوا الصحراء واستخرجوا الميـاه، ويرجع العسكر عنهم خوفا من الهلاك. وأقام على هذه الحالة مدة لا يقدر عليه ملك العراق ولا غيره، ثم تاب وتعبد حتى مات . وقبره يزار ببلده .

وسلكنا هذه الصحراء إلى أن وصلنا إلى كَوْرَسْتان، وهو بلد صغير فيـه الأنهار والبساتين، وهو شديد الحر. ثم سرنا منه ثلاثة أيام فى صحراء مثل التى تقدمت ووصلنا إلى مدينـة لار، مدينـة كبيرة كثيرة العيون والمياه المطردة والبساتين . ولها أسواق حسان . ونزلنا منها بزاوية الشيخ العابد أبى دُلَف محمد، وهو الذى قصدنا زيارته بِخُنج بال . وبهذه الزاوية ولده أبو زيد عبد الرحمن ومعـه جماعة من الفقراء . ومن عادتهم أنهم يجتمعون بالزاوية بعد صلاة العصر من كل يوم، ثم يطوفون على دور المدينة فيُعْطَوْن من كل دار الرغيف والرغيفين، فيطعمون منها الوارد والصادر. وأهل الدور قد أَلِفوا ذلك، فهم يجعلونه فى جملة قوتهم، ويعدونه لهم إعانة على إطعام الطعام . وفى كل ليلة جمعة يجتمع بهذه الزاوية فقراء المدينة وصلحاؤها، ويأتى كل منهم بمـا تيسر له من الدراهم، فيجمعونها وينفقونهـا تلك الليلة، ويبيتون فى عبـادة من الصلاة والذكر والتلاوة، وينصرفون بعد صلاة الصبح .

(١) أى بلسانهم .

(٢) جمع راوية، وهى الدابة يستق عليها . ولكن المراد هنا القربة، على المجاز .

ذكر سلطان لار

وبهذه المدينة سلطان يسمى بجلال الدين، تُرْكمانى الأصل، بعث إلينا بضيافة، ولم نجتمع به ولا رأيناه . ثم سافرنا إلى مدينــة خُنْجُ بال، وبها سكنى الشيخ أبي دُلَف الذى قصدنا زيارته وبزاويته نزلنا . ولما دخلت الزاوية رأيته قاعدا بناحية منها على التراب، وعليه جبة صوف خضراء بالية ، وعلى رأسه عِمامة صوف ســوداء . فسلمت عليه فأحسن الرد ، وسألنى عن مقدمى وبلادى وأنزلنى . وكان يبعث إلىّ الطعــام والفاكهة مع ولد له من الصالحين كثير الخشوع والتواضع، صائم الدهر كثير الصلاة . ولهذا الشيخ أبى دلف شأن عجيب وأمر غريب : فإن نفقته فى هذه الزاوية عظيمة وهو يعطى العطاء الجزيل، ويكسو الناس ويركبهم الخيل، ويحسن إلى كل وارد وصادر، ولم أر فى تلك البلاد مثله ، ولا يعلم له جهة إلا مايصله من الإخوان والأصحاب، حتى زعم كثير من الناس أنه ينفق من الكون[1] . وفى زاويته المذكورة قبر الشيخ الولى الصالح القطب دانيال ، وله اسم بتلك البلاد شهير، وشأن فى الولاية كبير ، وعلى قبره قبــة عظيمة بناها السلطان قطب الدين تَمَهْتَن بن طوران شاه ، وأقمت عند الشيخ أبى دُلَف يوما واحدًا لاستعجال الرُّفْقة التى كنت فى صحبتها . وسمعت أن بالمدينة (خنج بال المذكورة) زاوية فيهـا جملة من الصالحين المتعبدين، فرحت إليها بالعشى ، وسلمت على شيخهم وعليهم ، ورأيت جماعة مباركة، قد أثرت فيهم العبادة، فهم صفر الألوان، نحاف الجسوم، كثيرو البكاء، غزيرو الدموع . وعند وصولى إليهم أتوا بالطعام فقال كبيرهم : ادع لى ولدى محمدا ، وكان معتزلا فى بعض نواحى الزاوية، فجاء إلينا الولد وهو كأنما خرج من قبر، ممـا نهكته العبادة ، فسلم وقعد، فقال له أبوه : يابنى شارك هؤلاء الواردين فى الأكل تنل من بركاتهم ؛ وكان صائما فأفطر معنا . وهم شافعية المذهب . فلما فرغنا من أكل الطعام دعوا لنا وانصرفنا .

(١) أى أن الله تعالى يرزقه من حيث لا يدرى . وهو بعيد .

ثم سافرنا منها إلى مدينة قَيْس ، وتسمى أيضا بِسيراف ، وهى على ساحل بحر الهند المتصل ببحر اليمن وفارس ، مدينة لها انفساح وسعة ، طيبة البقعة ، فى دورها بساتين عجيبة ، فيها الرياحين والأشجار الناضرة ؛ وشُرْب أهلها من عيون منبعثة من جبالها . وهم عجم من الفرس أشراف ، وفيهم طائفة من عرب بنى سَفَّاف ، وهم الذين يغوصون على الجوهر .

ذكر مغاص الجوهر

ومغاص الجوهر فيما بين سِيراف والبحرين فى خَوْر راكد ، مثل الوادى العظيم . فإذا كان شهر أبريل وشهر مايو تأتى إليه القوارب الكثيرة ، فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقَطِيف ، ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد أن يغوص شيئا يكسوه من عظم الغَيْلم : وهى السُّلَحْفَاة ، ويصنع من هذا العظم أيضا شكلا شبه المقراض يشده على أنفه ، ثم يربط حبلا فى وسطه ويغوص . ويتفاوتون فى الصبر فى الماء : فمنهم من يصبر الساعة والساعتين[1] فما دون ذلك . فإذا وصل إلى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الأحجار الصغار مثبتا فى الرمل ، فيقتلعه بيده أو يقطعه بحديدة عنده معدّة لذلك ، ويجعلها فى مِخْلاة جلد مَنُوطة بعنقه . فإذا ضاق نفسه حرك الحبل ، فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل ، فيرفعه إلى القارب ، فتؤخذ منه المخلاة . ويفتح الصدف ، فيوجد فى أجوافها قطع لحم تقطع بحديدة ، فإذا باشرت الهواء جَمَدَت فصارت جواهر[2] ، فيجمع جميعها من صغير وكبير ، فيأخذ السلطان خُمُسه ، والباقى يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب ، وأكثرهم يكون له الدين على الغواصين ، فيأخذ الجوهر فى دينه أو ما وجب له منه .

---

(١) مبالغة .

(٢) هذا غير الواقع .

ثم سافرنا من سِيراف إلى مدينة البحرين ، وهي مدينة كبيرة حسنة ، ذات بساتين وأشجار وأنهار ، وماؤها قريب المُؤْنة ، يحفر عليه بالأيدى فيوجد . وبها حدائق النخل والرمان والأُتْرُجّ ، ويزرع بها القطن . وهى شديدة الحر ، كثيرة الرمال ، وربما غلب الرمل على بعض منازلها . وكان فيما بينها وبين عُمَان طريق استولت عليه الرمال وانقطع ، فلا يوصل من عمان إليها إلا فى البحر . وبالقرب منها جبلان عظيمان يسمى أحدهما بِكُسَيْر وهو فى غربيها ، ويسمى الآخر بِعُوَيْر وهو فى شرقيها ، وبهما ضرب المثل فقيل : كسير وعوير ، وكل غير خير . ثم سافرنا إلى مدينة القُطَيْف[1] ، وهى مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير ، يسكنها طوائف العرب ، وهم رافضية غُلاة ، يظهرون الرفض جهارا لا يتقون أحدا ، ويقول مؤذنهم فى أذانه بعد الشهادتين : أشهد أن عليا ولىّ الله ، ويزيد بعد الحَيْعَلَتَيْن : حىّ على خير العمل . ويزيد بعد التكبير الأخير : محمد وعلى خير البشر ، من خالفهما فقد كفر . ثم سافرنا منها إلى مدينة هَجَر ، وتسمى الآن بالحَسَا ، وهى التى يضرب المثل بها فيقال : كجالب التمر إلى هجر ، وبها من النخيل ما ليس ببلد سواها ، ومنه يَعْلِفُون دوابهم . وأهلها عرب ، وأكثرهم من قبيلة عبد القَيْس بن أَقْصَى . ثم سافرنا منها إلى مدينة اليمامة ، وتسمى أيضا بِحَجْر ، مدينة حسنة خِصْبة ، ذات أنهار وأشجار ، يسكنها طوائف من العرب ، أكثرهم من بنى حنيفة ، وهى بلدهم قديما ، وأميرهم طُفَيْل بن غانم . ثم سافرت منها فى صحبة هذا الأمير برسم الحج ، وذلك فى سنة ثنتين وثلاثين .

العودة إلى الحجاز

فوصلت إلى مكة ، شرفها الله تعالى . وحج فى تلك السنة الملك الناصر سلطان مصر (رحمه الله) وجملة من أمرائه ، وهى آخر حجة حجها ، وأجزل الإحسان لأهل الحرمين الشريفين وللمجاورين .

(1) هكذا ضبطها ابن بطوطة . وضبطها صاحب القاموس كشَرِيف .

ولما انقضى الحج توجهت إلى جُدَّة ، برسم ركوب البحر إلى اليمن والهند ، فلم يقض لى ذلك ، ولا تأتى لى رفيق . وأقمت بجدة نحو أربعين يوما ، وكان بها مركب لرجل يعرف بعبد الله التونسى ، يروم السفر إلى القُصَيْر من عِمالة قُوص ، فصعدت إليه لأنظر حاله ، فلم يرضنى ولا طابت نفسى بالسفر فيه ، وكان ذلك لطفا من الله تعالى : فإنه سافر ، فلما توسط البحر غَرِق بموضع يقال له رأس أبى محمد ، فخرج صاحبه وبعض التجار بعد جَهْد عظيم ، وأشرفوا على الهلاك ، وهلك بعضهم ، وغرق سائر الناس ، وكان فيه نحو سبعين من الحجاج . ثم ركبت البحر بعد ذلك فى (صنبوق) برسم عَيْذاب ، فردتنا الريح إلى مرسى يعرف برأس دواير ، وسافرنا منه فى البر مع البُجاة ، فسلكنا صحراء كثيرة النعام والغزلان فيها عرب جُهَيْنة وبنى كاهل ، وطاعتهم للبجاة . ووردنا ماء يعرف بمَفْرُور ، وماء يعرف بالجَدِيد . ونَفِد زادنا فاشترينا من قوم من البجاة وجدناهم بالفلاة أغناما ، وتزودنا لحومها . ورأيت بهذه الفلاة صبيا من العرب كلمنى باللسان العربى ، وأخبرنى أن البجاة أسروه ، وزعم أنه منذ عام لم يأكل طعاما ، إنما يقتات بلبن الإبل . ونَفِد منّا بعد ذلك اللحم الذى اشتريناه ، ولم يبق لنا زاد ، وكان عندى نحو حِمْل من التمر الصَّيْحانى والبَرْنى برسم الهدية لأصحابى ، ففرقته على الرُّفقة ، وتزودناه ثلاثا . وبعد مسيرة تسعة أيام من رأس دواير ، وصلنا إلى عَيْذاب ، وكان قد تقدم إليها بعض الرُّفقة ، فتلقانا أهلها بالخبز والتمر والماء وأقمنا بها أياما ، واكترينا الجمال ، وخرجنا صحبة طائفة من عرب دَغيم ، وحللنا بحُمَيْثِرا ، حيث قبر ولى الله تعالى أبى الحسن الشاذلى .

العودة إلى صعيد مصر

وزرناه ثانيــة ، وبتنـا فى جواره ، ثم وصلنا إلى قرية العطوانى ، وهى على ضِفَّة النيل مقابلة لمدينة أدْفو من الصعيد الأعلى . وسافرت على طريق بُلْبَيْس إلى الشام، ورافقنى الحاج عبد الله بن أبى بكر بن الفرحان التَّوْزَرِى، ولم يزل فى صحبتى سنين إلى أن خرجنا من بلاد الهنـد ، فتوفى بِسَنْدَابُور .
ومن اللاذِقية ركبنا البحر فى قُرْقُورة[1] كبيرة ، وقصدنا بر التركية المعروف ببلاد الروم ، وإنمـا نسبت إلى الروم لأنها كانت بلادهم فى القديم ، ومنهـا الروم الأقدمون واليونانيــة ، ثم استفتحها المسلمون . وبهـا الآن كثير من النصارى تحت ذمة المسلمين من التُّركمان .

وسرنا فى البحر عشرا بريح طيبة ، وأكرمنا النصرانى[2] ، ولم يأخذ منا نولا[3] . وفى العـاشر وصلنا إلى مدينة العَـلَايا ، وهى أول بلاد الروم . وهــذا الإقليم المعروف ببلاد الروم من أحسن أقاليم الدنيـا ، وقد جمع الله فيه ما تفرق من المحاسن فى البلاد : فأهله أجمــل الناس صورا ، وأنظفهم ملابس ، وأطيبهم مطاعم ، وأكثر خلق الله شفقة ، ولذلك يقال : البركة فى الشام ، والشفقة فى الروم ، وإنمـا عُنِى به أهل هذه البلاد . وكنا متى نزلنا بهــذه البلاد زاوية أو دارا يتفقد أحوالنا جيراننا من الرجال والنساء ، وهن لا يحتجبن ، فإذا سافرنا عنهم ودعونا ، كأنهم أقاربنا وأهلنا ، وترى النساء باكيات لفراقنـا متأسفات. ومن عادتهم بتلك البلاد أن يَخْبِزوا الخبز فى يوم واحد من الجمعة، يُعِدُّون فيه ما يقوتهم سائرها ، فكان رجالهم يأتون

---

(١) مركب كبير . وهو بغير هاء كما فى القاموس ، كما نبهنا على ذلك فما يلى من الحواشى .

(٢) يريد صاحب المركب .

(٣) النول : كلمة يونانية الأصل : معناها : ما يدفعه المسافر فى المركب من الأجرة وهو ما يسميه عامتنا (بالناولون) .

إلينا بالخبز الحار فى يوم خَبْزه ، ومعه الإدام الطيب ، إطرافا لنا بذلك ، ويقولون لنا : إن النساء بعثن هذا إليكم ، وهن يطلبن منكم الدعاء . وجميع أهل هذه البلاد على مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ، مقيمين على السنة . وتلك فضيلة خصهم الله تعالى بها ، إلا أنهم يأكلون الحشيش ولا يعيبون ذلك .

ومدينة العلايا التى ذكرناها كبيرة على ساحل البحر ، يسكنها التُّركمان ، وينزلها تجار مصر وإسكندرية والشام ، وهى كثيرة الخشب ، ومنها يحمل إلى إسكندرية ودمياط ، ويحمل منها إلى سائر بلاد مصر ، ولها قلعة بأعلاها ، عجيبة منيعة ، بناها السلطان المعظم علاء الدين الرومى . ولقيت بهذه المدينة قاضيها جلال الدين الأَرْزَنْجانى ، وصعد معى إلى القلعة يوم الجمعة فصلينا بها ، وأضافنى وأكرمنى .

ذكر سلطان العلايا

وفى يوم السبت ركب معى القاضى جلال الدين ، وتوجهنا إلى لقاء ملك العلايا ، وهو يوسف بك ، (ومعنى بك : الملك) ابن قَرَمان ، ومسكنه على عشرة أميال من المدينة ، فوجدناه قاعدا على الساحل وحده فوق رابية هناك ، والأمراء والوزراء أسفل منه ، والأجناد عن يمينه ويساره ، وهو مخضوب الشعر بالسواد . فسلمت عليه ، وسألنى عن مقدمى ، فأخبرته عما سأل ، وانصرفت عنه . وبعث إلى إحسانا . وسافرت من هنالك إلى مدينة أَنْطَالِيَة ، وأما التى بالشام فهى أَنْطَاكِيَة على وزنها إلا أن الكاف عوض عن اللام . وهى من أحسن المدن ، متناهية فى اتساع الساحة والضخامة ، أجمل ما يرى من البلاد ، وأكثره عمارة ، وأحسنه ترتيبا . وكل فرقة من سكانها منفردة بأنفسها ، عن الفرقة الأخرى : فتجار النصارى ساكنون منها بالموضع المعروف بالميناء ، وعليهم سور تسد أبوابه عليهم ليلا ،

وعند صلاة الجمعة . والروم الذين كانوا أهلها قديما ساكنون بموضع آخر منفردين به ، وعليهم أيضا سور ، واليهود فى موضع آخر وعليهم سور ، والملك وأهل دولته ومماليكه يسكنون ببلدة عليها أيضا سور يحيط بها ، ويفرق بينها وبين ما ذكرناه من الفرق . وسائر الناس من المسلمين يسكنون المدينة العظمى ، وبها مسجد جامع ، ومدرسة وحمامات كثيرة ، وأسواق ضخمة ، مرتبة بأبدع ترتيب ، وعليها سور عظيم يحيط بها ، وبجميع المواضع التى ذكرناها . وفيها البساتين الكثيرة ، والفواكه الطيبة ، والمِشْمِش العجيب المسمّى عندهم بقمر الدين ، وفى نواته لوز حلو . وهو ييبّس ، ويحمل إلى ديار مصر ، وهو بها مستظرف . وفيها عيون الماء الطيب العذب ، الشديد البرودة فى أيام الصيف . نزلنا من هذه المدينة بمدرستها ، وشيخها شهاب الدين الحَمَوى . ومن عادتهم أن يقرأ جماعة من الصبيان بالأصوات الحسان بعد العصر من كل يوم فى المسجد الجامع ، وفى المدرسة أيضا ، سورة الفتح ، وسورة المُلْك ، وسورة عَمّ .

ذكر الأخِيّة(١) الفتيان

واحد الأخية (أخى) على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه . وهم بجميع البلاد التُّركمانية الرومية ، فى كل بلد ومدينة وقرية . ولا يوجد فى الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس ، وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدى الظلمة . (والأخى) عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم .

---

(١) الجمع والمفرد مما تواضعوا عليه . وليس فى العربية . وفى أفعال هؤلاء الفتيان نبل وهمة ونجدة وسخاء ، يظهر ذلك للتتبع لأخبارهم فى هذا الكتاب .

وتلك هى الْفُتــوَّة أيضا . ويبنى زاوية ويجعـل فيها الفرش والسُّرج وما يحتاج إليه من الآلات . ويخـدم أصحابه بالنهار فى طلب معايشهم ، ويأتون إليه بعد العصر بمـا يجتمع لهم ، فيشترون به الفواكه والطعـام، إلى غير ذلك ممـا ينفق فى الزاوية . فإن ورد فى ذلك اليوم مسـافر على البلد أنزلوه عنـدهم ، وكان ذلك ضيافته لديهم . ولا يزال عندهم حتى ينصرف ، وإن لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعامهم ، فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدو ، وأتوا بعد العصر إلى مُقَدَّمهم بما اجتمع لهم . ويسمون بالفتيان ، ويسمى مقدمهم ، كما ذكرنا ، (الأخى) ؛ ولم أر فى الدنيا أجمل أفعالا منهم . ويشبههم فى أفعالهم أهل شيراز وأصفهان ، إلا أن هؤلاء أحب فى الوارد والصادر ، وأعظم إكراما له ، وشفقة عليه .

وفى الثانى من يوم وصولنا إلى هذه المدينة ، أتى أحد هؤلاء الفتيان إلى الشيخ شهاب الدين الحموى ، وتكلم معه باللسان التركى ، ولم أكن يومئذ أفهمه . وكان عليه أثواب أخلاق ، وعلى رأسه قلنسوة لِبْد ، فقال لى الشيخ : أتعلم ما يقول هـذا الرجل ؟ فقلت : لا أعلم ماقال ، فقال لى : إنه يدعوك إلى ضيافته أنت وأصحابك ، فعجبت منه ، وقلت له "نعم" . فلما انصرف قلت للشيخ : هـذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفنا ، ولا نريد أن نكلفه . فضحك الشيخ وقال لى : هذا أحد شيوخ الفتيان ، فتيان (الأخية) ، وهو من الخرازين[1] ، وفيه كرم نفس ، وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات ، قد قدموه على أنفسهم ، وبنوا زاوية للضيافة ، وما يجتمع لهم بالنهار أنفقوه بالليل .

---

(١) الخراز : الإسكاف .

وصف الضيافة

فلما صليت المغرب عاد إلينا ذلك الرجل، وذهبنا معه إلى زاويته ، فوجدناها زاوية حسنة ، مفروشة بالبُسُط الرومية الحسان ، وبها الكثير من ثُرَيَّيات الزجاج العراقى ، وفى المجلس خمسة من (البياسيس) ، والبيسوس : شبه المنارة من النحاس ، وله أرجل ثلاث ، وفى وسطه أنبوب للفتيلة ، ويملأ من الشحم المذاب ، وإلى جانبه آنية نحاس مَلْأى بالشحم ، وفيها مِقْراض لإصلاح الفتيلة ، وأحدهم موكل بها ، ويسمى عندهم الجراجى (الجراغجى)[1] . وقد اصطف فى المجلس جماعة من الشبان ، ولباسهم الأقبية وفى أرجلهم الأخفاف، وكل واحد منهم متحزم ، وعلى وسطه سكين فى طول ذراعين ، وعلى رءوسهم قلانس بيض من الصوف ، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها فى طول ذراع وعرض أصبعين . فإذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ووضعها بين يديه ، وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزَّرْدَخانى[2] وسواه ، حسنة المنظر . وفى وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين . ولما استقر بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير ، والفاكهة والحلواء، ثم أخذوا فى الغناء والرقص ، فراقنا حالهم ، وطال عجبنا من سماحهم وكرم أنفسهم . وانصرفنا عنهم آخر الليل، وتركناهم بزاويتهم .

---

(١) جراغجى : معناها الموكل بالقنديل ، بلسانهم .

(٢) الزردخانى : نوع من الحرير الرقيق ، بلسانهم .

ذكر سلطان أَنْطَالِيَة

وسلطانها خِضْر بك بن يونس بك . وجدناه عند وصولنا إليها عليلا ، فدخلنا عليه بداره ، وهو فى فراش المرض ، فكلمنا بألطف كلام وأحسنه، وودعناه وبعث إلينا بإحسان . وسافرنا إلى بلدة بُرْدُور ، وهى بلدة صغيرة كثيرة البساتين والأنهار ، ولها قلعة فى رأس جبل شاهق ، نزلنا بدار خطيبها . واجتمعت (الأخية) وأرادوا نزولنا عندهم فأبى عليهم الخطيب ، فصنعوا لنا ضيافة فى بستان لأحدهم ، وذهبوا بنا إليها ، فكان من العجائب إظهارهم السرور بنا ، والاستبشار والفرح ، وهم لا يعرفون لساننا ، ونحن لا نعرف لسانهم ولا تُرجمان فيما بيننا . وأقمنا عندهم يوما وانصرفنا . ثم سافرنا من هذه البلدة الى بلدسَبَرْتا ، وهى بلدة حسنة العمارة والأسواق ، كثيرة البساتين والأنهار ، لها قلعة فى جبل شامخ ، وصلنا إليها بالعشىّ ، ونزلنا عند قاضيها . وسافرنا منها إلى مدينة أَكْرِيدُور ، مدينة عظيمة كثيرة العمارة ، حسنة الأسواق ، ذات أنهار وأشجار وبساتين ، ولها بحيرة عذبة الماء ، يسافر المركب فيها يومين إلى أَقْشَهَر ، وبَقْشَهَر ، وغيرهما من البلاد والقرى . ونزلنا منها بمدرسة تقابل الجامع الأعظم ، بها المدرس العالم الحاج المجاور الفاضل مصلح الدين ، قرأ بالديار المصرية والشام ، وسكن بالعراق ، وهو فصيح اللسان ، حسن البيان ، أُطروفة من طُرَف الزمان ، أكرمنا غاية الإكرام ، وقام بحقنا أحسن قيام .

ذكر سلطان أَكْرِيدُور

وسلطانها أبو إسحاق بك بن الدندار بك ، من كبار سلاطين تلك البلاد ، سكن ديار مصر أيام أبيه ، وحج ، وله سير حسنة . ومن عادته أنه يأتى كل يوم إلى صلاة العصر بالمسجد الجامع ، فإذا قضيت صلاة العصر استند إلى جدار القبلة ، وقعد القراء بين يديه على مِصطبة خشب عالية فقرءوا سورة (الفتح والمُلْك وعَمّ) بأصوات حسان ، فعالة فى النفوس ، تخشع لها القلوب ، وتقشعر الجلود ، وتدمع العيون . ثم ينصرف الى داره . وأظلنا عنده شهر رمضان ، فكان يقعد فى كل ليلة منه على فراش لاصق بالأرض من غير سرير ، ويستند إلى مخدة كبيرة ، ويجلس الفقيه مصلح الدين إلى جانبه ، وأُجْلِسُ الى جانب الفقيه ، ويلينا أرباب دولته ، وأمراء حضرته . ثم يؤتى بالطعام ، فيكون أول ما يفطر عليه ثريد فى صحفة صغيرة ، عليه العَدَس ، مسقّى بالسمن والسكر . ويقدمون الثريد تبركا ، ويقولون : إن النبي صلى الله عليه وسلم فضله على سائر الطعام ، فنحن نبدأ به لتفضيل النبي له . ثم يؤتى بسائر الأطعمة ، وهكذا فعلهم فى جميع ليالى رمضان . وتوفى فى بعض تلك الأيام ولد السلطان ، فلم يزيدوا على بكاء الرحمة كما يفعله أهل مصر والشام ، خلافا لما قدّمناه من فعل أهل اللُّور حين مات ولد سلطانهم . فلما دفن أقام السلطان والطلبة ثلاثة أيام يخرجون إلى قبره بعد صلاة الصبح . وفى ثانى يوم من دفنه خرجت مع الناس فرآنى السلطان ماشيا على رجلى ، فبعث لى بفرس واعتذر . فلما وصلت المدرسة بعثت الفرس فرده ، وقال : إنما أعطيته عطية لا عاريّة . وبعث إلىّ بكسوة ودراهم . فانصرفنا إلى مدينة قُل حِصار ، مدينة صغيرة بها المياه من كل جانب ، قد نبت فيها القصب ، فلا طريق لها إلا طريقا كالجسر مهيأ ما بين القصب والمياه ، لا يسع إلا فارسا واحدا . والمدينة على تل فى وسط المياه منيعة ، لا يقدر عليها . ونزلنا بزاوية أحد الفتيان (الأخية) بها .

ذكر سلطان قُلْ حِصار

وسلطانها محمد جلبي ، وجَلَبِي تفسيره بلسان الروم : سيدى ، وهو أخو السلطان أبي إسحاق ملك أَكْرِيدُور . ولما وصلنا مدينته كان غائبا عنها فأقمنا بها أياما ، ثم قدم فأكرمنا وأركبنا وزوّدنا . وانصرفنا على طريق قَرا أغاج ، وقَرَا تفسيره : أسود ، وأغاج تفسيره : الخشب ، وهي صحراء خَضِرة يسكنها التركمان . وبعث معنا السلطان فرسانا يبلغوننا مدينة لاذِق ، بسبب أن هذه الصحراء يقطع الطريق فيها طائفة يقال لهم الجَرْمِيان ، يذكر أنهم من ذرية يزيد بن معاوية ، ولهم مدينة يقال لها كُوتاهِيَة ، فعصمنا الله منهم . ووصلنا إلى مدينة لاذِق ، وهي من أبدع المدن وأضخمها ، وفيها سبعة من المساجد لإقامة الجمعة . ولها البساتين الرائقة ، والأنهار المطردة ، والعيون النابعة ، وأسواقها حسان ، وتصنع بها ثياب قطن مُعْلَمَة بالذهب لا مثل لها ، تطول أعمارها لصحة قطنها ، وقوة غزلها . وهذه الثياب معروفة بالنسبة إليها ، وأكثر الصناع بها نساء الروم ، وبها من الروم كثير تحت الذمة ، وعليهم وظائف للسلطان من الجِزْية وسواها . وعلامة الروم بها القلانس الطوال ، منها الحمر والبيض . ونساء الروم لهن عمائم كبار .

وعند دخولنا لهذه المدينة مررنا بسوق لها ، فنزل إلينا رجال من حوانيتهم وأخذوا بأعنة خيلنا ، ونازعهم فى ذلك رجال آخرون ، وطال بينهم النزاع حتى سل بعضهم السكاكين على بعض ، ونحن لا نعلم ما يقولون . فخفنا منهم ، وظننا أنهم الجَرْمِيان الذين يقطعون الطرق ، وأن تلك مدينتهم ، وحَسِبْنا أنهم يريدون نهبنا . ثم بعث الله لنا رجلا حاجا يعرف اللسان العربى ، فسألته عن مرادهم منا ، فقال : إنهم من الفتيان ، وإن الذين سبقوا إلينا

أولا هم أصحاب الفتى (أخى) سنان ، والآخرون أصحاب الفتى (أخى) طومان . وكل طائفة ترغب فى أن يكون نزولكم عندهم ، فعجبنا من كريم نفوسهم . ثم وقع بينهم الصلح على المقارعة : فمن كانت قرعته نزلنا عنده أولا ، فوقعت قرعة (أخى) سنان وبلغه ذلك ، فأتى إلينا فى جماعة من أصحابه فسلموا علينا ، ونزلنا بزاوية له ، وأتى بأنواع الطعام . ثم ذهب بنا إلى الحمام ودخل معنا ، وتولى خدمتى بنفسه ، وتولى أصحابه خدمة أصحابى ، يَخْدُم الثلاثة والأربعة الواحد منهم . ثم خرجنا من الحمام فأتوا بطعام عظيم ، وحلواء وفاكهة كثيرة . وبعد الفراغ من الأكل قرأ القراء آيات من الكتاب العزيز ، ثم أخذوا فى السماع والرقص . وأعلموا السلطان بخبرنا . فلما كان من الغد ، بعث فى طلبنا بالعشىّ ، فتوجهنا إليه وإلى ولده كما نذكره . ثم عدنا إلى الزاوية ، فألفينا (الأخى) طومان وأصحابه فى انتظارنا ، فذهبوا بنا إلى زاويتهم ففعلوا فى الطعام والحمام مثل أصحابهم ، وزادوا عليهم أن صبوا علينا ماء الورد صبا بعد خروجنا من الحمام ، ثم مضوا بنا إلى الزاوية ، ففعلوا أيضا من الاحتفال فى الأطعمة والحلواء والفاكهة وقراءة القرآن بعد الفراغ من الأكل ، ثم السماع والرقص ، كمثل ما فعله أصحابهم أو أحسن . وأقمنا عندهم بالزاوية أياما .

ذكر سلطان لاذِق

وهو السلطان يَنَنْج بك ، وهو من كبار سلاطين بلاد الروم . ولما نزلنا بزاوية (أخى) سنان كما قدمناه ، بعث إلينا الواعظ المُذَكِّر العالم علاء الدين القَسْطَمُونى ، واستصحب معه خيلا بعددنا ، وذلك فى شهر رمضان . فتوجهنا إليه وسلمنا عليه . ومن عادة ملوك هذه البلاد التواضع للواردين ، ولين الكلام ، وقلة العطاء . فصلينا معه المغرب ، وحضر طعامه فأفطرنا

عنده وانصرفنا . و بعث إلينا بدراهم ، ثم بعث إلينا ولده مراد بك ، وكان ساكنا فى بستان خارج المدينة ، وذلك فى إبّان الفاكهة ، و بعث أيضا خيلا على عددنا كما فعله أبوه . فأتينا بستانه وأقمنا عنده تلك الليلة . وكان له فقيه يترجم بيننا و بينه . ثم انصرفنا غدوة . وأظلنا عيد الفطر بهذه البلدة ، فخرجنا إلى المصلى ، وخرج السلطان فى عساكره والفتيان (الأخية) كلهم بالأسلحة. ولأهل كل صناعة الأعلام والبوقات والطبول والأنفار ، و بعضهم يفاخر بعضا ويباهيه فى حسن الهيئة ، وكمال الشّكّة (١) . ويخرج أهل كل صناعة معهم البقر والغنم وأحمال الخبز ، فيذبحون البهائم بالمقابر ، ويتصدقون بها وبالخبز . ويكون خروجهم أولا إلى المقابر ، ومنها إلى المصلى .

ولما صلينا صلاة العيد دخلنا مع السلطان إلى منزله ، وحضر الطعام ، فجُعل للفقهاء والمشايخ والفتيان سماط على حدة ، وجُعل للفقراء والمساكين سماط على حدة ، ولا يُرَدّ على بابه فى ذلك اليوم فقير ولا غنى . وأقمنا بهذه البلدة مدة ، بسبب مخاوف الطريق . ثم تهيأت رُفقة فسافرنا معهم يوما و بعض ليلة ، ووصلنا إلى حصن طَواس ، وهو حصن كبير . ويذكر أن صُهيبا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنه من أهل هذا الحصن ، وكان مبيتنا بخارجه . ووصلنا بالغد إلى بابه ، فسألنا أهله من أعلى السور عن مقدمنا ، فأخبرناهم ، وحينئذ خرج أمير الحصن إلياس بك فى عسكره ، ليختبر نواحى الحصن والطريق ، خوفا من إغارة السراق على الماشية . فلما طافوا بجهاته خرجت مواشيهم ، وهكذا فعلهم أبدا . ونزلنا من هذا الحصن بربَضه فى زاوية رجل فقير ، وبعث إلينا أمير الحصن بضيافة وزاد . وسافرنا منه الى مُغْلة ، ونزلنا بزاوية أحد المشايخ بها ، وكان

---

(١) السلاح .

من الكرماء الفضلاء ، يكثر الدخول علينا بزاويته ، ولا يدخل إلا بطعام أو بفاكهة أو حلواء . ولقينا بهذه البلدة إبراهيم بك ولد سلطان مدينة مِيلاس ، وسنذكره ، فأكرمنا وكسانا . ثم سافرنا إلى مدينة ميلاس ، وهى من أحسن بلاد الروم وأضخمها ، كثيرة الفواكه والبساتين والمياه ، نزلنا منها بزاوية أحد الفتيان (الأخية) ، ففعل أضعاف ما فعله مَنْ قبله من الكرامة والضيافة ودخول الحمام وغير ذلك من حميد الأفعال ، وجميل الأعمال . ولقينا بمدينة ميلاس رجلا صالحا مُعَمَّرا يسمى بابا الشُّشْتَرى ، ذكروا أن عمره يزيد على مائة وخمسين سنة ، وله قوة وحركة ، وعقله ثابت ، وذهنه جيد ، دعا لنا وحصلت لنا بركته .

ذكر سلطان مِيلاس

وهو السلطان المكرم شجاع الدين أُرْخان بك ، وهو من خيار الملوك ، حسن الصورة والسيرة ، جلساؤه الفقهاء ، وهم معظمون لديه ، وببابه منهم جماعة ، منهم الفقيه الْخُوَارَزْمى ، عارف بالفنون فاضل . وكان السلطان فى أيام لقائى له واجدا عليه بسبب رحلته إلى مدينة أياسُلُوق ووصوله إلى سلطانها ، وقبول ما أعطاه . فسألنى هذا الفقيه أن أتكلم عند الملك فى شأنه بما يذهب ما فى خاطره ، فأثنيت عليه عند السلطان ، وذكرت ما علمته من علمه وفضله ، ولم أزل به حتى ذهب ما كان يجده عليه . وأحسن إلينا هذا السلطان وأركبنا وزودنا . وسكناه فى مدينة بَرْچِين ، وهى قريبة من ميلاس ، بينهما ميلان ، وهى جديدة على تل هنالك ، بها العمارات الحسان والمساجد ، وكان قد بنى بها مسجدا جامعا لم يتم بناؤه بعد . وبهذه البلدة لقيناه . ونزلنا منها بزاوية الفتى (أخى) علىّ . .

مدينـة قُونِيـَة

ثم انصرفنا بعـد ما أحسن إلينا، كما قدمناه ، إلى مدينة قونية ، مدينة عظيمة حسـنة العمارة ، كثيرة المـاء والأنهـار والبساتين والفواكه ، وبها المِشْمِش المسمى بقمرالدين ، وقد تقدم ذكره، ويحمل منه أيضا إلى ديار مصر والشام . وشوارعهـا متسعة جدا وأسواقهـا بديعة الترتيب . وأهل كل صناعة على حدة . ويقال : إن هذه المدينة من بناء الإسكندر . وهى من بلاد السلطان بدر الدين بن قَرَمان، وسنذكره . وقد تغلب عليها صاحب العراق فى بعض الأوقات لقربها من بلاده التى بهذا الإقليم . نزلنا منها بزاوية قاضيها ، ويعرف بابن قَلَم شاه وهو من الفتيان، وزاويته من أعظم الزوايا ، وله طائفة كبيرة من التلاميذ ، ولهم فى الفُتُوَّة سَنَد يتصل إلى أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السلام . ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة . وكان صنيع هـذا القاضى فى إكرامنا وضـيافتنا أعظم من صنيع مَنْ قبله وأجمل، وبعث ولده عوضا عنه لدخول الحمام معنا . وبهذه المدينة تربة الشيخ الإمام الصالح القطب جلال الدين[1] المعروف بمولانا . وكان كبير القدر. وبأرض الروم طائفة ينتمون إليه ،ويعرفون باسمه، فيقال لهم : الجلاليّة ، كما تعرف الأحمدية بالعراق ، والحَيْدرية بخُراسان . وعلى تربتـه زاوية عظيمة فيها الطعام للوارد والصادر .

---

(١) هو جلال الدين الرومى (١٢٠٧ — ١٢٧٣ م) أعظم شـعراء الإسلام الصوفيين ومؤسس طريقة الجلاليين ، المولويين . ولد فى بلخ وتوفى فى قونية . وله كتب شعرية باللغة الفارسية : منها (المثنوى) و (الديوان) .

حكاية

يذكر أنه كان فى ابتداء أمره فقيها مدرسا ، يجتمع إليه الطلبة بمدرسته بِقُونِيَّة . فدخل يوما إلى المدرسة رجل يبيع الحلواء ، وعلى رأسه طبق منها ، وهى مقطعة قطعا ، يبيع القطعة منها بفَلْس . فلما أتى مجلس التدريس قال الشيخ : هات طبقك ، فأخذ الحُلْوَانى[1] قطعة منه وأعطاها الشيخ فأخذها بيده وأكلها ، فخرج الحُلْوَانى ولم يطعم أحدا سوى الشيخ ، فخرج الشيخ فى اتباعه وترك التدريس . فأبطأ على الطلبة وطال انتظارهم إياه ، فخرجوا فى طلبه فلم يعرفوا له مستقرا . ثم إنه عاد إليهم بعد أعوام ، وصار لا ينطق إلا بالشعر الفارسى (المتعلِّق)[2] الذى لا يفهم[3] . فكان الطلبة يتبعونه ويكتبون ما يصدر عنه من ذلك الشعر ، وألفوا منه كتابا سموه المَثْنوى . وأهل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب ، ويعتبرون كلامه ، ويعلمونه ويقرءونه بزواياهم فى ليالى الجمعات . وفى هذه المدينة أيضا قبر الفقيه أحمد الذى يذكر أنه معلم جلال الدين . ثم سافرنا إلى مدينة اللارَنْدة ، وهى مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين .

ذكر سلطان اللارَنْدة

وسلطانها الملك بدر الدين بن قَرَمان ، وكانت قبله لشقيقه موسى ، فنزل عنها للملك الناصر ، وعوضه عنها بعوض ، وبعث إليها أميرا وعسكرا . ثم تغلب عليها السلطان بدر الدين ، وبنى بها دار مملكته ، واستقام أمره بها . ولقيت هذا السلطان خارج المدينة ، وهو عائد من تصيُّده ، فنزلت له عن دابتى ، فنزل هو عن دابته ، وسلمت عليه ، وأقبل علىّ . ومن عادة ملوك هذه البلاد أنه إذا نزل لهم الوارد عن دابته نزلوا له وأعجبهم فعله ، وزادوا

(١) نسبة إلى أحد مصادر (حَلَا) .

(٢) أى ذو القافية الواحدة فى الشطرين من البيت كالرجز .

(٣) فيه نظر ويظهر أن فى الحكاية مبالغة وتلفيقا .

فى إكرامه . وإن سلم عليهم راكبا ساءهم ذلك ولم يرضهم ، ويكون سببا لحرمان الوارد . وقد جرى لى ذلك مع بعضهم ، وسأذكره . ولما سلمت عليه وركب وركبت سألنى عن حالى وعن مقدمى ودخلت معه المدينة ، فأمر بإنزالى أحسن نُزُل . وكان يبعث الطعام الكثير والفاكهة والحلواء فى طيافير(١) الفضة ، والشمع ، وكسا وأركبَ وأحسنَ . ولم يطل مُقامنا عنده . وانصرفنا إلى مدينة أَقْصَرا ، وهى من أحسن بلاد الروم وأتقنها ، تَحُفّ بها العيون الجارية ، والبساتين من كل ناحية . ويشق المدينة ثلاثة أنهار ويجرى الماء بدورها ، وفيها الأشجار ودوالى العنب ، وبداخلها بساتين كثيرة . وتصنع بها البُسُط المنسوبة إليها من صوف الغنم ، لا مثل لها فى بلد من البلاد ، ومنها تحمل إلى الشام ومصر والعراق والهند والصين وبلاد الأتراك . وهذه المدينة فى طاعة ملك العراق . ونزلنا منها بزاوية الشريف حسين النائب بها عن الأمير أَرْتَنا ، وأَرْتَنا : هو النائب عن ملك العراق فيما تغلّب عليه من بلاد الروم .

وهذا الشريف من الفتيان ، وله طائفة كثيرة ، وأكرمنا إكراما متناهيا ، وفعل أفعال من تقدمه . ثم رحلنا إلى مدينة نَكْدَة ، وهى من بلاد ملك العراق ، مدينة كبيرة ، كثيرة العمارة ، قد تخرب بعضها ، ويشقها النهر المعروف بالنهر الأسود ، وهو من كبار الأنهار ، عليه ثلاث قناطر ، إحداها بداخل المدينة وثنتان بخارجها ، وعليه النواعير بالداخل والخارج ، منها تسقى البساتين ، والفواكه بها كثيرة . ونزلنا منها بزاوية الفتى (أخى) جاروق ، وهو الأمير بها ، فأكرمنا على عادة الفتيان ، وأقمنا بها ثلاثا . وسرنا منها بعد ذلك إلى مدينة قَيْسارِيَّة ، وهى من بلاد صاحب العراق ، وهى إحدى المدن العظام بهذا الإقليم ، بها عسكر أهل العراق ، وإحدى خواتين الأمير علاء الدين

---

(١) صحاف . وقد سبق شرحها فى الحواشى .

أرتنا . وهى من أكرم الخواتين وأفضلهن ، ولها نسبة من ملك العراق ، وتدعى أغا ، ومعنى أغا الكبير ، وكل من بينه وبين السلطان نسبة يدعى بذلك ، واسمها طَغِى خاتون . ودخلنا إليها فقامت لنا وأحسنت السلام والكلام ، وأمرت بإحضار الطعام ، فأكلنا . ولما انصرفنا بعثت لنا بفرس مسرج ملجم ، وخِلْعة ودراهم مع أحد غلمانها ، واعتذرت . ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى (الأخى) أمير علىّ ، وهو أمير كبير من كبار (الأخية) بهذه البلاد ، وله طائفة تتبعه من وجوه المدينة وكبرائها . وزاويته من أحسن الزوايا فرشا وقناديل ، وطعاما كثيرا وإتقانا . والكبراء ، من أصحابه وغيرهم ، يجتمعون كل ليلة عنده ، ويفعلون فى إكرام الوارد أضعاف ما يفعله سواهم . ومن عادات هذه البلاد أنه ما كان منها ليس به سلطان ، (فالأخى) هو الحاكم به ، وهو يُركِب الوارد ويكسوه ويحسن إليه على قدره . وترتيبه فى أمره ونهيه وركوبه ترتيب الملوك .

مدينة سِيواس

ثم سافرنا إلى مدينة سِيواس ، وهى من بلاد ملك العراق ، وأعظم ما له بهذا الإقليم من البلاد ، وبها منزل أمرائه وعماله ، مدينة حسنة العمارة واسعة الشوارع ، أسواقها غاصة بالناس ، وبها دار مثل المدرسة ، تسمى دار السيادة ، لا ينزلها إلا الشرفاء ، ونقيبهم ساكن بها . وتُجْرَى لهم فيها مدة مُقامهم الفُرُش والطعام والشمع وغيره ، ويزودون إذا انصرفوا . ولما قدمنا إلى هذه المدينة خرج إلى لقائنا أصحاب الفتى (أخى) أحمد بِجَقْجى ، وبجق بالتركية : السكين ، وهذا منسوب إليه ، والجيم منه معقودان بينهما قاف ، وباؤه مكسورة . وكانوا جماعة منهم الركبان والمشاة . ثم لقينا بعدهم أصحاب الفتى (أخى) جلبى ، وهو من كبار (الأخية) ، وطبقته أعلى من طبقة

(أخى) بجقجى ، فطلبوا أن ننزل عندهم ، فلم يمكن ذلك لسبق الأولين . ودخلنا المدينة معهم جميعا وهم يتفاخرون ، والذين سبقوا إلينا قد فرحوا أشد الفرح بنزولنا عندهم . ثم كان من صنيعهم فى الطعام والحمام والمبيت مثل صنيع من تقدم . وأقمنا عندهم ثلاثة فى أحسن ضيافة . ثم أتانا القاضى وجماعة من الطلبة ، ومعهم خيل الأمير علاء الدين أَرْتَنا ، نائب ملك العراق ببلاد الروم ، فركبنا إليه ، واستقبلنا الأمير إلى دِهليز داره ، فسلم علينا ورحّب . وكان فصيح اللسان بالعربية . وسألنى عن العراقيْن وأَصْبَهان وشِيراز وكَرْمان ، وعن السلطان أَتَابَك ، وبلاد الشام ومصر ، وسلاطين التُّركمان . وكان مراده أن أشكر الكريم منهم وأذم البخيل ، فلم أفعل ذلك ، بل شكرت الجميع ، فسر بذلك منى وشكرنى عليه . ثم أحضر الطعام فأكلنا . وقال : تكونون فى ضيافتى ، فقال له الفتى (أخى) جلبى : إنهم لم ينزلوا بعد بزاويتى ، فليكونوا عندى وضيافتك تصلهم ، فقال : افعل ، فانتقلنا إلى زاويته ، وأقمنا بها ستا فى ضيافته ، وفى ضيافة الأمير . ثم بعث الأمير بفرس وكسوة ودراهم ، وكتب لنوابه بالبلاد أن يضيفونا ويكرمونا ويزودونا .

وسافرنا إلى مدينة أَمَاصِيَة ، مدينة كبيرة حسنة ذات أنهار وبساتين وأشجار ، وفواكه كثيرة ، وعلى أنهارها النواعير تسق جنانها ودورها . وهى فسيحة الشوارع والأسواق ، وملكها صاحب العراق . ويقرب منها بلدة سُونُسَا ، وهى لصاحب العراق أيضا . وبها سكنى أولاد ولى الله تعالى أبى العباس أحمد الرفاعى ، منهم الشيخ عز الدين ، وهو الآن شيخ الرُّواق وصاحب سجَّادة الرفاعى ، وإخوته الشيخ على والشيخ إبراهيم والشيخ يحيى ، أولاد الشيخ أحمد كُوجَك ، ومعناه : الصغير ، ابن تاج الدين الرفاعى . ونزلنا بزاويتهم ورأينا لهم الفضل على من سواهم . ثم سافرنا إلى مدينة كُمش ،

وهى من بلاد ملك العراق ، مدينة كبيرة عامرة ، يأتيها التجار من العراق والشام ، وبها معادن الفضة . وعلى مسيرة يومين منها جبال شامخة وعرة لم أصل إليها . ونزلنا منها بزاوية (الأخى) مجد الدين ، وأقمنا بها ثلاثا فى ضيافته ، وفعل أفعال من قبله ؛ وجاء إلينا نائب الأمير أَرْتَنا ، وبعث بضيافة وزاد . وانصرفنا عن تلك البلاد فوصلنا إلى أَرْزَنْجان ، وهى من بلاد صاحب العراق ، مدينة كبيرة عامرة ، وأكثر سكانها الأرمن . والمسلمون يتكلمون بها بالتركية . ولها أسواق حسنة الترتيب ، ويصنع بها ثياب حسان تنسب إليها ، وفيها معادن النحاس . ونزلنا منها بزاوية الفتى (أخى) نظام الدين ، وهى من أحسن الزوايا ، وهو أيضا من خيار الفتيان وكبارهم ، أضافنا أحسن ضيافة . وانصرفنا إلى مدينة أَرْز الروم ، وهى من بلاد ملك العراق ، كبيرة الساحة ، خَرِب أكثرها بسبب فتنة وقعت بين طائفتين من التُّركمان بها . ويشقها ثلاثة أنهار ، وفى أكثر دورها بساتين فيها الأشجار والدوالى . ونزلنا منها بزاوية الفتى (أخى) طومان ، وهو كبير السن ، يقال إنه أناف على مائة وثلاثين سنة ، ورأيته متوكئا على عصا ، ثابت الذهن ، مواظبا على الصلاة فى أوقاتها ، لم ينكر من نفسه شيئا إلا أنه لا يستطيع الصوم . وخدمنا بنفسه فى الطعام ، وخدمنا أولاده فى الحمام ، وأردنا الانصراف عنه ثانى يوم نزولنا ، فشق عليه ذلك وأبى ، وقال : إن فعلتم نقصتم حرمتى ، وإن أقلّ الضيافة ثلاث ، فأقمنا لديه ثلاثا .

مدينة بِرْكِى

ثم انصرفنا إلى مدينة بِرْكِى ، ووصلنا إليها بعد العصر ، فلقينا رجلا من أهلها فسألناه عن زاوية (الأخى) بها ، فقال : أنا أدلكم عليها ، فاتبعناه فذهب بنا إلى منزل نفسه فى بستان له ، فأنزلنا بأعلى سطح بيته ، والأشجار مظللة ، وذلك أوان الحر الشديد ، وأتى إلينا بأنواع الفاكهة ، وأحسن

فى ضيافته ، وعلف دوابنا ، وبتنا عنده تلك الليلة . وكنا قد علمنا أن بهذه المدينة مدرسا فاضلا يسمى بمحيي الدين ، فأتى بنا ذلك الرجل الذى بتنا عنده ، (وكان من الطلبة) إلى المدرسة ، وإذا بالمدرس قد أقبل راكبا على بغلة فارهة[1] ، ومماليكه وخدامه عن جانبيه والطلبة بين يديه ، وعليه ثياب مفرّجة حسان مطرزة بالذهب . فسلمنا عليه ، فرحب بنا ، وأحسن السلام والكلام ، وأمسك بيدى وأجلسنى إلى جانبه . ثم جاء القاضى عز الدين فِرِشتى ، ومعنى فرشتى : المَلَك ، لقب بذلك لدينه وعفافه وفضله ، فقعد عن يمين المدرس . وأخذ فى تدريس العلوم الأصلية والفرعية . ثم لما فرغ من ذلك أتى دُوَيرة بالمدرسة ، فأمر بفرشها وأنزلنى فيها ، وبعث ضيافة حافلة . ثم وجّه إلينا بعد المغرب ، فمضيت إليه فوجدته فى مجلس ببستان له ، وهنالك صِهريج ماء ينحدر إليه الماء من حوض رُخام أبيض ، يدور به القاشانى ، وبين يديه جملة من الطلبة ، ومماليكه وخدامه وقوف عن جانبيه ، وهو قاعد على مرتبة . نخلته لما شاهدته ملكا من الملوك . فقام إلىّ واستقبلنى ، وأخذ بيدى وأجلسنى إلى جانبه على مرتبته ، وأتى بالطعام فأكلنا ، وانصرفنا إلى المدرسة . وذكر لى بعض الطلبة أن جميع من حضر تلك الليلة من الطلبة عند المدرس ، فعادتهم الحضور لطعامه كل ليلة . وكتب هذا المدرس إلى السلطان بخبرنا وأثنى فى كتابه ، والسلطان فى جبل هنالك يَصيف فيه لأجل شدة الحر ، وذلك الجبل بارد ، وعادته أن يَصيف فيه .

---

(١) فارهة : نشيطة خفيفة .

ذكر سلطان بِرْكى

وهو السلطان محمد بن آيِدين ، من خيار السلاطين وكرمائهم وفضلائهم . ولما بعث إليه المدرس يعلمه بخبرى وجّه نائبه إلىّ لآتيه، فأشار علىّ المدرس أن أقيم حتى يبعث إلى ثانية. وكان المدرس إذ ذاك قد خرجت برجله قَرْحة لا يستطيع الركوب بسببها ، وانقطع عن المدرسة . ثم إن السلطان بعث فى طلبى ثانية ، فشقّ ذلك على المدرس فقال: أنا لاأستطيع الركوب، ومن غرضى التوجه معك لأقرر لدى السلطان مايجب لك . ثم إنه تحامل ولف على رجله خِرَقا وركب ، ولم يضع رجله فى الركاب. وركبت أنا وأصحابى ، وصعدنا إلى الجبل فى طريق قد نُحتت وسُوِيت، فوصلنا إلى موضع السلطان عند الزوال ، فنزلنا على نهر ماء تحت ظلال شجر الجوز . وصادفنا السلطان فى قلق وشغل بال بسبب فرار ابنه الأصغر سليمان عنه، إلى صهره السلطان أُرْخان بك. فلما بلغه خبر وصولنا بعث إلينا ولديه خِضْر بك وعمر بك، فسلما على الفقيه، وأمرهما بالسلام علىّ ففعلا ذلك، وسألانى عن حالى ومَقْدَمى، وانصرفا . وبعث إلى ببيت يسمى عندهم الخِرقة (خَرْكاه) وهو عِصِىٌّ من الخشب تجمع شبه القبة وتجعل عليها اللُّبود ، ويفتح أعلاه لدخول الضوء والريح ، ويسد متى احتيج إلى سده . وأتوا بالفرش ففرشوه، وقعد الفقيه وقعدت معه ، وأصحابه وأصحابى خارج البيت تحت ظلال شجر الجوز . وذلك الموضع شديد البرد، ومات لى تلك الليلة فرس من شدة البرد . ولما كان من الغد ركب المدرس إلى السلطان وتكلم فى شأنى بما اقتضته فضائله، ثم عاد إلىّ وأعلمنى بذلك. وبعد ساعة وجّه السلطان فى طلبنا معا، فجئنا إلى منزله ووجدناه قائما فسلمنا عليه، وقعد الفقيه عن يمينه وأنا مما يلى الفقيه.

فسألني عن حالي ومقدَمي، وسألني عن الحجاز ومصر والشام واليمن والعراقَيْن، وبلاد الأعاجم . ثم حضر الطعام، فأكلنا وانصرفنا . وبعث الأرز والدقيق والسمن في كروش الأغنام ، وكذلك فِعْل الترك . وأقمنا على تلك الحال أياما، يبعث إلينا في كل يوم فنحضر طعامه . وأتى يوما إلينا بعد الظهر، وقعد الفقيه في صدر المجلس ، وأنا عن يساره ، وقعد السلطان عن يمين الفقيه ، وذلك لعزة الفقهاء عند الترك . وطلب مني أن أكتب له أحاديث ، من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكتبتها له ، وعرضها الفقيه عليه في تلك الساعة، فأمره أن يكتب له شرحها باللسان التركي . ثم قام فخرج، ورأى الخدام يطبخون لنا الطعام تحت ظلال الجوز بغير أَبْزار[1] ولا خُضَر ، فأمر بعقاب صاحب خزانته، وبعث بالأبزار والسمن .

وطالت إقامتنا بذلك الجبل، فأدركني الملل وأردت الانصراف. وكان الفقيه أيضا قد ملّ من المُقام هنالك ، فبعث إلى السلطان يخبره أني أريد السفر . فلما كان من الغد بعث السلطان نائبه فتكلم مع المدرس بالتركية ، ولم أكن إذ ذاك أفهمها، فأجابه عن كلامه وانصرف ، فقال لي المدرس: أتدري ماذا قال ؟ قلت : لا أعرف ما قال . قال : إن السلطان بعث إليّ ليسألني ماذا يعطيك ، فقلت له : عنده الذهب والفضة والخيل والعبيد ، فليعطه ما أحب من ذلك ؛ فذهب إلى السلطان ثم عاد إلينا فقال: إن السلطان يأمر أن تقيما هنا اليوم، وتنزلا معه غدا إلى داره بالمدينة . فلما كان من الغد بعث فرسا جيدا من مراكبه ، ونزل ونحن معه إلى المدينة ، فخرج الناس لاستقباله، وفيهم القاضي المذكور آنفا وسواه، ودخل السلطان ونحن معه . فلما نزل بباب داره ذهبت مع المدرس إلى ناحية المدرسة، فدعا بنا وأمرنا بالدخول معه إلى داره . فلما وصلنا إلى دِهليز الدار ، وجدنا من خدامه نحو عشرين ، صورهم فائقة الحسن ، وعليهم ثياب الحرير ، وشعورهم مفروقة

---

(١) توابل .

مرسلة، وألوانهم ساطعة البياض مُشْربة بحمرة. فقلت للفقيه: ماهذه الصور الحسان؟ فقال: هؤلاء فتيان روميّون. وصعدنا مع السلطان دَرَجا كثيرة إلى أن انتهينا إلى مجلس حسن فى وسطه صِهْريج ماء، وعلى كل ركن من أركانه صورة سبع من نحاس يمج ماء من فيه، وتدور بهذا المجلس مصاطب متصلة مفروشة، وفوق إحداها مرتبة السلطان. فلما انتهينا إليها نَحَّى السلطان مرتبته بيده، وقعد معنا، وقعد الفقيه عن يمينه والقاضى مما يلى الفقيه، وأنا مما يلى القاضى، وقعد القراء أسفل المِصْطبة. ثم جاءوا بِصحاف من الذهب والفضة مملوءة بالجُلَّاب[1] المحلول، قد عصر فيه ماءالليمون، وجعل فيه كعكات صغار مقسومة، وفيها ملاعق ذهب وفضة، وجاءوا معها بصحاف صينية فيها مثل ذلك، وفيها ملاعق خشب، فمن تورّع استعمل صحاف الصينى وملاعق الخشب. وتكلمت بشكر السلطان، وأثنيت على الفقيه، وبالغت فى ذلك، فأعجب ذلك السلطان وسره.

وفى ثالث يوم من دخولنا إلى المدينة مع السلطان، صنع صنيعا عظيما، ودعا الفقهاء والمشايخ وأعيان العسكر ووجوه أهل المدينة، فَطَعِموا، وقرأ القراء القرآن بالأصوات الحسان، وعدنا إلى منزلنا بالمدرسة. وكان يوجه الطعام والفاكهة والحلواء والشمع فى كل ليلة، ثم بعث إلى مائة مثقال ذهبا وألف درهم وكسوة كاملة، وفرسا ومملوكا روميا يسمى ميخائيل. وبعث لكل من أصحابى كسوة ودراهم، كل هذا بمشاركة المدرس محيى الدين، (جزاه الله تعالى خيرا) وودعنا وانصرفنا. وكانت مدة مقامنا عنده بالجبل والمدينة، أربعة عشر يوما.

---

(١) ماء الورد كما فى القاموس. وقد شُرح معناه فى الجزء الثانى. وفى كتاب (الألفاظ الفارسية المعربة) للسيد (أدِّيشير) أنه العسل أو السكر عقد بوزنه أو أكثر من ماء الورد.

مدينة تِــيرة

ثم قصدنا مدينة تِيرة وهى من بلاد هذا السلطان ، مدينة حســنة ذات أنهــار وبساتين وفواكه ، نزلنا منها بزاوية الفتى (أخى) محمــد ، وهو من كبار الصالحين ، صائم الدهر ، وله أصحاب على طريقته ، فأضافنا ودعا لنا.

مدينة أَيَاسلوق

وسرنا إلى مدينة أياسلوق ، مدينة كبيرة قديمة معظمة عند الروم ، وفيها كنيسة كبيرة مبنية بالحجارة الضخمة ، ويكون طول الحجر منها عشرة أذرع فمــا دونها ، منحوتة أبدع نحت . والمسجد الجامع بهذه المــدينة من أبدع مساجد الدنيا ، لا نظيرله فى الحسن ، وكان كنيسةً للروم معظمة عندهم يقصدونها من البلاد . فلمــا فتحت هــذه المدينة جعلها المسلمون مسجدا جامعا . وحيطانه من الرخام الملون، وفرشه الرخام الأبيض، وهو مسقوف بالرَّصَاص ، وفيه إحدى عشرة قبة منوعة ، فى وسط كل قبة صِهْرِيج ماء . والنهر يشــقه ، وعن جانبى النهر الأشجــار المختلفة الأجناس ودوالى العنب ومُعَرَّشات الياسَمين ، وله خمسة عشر بابا . وأمير هذه المدينة خِضْر بك ابن السلطان محمد بن آيدين . وقد كنت رأيته عند أبيه بِبِرْكِي ، ثم لقيته بهذه المدينة خارجها ، فسلمت عليه وأنا راكب ، فكره ذلك منى ، وكان سبب حرمانى لديه : فإن عادتهــم إذا نزل لهم الوارد نزلوا له وأعجبهم ذلك ، ولم يبعث إلىّ إلا ثوبا واحدا من الحرير المذهب .

يَزْمِير

ثم سرنا إلى مدينة يزمير (١) ، مدينة كبيرة على ساحل البحر ، معظمها خراب ، ولها قلعة متصلة بأعلاها . نزلنا منها بزاوية الشيخ يعقوب ، وهو من الأحمدية ، صالح فاضل . ولقينا بخارجها الشيخ عز الدين بن أحمد الرفاعي ، ومعه زَادَه الأَخْلاطي ، من كبار المشايخ ، ومعه مائة فقير من المُوَلَّهين ، وقد ضرب لهم الأمير الأخبية ، وصنع لهم الشيخ يعقوب ضيافة ، وحضرتها واجتمعت بهم .

وأمير هذه المدينة عمر بك ابن السلطان محمد بن آيدين المذكور آنفا . وسكناه بقلعتها . وكان حين قدومنا عليها عند أبيه ، ثم قدم بعد خمس من نزولنا بها ، فكان من مكارمه أن أتى إليّ بالزاوية ، فسلم عليّ واعتذر ، وبعث ضيافة عظيمة . وأعطاني بعد ذلك مملوكا روميا اسمه : نِقُولَة ، وثوبين من الكَمْخا ، وهي ثياب حرير تصنع ببغداد وتبريز ونَيْسَابور وبالصين ؛ وذكر لي الفقيه الذي يؤمّ به ، أن الأمير لم يبق له مملوك سوى ذلك المملوك الذي أعطاني بسبب كرمه رحمه الله . وأعطى أيضا الشيخ عز الدين ثلاثة أفراس مجهزة وآنية فضة كبيرة تسمى عندهم المِشْرَبة ، مملوءة دراهم وثيابا من المِلْف(٢) والمِرْعِزّ(٣) والقِسيّ والكَمْخا ، وجواري وغلمانا . وكان هذا الأمير كريما صالحا كثير الجهاد ، له أجفان(٤) غَزْوية يضرب بها على نواحي القسطنطينية العظمى ، فيسبي ويغنم ، ويفني ذلك كرما وجودا . ثم يعود إلى الجهاد إلى أن اشتدت على الروم وطأته . فرفعوا

(١) أزمير .

(٢) ما يطلق عليه عندنا (الجوخ) .

(٣) الزغب الذي تحت شعر العنز ، كما سبق .

(٤) مراكب الحرب . والأمثل أن تجمع على جفان ، لأن المفرد جفْنة ، على التشبيه ، وليس من التسمية اللغوية .

أمرهم إلى البابا ، فأمر نصارى جِنَوة و إفرانسة[1] بغزوه فغزوه . وجهّز جيشا من رومة ، وطرقوا مدينته ليلا فى عدد كثير من الأجفان ، وملكوا المرسى والمدينة . ونزل إليهم الأمير عمر من القلعة فقاتلهم فاستُشْهِد هو وجماعة من ناسه . واستقر النصارى بالبلد ولم يقدروا على القلعة لمَنَعتها .

ثم سافرنا من هذه المدينــة إلى مدينة مَغْنِيسِيّة ، ونزلنا بها عشيّ يوم عرفة بزاوية رجل من الفتيان ، وهى مدينة كبيرة حسنة فى سفح جبل ، و بسيطها كثير الأنهار والعيون والبساتين والفوا كه .

ذكر سلطان مَغْنِيسيَّة

وسـلطانها يسمى صاروخان . ولـما وصلنا إلى هذه البلدة وجدناه بتربة ولده ، وكان قد توفى منذ أشهر ، فكان هو وأم الولد ليلة العيد وصبيحتها بتربته . والولد قد صُبِّرَ وجعل فى تابوت خشب مغشّى بالحديد المُقَصْدَر[2] ، وعلق فى قبة لا سقف لهـا حتى تذهب رائحته ، وحينئـذ تُسْقف القبة ، ويجعل تابوته ظاهرا على وجه الأرض ، وتجعل ثيابه عليه . وهكذا رأيت غيره أيضا من الملوك فعل . وسلمنا عليه بذلك الموضع ، وصلينا معه صلاة العيـد ، وعدنا إلى الزاوية . فأخذ الغلام الذى كان لى أفراسـنا ، وتوجه مع غلام لبعض الأصحـاب ، لسـقيها ، فأبطأ . ثم لمـا كان العشيّ ، لم يظهر لهما أثر . وكان بهذه المدينة الفقيه المدرس الفاضل مصلح الدين ، فركب معى إلى السـلطان ، وأعلمناه بذلك ، فبعث فى طلبهما ، فلم يوجدا واشتغل الناس فى عيدهم . وقصدا مدينة للكفار على ساحل البحر تسمى فُوجة ، على مسـيرة يوم من مغنيسـية . وهؤلاء الكفار فى بلد حصين ، وهم يبعثون هدية فى كل سنة إلى سلطان مغنيسية ، فيقنع منهم بها ، لحصانة بلدهم . فلمـا كان بعد الظهر أتى بهما بعض الأتراك و بالأفراس ، وذكروا أنهما اجتازا بهم عشية النهار ، فأنكروا أمرهما ، واشتدوا عليهما حتى أقرا بمـا عزما عليه من الفرار .

(١) فرنسا .

(٢) المصنوع بالقَصْدِير .

ثم سافرنا من مغنيسية، وبتنا ليلة عند قوم من التُّركمان، قد نزلوا فى مرعى لهم، ولم نجد عندهم ما نَعْلِف به دوابنا تلك الليلة، وبات أصحابنا يَحْرُسون مداولةً بينهم خوف السرقة. فأتت نَوْبة الفقيه عفيف الدين التُّوزَرى، فسمعته يقرأ سورة البقرة، فقلت له: إذا أردت النوم فأعلمنى لأنظر من يحرس. ثم نمت فما أيقظنى إلا الصباح، وقد ذهب السراق بفرس لى كان يركبه عفيف الدين بسرجه ولجامه، وكان من جياد الخيل، اشتريته بأَياسُلوق. ثم رحلنا من الغد فوصلنا إلى مدينة بَرْغَمَة، مدينة خربة، لها قلعة عظيمة منيعة بأعلى جبل، ويقال: إن أَفْلاطون الحكيم من أهل هذه المدينة، وداره تشتهر باسمه إلى الآن. ونزلنا منها بزاوية فقير من الأحمدية. ثم جاء أحد كبراء المدينة فنقلنا إلى داره وأكرمنا إكراما كثيرا.

ذكر سلطان بَرْغَمه

وسلطانها يسمى يَخْشِى خان، وخان عندهم: هو السلطان. ويخشى معناه جيد. صادفناه فى مَصِيف له، فأُعلم بقدومنا، فبعث بضيافة وثوب قُدْسِىّ. ثم اكترينا من يدلنا على الطريق، وسرنا فى جبال شامخة وَعْرة، إلى أن وصلنا إلى مدينة بَلِى كَسْرِى، مدينة حسنة، كثيرة العمارات، مليحة الأسواق، ولا جامع لها يُجَمَّع فيه[1]. وأرادوا بناء جامع خارجها متصل بها، فبنوا حيطانه، ولم يجعلوا له سقفا، وصاروا يصلون به، ويجتمعون تحت ظلال الأشجار. ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى (أخى) سِنان، وهو من أفاضلهم، وأتى إلينا قاضيها وخطيبها الفقيه موسى.

---

(١) تصلى فيه صلاة الجمعة.

ذكر سلطان بَلِي كَسْرِى

ويسمى دُمُور خان ، ولا خير فيه . وأبوه هو الذى بنى هـذه المدينة ، وكثرت عمارتها بمن لاخير فيه فى مدة ابنـه هذا ، والنـاس على دين الملك ورايته . وبعث إلىّ ثوب حرير . واشتريت بهذه المدينة جارية روميـة تسـمى مَرْغَلِيطة . ثم سرنا إلى مدينة بُرُصَا ، مدينة كبيرة عظيمة حسـنة الأسواق ، فسيحة الشوارع ، تَحُفُّ بها البساتين من جميع جهاتها ، والعيون الجارية . وبخارجها نهر شديد الحرارة ، يصب فى بركة عظيمة ، وقد بنى عليها بيتـان أحدهما للرجال ، والآخر للنساء . والمرضى يستشفون بهـذه الحَمَّـة[1] و يأتون إليهـا من أقاصى البـلاد . وهنـالك زاوية للواردين ينزلون بها ، ويَطْعَمُون مدة مُقامهم وهى ثلاثة أيام . عمر هذه الزاوية أحد ملوك التُّركمان . ونزلنا فى هذه المدينة بزاوية الفتى (أخى) شمس الدين ، من كبار الفتيان . ووافقنا عنـده يوم عاشوراء فصنع طعاما كثيرا ، ودعا وجوه العسكر وأهل المدينة ليلا ، وأفطروا عنده ، وقرأ القراء بالأصوات الحسنة . وحضر الفقيه الواعظ مجـد الدين القُونَوِى ، ووعظ وذكّر وأحسـن . ثم أخذوا فى السماع والرقص ، وكانت ليلة عظيمة الشأن . وهذا الواعظ من الصالحين ، يصوم الدهر ، ولا يفطر إلا فى كل ثلاثة أيام ، ولا يأكل إلا من كدّ يمينه . ويقال إنه لم يأكل طعام أحد قط ، ولا منزل له ولا متاع إلا مايستتر به ، ولا ينـام إلا فى المقبرة . ويعظ فى المجالس ويُذَكِّر فيتوب على يديه فى كل مجلس الجمـاعة من الناس . وطلبته بعد هذه الليلة فلم أجده ، وأتيت الجبانة فلم أجده ، ويقال إنه يأتيها بعد هجوع الناس .

---

(١) الحمة — العين الحارة يستشفى بها المرضى .

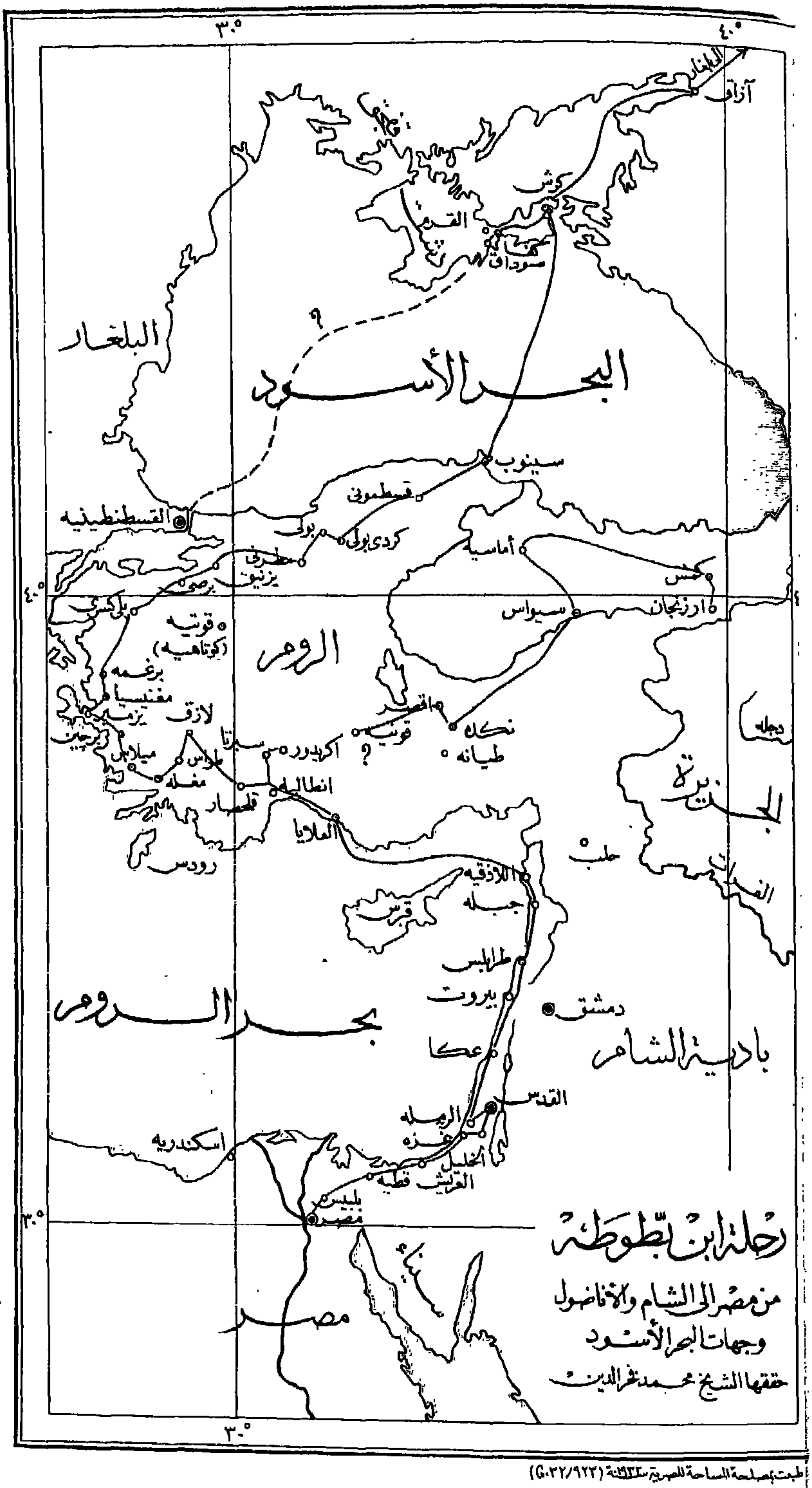

طبعت بمصلحة المساحة المصرية سنة ١٩٣٢ (G.٣٢/٩٢٢)

ذكر سلطان بُرْصا

وسلطانها اختيار الدين أُرْخان بك ، وأرخان ابن السلطان عثمان جُوق . وهـذا السلطان أكبر ملوك التُّركمان ، وأكثرهم مالا وبلادا وعسكرا ، له من الحصـون ما يقارب مائة حصن . وهو فى أكثر أوقاته لا يزال يطوف عليها ، ويقيم بكل حصن منها أياما ، لإصلاح شئونه وتفقد حاله . ويقال إنه لم يقم قط شهرا كاملا ببلد ، ويقاتل الكفار ويحاصرهم . ووالده هو الذى استفتح مدينـة بُرْصا من أيدى الروم ، وقبره بمسجدها . وكان مسجدها كنيسة للنصارى . ويذكر أنه حاصر مدينـة يَزْنِيك نحو عشرين سنة ، ومات قبل فتحها ، فحاصرها ولده هذا الذى ذكرناه نحو اثنتى عشرة سنة وافتتحها ، وبها كان لقائى له . وبعث إلىّ بدراهم كثيرة .

ثم سافرنا إلى مدينة يَزنِيك ، وبتنا قبـل الوصول إليها ليلة بقرية تدعى كُرْلة ، بزاوية فتى من (الأخية) . ثم سرنا من هذه القرية يوما كاملا فى أنهار ماء ، على جوانبها أشجـار الرمان الحلو والحامض . ثم وصلنا إلى بحيرة ماء تنبت القصب ، على ثمانية أميال من يزنِيك ، لا يستطاع دخولها إلا على طريق واحد مثل الجسر ، لا يسلك عليها إلا فارس واحد ، وبذلك امتنعت هذه المدينة . والبحيرة محيطة بها من جميع الجهات ، وهى خاوية على عروشها ، لا يسكن بها إلا أناس قليلون من خدام السلطان . وبها زوجتـه ، وهى الحاكمة عليهم ، امرأة صالحة فاضلة . وعلى المدينة أسوار أربعة ، بين كل سورين خندق ، وفيه المـاء . ويُدْخل إليها على جسور خشب ، متى أرادوا رفعها رفعوها . وبداخل المدينـة البساتين والدور والمزارع ، فلكل إنسان داره ومزرعته وبستانه مجموعة . وشربها من آبار بها قريبة . وبها من جميع

أصناف الفواكه والجوز ، والقَسْطَل[١] عندهم كثير جدا ، رخيص الثمن ويسمون القسطل : قسْطنة بالنون ، والجوز : القَوْز بالقاف . وبها العنب العَذارى[٢] ، لم أر مثله فى سواها ، متناهى الحلاوة ، عظيم الجِرْم ، صافى اللون ، رقيق القشر ، وللحبة منه نواة واحدة . أنزلنا بهذه المدينة الفقيه الإمام المجاور ، علاء الدين السُّلْطَانيوكى ، وهو شيخ الفضلاء الكرماء : ما جئت قط لزيارته إلا أحضر الطعام . وصورته حسنة ، وسيرته أحسن .

وبعد قدومنا بأيام ، وصل إلى هـذه المدينة السلطان أُرْخان بك الذى ذكرناه ، وأقمت بهذه المدينة نحو أربعين يوما ، بسبب مرض فرس لى ، فلما طال علىّ المكث تركتـه وانصرفت ، ومعى ثلاثة من أصحابى وجارية وغلامان ، وليس معنا من يحسن اللسان التركى ويترجم عنا . وكان لنـا تُرجمان فارقنا بهذه المدينة . ثم خرجنا منها فبتنا بقرية يقال لها مَكَجا ، بتنا عند فقيه بها أكرمنا وأضافنا . وسافرنا من عنده وتقدمتنا امرأة من الترك على فرس ومعها خادم لها ، وهى قاصدة مدينة يَنِجا ، ونحن فى اتباع أثرها ، فوصلتْ إلى واد كبير يقال له سقِرى ، كأنه نسب إلى سَقَر ، أعاذنا الله منها ! فذهبت تجوز الوادى ، فلما توسطته كادت الدابة تغرق بها ، ورمتها عن ظهرها ، وأراد الخادم الذى كان معهـا استخلاصها ، فذهب الوادى بهما معا . وكان فى عُدْوة الوادى قوم رموا بأنفسهم فى أثرهما سباحة ، فأخرجوا المرأة وبها من الحياة رَمَق ، ووجدوا الرجل قد قَضَى نَحْبه ، (رحمه الله) . وأخبرنا أولئك النـاس أن المعدية[٣] أسفل من ذلك الموضع ، فتوجهنا إليها وهى أربع خشبات مربوطة بالحبال ، يجعلون عليها سروج الدواب والمتاع ،

---

(١) ما يسمى عندنا بأبى فروة ، وسيأتى شرحه أيضا فى الجزء الثانى .

(٢) شبيه باللؤلؤ ، لأن من معانى العذراء الدرة لم تثقب . ولكن صيغة النسب غير صحيحة .

(٣) يريد بها المِعْبَر . وقد استعملها المؤلف كثيرا بهذا المعنى ، وهو غلط .

ويجذبها الرجال من العُدْوة الأخرى ، ويركب عليها الناس ، وتجوز الدواب سباحة ، وكذلك فعلنا . ووصلنا تلك الليلة إلى كاوِية ، واسمها على مثـال فاعلة ، من الكيّ ، نزلنا منها بزاوية أحد (الأخية) ، فكلمناه بالعربية فلم يفهم عنا ، وكلمنا بالتركية فلم نفهم عنه ، فقال : اطلبوا الفقيه فإنه يعرف العربية ، فأتى الفقيه ، فكلمنا بالفارسية وكلمناه بالعربية فلم يفهمها منا . وبتنا تلك الليلة بالزاوية ، وبعث معنا دليلا إلى يَنجا ، بلدة كبيرة حسنة ، بحثنا بها عن زاوية (الأخى) فوجدنا بها أحد الفقراء المُوَلَّهين ، فقلت له : هذه زاوية (الأخى) ؟ فقال لى نعم ، فسررت عنـــد ذلك إذ وجدت من يفهم اللسان العربى ، فلما اختبرته أبرز الغيبُ أنه لا يعرف من اللسان العربى إلا كلمة نعم خاصة .

ونزلنا بالزاوية ، وجاء الينا أحد الطلبة بطعام ، ولم يكن (الأخى) حاضرا ، وحصل الأنس بهذا الطالب ، ولم يكن يعرف اللسان العربى . لكنه تفضل وتكلم مع نائب البلدة ، فأعطانى فارسا من أصحابه . وتوجه معنا الى كَنْبُوك ، وهى بلدة صغيرة ، يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين ، وليس بها غير بيت واحد من المسلمين ، وهم الحكام عليهم . وهى من بلاد السلطان أُرخان بك . فنزلنا بدار عجوز ، وذلك إبان الثلج والشتاء ، فأحسنّا إليها وبتنا عندها تلك الليلة . وهذه البلدة لا شجر بها ولا دوالى للعنب ، ولا يزرع بها إلا الزعفران . وأتتنا هذه العجوز بزعفران كثير ، وظنت أننا تجار نشتريه منها . ولمـا كان الصـباح ركبنا وأتانا الفارس الذى بعثه الفتى معنا من كاوِية ، فبعث معنا فارسا غيره ليوصـلنا الى مدينة مُطُرْنِى . وقد وقع فى تلك الليـلة ثلج كثير عَفَّى الطرق ، فتقدمنا ذلك الفارس ، فاتبعنا أثره ، إلى أن وصلنا فى نصف النهار إلى قرية للتُركمان ، فأتوا بطعام ، فأكلنا منه ، وكلمهم ذلك الفارس ، فركب معنا أحدهم ، وسلك بنا أوعارا وجبالا ومجرى

ماء تكرر لنا جوازه أزيد من الثلاثين مرة . فلما خَلَصنا من ذلك ، قال لنا ذلك الفارس : أعطونى شيئا من الدراهم . فقلنا له : إذا وصلنا إلى المدينة نعطيك ونرضيك . فلم يرض ذلك منا ، أو لم يفهم عنا ، فأخذ قوسا لبعض أصحابى ومضى غير بعيد ، ثم رجع فرد إلينا القوس ، فأعطيته شيئا من الدراهم فأخذها ، وهرب عنا ، وتركنا لا نعرف أين نقصد ، ولا طريق يظهر لنا . فكنا نتلمح أثر الطريق تحت الثلج ونسلكه ، إلى أن بلغنا عند غروب الشمس جبلا لم يظهر الطريق به لكثرة الحجارة ، فخفت الهلاك على نفسى ومن معى ، وتوقعت نزول الثلج ليلا ، ولا عمارة هنا لك : فإن نزلنا عن الدواب هلكنا ، وإن سَرَيْنا ليلتنا لانعرف أين نتوجه . وكان لى فرس من الجياد ، فعملت على الخلاص ، وقلت فى نفسى : إذا سلمت فلعلى أحتال فى سلامة أصحابى ، فكان كذلك . واستودعتهم الله تعالى وسرت .

وأهل تلك البلاد يبنون على القبور بيوتا من الخشب يظن رائيها أنها عمارة فيجدها قبورا ، فظهر لى منها كثير . فلما كان بعد العشاء وصلت إلى البيوت فقلت : اللهم اجعلها عامرة ، فوجدتها عامرة . ووفقنى الله تعالى إلى باب دار ، فرأيت عليها شيخا فكلمته بالعربى فكلمنى بالتركى وأشار إلىّ بالدخول ، فأخبرته بشأن أصحابى فلم يفهم عنى . وكان من لطف الله أن تلك الدار زاوية للفقراء ، والواقف بالباب شيخها . فلما سمع الفقراء الذين داخل الزاوية كلامى مع الشيخ ، خرج بعضهم ، وكانت بينى وبينه معرفة ، فسلم علىّ وأخبرته خبر أصحابى ، وأشرت إليه بأن يمضى مع الفقراء لاستخلاص الأصحاب ، ففعلوا ذلك وتوجهوا معى إلى أصحابى ، وجئنا جميعا إلى الزاوية ، وحمدنا الله تعالى على السلامة . وكانت ليلة جمعة ، فاجتمع أهل القرية وقطعوا ليلتهم بذكر الله ، وأتى كل منهم بما تيسر له من الطعام وارتفعت المشقة .

ورحلنا عند الصباح ، فوصلنا إلى مدينة مُطُرْنِى عند صلاة الجمعة ، فنزلنا بزاوية أحد الفتيان (الأخية) وبها جماعة من المسافرين، ولم نجد مَرْبِطا للدواب ، فصلينا الجمعة ونحن فى قلق لكثرة الثلج والبرد وعدم المَرْبِط . فلقينا أحد الحجاج من أهلها فسلم علينا ، وكان يعرف اللسان العربى ، فسررت برؤيته، وطلبت منه أن يدلنا على مرابط للدواب بالكراء، فقال: أما ربطها فى منزل فلا يتأتى ، لأن أبواب دور هذه البلدة صغار لا تدخل منها الدواب ، ولكننى أدلكم على سقيفة بالسوق، يربط فيها المسافرون دوابهم والذين يأتون لحضور السوق ، فدلنا عليها ، وربطنا بها دوابنا ، ونزل أحد الأصحاب بحانوت خال إزاءها ليحرس الدواب .

حكاية

وكان من غريب ما اتفق لنا ، أنى بعثت أحد الخدام ليشترى التبن للدواب ، وبعثت أحدهم يشترى السمن ، فأتى أحدهما بالتبن والآخر دون شىء، وهو يضحك ، فسألناه عن سبب ضحكه ، فقال: إنا وقفنا على دكان بالسوق فطلبنا منه السمن ، فأشار إلينا بالوقوف وكلم ولدا له ، فدفعنا له الدراهم، فأبطأ ساعة وأتى بالتبن، فأخذناه منه وقلنا له: إنا نريد السمن ، فقال : هذا السمن . وأبرز الغيب أنهم يقولون للتبن سمن ، بلسان الترك ، وأما السمن فيسمى عندهم رباغ[1] . ولما اجتمعنا بهذا الحاج الذى يعرف اللسان العربى رغبنا منه أن يسافر معنا إلى قَصْطَمُونِيَة ، وبينها وبين هذه البلدة مسيرة عشر ، وكسوته ثوبا مصريا من ثيابى ، وأعطيته نفقة تركها لعياله ، وعينت له دابة لركوبه ، ووعدته الخير .

وسافر معنا فظهر لنا من حاله أنه صاحب مال كثير ، وله ديون على الناس ، غير أنه ساقط الهمة ، خسيس الطبع، سَيِّءُ الأفعال . وكنا نعطيه

(١) فى النسخة المطبوعة بأوربة (روغان) .

الدراهم لنفقتنا ، فيأخذ ما يَفْضُـل من الخبز ، ويشترى به الأبزار والخُضَر والملح ، ويمسـك ثمن ذلك لنفسه . وذُكِرلى أنه كان يسرق من دراهم النفقة دون ذلك . وكنا نحتمله لمـا كنا نكابده من عدم المعرفة بلسان الترك ، وانتهت حاله إلى أن فضحناه . وكنا نقول له فى آخر النهار : يا حاج ، كم سرقت اليوم من النفقة ؟ فيقول : كذا ، فنضحك منه ، ونرضى بذلك . ومن أفعاله الخسيسة أنه مات لنا فرس فى بعض المنازل ، فتولى سلخ جلده بيده وباعه ، ومنها أنا نزلنـا ليلة عند أخت له فى بعض القرى ، فجاءت بطعام وفاكهة من الإجَّاص والتفاح والمِشْمِش والخوْخ ، كلهـا ميبسَّة ، وتجعـل فى المـاء حتى ترْطُب ، فتؤكل ويشرب ماؤها . فأردنا أن نحسن إليها ، فعـلم بذلك فقال : لا تعطوها شـيئا ، وأعطونى ذلك ، فأعطيناه إرضاء له ، وأعطيناها إحسانا فى خُفية بحيث لم يعلم بذلك . ثم وصلنا إلى مدينة بولِى . ولمـا انتهينا إلى قريب منها ، وجدنا واديا يظهر فى رأى العين صغيرا . فلما دخله بعض أصحابنا وجدوه شـديد الجرْية والانزعاج ، فجازوه جميعـا ، وبقيت جارية صـغيرة خافوا إجازتها . وكان فرسى خيرا من أفراسهم ، فأردفتها وأخذت فى جواز الوادى . فلما توسطتُه وقع بى الفرس ، ووقعت الجارية ، فأخرجها أصحابى وبها رَمَق ، وخلَصْت أنا . ودخلنا المدينة ، فقصدنا زاوية أحد الفتيان (الأخية) . ومن عاداتهم أنه لا تزال النار موُقدة فى زواياهم أيام الشـتاء أبدا ، يجعلون فى كل ركن من أركان الزاوية مَوْقِدا للنار ، ويصنعون لهـا منَافس يصعد منها الدخان ، ولا يؤذى الزاوية . ويسمونهـا البخارى واحدها بَخيرى(١) . قال ابن جُزَى : وقد أحسن صفى الدين عبد العزيز بن سرايا الحِلِّى فى قوله ، فى التورية ، وتذكرته بذكر البخيرى :

إن البَخيرىَّ مذ فارقتموه غدا — يَحْثُو الرماد على كانونه التُّرَبِ
لو شئتمو أنه يُمْسِى أبا لهبٍ — جاءت بغالكم حمَّالة الحطبِ

---

(١) المفرد والجمع ليسا على أصول اللغة .

(رجع). قال : فلما دخلنا الزاوية ، وجدنا النار موقدة ، فنزعت ثيابى ، ولبست ثيابا سواها ، واصطليت بالنار . وأتى (الأخى) بالطعام والفاكهة ، وأكثر من ذلك . فلله دَرُّهم من طائفة ، ما أكرم نفوسهم ، وأشد إيثارهم ، وأعظم شفقتهم على الغريب ، وألطفهم بالوارد ، وأحبهم فيه ، وأجملهم احتفالا بأمره ، فليس قدوم الإنسان الغريب عليهم إلا كقدومه على أحب أهله إليه . وبتنا تلك الليلة بحال مرضية . ثم رحلنا بالغداة ، فوصلنا إلى مدينة كُدَىْ بُولِى ، وهى مدينة كبيرة ، فى بسيط من الأرض ، حسنة ، متسعة الشوارع والأسواق ، من أشد البلاد بردا ، وهى مَحَلَّات مفترقة ، كل مَحَلَّة تسكنها طائفة لا يخالطهم غيرهم .

ذكر سلطانها

وهو السلطان شاه بك ، من متوسطى سلاطين هذه البلاد ، حسن الصورة والسيرة ، جميل الخلق ، قليل العطاء . صلينا بهذه المدينة صلاة الجمعة ، ونزلنا بزاوية منها . ولقيت بها الخطيب الفقيه شمس الدين الدِمَشْقى الحنبلى ، وهو من مستوطنيها منذ سنين ، وله بها أولاد . وهو فقيه هذا السلطان وخطيبه ، ومسموع الكلام عنده . ودخل علينا هذا الفقيه بالزاوية ، فأعلمنا أن السلطان قد جاء لزيارتنا ، فشكرته على فعله . واستقبلت السلطان فسلمت عليه ، وجلس ، فسألنى عن حالى وعن مقدمى ، وعمن لقيته من السلاطين ، فأخبرته بذلك كله ، وأقام ساعة ثم انصرف ، وبعث بدابة مسرجة وكسوة . وانصرفنا إلى مدينة بُرْلُو ، وهى مدينة صغيرة ، على تل تحتها خندق ، ولها قلعة بأعلى شاهق . نزلنا منها بمدرسة فيها حسنة ، وكان الحاج الذى سافر معنا يعرف مدرسها وطلبتها ، ويحضر معهم الدرس . ودعانا أمير هذه البلدة ،

وهو على بك ابن السلطان المكرم سليمان بادشاه، ملك قَصْطَمُونِيَة، وسنذكره. فصعدنا إليه إلى القلعة، فسلمنا عليه فرحب بنا وأكرمنا. وسألنى عن أسفارى وحالى فأجبته عن ذلك، وأجلسنى إلى جانبه، وحضر قاضيه وكاتبه الحاج علاء الدين محمد، وهو من كبار الكتاب. وحضر الطعام، فأكلنا، ثم قرأ القراء بأصوات مُبْكية، وألحان عجيبة، وانصرفنا.

السفر إلى قَصْطَمُونِيَة

وسافرنا بالغد إلى مدينة قصطمونية، وهى من أعظم المدن وأحسنها، كثيرة الخيرات، رخيصة الأسعار، نزلنا منها بزاوية شيخ يعرف بالأُطْروش[١] لثقل سمعه. ورأيت منه عجبا: وهو أن أحد الطلبة كان يكتب له فى الهواء، وتارة فى الأرض بأصبعه، فيفهم عنه ويجيبه، ويحكى له بذلك الحكايات فيفهمها.

وأقمنا بهذه المدينة نحو أربعين يوما، فكنا نشترى طابِقَ[٢] اللحم الغنمى السمين بدرهمين، ونشترى خبزا بدرهمين فيكفينا ليومنا، ونحن عشرة. ونشترى حلواء العسل بدرهمين، فتكفينا أجمعين، ونشترى جَوْزا بدرهم، وقَسْطلا بمثله، فنأكل منها أجمعون، ويفضُل باقيها. ونشترى حمل الحطب بدرهم واحد، وذلك أوان البرد الشديد. ولم أر فى البلاد مدينة أرخص أسعارا منها. ولقيت بها الشيخ الإمام العالم المفتى المدرس، تاج الدين السُّلْطانيوكى من كبار العلماء، قرأ بالعراقيْن وتبْريز، واستوطنها مدة، وقرأ بدمشق، وجاور بالحرمين قديما. ولقيت بها العالم المدرس صدر الدين سليمان الفَنيكى، من أهل فَنيكة من بلاد الروم، وأضافنى بمدرسته التى بسوق

---

(١) الأطروش الأصم. قاموس

(٢) أى نصف الخروف. قاموس

الخيل . ولقيت بها الشيخ المعمَّر الصالح دادا امير علىّ . دخلت عليه بزاويته بمقربة من سوق الخيل . فوجدته ملقى على ظهره، فأجلسه بعض خدامه، ورفع بعضهم حاجبيه عن عينيه ففتحهما ، وكلمنى بالعربى الفصيح ، وقال : قَدِمت خير مَقْدَم . وسألته عن عمره فقال : كنت من أصحاب الخليفة المستنصر بالله، وتوفى وأنا ابن ثلاثين سنة، وعمرى الآن مائة وثلاث وستون سنة ، فطلبت منه الدعاء فدعالى وانصرفت .

ذكر سلطان قَصْطَمُونِيَة

وهو السلطان المكرم سليمان بادْشاه ، وهو كبير السن ، يُنيف على سبعين سنة ، حسن الوجه ، طويل اللحية ، صاحب وقار وهيبة ، يجالسه الفقهاء والصلحاء . دخلت عليه بمجلسه فأجلسنى إلى جانبه ، وسألنى عن حالى ومقدمى وعن الحرمين الشريفين ، ومصر والشام ، فأجبته . وأمر بإنزالى على قرب منه ، وأعطانى ذلك اليوم فرسا عتيقا قِرْطَاسِىّ اللون ، وكسوة ، وعيّن لى نفقة وعَلَفا ، وأمر لى بعد ذلك بقمح وشعير . ومن عادة هذا السلطان أن يجلس كل يوم بمجلسه بعد صلاة العصر ، ويؤتى بالطعام فتفتح الأبواب ، ولا يمنع أحد من حَضَرِىّ أو بَدَوِىّ أو غريب أو مسافر من الأكل . ويجلس فى أول النهار جلوسا خاصا ، ويأتى ابنه فيقبل يديه وينصرف إلى مجلس له ، ويأتى أرباب الدولة فيأكلون عنده وينصرفون . ومن عادته فى يوم الجمعة أن يركب إلى المسجد وهو بعيد عن داره . والمسجد المذكور ثلاث طبقات من الخشب ، فيصلى السلطان وأرباب دولته والقاضى والفقهاء ووجوه الأجناد فى الطبقة السفلى ، ويصلى الأفندى وهو أخو السلطان وأصحابه وخدامه وبعض أهل المدينة فى الطبقة الوسطى ، ويصلى ابن السلطان ولىّ عهده، وهو أصغر أولاده، ويسمى الجواد، وأصحابه ومماليكه

وخدامه وسائر النـاس فى الطبقة العليا . ويجتمع القراء فيقعـدون حَلْقة أمام المحراب ، ويقعـد معهم الخطيب والقاضى ، ويكون السلطان بإزاء المحراب . ويقرءون سورة الكهف بأصوات حسان ، ويكررون الآيات بترتيب عجيب . فإذا فرغوا من قراءتها صعـد الخطيب المنبر ، فخطب ثم صلى . فإذا فرغوا من الصلاة تنفلوا وقرأ القارئ بين يدى السلطان عشرا ، وانصرف السلطان ومن معه . ثم يقرأ القارئ بين يدى أخى السـلطان ، فإذا أتم قراءته انصرف هو ومن معه . ثم يقرأ القارئ بين يدى ابن السلطان ، فإذا فرغ من قراءته قام المعرِّف وهو المذكِّر ، فيمدح السلطان بشعر تركى ، ويمدح ابنه ويدعو لهما وينصرف . ويأتى ابن الملك إلى دار أبيه بعد أن يقبل يد عمه فى طريقه ، وعمه واقف فى انتظاره ، ثم يدخلان إلى السلطان ، فيتقـدم أخوه ويقبل يده ، ويجلس بين يديه . ثم يأتى ابنه فيقبل يده وينصرف إلى مجلسه ، فيقعد به مع ناسه . فإذا حانت صلاة العصر صلوها جميعا ، وقبل أخو السلطان يده ، وانصرف عنه ، فلا يعود إليه إلا فى الجمعة الأخرى . وأما الولد فإنه يأتى كل يوم غُدْوة كما ذكرناه .

ثم سافرنا من هذه المدينة إلى مدينة صَنُوب ، وهى مدينة حافلة جمعت بين التحصين والتحسين ، يحيط بها البحر من جميع جهاتها ، إلا واحدة ، وهى جهـة الشرق ، ولها هنالك باب واحد ، لايدخل إليها أحد إلا بإذن أميرها . وأميرها إبراهيم بك ابن السـلطان سليمان بادشـاه الذى ذكرناه . ولمـا استؤذن لنـا عليه ، دخلنا البلد ونزلنا بزاوية عز الدين (أخى) جلبى ، وهى خارج باب البحر ، ومن هناك يصعـد إلى جبل داخل فى البحر كمِيناء سَبْتة ، فيه البساتين والمزارع والمياه ، وأكثر فواكهه التين والعنب . وهو جبل مانع لا يستطاع الصعود إليه ، وفيه إحدى عشرة قرية ، يسكنها كفار الروم

تحت ذمة المسلمين . وبأعلاه رابطة تنسب للخَضِر وإلياس عليهما السلام ، لا تخلو عن متعبِّد ، وعندها عين ماء ، والدعاء فيها مستجاب . وبسفح هذا الجبل قبر الولى الصالح الصحابى بلال الحبشى ، وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر . والمسجد الجامع بمدينة صَنُوب من أحسن المساجد ، وفى وسطه بركة ماء عليها قبة تُقِلُّها أربع أرجل ، ومع كل رجل ساريتان من الرُّخام ، وفوقها مجلس يصعد له على دَرَج خشب . وذلك من عمارة السلطان بَرْوانه ابن السلطان علاء الدين الرومى ، وكان يصلى الجمعة بأعلى تلك القبة ،

وملك بعده ابنه غازى جلبى . فلما مات تغلب عليها السلطان سليمان . وكان غازى جلبى شجاعا مِقْداما . ووهب الله له الصبر تحت الماء ، وقوة السباحة . وكان يسافر فى (الأجفان) الحربية لحرب الروم ، فإذا كانت الملاقاة واشتغل الناس بالقتال غاص تحت الماء ، وبيده آلة حديد يخرق بها (أجفان) العدو ، فلا يشعرون بما حل بهم ، حتى يَدْهَمَهُم الغرق[1] . وطرقتْ مرسى بلده مرة (أجفان) العدو فخرقها وأسر من كان فيها ، وكانت فيه كفاية لا كِفاء لها . خرج يوما للتصيد وكان مُولَعا به ، فاتبع غزالة دخلت بين أشجار ، وزاد فى ركض فرسه فعارضته شجرة ، فضربت رأسه فشَدَختْه فمات . وتغلب السلطان سليمان على البلد ، وجعل به ابنه إبراهيم . وأضافنا بهذه المدينة قاضيها ، ونائب الأمير بها ومعلمه ، ويعرف بابن عبد الرزاق .

---

(١) من هذا يظهر أن تدمير سفن العدوّ من تحت الماء ليس بالحديث . ولا يبعد أن تكون الغوّاصات نشأت من ذلك .

حكاية

لما دخلنا هذه المدينة رآنا أهلها ونحن نصلى مُسْبِلى أيدينا ، وهم حنفية لا يعرفون مذهب مالك ، ولا كيفية صلاته . والمختار من مذهبه هو إسبال اليدين . وكان بعضهم يرى الروافض بالحجاز والعراق يصلون مسبلى أيديهم ، فاتهمونا بمذهبهم وسألونا عن ذلك ، فأخبرناهم أننا على مذهب مالك ، فلم يقنعوا بذلك منا . واستقرت التُّهَمَة فى نفوسهم ، حتى بعث إلينا نائب السلطان بأرنب وأوصى بعض خدامه أن يلازمنا حتى يرى ما نفعل به . فذبحناه وطبخناه وأكلنا ، وانصرف الخادم إليه وأعلمه بذلك ، فحينئذ زالت عنا التهمة ، وبعثوا لنا بالضيافة . والروافض لا يأكلون الأرنب . وبعد أربعة أيام من وصولنا إلى صَنُوب ، توفيت أم الأمير إبراهيم بها ، فخرجتُ فى جنازتها ، وخرج ابنها على قدميه كاشفا شعره ، وكذلك الأمراء والمماليك ، وثيابهم مقلوبة . وأما القاضى والخطيب والفقهاء فإنهم قلبوا ثيابهم ، ولم يكشفوا رءوسهم ، بل جعلوا عليها مناديل من الصوف الأسود ، عوضا عن العمائم . وأقاموا يطعمون الطعام أربعين يوما ، وهى مدة العزاء عندهم .

وكانت إقامتنا بهذه المدينة نحو أربعين يوما ، ننتظر تيسير السفر فى البحر إلى مدينة القِرَم . فاكترينا مركبا للروم ، وأقمنا أحد عشر يوما ننتظر مساعدة الريح . ثم ركبنا البحر ، فلما توسطناه بعد ثلاث هاج علينا واشتد بنا الأمر ، ورأينا الهلاك عِيانا . وكنت بالطارِمة[1] ومعى رجل من أهل المغرب يسمى أبا بكر ، فأمرته أن يصعد إلى أعلى المركب لينظر كيف البحر ، ففعل ذلك وأتانى بالطارمة ، فقال لى : أستودعكم الله .

---

(١) (الطارمة) مكان فى السفينة تحت السكان فى لغة الملاحين . وفى المختار : الطارمة بيت من خشب . فارسى معرّب .

ودَهمنا من الهول ما لم يعهد مثله . ثم تغيرت الريح وردتنا إلى مقربة من مدينة صَنُوب التى خرجنا منها . وأراد بعض التجار النزول إلى مرساها فمنعت صاحب المركب من إنزاله . ثم استقامت الريح وسافرنا . فلما توسطنا البحر هاج علينا ، وجرى لنا مثل المرة الأولى ثم ساعدت الريح . ورأينا جبال البر ، وقصدنا مرسى يسمى الكَرْش ، فأردنا دخوله ، فأشار إلينا أناس كانوا بالجبل أن لا تدخلوا ، نخفنا على أنفسنا ، وظننا أن هنالك (أجفانا) للعدو ، فرجعنا مع البر . فلما قَرُبْنا منه ، قلت لصاحب المركب : أريد أن أنزل هاهنا ، فأنزلنى بالساحل . ورأيت كنيسة فقصدتها فوجدت بها راهبا ، ورأيت فى أحد حيطان الكنيسة صورة رجل عربى عليه عمامة ، متقلد سيفا وبيده رمح ، وبين يديه سراج موقد . فقلت للراهب : ما هذه الصورة ؟ فقال : هذه صورة النبى علىّ . فعجبت من قوله . وبتنا تلك الليلة بالكنيسة ، وطبخنا دجاجا فلم نستطع أكلها ، إذ كانت مما استصحبناه فى المركب ، ورائحة البحر قد غلبت على كل ما كان فيه . وهذا الموضع الذى نزلنا به هو من الصحراء المعروفة بدَشْت قِفْجَق . وهذه الصحراء خَضِرة نَضِرة ، لا شجر بها ولا جبل ولا تل ولا أبنية ولا حطب ، وإنما يوقدون الأرواث . ولا يُسافَر فى هذه الصحراء إلا فى العَجَل ، وهى مسيرة ستة أشهر : ثلاثة منها فى بلاد السلطان محمد أُوزبك ، وثلاثة فى بلاد غيره . ولما كان الغد من يوم وصولنا إلى هذا المرسى ، توجه بعض التجار من أصحابنا إلى من بهذه الصحراء من الطائفة المعروفة بقِفْجَق ، وهم على دين النصرانية . فاكترى منهم عجلة يجرها الفرس ، فركبناها ووصلنا إلى مدينة الكَفَا ، وهى مدينة عظيمة مستطيلة على ضِفّة البحر ، يسكنها النصارى ، وأكثرهم الجنَوِيُّون ، ولهم أمير يعرف بالدَّمَدِير . ونزلنا منها بمسجد المسلمين .

حكاية

ولما نزلنا بهذا المسجد أقمنا به ساعة . ثم سمعنا أصوات النواقيس من كل ناحية ، ولم أكن سمعتها قط ، فهالني ذلك . وأمرت أصحابى أن يصعدوا الصومعة ، ويقرءوا القرآن ويذكروا الله ويؤذنوا ، ففعلوا ذلك ، فإذا برجل قد دخل علينا وعليه الدِرْع والسلاح ، فسلم علينا ، واستفهمناه عن شأنه ، فأخبرنا أنه قاضى المسلمين هنالك ، وقال : لما سمعت القراءة والأذان خفت عليكم فجئت كما ترون ، ثم انصرف عنا وما رأينا إلا خيرا .

ولما كان من الغد جاء إلينا الأمير وصنع طعاما فأكلنا عنده ، وطفنا بالمدينة فرأيناها حسنة الأسواق ، وكلهم كفار . ونزلنا إلى مرساها ، فرأينا مرسى عجيبا به نحو مائتى مركب ما بين حربى وسَفَرى ، صغير وكبير ، وهو من مراسى الدنيا الشهيرة . ثم اكترينا عجلة وسافرنا إلى مدينة القِرَم ، وهى مدينة كبيرة حسنة من بلاد السلطان المعظم محمد أُوزْبَك خان ، وعليها أمير من قِبَله اسمه تُلُكْتُمُور . وكان أحد خدام هذا الأمير قد صحبنا فى طريقنا فعرفه بقدومنا ، فبعث إلىّ مع إمامه سعدالدين بفَرَس . ونزلنا بزاوية شيخها زاده الخراسانى ، فأكرمنا هذا الشيخ ، ورحب بنا ، وأحسن إلينا . وهو معظم عندهم ، ورأيت الناس يأتون للسلام عليه من قاض وخطيب وفقيه وسواهم . وأخبرنى هذا الشيخ زاده أن بخارج هذه المدينة راهبا من النصارى فى دَيْر يتعبد به ويكثر الصوم ، وأنه انتهى إلى أن يواصل أربعين يوما ثم يفطر على حبة فول ، ورغب منى أن أصحبه فى التوجه إليه فأبيت ، ثم ندمت بعد ذلك على أن لم أكن رأيته وعرفت حقيقة أمره . ولقيت بهذه المدينة قاضيها الأعظم شمس الدين السائلى ، قاضى الحنفية . ولقيت بها قاضى الشافعية وهو يسمى بخضر ، والفقيه

المدرس علاء الدين الأَصِى ، وخطيب الشافعية أبا بكر ، وهو الذى يخطب بالمسجد الجامع الذى عمره الملك الناصر رحمه الله بهذه المدينة ، والشيخ الحكيم الصالح مُظَفَّر الدين ، وكان من الروم فأسلم وحسن إسلامه ، والشيخ الصالح العابد مُظْهِر الدين ، وهو من الفقهاء المعظمين . وكان الأمير تلكتمور مريضا ، فدخلنا عليه فأكرمنا وأحسن إلينا . وكان على التوجه إلى مدينة السَّرَا حضرة السلطان محمد أُوزْبَك ، فعملت على السير فى صحبته ، واشتريت العجلات لذلك .

ذكر العجلات التى يسافر عليها بهذه البلاد

وهم يسمون العجلة عَرَبة ، وهى عجلات تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار . ومنها ما يجره فرسان ، ومنها ما يجره أكثر من ذلك . وتجرها أيضا البقر والجمال ، على حال العربة فى ثقلها أو خفتها . والذى يَخْدُم العربة يركب إحدى الأفراس التى تجرها ، ويكون عليها سرج وفى يده سوط ، يحركها للمشى ، وعود كبير يُصَوِّبها به إذا عاجت عن القصد . ويجعل على العربة شبه قبة من قضبان خشب ، مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق ، وهى خفيفة الحمل ، وتكسى باللِّبد أو بالمِلف(١) . ويكون فيها طيقان مشبكة ، ويرى الذى بداخلها الناس ولا يرونه ، ويتقلب فيها كما يحب ، وينام ويأكل ويقرأ ويكتب وهو فى حال سيره . والتى تحمل الأثقال والأزواد وخزائن الأطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا ، وعليها قُفْل . وجهزت لما أردت السفر عربة لركوبى مغشاة باللبد ، وعربة صغيرة لرفيق عفيف الدين التُّوزَرِى ، وعجلة كبيرة لسائر الأصحاب يجرها ثلاثة من الجمال ، يركب أحدها خادم العربة .

---

(١) هو ما يسمى بالجوخ عندنا . والكلمة بهذا المعنى غير عربية كما سبق فى الحواشى .

وسرنا فى صحبة الأمير تُلُكْتُمُور وأخيه عيسى وولديه . وسافر أيضا معه فى هذه الوجهة إمامه سعد الدين ، والخطيب أبو بكر والقاضى شمس الدين والفقيه شرف الدين موسى ، والمعرِّف علاء الدين . وخُطة هذا المعرف أن يكون بين يدى الأمير فى مجلسه ، فإذا أتى القاضى يقف له هذا المعرف ويقول بصوت عال : باسم الله ، سيدنا ومولانا قاضى القضاة والحكام ، مبين الفتاوى والأحكام ، باسم الله . وإذا أتى فقيه معظم أو رجل مشار إليه قال : باسم الله ، سيدنا فلان الدين ، باسم الله . فيتهيأ من كان حاضرا لدخول الداخل ، ويقوم إليه ويفسح له فى المجلس . وعادة الأتراك أن يسيروا فى هذه الصحراء سيرا كسير الحجاج فى دَرْب الحجاز : يرحلون بعد صلاة الصبح وينزلون ضحا ، ويرحلون بعد الظهر وينزلون عشيّا . وإذا نزلوا حلوا الخيل والإبل والبقر عن العربات ، وسَرّحوها للرعى ليلا ونهارا . ولا يعلف أحد دابة لا السلطان ولا غيره . وخاصّة هذه الصحراء ، أن نباتها يقوم مقام الشعير للدواب ، وليست لغيرها من البلاد هذه الخاصة ، ولذلك كثرت الدواب بها . ودوابهم لا رعاة لها ، ولا حُراس ، وذلك لشدة أحكامهم فى السرقة . وحكمهم فيها أنه من وجد عنده فرس مسروق ، كلّف أن يرده إلى صاحبه ويعطيه معه تسعة مثله ، فإن لم يقدر على ذلك أُخِذ أولاده فى ذلك ، فإن لم يكن له أولاد ذبح كما تذبح الشاة .

وهؤلاء الأتراك لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ ، وإنما يصنعون طعاما من شىء عندهم يسمونه الدُّوقِى[1] ، يجعلون على النار الماء ، فإذا غلى صبوا عليه شيئا من الدُّوقِى ، وإن كان عندهم لحم قطعوه قطعا صغارا وطبخوه معه ، ثم يجعل لكل رجل نصيبه فى صحفة ، ويصبون عليه اللبن

---

(١) نبات عندهم والاسم غير عربى .

الرائب ويشربونه ، ويشربون عليه لبن الخيل ، وهم يسمونه القِمِزّ(١) . وهم أهل قوة وشدة وحسن مِزاج . ويستعملون فى بعض الأوقات طعاما يسمونه البورخانى ، وهو عجين يقطعونه قطيعات صغارا ، ويثقبون أوساطها ، ويجعلونها فى قدر ، فإذا طبخت صبوا عليها اللبن الرائب وشربوها . ولهم نبيذ يصنعونه من حب الدُّوقى الذى تقدم ذكره . وهم يرون أكل الحلواء عيبا .

ولقد حضرت يوما عند السلطان أُوزْبَك فى رمضان ، فأحضرت لحوم الخيل ، وهى أكثر ما يأكلون من اللحم ، ولحوم الأغنام . وأتيته تلك الليلة بطبق حلواء صنعها بعض أصحابى ، فقدمتها بين يديه فجعل أصبعه عليها ، وجعله على فيه ، ولم يزد على ذلك . وأخبرنى الأمير تلكتمور أن أحد الكبار من مماليك هذا السلطان ، وله من أولاده وأولاد أولاده نحو أربعين ولدا ، قال له السلطان يوما : كل الحلواء أعتقكم جميعا ، فأبى ، وقال : لو قتلتنى ما أكلتها . ! .

ولما خرجنا من مدينة القِرَم ، نزلنا بزاوية الأمير تلكتمور فى موضع يعرف بسَجَان ، فبعث إلىّ أن أحضر عنده ، فركبت إليه ، وكان لى فرس معد لركوبى ، يقوده خادم العربة ، فإذا أردت ركوبه ركبته . وأتيت الزاوية ، فوجدت الأمير قد صنع بها طعاما كثيرا فيه الخبز ، ثم أتوا بماء أبيض فى صحاف صغار ، فشرب القوم منه . وكان الشيخ مظفّر الدين يلى الأمير فى مجلسه ، وأنا أليه ، فقلت له : ما هذا؟ فقال : هذا ماء الدهن ، فلم أفهم ما قال . فذقته ، فوجدت له حموضة فتركته . فلما خرجت سألت عنه فقالوا : هو نبيذ يصنعونه من حب الدُّوقى . ويسمون هذا النبيذ المصنوع من الدوقى (البوزة) . وإنما قال لى الشيخ مظفر الدين : ماء الدُّخْن ،

(١) الكلمة غير عربية .

ولسانه فيه اللُّكْنة الأعجمية ، فظننت أنه يقول ماء الدهن . وبعد مسيرة ثمانية عشر منزلا من مدينة القِرَم، وصلنا إلى ماء كثير، نخوضه يوما كاملا ، وإذا كثر خوض الدواب والعربات فى هذا المـاء اشتد وَحَله وزاد صعوبة. فذهب الأمير إلى راحلتى ، وقدمنى أمامه مع بعض خدامه ، وكتب لى كتابا إلى أمير أَزَاق، يعلمه أنى أريد القدوم على الملك، ويحضه على إكرامى. وسرنا حتى انتهينا إلى ماء آخر نخوضه نصف يوم ، ثم سرنا بعده ثلاثا .

مدينة أَزَاق

ووصلنا إلى مدينـة أَزَاق ، وهى على سـاحل البحر ، حسـنة العمارة ، يقصـدها الجنَوِيّون وغيرهم بالتجارات . وبها من الفتيان (أخى) بِجَقْجِى ، وهو من العظماء ، يطعم الوارد والصـادر . ولمـا وصـل كتاب الأمـير تُلُكْتُمُور إلى أمـير أزاق ، وهو محمد خواجه الخُوَارَزْمى ، خرج إلى استقبالى ، ومعـه القاضى والطلبة ، وأخرج الطعام . فلما سلمنا عليه نزلنا بموضع أكلنا فيه . ووصلنا إلى المدينة، ونزلنا بخارجها ، بمقربة من رابطة هنالك تنسب للخَضِر وإلياس عليهما السـلام . وخرج شيخ من أهل أزاق فأضافنا بزاوية له ضيافة حسـنة . وبعد يومين من قدومنا قدم الأمير تلكتمور، وخرج الأمير محمد للقائه ومعه القاضى والطلبة، وأعدوا له الضيافة، وضربوا ثلاث قباب ، متصلا بعضها ببعض ، إحداها من الحرير الملون عجيبة ، والثنتان من الكتّان . ولمـا نزل الأمير بُسِطت بين يديه شِقَق الحرير يمشى عليها، فكان من مكارمه وفضله ، أن قدمنى أمامه ، ليرى ذلك الأمير منزلتى عنـده . ثم وصلنا إلى الخباء الأول وهو المعد لجلوسه ، وفى صدره كرسىّ من الخشب لجلوسه كبير مرصع ، وعليه مرتبة حسنة، فقدمنى الأمير أمامه ، وقدم الشـيخ مظفر الدين ، وصعد هو ، فجلس فيما بيننا ، ونحن جميعا على المرتبة . وجلس قاضيه وخطيبه وقاضى هذه المدينة وطلبتها ، عن

يسار الكرسى، على فُرُش فاخرة ، ووقف ولدا الأمير تلكتمور وأخوه والامير محمد وأولاده فى الخـدمة . ثم أتوا بالأطعمة ، من لحوم الخيـل وسواها ، وأتوا بألبان الخيل ، ثم أتوا (بالبوزة) . وبعد الفراغ من الطعام قرأ القراء بالأصوات الحسان ، ثم نصب منبر وصعده الواعظ وجلس القراء بين يديه ، وخطب خطبة بليغة ، ودعا للسلطان وللأمير ، وللحاضرين ، يقول ذلك بالعـربى ، ثم يفسره لهم بالتركى . وفى أثناء ذلك يكرر القراء آية من القرآن بترجيع عجيب . ثم أخذوا فى الغناء ، يغنون بالعربى ، ثم بالفارسى والتركى . ثم أتوا بطعام آخر، ولم يزالوا على ذلك إلى العشىّ . وكلما أردت الخروج منعنى الأمير . ثم جاءوا بكسوة للأمير وكُسًا لولديه وأخيه ، وللشيخ مظفر الدين ولى . وأتوا بعشرة أفراس للأمير، ولأخيه ولولديه بستة أفراس ، ولكل كبير من أصحابه بفرس ، ولى بفرس . والخيل بهـذه البلاد كثيرة جدا ، وثمنها نزر . قيمة الجيد منها خمسون درهما أو ستون من دراهمهم ، وذلك صرف دينـار من دنانيرنا أو نحوه . وهـذه الخيل هى التى تعرف بمصر بالأكاديش . ومنها معاشهم ، وهى ببلادهم ، كالغنم ببـلادنا بل أكثر : فيكون للتركى منهم آلاف منها . وتحمل هذه الخيل إلى بلاد الهند ، فيكون فى الرُفقة منها ستة آلاف، وما فوقها وما دونها ، لكل تاجر المـائة والمـائتان فـا دون ذلك ، وما فوقه . ويستأجر التاجر لكل خمسين منها راعيا يقوم عليها ويرعاها كالغنم . ويركب أحدها وبيده عصا طويلة فيها حبل ، فإذا أراد أن يقبض على فرس منها حاذاه بالفرس الذى هو راكبه ، ورمى الحبل فى عنقه وجذبه ، فيركبه ويترك الآخر للرعى . وإذا وصلوا بها إلى أرض السند أطعموها العلف ، لأن نبات أرض السند لا يقوم مقام الشعير . ويموت لهم منها الكثير ويسرق . ويَغْرَمون عليها بأرض السند سبعة دنانير فضة على الفرس ، بموضع يقال له شَشْنَقار ، ويغرمون عليها بمُلْتان قاعدة بلاد السند .

وكانوا فيما تقدم يَغْرَمون ربع ما يجلبونه ، فرفع ملك الهندالسلطان محمد ذلك ، وأمر أن يؤخذ من تجار المسلمين الزكاة ، ومن تجار الكفار العشر . ومع ذلك يبقى للتجار فيها فضل كبير ، لأنهم يبيعون الرخيص منها ببلاد الهند بمائة دينار دراهم ، وربما باعوها بِضِعْف ذلك وضعفيه ؛ والجياد منها تساوى خمسمائة دينار وأكثر من ذلك . وأهل الهند لا يبتاعونها لجرى والسبق ، لأنهم يلبسون فى الحرب الدروع ، ويُدَرّعون الخيل ، وإنما يبتغون قوة الخيل واتساع خُطاها ، والخيل التى يبتغونها للسبق ، تجلب إليهم من اليمن وعُمان وفارس . ويباع الفرس منها بألف دينار إلى أربعة آلاف . ولما سافر الأمير تُلُكْتُمور عن هذه المدينة أقمت بعده ثلاثة أيام ، حتى جَهَّز لى الأمير محمد خواجه آلات سفرى . وسافرت إلى مدينة الماجَر ، وهى مدينة كبيرة من أحسن مدن الترك على نهر كبير ، وبها البساتين والفواكه الكثيرة ، نزلنا منها بزاوية الشيخ الصالح ، العابد المعمَّر محمد البطائحى ، من بطائح العراق . وكان خليفة الشيخ أحمد الرفاعى رضى الله عنه . وفى زاويته نحو سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم ، منهم المتزوج والعَزَب .

ولأهل تلك البلاد اعتقاد حسن فى الفقراء ، وفى كل ليلة يأتون إلى الزاوية بالخيل والبقر والغنم ، ويأتى السلطان والخواتين لزيارة الشيخ والتبرك به ، ويجزلون الإحسان ويعطون العطاء الكثير ، وخصوصا النساء ، فإنهن يكثرن الصدقة ، ويتحرين أفعال الخير . وصلينا بمدينة الماجَر صلاة الجمعة ، فلما قضيت الصلاة ، صعد الواعظ عز الدين المنبر ، وهو من فقهاء بُخَارى وفضلائها ، وله جماعة من الطلبة والقراء يقرءون بين يديه ، ووعظ وذكَّر ، وأمير المدينة حاضر وكبراؤها . فقام الشيخ محمد البطائحى فقال : إن الفقية الواعظ يريد السفر ، ونريد له زادا ، ثم خلع فرجية مِرْعِزّ كانت

عليه ، وقال : هذه منى إليه . فكان الحاضرون بين من خلع ثوبه ، ومن أعطى فرسا ، ومن أعطى دراهم ، واجتمع له كثير من ذلك كله . ورأيت (بقيسارية) هذه المدينة ، يهوديا سلم علىّ وكلمنى بالعربى ، فسألته عن بلاده فذكر أنه من بلاد الأندلس ، وأنه قدم منها فى البر ولم يسلك بحرا . وأتى على طريق القُسْطَنْطِينِيّة العظمى ، وبلاد الروم وبلاد الجُركس . وذكر أن عهده بالأندلس منذ أربعة أشهر . وأخبرنى التجار المسافرون الذين لهم المعرفة بذلك ، بصحة مقاله . ورأيت بهذه البلاد عجبا ، من تعظيم النساء عندهم ، وهن أعلى شأنا من الرجال . فأما نساء الأمراء ، فكانت أول رؤيتى لهن عند خروجى من القِرَم ، رؤية الخاتون[1] زوجة الأمير سَلْطِيَة فى عربة لها ، وكلها مجللة بالملف الأزرق الطيب ، وطيقان البيت مفتوحة ، وأبوابه ، وبين يديها أربع جوار فائقات الحسن ، بديعات اللباس ، وخلفها جملة من العربات فيها جوار يتبعنها . ولما قربتْ من منزل الأمير ، نزلت عن العربة إلى الأرض ، ونزل معها نحو ثلاثين من الجوارى ، يرفعن أذيالها . ولأثوابها عُرًى تأخذ كل جارية بعروة ، ويرفعن الأذيال عن الأرض من كل جانب . ومشت كذلك متبخترة . فلما وصلت إلى الأمير قام إليها وسلم عليها وأجلسها إلى جانبه ، ودار بها جواريها . وجاءوا بروايا القِمِزّ ، فصبت منه فى قدح ، وجلست على ركبتيها قُدَّام الأمير وناولته القدح فشرب ، ثم سقت أخاه وسقاها الأمير . وحضر الطعام فأكلت معه ، وأعطاها كسوة وانصرفت . وعلى هذا الترتيب نساء الأمراء . وسنذكر نساء الملك فيما بعد . وأما نساء الباعة والسوقة فرأيتهن ، وإحداهن تكون فى العربة والخيل تجرها ، وبين يديها الثلاث والأربع من الجوارى ، يرفعن أذيالها ، وعلى رأسها (البُغْطاق) ، وهو أقروف[2] مرصع بالجوهر ، وفى أعلاه ريش الطواويس ، وتكون

---

(١) الأميرة .

(٢) قبعة مستطيلة مخروطة الشكل . وليست الكلمة بعربية فيما نعلم .

طيقان البيت مفتحة ، وهى بادية الوجه ، لأن نساء الأتراك لا يحتجبن . وتأتى إحداهن على هـذا الترتيب ، ومعها عبيدها بالغنم واللبن ، فتبيعه من الناس بالسلع العِطْرية . وربما كان مع المرأة منهن زوجهـا فيظنه من يراه بعض خدامها ، ولا يكون عليـه من الثيـاب إلا فروة من جلد الغـنم ، وفى رأسه قلنسوة تناسب ذلك .

وتجهزنا من مدينة المـاچر نقصد معسكر السلطان ، وكان على أربعة أيام من المـاچر ، بموضع يقال له : بِشْ دَغ ، ومعنى بش عندهم : خمسة ، ومعنى دغ : الجبـل . وبهذه الجبال الخمسة عين ماء حار ، يغتسل منها الأتراك ، ويزعمون أنه من اغتسل منها لم تصبه عاهة مرض . وارتحلنـا إلى موضع المحلة[1] ، فوصلناه أول يوم من رمضان ، فوجدنا المحلة قد رحلت ، فعدنا إلى الموضـع الذى رحلنا منه ، لأن المحلة تنزل بالقرب منه . فضربت بيتى على تل هنالك ، وركزت العلم أمام البيت ، وجعلت الخيـل والعربات وراء ذلك . وأقبلت المحلة فرأينا مدينة عظيمة تسـير بأهلهـا ، فيها المساجد والأسـواق ودخان المطبخ صاعداً فى الهواء ، وهم يطبخون فى حال رحيلهم ، والعربات تجرها الخيل بهم . فإذا بلغوا المنزل ، أنزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الأرض ، وهى خفيفة المحمل . كذلك يصـنعون بالمساجد والحوانيت . واجتاز بنا خواتين السـلطان ، كل واحدة بناسها على حدة . ولمـا اجتازت الرابعة منهن ، وهى بنت الأمير عيسى بك ، وسنذكرها ، رأت البيت بأعلى التل ، والعلم أمامه ، وهو علامة الوارد ، فبعثت الفتيان والجواري فسلموا علىّ ، وأبلغونى سلامها ، وهى واقفة تنتظرهم . فبعثت إليهـا هدية مع بعض أصحابى ، ومع مُعَرِّف الأمير تُلُكْتُمور ، فقبلتها تبركا ، وأمرت أن أنزل فى جوارها ، وانصرفتْ . وأقبل السلطان فنزل فى محلته على حِدة .

---

(١) المراد القافلة . وقد وردت كثيرا بهذا المعنى فى الرحلة .

ذكر السلطان المعظم محمد أُوزْبَك خان

واسمه محمد أوزبك . ومعنى خان عندهم : السلطان ، وهذا السلطان عظيم المملكة ، شديد القوة ، كبير الشأن ، رفيع المكان ، قاهر لأعداء الله ، أهل قسطنطينية العظمى ، مجتهد فى جهادهم . وبلاده متسعة ، ومدنه عظيمة ، منها الكَفَا والقِرَم ، والمَاجَر ، وأزاق ، وسرداق ، (سوداق) وخُوارَزْمْ . وحضرته السَّرا . وهو أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء الدنيا ، وعظماؤها ، وهم : مولانا أمير المؤمنين ظل الله فى أرضه ، إمام الطائفة المنصورة ، الذين لا يزالون ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة ، أيد الله أمره ، وأعز نصره ، وسلطان مصر والشام ، وسلطان العراق ، والسلطان أوزبك هذا ، وسلطان بلاد تُركستان وما وراء النهر ، وسلطان الهند ، وسلطان الصين .

ترتيب السلطان محمد أوزبك فى سفره

ويكون هذا السلطان إذا سافر فى مَحَلَّة على حدة ، معه مماليكه وأرباب دولته ، وتكون كل خاتون من خواتينه على حدة فى مَحَلَّتها . وله فى قعوده وسفره وأموره ترتيب عجيب بديع . ومن عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة فى قبة تسمى قبة الذهب ، مزينة بديعة ، وهى من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب ، وفى وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الفضة المذهبة ، وقوائمه فضة خالصة ، ورءوسها مرصعة بالجواهر . ويقعد السلطان على السرير وعلى يمينه الخاتون طَيْطُغلى ، وتليها الخاتون كَبَك ، وعلى يساره الخاتون بَيَلُون ، وتليها الخاتون أُرْدُجى . ويقف أسفل السرير على اليمين ولد السلطان تِين بك ، وعن الشِّمال ولده الثانى جان بك ، وتجلس بين يديه ابنته إيت كُجُجُك . وإذا أتت إحداهن ، قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير ، وأما طَيْطُغلى ، وهى الملكة وأحظاهن عنده ، فإنه يستقبلها إلى باب القبة ، فيسلم عليها ويأخذ بيدها . فإذا صعدت

على السرير وجلست ، حينئذ يجلس السلطان . وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب . ويأتى بعد ذلك كبار الأمراء فتنصب لهم كراسيهم عن اليمين وعن الشمال ، وكل إنسان منهم إذا أتى مجلس السلطان يأتى معه غلام بكرسيه . ويقف بين يدى السلطان أبناء الملوك من بنى عمه ، وإخوته وأقاربه ، ويقف فى مقابلتهم عند باب القبة أولاد الأمراء الكبار ، ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وشمال . ثم يدخل الناس للسلام : الأمثل فالأمثل ، ثلاثة ثلاثة ، فيسلمون وينصرفون ، فيجلسون على بعد . فإذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة من الخواتين ، ثم ينصرف سائرهن فيتبعنها إلى محلتها ، فإذا دخلت اليها انصرفت كل واحدة إلى محلتها راكبة عربتها ، ومع كل واحدة نحو خمسين جارية راكبات على الخيل ، وأمام العربات نحو عشرين من قواعد النساء راكبات على الخيل فيما بين الفتيان والعربة ، وخلف الجميع نحو مائة مملوك من الصبيان ، وأمام الفتيان نحو مائة من المماليك الكبار ، ركبانا ومثلهم مشاة ، بأيديهم القضبان ، والسيوف مشدودة على أوساطهم ، وهم بين الفرسان والفتيان . وهكذا ترتيب كل خاتون منهن فى انصرافها ومجيئها . وكان نزولى من المحلة فى جوار ولد السلطان جان بك الذى نذكره فيما بعد .

وفى الغد من يوم وصولى دخلت إلى السلطان بعد صلاة العصر ، وقد جمع المشايخ والقضاة والفقهاء والشرفاء والفقراء ، وقد صنع طعاما كثيرا وأفطرنا بحضره . وتكلم السيد الشريف نقيب الشرفاء ابن عبد الحميد والقاضى حمزة فى شأنى بالخير ، وأشاروا على السلطان بإكرامى . وهؤلاء الأتراك لا يعرفون إنزال الوارد ولا إجراء النفقة ، وإنما يبعثون له الغنم والخيل للذبح وروايا القِمِزّ ، وتلك كرامتهم . وبعد هذا بأيام صليت صلاة العصر مع السلطان ، فلما أردت الانصراف أمرنى بالقعود ، وجاءوا بالطعام ، ثم باللحوم المصلوقة من الغنم والخيل . وفى تلك الليلة أتيت السلطان بطبق حلواء ، فجعل أصبعه عليه وجعله على فيه ، ولم يزد على ذلك .

ذكر الخواتين وترتيبهن

وكل خاتون منهن تركب فى عربة، وللبيت الذى تكون فيه قبة من الفضة المموهة بالذهب، أو من الخشب المرصع، وتكون الخيل التى تجر عربتها مجللة بأثواب الحرير المذهب. وخادم العربة الذى يركب أحد الخيل فتى يدعى القَشّى. والخاتون قاعدة فى عربة، وعن يمينها امرأة من القواعد تسمى (أُولُو خاتون)، ومعنى ذلك: الوزيرة، وعن شمالها امرأة من القواعد أيضا تسمى (كُجُك خاتون)، ومعنى ذلك: الحاجبة. وبين يديها ست من الجوارى الصغار، يقال لهن البنات، فائقات الجمال متناهيات الكمال، ومن ورائها اثنتان منهن تستند إليهما. وعلى رأس الخاتون (البُغْطاق)، وهو مثل التاج الصغير المكلل بالجواهر، وبأعلاه ريش الطواويس، وعليها ثياب حرير مرصعة بالجوهر شبه (المنوت) التى يلبسها الروم. وعلى رأس الوزيرة والحاجبة مقنعة حرير، مزركشة الحواشى بالذهب والجوهر. وعلى رأس كل واحدة من البنات (الكُلا)، وهو شبه (الأقروف)، وفى أعلاها دائرة ذهب مرصعة بالجوهر، وريش الطواويس من فوقها. وعلى كل واحدة ثوب حرير مذهب. ويكون بين يدى الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتيان الروميين والهنديين، وقد لبسوا ثياب الحرير المذهبة المرصعة بالجواهر، وبيد كل واحد منهم عمود ذهب أو فضة، أو يكون من عود ملبّس بهما. وخلف عربة الخاتون نحو مائة عربة، فى كل عربة الثلاث والأربع من الجوارى الكبار والصغار، ثيابهن الحرير، وعلى رءوسهن (الكُلا). وخلف هذه العربات نحو ثلثمائة عربة تجرها الجمال والبقر، تحمل خزائن الخاتون وأموالها وثيابها وأثاثها وطعامها. ومع كل عربة غلام موكَّل بها متزوج بجارية من الجوارى اللاتى ذكرنا. فإن العادة عندهم أنه لا يدخل بين الجوارى من الغلمان إلا من كان له بينهن زوجة. وكل خاتون على هذا الترتيب. ولنذكرهن على الانفراد:

ذكر الخاتون الكبرى

والخاتون الكبرى ، هى الملكة والدة السلطان جانى بك وتين بك ، وسنذكرهما . وليست أم ابنته إيت بُجُجُك ، وأمها كانت الملكة قبل هذه. واسم هـذه الخاتون طَيْطُغْلِي . وهى أحظى نساء هـذا السلطان عنده ، ويعظمها الناس بسبب تعظيمه لهـا ، وإلا فهى أبخل الخواتين . وفى غد اجتماعى بالسلطان ، دخلت إلى هـذه الخاتون ، وهى قاعدة فيما بين عشر من النساء القواعد ، كأنهن خادمات لهـا ، وبين يديها نحو خمسين جارية صغارا ، يُسَمَّيْن البنات ، وبين أيديهن طيافير[1] الذهب والفضة ، مملوءة بحب الملوك[2] ، وهن ينقينه . وبين يدى الخاتون صينية ذهب مملوءة منه ، وهى تنقيه . فسلمنا عليها . وكان فى جملة أصحابى قارئ يقرأ القرآن على طريقة المصريين ، بطريقة حسنة وصوت طيب ، فقرأ . ثم أمرت أن يؤتى (بالقِمِز) ، فأتى به فى أقداح خشب لطاف خفاف ، فأخذت القدح بيدها وناولتنى إياه ، وتلك نهاية الكرامة عندهم . ولم أكن شربت (القمز) قبلها ، ولكن لم يمكنى إلا قبوله ، وذقته ولا خير فيه ، ودفعته لأحد أصحابى . وسألتنى عن كثير من حال سفرنا ، فأجبناها ، ثم انصرفنا عنها ، وكان ابتداؤنا بها لأجل عظمتها عند الملك .

ذكر الخاتون الثانية التى تلى الملكة

واسمها كَبَك خاتون ، ومعناه بالتركية : النُخَالة ، وهى بنت الأمير نَغَطَيْ . وأبوها حىّ مبتلى بعلة النِقْرِس ، وقد رأيته . وفى غد دخولنا على الملكة دخلنا على هذه الخاتون ، فوجدناها على مرتبـة تقرأ فى المصحف الكريم ، وبين يديها نحو عشر من النساء القواعد ، ونحو عشرين من البنات يطرزن ثيابا ، فسلمنا عليها ، وأحسنت فى السلام والكلام . وقرأ قارئنا فاستحسنته وأمرت (بالقِمِز) ، فأحضر ، وناولتنى القدح بيدها كمثل ما فعلته الملكة ، وانصرفنا عنها .

(١) صحاف . وقد تقدم الكلام عليها فى الحواشى .

(٢) نبات يعد من بعض أنواع اليتوعات .

ذكر الخاتون الثالثة

واسمها بَيَلُون، وهى بنت ملك القسطنطينية العظمى السلطان تَكْفُور . ودخلنا على هذه الخاتون، وهى قاعدة على سرير مرصع، قوائمه فضة، وبين يديها نحو مائة جارية روميات وتركيات ونُوبيات، منهن قائمات وقاعدات، والفِتْيان على رأسها والحجاب بين يديها ، من رجال الروم . فسألت عن حالنا ومقدَمنا ، وبُعْد أوطاننا ، وبكت ومسحت وجهها بمنديل كان بين يديها ، رقّة منها وشفقة . وأمرت بالطعام فأحضر ، وأكلنا بين يديها وهى تنظر إلينا . ولما أردنا الانصراف قالت : لا تنقطعوا عنا، وترددوا إلينا ، وطالِعُونا بحاجاتكم . وأظهرت مكارم الأخلاق ، وبعثت فى إثرنا بطعام وخبز كثير، وسمن وغنم ودراهم وكسوة جيدة، وثلاثة من جياد الخيل وعشرة من سائرها . ومع هذه الخاتون كان سفرى إلى القسطنطينية العظمى ، كما نذكره بعد .

ذكر الخاتون الرابعة

واسمها أُرْدُوجا، وهى بنت الأمير الكبير عيسى بك أمير الأُلُوس، ومعناه : أمير الأمراء. وأدركته حيا، وهو متزوج ببنت السلطان إيت كُجُجُك. وهذه الخاتون من أفضل الخواتين وألطفهن شمائل ، وأشفقهن . وهى التى بعثت إلىّ لما رأت بيتى على التل ، عند جواز المحلة كما قدمناه . دخلنا عليها، فرأينا من حسن خُلُقها وكرم نفسها مالا مزيد عليه . وأمرت بالطعام فأكلنا بين يديها، ودعت (بالقِمِزّ) فشرب أصحابنا . وسألت عن حالنا فأجبناها. ودخلنا أيضا إلى أختها ، زوجة الأمير على بن أَرْزَق .

ذكر بنت السلطان المعظم أُوزْبَك

واسمها إيت كُجُجُك ، ومعنى اسمها : الكلب الصغير، فان إيت هو الكلب، وكجك هو الصغير . وقد قدمنا أن الترك يسمون بالفأل، كما تفعل العرب . وتوجهنا إلى هــذه الخاتون بنت الملك وهى فى مَحَلَّة منفردة ، على نحو ستة أميال من محلة والدها، فأمرت بإحضار الفقهاء والقضاة، والسيد الشريف ابن عبد الحميد ، وجماعة الطلبة والمشايخ والفقهاء . وحضر زوجها الأمير عيسى الذى بنته زوجة السلطان ، فقعد معها على فراش واحد ، وهو مُعتَلّ بالنِّقْرس، فلا يستطيع التصرف[1] على قدميه، ولا ركوب الفرس، وإنما يركب العربة ، وإذا أراد الدخول على السلطان أنزله خدامه وأدخلوه المجلس محمولا . وعلى هــذه الصورة رايت أيضا الأمير نَغَطَى ، وهو أبو الخاتون الثانية . وهذه العلة فاشية فى هؤلاء الأتراك . ورأينا من هذه الخاتون بنت السلطان من المكارم وحسن الأخلاق مالم نره من سواها ، وأجزلت الإحسان وأفضلت ، جزاها الله خيرا .

ذكر ولدى السلطان

وهما شقيقان، وأمهما جميعا الملكة طَيْطُغْلى التى قدمنا ذكرها. والأكبر منهما اسمه تين بك ؛ واسم أخيه جان بك . وكل واحد منهما له مَحَلّة على حدة . وكان تين بك من اجمل خلق الله صورة . وعهد له أبوه بالملك ، وكانت له الحُظْوة والتشريف عنده . ولم يرد الله ذلك : فإنه لما مات أبوه وَلِىَ يسيرا ، ثم قتل لأمور قبيحة جرت له . وولى أخوه جان بك وهو خير منه

---

(١) يريد المشى وما إليه . وهو تعبير غريب .

وأفضل . وكان السيد الشريف ابن عبد الحميد ، هو الذى تولى تربية جان بك . وأشار علىّ هو والقاضى حمزة ، والإمام بدر الدين القِوَامى ، والإمام المقرئ حسام الدين البخارى وسواهم حين قدومى ، أن يكون نزولى بمحلة جان بك ، لفضله ؛ ففعلت ذلك .

ذكر سفرى إلى مدينة بُلْغار

وكنت سمعت بمدينة بلغار ، فأردت التوجه إليها لأرى ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها ، وقصر النهار أيضا ، فى عكس ذلك الفصل . وكان بينها وبين مَحَلّة السلطان مسيرة عشر . فطلبت منه من يوصلنى إليها ، فبعث معى من أوصلنى إليها ، وردّنى إليه . ووصلتها فى رمضان . فلما صلينا المغرب أفطرنا ، وأُذِّن بالعشاء فى أثناء إفطارنا ، فصليناها ، وصلينا التراويح والشفع والوتر ، وطلع الفجر إثر ذلك . وكذلك يقصر النهار بها ، فى فصل قصره أيضا . وأقمت بها ثلاثا(١) .

ذكر أرض الظلمة

وكنت أردت الدخول إلى أرض الظلمة ، والدخول إليها من بلغار وبينهما أربعون يوما ، ثم أضربت عن ذلك لعظم المُؤْنة فيه وقلة الجدوى . والسفر إليها لا يكون إلا فى عجلات صغار ، تجرها كلاب كبار ، فإن تلك المفازة فيها الجليد ، فلا تثبت قدم الآدمى ، ولا حافر الدابة فيها . والكلاب لها الأظفار ، فتثبت أقدامها فى الجليد . ولا يدخلها إلا الأقوياء من التجار الذين يكون لأحدهم مائة عجلة أو نحوها ، مُوقَرة بطعامه وشرابه وحطبه ، فإنها لا شجر فيها ولا حجر ولا مَدَر . والدليل بتلك الأرض هو الكلب الذى قد سار فيها مرارا كثيرة ، وتنتهى قيمته إلى ألف دينار

(١) أبهم ابن بطوطه هنا . ولم يحدد هذه البلاد ، ولا عيّن موقعها .

ونحوها . وتربط العربة إلى عنقه ويُقرن معه ثلاثة من الكلاب ، ويكون هو المقدم ، وتتبعه سائر الكلاب بالعربات ، فإذا وقف وقفت . وهذا الكلب لا يضربه صاحبه ولا ينهره ، وإذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولا ، قبل بنى آدم ، وإلا غضب الكلب وفر وترك صاحبه للتلف . فإذا كانت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة ، نزلوا عند الظلمة ، وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك، وعادوا إلى منزلهم المعتاد . فإذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم ، فيجدون بإزائه من السَّمُّور[١] والسِنْجاب[٢] والقاقم[٣] . فإن أرضى صاحب المتاع ما وجده إزاء متاعه ، أخذه، وإن لم يرضه تركه، فيزيدونه . وربما رفعوا متاعهم، أعنى أهل الظلمة، وتركوا متاع التجار . وهكذا بيعهم وشراؤهم . ولا يعلم الذين يتوجهون إلى هنالك من يبايعهم ويشاريهم ، أمن الجن هو أم من الإنس؟ ولا يرون أحدا[٤] .

والقاقم : هو أحسن أنواع الفِراء ، وتساوى الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار ، وصَرْفها من ذهبنا مائتان وخمسون . وهى شديدة البياض ، من جلد حيوان صغير فى طول الشبر ، وذنبه طويل ، يتركونه فى الفروة على حاله . والسمور دون ذلك ، تساوى الفروة منه أربعمائة دينار فما دونها . وأمراء الصين وكبارها يجعلون منه الجلد الواحد متصلا بفرواتهم عند العنق ، وكذلك تجار فارس والعراقين .

وعدت من مدينة بلغار مع الأمير الذى بعثه السلطان فى صحبتى ، فوجدت محلة السلطان على الموضع المعروف ببِشْ دَغ ، وذلك فى الثامن والعشرين من رمضان ، وحضرت معه صلاة العيد ، وصادف يوم العيد يوم الجمعة .

(١) دابة يتخذ من جلدها فراء مُثْمِنة . قاموس .

(٢) حيوان على حد اليربوع أكبر من الفأر ، ويتخذ من جلده الفراء اهـ من الدميرى .

(٣) لم نعثر على ضبطه فيما لدينا من المعجمات .

(٤) حكاية أهل الظلمة هذه تكاد تكون خيالية .

ذكر ترتيبهم فى العيد

ولما كان صباح يوم العيد ، ركب السلطان فى عساكره العظيمة ، وركبت كل خاتون عربتها ، ومعها عساكرها ، وركبت بنت السلطان والتاج على رأسها ، إذ هى الملكة على الحقيقة ، ورثت الملك من أمها ، وركب أولاد السلطان ، كل واحد فى عسكره . وكان قد قدم لحضور العيد قاضى القضاة شهاب الدين السّايلى ، ومعه جماعة من الفقهاء والمشايخ ، فركبوا وركب القاضى حمزة ، والإمام بدر الدين القِوامى ، والشريف ابن عبد الحميد . وكان ركوب هؤلاء الفقهاء مع تِينَ بك ، ولىّ عهد السلطان ، ومعهم الطبول والأعلام . فصلى بهم القاضى شهاب الدين ، وخطب أحسن خطبة . وركب السلطان ، وانتهى إلى برج خشب يسمى عندهم الكُشْك ، فجلس فيه ومعه خواتينه . ونصب برج ثان دونه ، فجلس فيه ولىّ عهده وابنته صاحبة التاج . ونصب برجان دونهما ، عن يمينه وشماله ، فيهما أبناء السلطان وأقاربه . ونصبت الكراسى للأمراء وأبناء الملوك ، عن يمين البرج وشماله . فجلس كل واحد على كرسيه . ونصب لكل أمير شبه منبر ، فقعد عليه وأصحابه يلعبون بين يديه ، فكانوا على ذلك ساعة . ثم أتى بالخلع ، فخلعت على كل أمير خِلْعة ، وعند ما يلبسها ، يأتى إلى أسفل برج السلطان فيخدُم(١) . وخدمته أن يمس الأرض بركبته اليمنى ، ويمد رجله تحتها والأخرى قائمة . ثم ينزل السلطان عن البرج ويركب الفرس ، وعن يمينه ابنه ولىّ العهد ، وتليه بنته الملكة إيت كجك ، وعن يساره ابنه الثانى ، وبين يديه الخواتين الأربع ، فى عربات مكسوة بأثواب الحرير المذهب ، والخيل التى تجرها مجللة بالحرير المذهب . وينزل جميع الأمراء الكبار والصغار

---

(١) يظهر شعائر الطاعة والخضوع . وقد استعمل ابن بطوطة هذا التعبير كثيرا فى رحلته وليس فصيحا فيما نعلم .

وأبناء الملوك والوزراء والحجاب وأرباب الدولة ، فيمشون بين يدى السلطان على أقدامهم إلى أن يصل إلى الوِطَاق[1] ، وقد نصبت هنالك باركة (باركاه) عظيمة ، والباركة عندهم : بيت كبير له أربعة أعمدة من الخشب ، مكسوة بصفائح الفضة المموهة بالذهب ، وفى أعلى كل عمود جامور[2] من الفضة المذهبة ، له بريق وشعاع ، وتظهر هذه الباركة على البعد . ويوضع عن يمينها ويسارها سقائف من القطن والكتّان ، ويفرش ذلك كله بفرش الحرير . وينصب فى وسط الباركة السرير الأعظم ، وهم يسمونه التخت ، وهو من خشب مرصع ، وأعواده مكسوة بصفائح فضة مذهبة ، وقوائمه من الفضة الخالصة المموهة ، وفوقه فرش عظيم . وفى وسط هذا السرير الأعظم مرتبة يجلس بها السلطان والخاتون الكبرى ، وعن يمينه مرتبة جلست بها بنته إيت بَكجك ، ومعها الخاتون أُرْدُوجا ، وعن يساره مرتبة جلست بها الخاتون بَيَلُون ، ومعها الخاتون كَبَك . ونصب عن يمين السرير كرسىّ قعد عليه تِين بك ، ولد السلطان ، ونصب عن شماله كرسى قعد عليه جَان بك (ولده الثانى) . ونصبت كراسىّ عن اليمين والشمال ، جلس فوقها أبنـاء الملوك والأمراء الكبار ، ثم الأمراء الصغار ، مثل أمراء هَزَارة ، وهم الذين يقودون ألفا . ثم أتى بالطعام على موائد الذهب والفضة ، وكل مائدة يحملها أربعة رجال ، وأكثر من ذلك . وطعامهم لحوم الخيـل والغنم مسلوقـة . وتوضع بين يدى كل أمير مائدة . ويأتى (الباوَرْجِى) ، وهو مقطع اللحم ، وعليه ثياب حرير وقد ربط عليها فوطة حرير ، وفى حزامه جملة سكاكين فى أغمادها . ويكون لكل أمير بَاوَرْجى ، فإذا قدمت المـائدة قعد بين يدى أميره ، ويؤتى بصحفة صغيرة من الذهب أو الفضة ، فيها ملح محلول بالمـاء ، فيقطع الباورجى اللحم

---

(١) يراد به الخيمة بلسانهم .

(٢) قال فى اللسان : والجامور الرأس تشبيها بجامور السفينة اهـ والمراد هنا رأس العمود .

قطعا صغارا . ولهم فى ذلك صنعة فى قطع اللحم مختلطا بالعظم ، فإنهم لا يأكلون منه إلا ما اختلط بالعظم . ثم يؤتى بأوانى الذهب والفضة للشرب . وأكثر شربهم من نبيذ العسل . فإذا أراد السلطان أن يشرب أخذت بنته القدح بيدها وخدمت برجلها ، ثم ناولته القدح فشرب . ثم تأخذ قدحا آخر فتناوله الخاتون الكبرى ، فتشرب منه ، ثم تناول سائر الخواتين على ترتيبهن . ثم يأخذ ولىّ العهد القدح ويَخْدُم ، ويناوله أباه فيشرب ، ثم يناول الخواتين ثم أخته ، ويخدُم لجميعهن . ثم يقوم الولد الثانى فيأخذ القدح ويسقى أخاه ويخدم له ، ثم يقوم الأمراء الكبار ، فيسقى كل واحد منهم ولىّ العهد ويخدم له ، ثم يقوم أبناء الملوك فيسقى كل واحد منهم هذا الابن الثانى ويخدم له ، ثم يقوم الأمراء الصغار فيسقون أبناء الملوك ، ويغنون فى أثناء ذلك .

وكانت قد نصبت قبة كبيرة أيضا إزاء المسجد للقاضى والخطيب والشريف ، وسائر الفقهاء ، والمشايخ وأنا معهم ، فأُتينا بموائد الذهب والفضة ، يحمل كل واحدة أربعة من كبار الأتراك . ولا يتصرف فى ذلك اليوم بين يدى السلطان إلا الكبار ، فيأمرهم برفع ما أراد من الموائد إلى من أراد : فكان من الفقهاء من أكل ، ومنهم من تورّع عن الأكل فى موائد الفضة والذهب . ورأيت مدّ البصر عن اليمين والشمال عربات ، عليها رَوَايا (القِمِزّ) ، فأمر السلطان بتفريقها على الناس ، فأتوا إلىّ بعربة منها ، فأعطيتها جيرانى من الأتراك . ثم أتينا المسجد ننتظر صلاة الجمعة ، فأبطأ السلطان ، فمن قائل : إنه لا يأتى لأن السكر قد غلب عليه ، ومن قائل : إنه لا يترك الجمعة . فلما كان بعد تمكن الوقت أتى وهو يتمايل ، فسلم على السيد الشريف ، وتبسم له . وكان يخاطبه بآطا وهو (الأب) بلسان التركية .

ثم صلينا الجمعة، وآنصرف الناس إلى منازلهم، وآنصرف السلطان إلى الباركة، فبقى على حاله إلى صلاة العصر. ثم آنصرف الناس أجمعون، وبقى مع الملك تلك الليلة خواتينه وبنته .

ثم كان رحيلنا مع السلطان والمحلة لما آنقضى العيد. فوصلنا إلى مدينة الحاج تَرْخان(1)، ومعنى (ترخان) عندهم الموضع المحرر من المغارم. والمنسوب إليه هذه المدينة هو حاج من الصالحين تركىّ نزل بموضعها، وحرر له السلطان ذلك الموضع، فصار قرية، ثم عظمت وتمدينت. وهى من أحسن المدن، عظيمة الأسواق، مبنية على نهر إتل(2)، وهو من أنهار الدنيا الكبار. وهنالك يقيم السلطان حتى يشتد البرد، ويَجْمُد هذا النهر، وتَجْمُد المياه المتصلة به، ثم يأمر أهل تلك البلاد فيأتون بالآلاف من أحمال التبن، فيجعلونها على الجليد المنعقد فوق النهر. والتبن هنالك لا تأكله الدواب، لأنه يضرها، وكذلك ببلاد الهند، وإنما أكلها الحشيش الأخضر، لخصْب البلاد. ويسافرون بالعربات، فوق هذا النهر والمياه المتصلة به، ثلاث مراحل. وربما جازت القوافل فوقه مع آخر فصل الشتاء، فيغرقون ويهلكون .

ولما وصلنا مدينة الحاج تَرْخان، رغبت الخاتون بَيَلُون ابنة ملك الروم من السلطان أن يأذن لها فى زيارة أبيها، لتضع حملها عنده، وتعود إليه، فأذن لها. ورغبتُ منه أن يأذن لى فى التوجه فى صحبتها لمشاهدة القسطنطينية العظمى، فمنعنى خوفا علىّ، فلاطفته وقلت له: إنما أدخلها فى حرمتك، وجوارك، فلا أخاف أحدا، فأذن لى، وودعناه، ووصلنى بألف وخمسمائة دينار وخلعة وأفراس كثيرة. وأعطتنى كل خاتون منهن سبائك الفضة. وأعطت بنته أكثر منهن، وكستنى وأركبتنى. واجتمع لى من الخيل والثياب وفروات السِنْجاب والسَّمور جملة .

(1) وتسمى: أستراخان .

(2) هو نهر فلجا .

ذكر سفرى إلى القُسْطَنْطِينِيَّة

وسافرنا فى العاشر من شوال ، فى صحبة الخاتون بَيَلُون ، وتحت حُرْمتها . ورحل السلطان فى تشييعها مرحلة ، ورجع هو والملكة وولى عهده . وسافرت سائر الخواتين فى صحبتها مرحلة ثانية ، ثم رجعن . وسافر فى صحبتها الأمير بَيْدَرة فى خمسة آلاف من عسكره . وكان عسكر الخاتون نحو خمسمائة فارس ، منهم خدامها من المماليك والروم نحو مائتين ، والباقون من الترك . وكان معها من الجوارى نحو مائتين ، وأكثرهن روميات . وكان لها من العربات نحو أربعمائة عربة ، ونحو ألفى فرس بلجرها وللركوب ، ونحو ثلثمائة من البقر ، ومائتين من الجمال لجرها . وكان معها من الفتيان الروميين عشرة ، ومن الهنديين مثلهم . وقائدهم الأكبر يسمى بِسُنْبُل الهندى ، وقائد الروميين يسمى بميخائيل ، ويقول له الأتراك : لؤلؤ ، وهو من الشجعان الكبار . وتركت أكثر جواريها وأثقالها بمحلة السلطان ، إذ كانت قد توجهت للزيارة ووضع الحمل .

وتوجهنا إلى مدينة أُكَك ، وهى مدينة متوسطة ، حسنة العمارة ، كثيرة الخيرات ، شديدة البرد . وبينها وبين السَّرا حضرة السلطان ، مسيرة عشر . وعلى يوم من هذه المدينة ، جبال الرُّوس ، وهم نصارى شُقْر الشعور زرق العيون قباح الصور أهل غدر . وعندهم معادن الفضة . ثم وصلنا بعد عشر من هذه المدينة إلى مدينة سُرْدَق ، وهى من مدن دَشْت قِفْجَق ، على ساحل البحر ، ومرساها من أعظم المراسى وأحسنها ، وبخارجها البساتين والمياه . وينزلها الترك وطائفة من الروم تحت ذمتهم وهم أهل الصناعات . وأكثر بيوتها خشب . وكانت هذه المدينة كبيرة ، فخَرِب معظمها ، بسبب فتنة وقعت بين الروم والترك ، وكانت الغلبة للروم ، فانتصر للترك أصحابهم ، وقتلوا الروم شرَّ قِتْلة ، ونفوا أكثرهم وبقى بعضهم تحت الذمة إلى الآن .

وكانت الضيافة تُحمل إلى الخاتون فى كل منزل من تلك البلاد من الخيل والغنم والبقر ، والدُّوقى والقِمِزّ وألبان البقر والغنم . وكل أمير بتلك البلاد يصحب الخاتون بعساكره إلى آخر حد بلاده، تعظيما لها لاخوفا عليها ، لأن تلك البلاد آمنة . ثم وصلنا إلى البلدة المعروفة باسم باباسَلْطُوق، وهذه البلدة آخر بلاد الترك ، بينها وبين أول عمالة الروم ثمانية عشر يوما، فى برية غير معمورة ، منها ثمانية أيام لاماء بها ، يُتزود لها الماء ويحمل فى الرَّوَايا والقرب على العربات .

وكان دخولنا إليها فى أيام البرد، فلم نحتج إلى كثير من الماء . والأتراك يرفعون الألبان فى القرب ، ويخلطونها بالدُّوقِى المطبوخ ، ويشربونها فلا يَعْطَشون. وأخذنا من هذه البلدة فى الاستعداد للبرية . واحتجت إلى زيادة أفراس ،فأتيت الخاتون فأعلمتها بذلك ، وكنت أسلّم عليها صباحا ومساء . ومتى أتتها ضيافة تبعث إلىّ بالفرسين والثلاثة ، وبالغنم. فكنت أترك الخيل لأذبحها . وكان من معى من الغلمان والخدام يأكلون مع أصحابنا الأتراك . فاجتمع لى نحو خمسين فرسا ، وأمرت لى الخاتون بخمسة عشر فرسا ، وأمرت وكيلها (ساروجة الرومى) أن يختارها سمانا من خيل المطبخ ، وقالت : لا تخف ، فإن احتجت إلى غيرها زدناك .

ودخلنا البرية فى منتصف ذى القَعْدة ، فكان سيرنا ، من يوم فارقنا السلطان إلى أول البرية ، تسعة عشر يوما ، وإقامتنا خمسة . ورحلنا فى هذه البرية ثمانية عشر يوما ، وما رأينا إلا خيرا والحمد لله . ثم وصلنا بعد ذلك إلى حصن مَهْتُولى ، وهو أول عمالة الروم . وكانت الروم قد سمعت بقدوم هذه الخاتون على بلادها ، فوصلها إلى هذا الحصن كَفَالى نِقُولة الرومى فى عسكر عظيم وضيافة عظيمة . وجاءت الخواتين والدايات من دار أبيها ملك

القسطنطينية . وبين مَهْتولى والقُسْطنطينية مسيرة اثنين وعشرين يوما ، منها ستة عشر يوما إلى الخليج وستة منه إلى القُسْطنطينية . ولا يُسافَر من هذا الحصن إلا بالخيل والبغال ، وتترك العربات به لأجل الوَعْر والجبال . وجاء كَفَالى ببغال كثيرة . وبعثت إلىّ الخاتون بستة منها ، وأوصت أمير ذلك الحصن بمن تركتُه من أصحابى وغلمانى مع العربات والأثقال ، فأمر لهم بدار . ورجع الأمير بَيْدَرة بعساكره . ولم يسافر مع الخاتون إلا ناسها . وتركت مسجدها بهذا الحصن . وكان يؤتى إليها بالخمور فى الضيافة ، فتشربها ، وبالخنازير . وأخبرنى بعض خواصها أنها أكلتها . ولم يبق معها من يصلى ، إلا بعض الأتراك ، كان يصلى معنا . وتغيرت البواطن لكن الخاتون أوصت الأمير كفالى بإكرامى . ولقد ضَرَب مرة بعض مماليكه لما ضحك من صلاتنا . ثم وصلنا حصن مَسْلَمة بن عبد الملك ، وهو بسفح جبل على نهر زخّار ، يقال له : أُصْطَفِيلى . ولم يبق من هذا الحصن إلا آثاره . وبخارجه قرية كبيرة . ثم سرنا يومين ووصلنا إلى الخليج ، وعلى ساحله قرية كبيرة ، فوجدنا فيها المد ، فأقمنا حتى كان الجزر وخضناه ، وعرضه نحو ميلين . ومشينا أربعة أميال فى رمال ، ووصلنا الخليج الثانى فخضناه ، وعرضه نحو ثلاثة أميال . ثم مشينا نحو ميلين فى حجارة ورمل ، ووصلنا الخليج الثالث ، وعرضه ميل واحد . فعرض الخليج كله مائيّه ويابسه اثنا عشر ميلا . وتصير ماء كلها فى أيام المطر فلا تخاض إلا فى القوارب .

وعلى ساحل هذا الخليج الثالث مدينة الفَنِيكَة ، وهى صغيرة لكنها حسنة مانعة ، وكنائسها وديارها حسان والأنهار تخرقها ، والبساتين تحف بها . ويُدّخر بها العنب والإجّاص ، والتفاح والسَّفَرْجَل ، من السنة إلى الأخرى . وأقمنا بهذه المدينة ثلاثا ، والخاتون فى قصر لأبيها هنالك . ثم قدم أخوها

شقيقها وآسمه كَفَالِى قَرَاس فى خمسة آلاف فارس، شاكّين فى السلاح . ولما أرادوا لقاء الخاتون ، ركب أخوها فرسا أشهب ، ولبس ثيابا بيضاء ، وجعل على رأسه مِظَلّة مكلّلة بالجواهر ، وجعل عن يمينه خمسة من أبناء الملوك ، وعن يساره مثلهم ، لابسين البياض أيضا ، وعليهم مظلات مزركشة بالذهب . وجعل بين يديه مائة من الماشين ، ومائة فارس قد أسبغوا الدروع على أنفسهم وخيلهم ، وكل واحد منهم يقود فرسا مسرجا مدرّعا ، عليه شِكّة(١) فارس ، من البَيْضة(٢) المجوهرة ، والدروع والتركش(٣) ، والقوس والسيف ، وبيده رمح فى طرف رأسه راية . وأكثر تلك الرماح مكسوة بصفائح الذهب والفضة . وتلك الخيل المقودة هى مراكب ابن السلطان . وقسم فرسانه على أفواج ، كل فَوْج فيه مائتا فارس ، ولهم أمير قد قدّم أمامه عشرة من الفرسان شاكّين فى السلاح . وكل واحد منهم يقود فرسا وخلفه عشر من العلامات ملونة ، بأيدى عشرة من الفرسان ، وعشرة أطبال يتقلدها عشرة من الفرسان ، ومعهم ستة يضْربون الأبواق والأنقار والصُّرْنايات(٤) .

وركبت الخاتون فى مماليكها ، وجواريها وفتيانها وخدامها ، وهم نحو خمسمائة ، عليهم ثياب الحرير المزركشة بالذهب المرصعة . وعلى الخاتون حلة مرصعة بالجوهر ، وعلى رأسها تاج مرصع ، وفرسها مجلل بجُلّ حرير مزركش بالذهب ، وفى يديه ورجليه خَلاخِيل الذهب ، وفى عنقه قلائد مرصعة ، وعَظْم السرج مكسو ذهبا ، مكلل جوهرا .

---

(١) سلاح . (٢) شبه الخُوذة على الرأس . (٣) جعبة السهام بلسانهم ، كما سيأتى فى الحواشى (٤) سبق الكلام على الأنقار والصرنايات فى الحواشى .

وكان التقاؤهما فى بسيط من الارض على نحو ميل من البلد . وترجل لها أخوها لأنه أصغر سنا منها ، وقبّل رِكابها ، وقبلت رأسه . وترجل الأمراء وأولاد الملوك وقبلوا جميعا ركابها ، وانصرفت مع أخيها . وفى غد ذلك اليوم وصلنا إلى مدينة كبيرة على ساحل البحر ، لا أثبت الآن اسمها ، ذات أنهار وأشجار ، نزلنا بخارجها . ووصل أخو الخاتون ولىّ العهد فى ترتيب عظيم ، وعسكر ضخم من عشرة آلاف مُدَرَّع ، وعلى رأسه تاج ، وعن يمينه نحو عشرين من أبناء الملوك ، وعن يساره مثلهم . وقد رتب فرسانه على ترتيب أخيه سواء ، إلا أن الحَفْل أعظم والجمع أكثر . ولاقته أخته فى مثل زِيّها الأول ، وترجلا جميعا . وأُتى بخباء حرير فدخلا فيه ، فلا أعلم كيفية سلامهما .

ونزلنا على عشرة أميال من القسطنطينية . فلما كان بالغد خرج أهلها من رجال ونساء وصبيان ، ركبانا ومشاة فى أحسن زى وأجمل لباس . وضربت عند الصبح الطبول والأبواق والأنفار ، وركبت العساكر . وخرج السلطان وزوجه أم هذه الخاتون ، وأرباب الدولة والخواص ، وعلى رأس الملك رُِوَاق(١) يحمله جملة من الفرسان ، ورجال بأيديهم عصىّ طوال ، فى أعلى كل عصا شبه كرة من الجلد ، يرفعون بها الرواق ، وفى وسط الرواق مثل القبة يرفعها الفرسان بالعصى . ولما أقبل السلطان اختلطت العساكر وكثر العَجَاج(٢) ، ولم أقدر على الدخول فيما بينهم ، فلزمت أثقال الخاتون وأصحابها ، خوفا على نفسى . وذُكر لى أنها لما قَرُبَتْ من أبويها ترجلت وقبلت الأرضْ بين أيديهما ، ثم قبلت حافرى فرسيهما ، وفعل كبار أصحابها مثل فعلها فى ذلك .

---

(١) قال فى القاموس : والرواق بيت كالفسطاط ، أو سقف فى مقدّم البيت اه والمَراد هنا المعنى الأول .

(٢) الغبار .

وكان دخولنا عند الزوال أو بعده إلى القسطنطينية العظمى ، وقد ضربوا نواقيسهم حتى ارتجت الآفاق لاختلاط أصواتها . ولما وصلنا الباب الأول من أبواب قصر الملك ، وجدنا به مائة رجل ، معهم قائد لهم فوق دكان . وسمعتهم يقولون : سَرَاكِنُو، سَرَاكِنُو، ومعناه : المسلمون . ومنعونا من الدخول ، فقال لهم أصحاب الخاتون : إنهم من جهتنا ، فقالوا : لا يدخلون إلا بإذن . فأقمنا بالباب ، وذهب بعض أصحاب الخاتون فبعث من أعلمها بذلك ، وهى بين يدى والدها ، فذكرت له شأننا ، فأمر بدخولنا ، وعين لنا دارا بمقربة من دار الخاتون . وكتب لنا أمرا بألا نُعترض حيث نذهب من المدينة ، ونودى بذلك فى الأسواق . وأقمنا بالدار ثلاثا ، تُبعث إلينا الضيافة من الدقيق والخبز والغنم والدجاج والسمن والفاكهة والحوت والدراهم والفرش . وفى اليوم الرابع دخلنا على السلطان .

ذكر سلطان القسطنطينية

واسمه تَكْفُور ابن السلطان جِرْجِيس، وأبوه السلطان جرجيس بقيد الحياة ، لكنه تزهد وترهب ، وانقطع للعبادة فى الكنائس ، وترك الملك لولده ، وسنذكره . وفى اليوم الرابع من وصولنا إلى القسطنطينية ، بعثت إلىّ الخاتون الفتى سُنْبُلا الهندى ، فأخذ بيدى وأدخلنى إلى القصر ، فجزنا أربعة أبواب فى كل باب سقائف ، بها رجال وأسلحتهم ، وقائدهم على دكان مفروش . فلما وصلنا إلى الباب الخامس ، تركنى الفتى سنبل ودخل . ثم أتى ومعه أربعة من الفتيان الروميين ، ففتشونى لئلا يكون معى سكين ، وقال لى القائد : تلك عادة لهم ، لابد من تفتيش كل من يدخل على الملك ، من خاص أو عام ، غريب أو بلدى . وكذلك الفعل بأرض الهند . ثم لما فتشونى ، قام الموكل بالباب ، فأخذ بيدى وفتح الباب ، وأحاط بى أربعة

من الرجال ، أمسك آثنان بكمى ، واثنان من ورائى ، فدخلوا بى إلى (مشوَر) كبير ، حيطانه بالفُسَيْفِساء ، قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد ، وفى وسطه ساقية ماء ، ومن جهتيها الأشجار ، والناس واقفون يمينا ويسارا سكوتا ، لا يتكلم أحد منهم . وفى وسط (المشور) ثلاثة رجال وقوف أسلمنى أولئك الأربعة إليهم ، فأمسكوا بثيابى ، كما فعل الآخرون . وأشار إليهم رجل فتقدموا بى ، وكان أحدهم يهوديا ، فقال لى بالعربى : لا تخف فهكذا عادتهم أن يفعلوا بالوارد ، وأنا التَّرْجُمان ، وأصلى من بلاد الشام . فسألته : كيف أُسَلِّم ؟ فقال : قل السلام عليكم .

ثم وصلت إلى قبة عظيمة والسلطان على سريره ، وزوجته أم هذه الخاتون بين يديه ، وأسفل السرير الخاتون وأخواتها ، وعن يمينه ستة رجال وعن يساره أربعة ، وكلهم بالسلاح . فأشار إلى قبل السلام والوصول إليه بالجلوس هُنَيْهة ، ليسكن رُوعى ، ففعلت ذلك . ثم وصلت إليه ، فسلمت عليه ، وأشار إلى أن اجلس ، فلم أفعل . وسألنى عن بيت المقدس ، وعن الصخرة المقدسة ، وعن القُمامة[1] ، وعن مَهْد عيسى ، وعن بيت لحم ، وعن مدينة الخليل عليه السلام ، ثم دِمَشْق ومصر والعراق وبلاد الروم ، فأجبته عن ذلك كله ، واليهودى يترجم بينى وبينه . فأعجبه كلامى ، وقال لأولاده : أكرموا هذا الرجل وأَمِّنوه . ثم خلع على خلعة ، وأمر لى بفرس مسرج ملجم ، ومِظلة من التى يجعلها الملك فوق رأسه ، وهى علامة الأمان . وطلبت منه أن يعين من يركب معى بالمدينة فى كل يوم ، حتى أشاهد عجائبها وغرائبها ، وأذكرها فى بلادى ، فعين لى ذلك . ومن العادات عندهم أن الذى يلبس خلعة الملك ، ويركب فرسه ، يطاف به فى أسواق المدينة بالأبواق والطبول ، ليراه الناس . وأكثر ما يُفْعَل ذلك بالأتراك الذين يأتون من بلاد السلطان أُوزْبَك لئلا يُؤْذَوْا . فطافوا بى فى الأسواق .

(١) قال فى القاموس : نصرانية بنت ديرا بالقدس فسمى باسمها .

وصف المدينة

وهى متناهية فى الكبر، منقسمة قسمين، بينهما نهر عظيم المد والجزر، على شكل وادى سَلَا من بلاد المغرب . وكانت عليه فيما تقدم قنطرة مبنية فخربت، وهو الآن يعبر فى القوارب، واسم هذا النهر أَبْسُمِى . وأحد القسمين يسمى أَصْطَنْبُول، وهو بالعُدْوة الشرقية من النهر، وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته، وسائر الناس . وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصَّفَّاح[1] متسعة . وأهل كل صناعة على حدة لا يشاركهم سواهم . وعلى كل سوق أبواب، تسد عليه بالليل . وأكثر الصناع والباعة بها النساء . والمدينة فى سفح جبل داخل فى البحر نحو تسعة أميال، وعرضه مثل ذلك أو أكثر، وفى أعلاه قلعة صغيرة، وقصر السلطان . والسور يحيط بهذا الجبل، وهو مانع لا سبيل لأحد إليه من جهة البحر . وفيه نحو ثلاث عشرة قرية عامرة . والكنيسة العظمى فى وسط هذا القسم من المدينة . وأما القسم الثانى منها فيسمى الغَلَطَة، وهو بالعُدْوة الغربية من النهر، شبيه برِباط[2] الفتح فى قربه من النهر . وهذا القسم خاص بنصارى الأفرنج يسكنونه . وهم أصناف : فمنهم الجنوِيُّون، والبنادقة، وأهل رُومِيَة، وأهل إفرانسة . وحكمهم إلى ملك القسطنطينية، يُقَدِّم عليهم منهم من يرتضونه، ويسمونه (القمص)، وعليهم وظيفة[3] فى كل عام لملك القسطنطينية . وربما استعصوا عليه، فيحاربهم حتى يصلح بينهم البابا . وجميعهم أهل تجارة .

---

(١) حجارة عراض رقاق كما فى القاموس .

(٢) مدينة فى مراكش

(٣) جُعْل .

ومرساهم من أعظم المراسى ، رأيت به نحو مائة جفن من القَرَاقِر[1] ، وسواها من الكبار، وأما الصغار فلا تحصى كثرة . وأسواق هذا القسم حسنة، إلا أن الأقذار غالبة عليها ، ويشقها نهر صغير قَذِر نَجِس .

ذكر الكنيسة العظمى

وإنما نذكر خارجها ، وأما داخلها فلم أشاهده . وهى تسمى عندهم أَيَا صُوفِيَا ، وهى من أعظم كنائس الروم ، عليها سور يُطِيف بها ، فكأنها مدينة . وأبوابها ثلاثة عشر بابا . ولها حرم هو نحو ميل ، عليه باب كبير ، ولا يمنع أحد من دخوله . وقد دخلته مع والد الملك الذى يقع ذكره . وهو شبه (مِشْوَر) مُسَطَّح بالرخام ، وتشقه ساقية تخرج من الكنيسة ، لها حائطان مرتفعان نحو ذراع ، مصنوعان بالرُّخام المجزَّع المنقوش بأحسن صنعة . والأشجار منتظمة عن جهتى الساقية . ومن باب الكنيسة إلى باب هذا (المشور) مُعَرَّش من الخشب مرتفع ، عليه دوالى العنب ، وفى أسفله الياسمين والرياحين . وفى خارج باب هذا (المشور) قبة خشب كبيرة فيها طبلات[2] خشب ، يجلس عليها خدام ذلك الباب . وعن يمين القبة مصاطب وحوانيت ، أكثرها من الخشب ، يجلس بها قضاتهم وكتّاب دواوينهم . وفى وسط تلك الحوانيت قبة خشب يصعد إليها على دَرَج خشب ، وفيها كرسى كبير مُطَبَّق بالملف[3] ، يجلس فوقه قاضيهم ، وسنذكره .

---

(١) سبق فى الحواشى شرح هاتين الكلمتين . وكان يجب أن يقول : مائة جفنة ، كما تقدم .

(٢) مصاطب فيما يظهر . واستعمال الكلمة غريب .

(٣) سبق أنه شبه (الجوخ) عندنا .

وعن يسار القبة التى على باب هذا (المشور) سوق العطارين . والساقية التى ذكرناها ، تنقسم قسمين : أحدهما يمر بسوق العطارين والآخر يمر بالسوق ، حيث القضاة والكتّاب . وعلى باب الكنيسة سقائف ، يجلس بها خدامها الذين يَقُمّون[1] طرقها ، ويوقدون سُرُجها ، ويغلقون أبوابها . وهذا الباب مصفح بصفائح الفضة والذهب ، وحَلْقتاه من الذهب الخالص . وذكر لى أن عدد من بهذه الكنيسة من الرهبان والقسيسين ينتهى إلى آلاف ، وأن بعضهم من ذرية الحواريين ، وأن بداخلها كنيسة مختصة بالنساء ، فيها من الأبكار المنقطعات للعبادة أزيد من ألف ، وأما القواعد من النساء فأكثر من ذلك كله .

ومن عادة الملك وأرباب دولته وسائر الناس ، أن يأتوا كل يوم صباحا إلى زيارة هذه الكنيسة . ويأتى إليها البابا مرة فى السنة . وإذا كان على مسيرة أربع من البلد يخرج الملك إلى لقائه ويترجل له ، وعند دخول المدينة يمشى بين يديه على قدميه . ويأتيه صباحا ومساء للسلام عليه طول مقامه بالقسطنطينية حتى ينصرف .

ذكر الملك المترهب جِرجِيس

وهذا الملك وَلّى المُلك ابنه وانقطع للعبادة ، وبنى مَانَسْتارا[2] خارج المدينة على ساحلها . وكنت يوما مع الرومى المعين للركوب معى ، فإذا بهذا الملك ماش على قدميه ، وعليه المُسوح[3] وعلى رأسه قلنسوة لِبْد ، وله لحية بيضاء طويلة ، ووجه حسن عليه أثر العبادة ، وخلفه وأمامه جماعة من الرهبان ، وبيده عكاز وفى عنقه سُبْحة . فلما رآه الرومى نزل وقال لى : انزل فهذا والد الملك . فلما سلم عليه الرومى ، سأله عنى ثم وقف ، وبعث لى فجئت إليه فأخذ بيدى ، وقال لذلك الرومى ، وكان يعرف اللسان العربى :

(١) يكنسون . (٢) المانَسْتارُ شبه الزاوية عند المسلمين ، غير عربية .

(٣) جمع مِسح وهو لباس خشن من صوف .

قل لهذا السراكنو (يعنى المسلم) : أنا أصافح اليد التى دخلت بيت المقدس، والرجل التى مشت داخل الصخرة ، والكنيسة العظمى التى تسمى قُمَامة ، و بيت لحم. وجعل يده على قدمى، ومسح بها وجهه . فعجبت من اعتقادهم فيمن دخل تلك المواضع من غير ملّتهم . ثم أخذ بيدى ومشيت معه ، فسألنى عن بيت المقدس ومن فيه من النصارى ، وأطال السؤال . ودخلت معه إلى حرم الكنيسة الذى وصفناه آنفا . ولما قارب الباب الأعظم، خرجت جماعة من القسيسين والرهبان للسلام عليه، وهو من كبارهم فى الرَّهْبانية . ولما رآهم أرسل يدى، فقلت له : أريد الدخول معك إلى الكنيسة ، فقال للترّجمان : قل له : لابد لداخلها من السجود للصليب الأعظم ، فإن هذا مما سنته الأوائل ، ولا يمكن خلافه ، فتركته، ودخل وحده . ولم أره بعدها .

قاضى القسطنطينية

ولما فارقت الملك المترهب ، دخلت سوق الكتّاب ، فرآنى القاضى ، فبعث إلى أحد أعوانه ، فسأل الرومى الذى معى فقال له : إنه من طلبة المسلمين، فلما عاد إليه وأخبره بذلك ، بعث الىّ أحد أصحابه . وهم يسمون القاضى : النجشى كفالى ، فقال لى : النجشى كفالى يدعوك ، فصعدت إليه إلى القبة التى تقدم ذكرها ، فرأيت شيخا حسن الوجه واللِّمّة[1] عليه لباس الرهبان ، وهو (الملف الأسود) ، وبين يديه نحو عشرة من الكتّاب يكتبون ، فقام إلىّ وقام أصحابه ، وقال: أنت ضيف الملك ويجب علينا إكرامك. وسألنى عن بيت المقدس والشام ومصر، وأطال الكلام، وكثر عليه الازدحام . وقال لى : لا بد لك أن تأتى إلى دارى ، فأضيفك ، فانصرفت عنه . ولم ألقه بعد .

---

(١) الشعر المجاوز شحمة الأذن .

الانصراف عن القسطنطينية

ولما ظهر لمن كان فى صحبة الخاتون من الأتراك أنها على دين أبيها ، وراغبة فى المقام معه ، طلبوا منها الإذن فى العودة إلى بلادهم ، فأذنت لهم وأعطتهم عطاء جزيلا . وبعثت معهم من يوصلهم إلى بلادهم أمير (يسمى ساروجة الصغير) فى خمسمائة فارس . وبعثت عنى فأعطتنى ثلثمائة دينار من ذهبهم ، وألفى درهم بندقية ، وشُقَّة مِلَفّ من عمل البنات ، وهو أجود أنواعه ، وعشرة أثواب من حرير ، وكتان ، وصوف ، وفرسين . وذلك من عطاء أبيها . وأوصت بى ساروجة ، وودعتها وانصرفت . وكانت مدة مُقامى عندهم شهرا وستة أيام . وسافرنا فى صحبة ساروجة ، فكان يكرمنى حتى وصلنا إلى آخر بلادهم ، حيث تركنا أصحابنا وعرباتنا . فركبنا العربات ودخلنا البرية . ووصل ساروجة معنا إلى مدينة (باباسَلْطُوق) ، وأقام بها ثلاثا فى الضيافة ، وانصرف إلى بلاده ، وذلك فى اشتداد البرد . وكنت ألبس ثلاث فروات وسروالين ، أحدهما مبطن ، وفى رجلى خف من صوف . وفوقه خف مبطن بثوب كتان ، وفوقه خف من البرغالى ، وهو جلد الفرس ، مبطن بجلد ذئب . وكنت أتوضأ بالماء الحار ، بمقربة من النار ، فما تقطر من الماء قطرة ، إلا جَمَدَتْ لحينها . وإذا غسلت وجهى ، يصل الماء إلى لحيتى ، فَيَجْمُد فأحركها ، فيسقط منها شبه الثلج ، والماء الذى ينزل من الأنف يجمد على الشارب . وكنت لا أستطيع الركوب لكثرة ما علىّ من الثياب ، حتى يُركبنى أصحابى : ثم وصلت إلى مدينة الحاج تَرْخان ، حيث فارقنا السلطان أُوزْبَك ، فوجدناه قد رحل واستقر بحضرة ملكه . فسافرنا على نهر إتِل وما يليه من المياه ثلاثا ، وهى جامدة . وكنا إذا احتجنا إلى الماء قطعنا قطعا من الجليد ، وجعلناه فى القدر حتى يصير ماء ، فنشرب منه ونطبخ به .

مدينــة السَّرَا

ووصلنا إلى مدينة السرا ، وهى حضرة الســلطان أُوزْبَك . ودخلنا على السلطان، فسألنا عن كيفية سفرنا وعن ملك الروم ومدينته، فأعلمناه. وأمر باجراء النفقة علينا ،وأنزلنا. ومدينة السرا من أحسن المدن، متناهية الكبر، فى بسيط من الأرض ، تَغَصُّ بأهلها كثرة ، حســنة الأسواق ، متسعة الشوارع . وركبنا يوما مع بعض كبرائها ، وغرضنا التطوف حولها، ومعرفة مقدارها . وكان منزلنا فى طرف منها ، فركبنا منه غدوة فما وصلنا لآخرها إلا بعد الزوال، فصلينا الظهر وأكلنا طعاما، فما وصلنا إلى المنزل إلا عند المغرب . ومشينا يوما فى عرضها ذاهبين وراجعين فى نصف يوم . وذلك فى عمارة متصــلة الدُّور ، لا خراب فيها ولا بساتين . وفيهــا ثلاثة عشر مسجدا لإقامة الجمعــة ، أحدها للشافعية . وأما المساجد ســوى ذلك فكثير جدا . وفيها طوائف من الناس . وكل طائفة تسكن محلة على حدة فيها أسواقها . والتجار والغرباء، من أهــل العراقين ومصر والشام وغيرها، ساكنون بمحلة عليها سور ، احتياطا على أموال التجار .

وقصر السلطان بهــا يسمى أَلْطُون طاش ،وألطون معناه (الذهب) ، وطاش معناه (حجر) . وقاضى هذه الحضرة ، بدر الدين الأعرج، من خيار القضاة . وبها من مدرسى الشافعيــة ، الفقيه الإمام الفاضل صــدر الدين سليمان اللَّكْزِى، أحد الفضلاء ، وبها من المــالكية شمس الدين المصرى . وبها زاوية الصالح الحاج نظام الدين، أضافنا بها وأكرمنا. وبها زاوية الفقيه الإمام العــالم نعمان الدين الخُوَارَزْمى ، رأيته بها ، وهو من فضلاء المشايخ ، حسن الأخلاق كريم النفع شديد التواضع ، شديد السطوة على أهل الدنيا ، يأتى إليه السلطان أوزبك زائرا فى كل جمعة ، فلا يستقبله ولا يقوم إليه ،

ويقعد السلطان بين يديه ، ويكلمه ألطف كلام ، ويتواضع له ، والشيخ بضد ذلك . وفعله مع الفقراء والمساكين والواردين ، خلاف فعله مع السلطان ، فإنه يتواضع لهم ويكلمهم بألطف كلام ويكرمهم . وأكرمنى جزاه الله خيرا ، وبعث إلىّ بغلام تركى . وشاهدت له بركة .

كرامة له

كنت أردت السفر من السَّرَا إلى خوارزم ، فنهانى عن ذلك وقال لى : أقم أياما ، وحينئذ تسافر . فنازعتنى النفس ووجدت رُفْقة كبيرة آخذة فى السفر، فيهم تجار أعرفهم، فاتفقت معهم على السفر فى صحبتهم، وذكرت له ذلك، فقال لى : لابد لك من الإقامة .فعزمت على السفر، فأبَقَ لى غلام أقمت بسببه، وهذه من الكرامات الظاهرة. ولما كان بعد ثلاث وجد بعض أصحابى ذلك الغلام الآبق بمدينة الحاج تَرْخان فجاء به إلىَّ . فحينئذ سافرت إلى خُوَارَزْم ، وبينها وبين حضرة السرا صحراء ، مسيرة أربعين يوما ، لا تسافر فيها الخيل لقلة الكلأ ، وإنما تجر العربات بها الجمال . فسرنا من السرا عشرة أيام ، فوصلنا إلى مدينة سَرَا جُوق ، ومعنى (جوق) صغير، فكأنهم قالوا سرا الصغيرة . وهى على شاطئ نهر كبير زخّار يقال له أُلُوصُو، ومعناه الماء الكبير، وعليه جسر من قوارب كجسر بغداد . وإلى هذه المدينة انتهى سفرنا بالخيل التى تجر العربات . وبعناها بحساب أربعة دنانير دراهم للفرس ، وأقل من ذلك، لأجل ضعفها ورُخْصها بهذه المدينة. واكترينا الجمال لجر العربات . وبهذه المدينة زاوية لرجل صالح مُعَمَّر من الترك يقال له أَطَا ، ومعناه الوالد، أضافنا بها ، ودعا لنا ، وأضافنا أيضا قاضيها ، ولا أعرف اسمه .

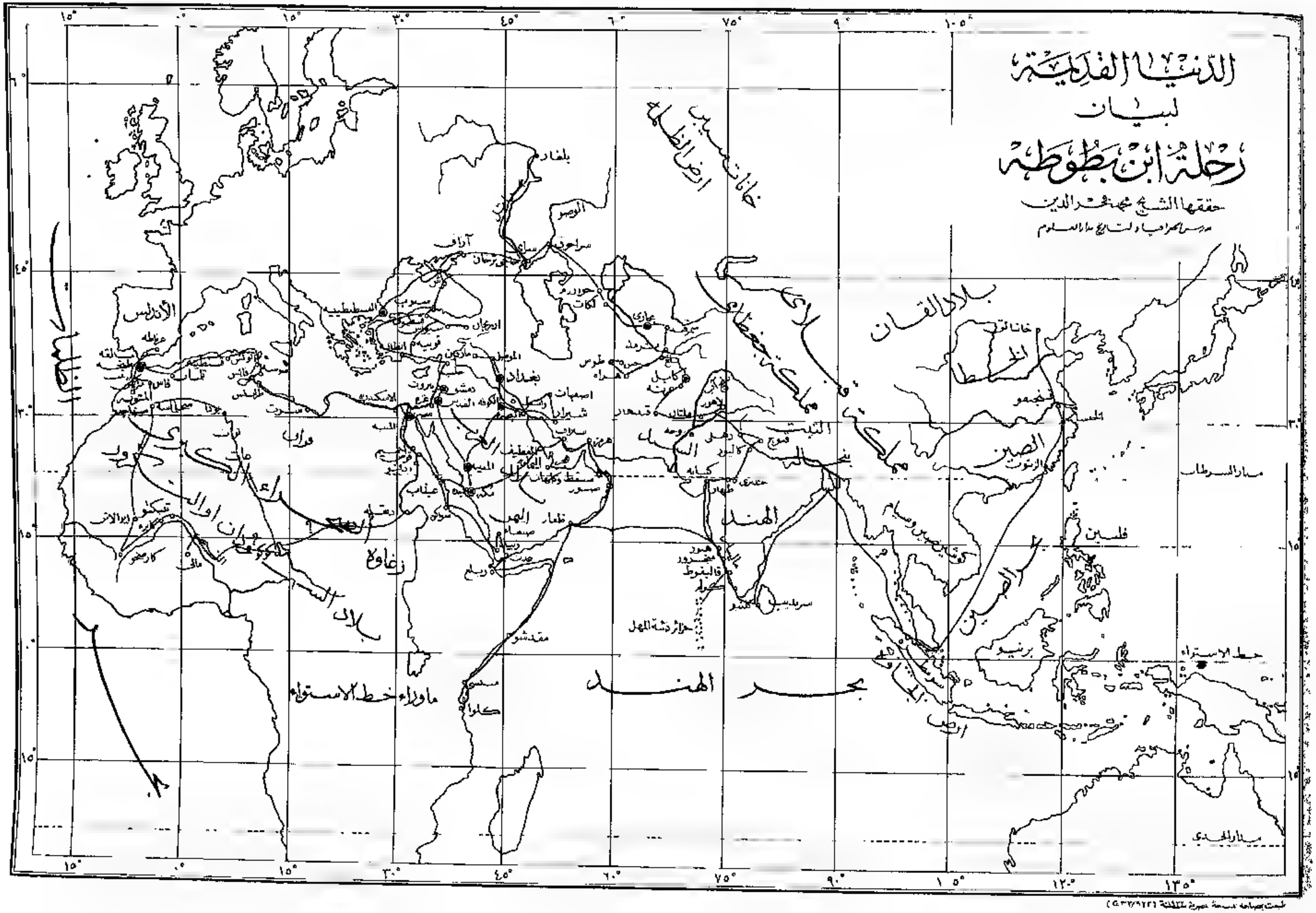

الدنيا القديمة
لبيان
رحلة ابن بطوطة
الأندلس
بغداد
دمشق
مكة
عدن
مقدشو
كلوا
الهند
الصين
بلاد القان
سرنديب
برنيو
بحر الهند
ماوراء خط الاستواء
مدار السرطان
خط الاستواء
مدار الجدى

ثم سرنا منها ثلاثين يوما سيرا جادًّا لا ننزل إلا ساعتين : إحداهما عند الضُّحا ، والأخرى عند المغرب . وتكون الإقامة قدر ما يطبخون الدُّوقِى ويشربونه ، وهو يطبخ من غلية واحدة . ويكون معهم الخليع[1] من اللحم يجعلونه عليه ، ويصبون عليه اللبن . وكل إنسان إنما ينام أو يأكل فى عربته حال السير. ومن عادة المسافرين فى هذه البرية الإسراع لقلة أعشابها ، والجمال التى تقطعها يهلك معظمها وما يبقى منها لا ينتفع به ، إلا فى سنة أخرى ، بعد أن يَسْمَن . والماء فى هذه البرية فى مناهل معلومة ، بعد اليومين والثلاثة : وهو ماء المطر والحسيان[2] ؛ ثم لما سلكنا هذه البرية وقطعناها ، كما ذكرناه .

مدينة خُوَارَزْم

وصلنا إلى خوارزم ، وهى أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها ، لها الأسواق المليحة والشوارع الفسيحة ، والعمارة الكثيرة ، والمحاسن الأثيرة ، وهى ترتج بسكانها لكثرتهم ، وتموج بهم موج البحر . ولقد ركبت بها يوما ودخلت السوق ، فلما توسطته و بلغت منتهى الزحام فى موضع يقال له الشَّوْر ، لم أستطع أن أجوز ذلك الموضع ، لكثرة الازدحام ، وأردت الرجوع فما أمكننى لكثرة الناس ، فبقيت متحيرا . وبعد جهد شديد رجعت . وذكر لى بعض الناس أن تلك السوق يخف زحامها يوم الجمعة ، لأنهم يسدون سوق القيسارية وغيرها من الأسواق ، فركبت يوم الجمعة وتوجهت إلى المسجد الجامع والمدرسة .

---

(١) صوابه (الخَلْع) قال فى القاموس : الخلع لحم يطبخ بالتوابل فى وعاء من جلد ، أو القديد الخ .

(٢) صوابه الأحساء أو الحِساء ، جمع حِسْى وحَسًى ، سهل يستنقع فيه الماء ، كما سبق .

وهـذه المدينة تحت إمرة السلطان أوزْبَك ، وله فيها أمير كبـير يسمى قُطْلُودُمور ، وهو الذى عمر هـذه المدرسة وما معها من المواضع المضافة . وأما المسجد فعمرته زوجته الخاتون الصالحة تُرابَكْ . وبخوارزم مارَسْتان له طبيب شامىّ ، يعرف بالصَّهيونى ، نسـبة إلى صَهْيون من بلاد الشام . ولم أر فى بلاد الدنيـا أحسن أخلاقا من أهل خوارزم ، ولا أكرم نفوسا ولا أحب فى الغرباء . ولهم عادة جميلة فى الصلاة لم أرها لغيرهم : وهى أن المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلما لهم بحضور الصلاة . فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الإمام بحضر الجماعة . وفى كل مسجد دِرَّة معلقة لذلك ، ويُغَرَّم خمسـة دنانير تنفق فى مصالح المسجد ، أو لإطعام الفقراء والمساكين ؛ ويذكرون أن هـذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان .

وبخارج خُوَارَزْم نهر جَيْحُون ، وهو يَجْمُد فى أوان البرد ، كما يجمد نهر إتِل . ويسلك الناس عليه ، وتبقى مدة جموده خمسة أشهر ، وربمـا سلكوا عليه عند أخذه فى الذوبان فهلكوا . ويُسَافَر فيه أيام الصيف بالمراكب إلى تِرْمِذ ؛ ويجلبون منها القمح والشـعير وهى مسيرة عشر للمنحدر . وبخارج خوارزم قبر الإمام العـلامة أبى القاسم محمود بن عمر الزَمَخْشَرى ، وعليه قبة ؛ (وَزَمَخْشَر) قرية على مسافة أربعة أميال من خوارزم . ولمـا أتيت هذه المدينة نزلت بخارجها ، وتوجه بعض أصحابى إلى القاضى الصدر أبى حفص عمر البكرى ، فبعث إلىَّ نائبه نور الإسلام ، فسلم علىّ ثم عاد إليه ، ثم أتى القاضى فى جماعة من أصحابه فسلم علىّ ، وهو فتىّ السن كبير الفعال . وله نائبان ، أحدهما نور الإسلام المذكور ، والآخر نور الدين الكَرْمانى ، من كبار الفقهاء ، وهو الشديد فى أحكامه ، القوىّ فى ذات الله تعالى .

ولما اجتمعت بالقاضى قال لى : إن هـذه المدينـة كثيرة الزحام ، ودخولكم نهارا لايتأتى ، وسيأتى إليكم نور الإسلام لتدخلوا معه من آخر الليل. ففعلنا ذلك ، ونزلنا بمدرسة جديدة ليس بها أحد . ولما كان بعد صلاة الصبح أتى إلينا القاضى المذكور ومعه من كبار المدينة جماعة .

وكنت أيام إقامتى بها أصلى الجمعة مع القاضى أبى حفص عمر بمسجده . فإذا فرغت الصلاة ذهبت معه إلى داره وهى قريبة من المسجد ، فأدخل معه إلى مجلسه ، وهو من أبدع المجالس ، فيه الفرش الحافلة ، وحيطانه مكسوة بالملف . وفيه طيقان كثيرة ، وفى كل طاق منها أوانى الفضة المموهة بالذهب ، والأوانى العراقية . وكذلك عادة أهل تلك البلاد أن يصنعوا فى بيوتهم . ثم يؤتى بالطعام الكثير . وهو من أهل الرفاهية والمال الكثير والرباع ، وهو سِلْف الأمير (قُطْلُودُمُور) ، متزوج بأخت امرأته . وبهذه المدينة جماعة من الوعاظ والمُذَكِّرين ، أكبرهم مولانا زين الدين المَقْدِسى ، والخطيب مولانا حسام الدين المَشَاطِى ، الخطيب المِصْقَع ، أحد الخطباء الأربعة الذين لم أسمع فى الدنيا أحسن منهم .

أمير خوارزم

هو الأمير الكبير قُطْلُودُمُور ، وهو ابن خالة السلطان المعظم محمد أُوزْبَك ، وأكبر أمرائه ، وهو واليه على خراسان . وولده هارون بك متزوج بابنة السلطان المذكور التى أمها الملكة طَيْطُغْلى ، وامرأته الخاتون تُرَابَك صاحبة المكارم الشهيرة . ولما أتانى القاضى مسلما علىّ ، كما ذكرته ، قال لى : إن الأمير قد علم بقدومك ، وبه بقية مرض يمنعه من الإتيان إليك . فركبت مع القاضى إلى زيارته ، وأتينا داره فدخلنا (مِشْوَرا) كبيرا أكثر

بيوته خشب، ثم دخلنا (مشورا) صغيرا فيه قبة خشب مزخرفة، قد كسيت حيطانها بالمِلَفّ الملون وسقفها بالحرير المذهب ، والأمير على فرش له من الحرير، وقد غطى رجليه لما بهما من النِقْرِس ، (وهى علة فاشية فى الترك). فسلمت عليه وأجلسني إلى جانبه. وقعد القاضي والفقهاء. وسألني عن سلطانه الملك محمد أوز بك، وعن الخاتون بَيَلُون وعن أبيها، وعن مدينة القسطنطينية، فأعلمته بذلك كله . ثم أُتى بالموائد فيها الطعام من الدجاج المشوية والكَرَاكىّ وأفراخ الحمام ، وخبز معجون بالسمن ، والكعك والحلوى . ثم أتى بموائد أخرى فيها الفواكه من الرمان المحبّب ، فى أوانى الذهب والفضة ، ومعه ملاعق الذهب. وبعضه فى أوانى الزجاج العراقى، ومعه ملاعق من الخشب، ومن العنب والبطيخ العجيب . ومن عادات هذا الأمير أن يأتى القاضى فى كل يوم إلى (مشوره) ، فيجلس بمجلس مُعَدّله ، ومعه الفقهاء وكتّابه . ويجلس فى مقابلته أحد الأمراء الكبراء ، ومعه ثمانية من كبراء أمراء الترك وشيوخهم . ويتحاكم الناس إليهم : فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضى، وما كان من سواها حكم فيها أولئك الأمراء. وأحكامهم مضبوطة عادلة ، لأنهم لا يُتَّهمون بميل ولا يقبلون رشوة . ولما عدنا إلى المدرسة ، بعد الجلوس مع الأمير ، بعث إلينا الأرز والدقيق والغنم والسمن والأبزار[1] وأحمال الحطب . وتلك البلاد كلها لا يعرف بها الفحم ، وكذلك الهند وخُراسان ، وبلاد العجم . وأما الصين فيوقدون فيها حجارة[2] تشتعل فيها النار ، كما تشتعل فى الفحم ، ثم إذا صارت رمادا عجنوه بالماء وجففوه بالشمس وطبخوا به ثانية كذلك حتى يتلاشى .

(١) الأفاوية كما تقدم فى الحواشى .

(٢) يظهر أنها الفحم الحجرى المعروف الآن .

مكرمة لهذا القاضى والأمير

صليت فى بعض أيام الجمع على عادتى بمسجد القاضى أبى حفص ، فقال لى : إن الأمير أمر لك بخمسمائة درهم ، وأمر أن يصنع لك دعوة ينفق فيها خمسمائة درهم أخرى ، يحضرها المشايخ والفقهاء والوجوه . فلما أمر بذلك قلت له : أيها الأمير ، تصنع دعوة يأكل من حضرها لقمة أو لقمتين ، لو جعلت له جميع المال كان أحسن له ، فقال : أفعل ذلك . وقد أمر لك بالألف كاملة . ثم بعثها الأمير فى صحبة إمامه شمس الدين السِّنْجَرى فى خريطة يحملها غلامه . وكنت قد اشتريت ذلك اليوم فرسا أدهم اللون بخمسة وثلاثين دينارا دراهم ، وركبته فى ذهابى إلى المسجد ، فما أعطيت ثمنه إلا من تلك الألف . وتكاثرت عندى الخيل بعد ذلك ، حتى انتهت إلى عدد لا أذكره ، خيفة مكذِّب يكذب به . ولم تزل حالى فى الزيادة ، حتى دخلت أرض الهند . وكانت عندى خيل كثيرة ، لكنى كنت أفضل هذا الفرس وأوثره وأربطه أمام الخيل . وبقى عندى إلى انقضاء ثلاث سنين . ولما هلك تغيرت حالى ، وبعثت إلىَّ الخاتون امرأة القاضى مائة دينار دراهم ، وصنعت لى أختها تُرابَك زوجة الأمير دعوة جمعت لها الفقهاء ووجوه المدينة بزاويتها التى بنتها ، وفيها الطعام للوارد والصادر . وبعثت إلى بفروة سمّور وفرس جيد . وهى من أفضل النساء وأصلحهن وأكرمهن . جزاها الله خيرا .

ذكر بطيخ خُوَارَزْم

وبطيخ خُوَارزم لا نظير له فى بلاد الدنيا شرقا ولا غربا ، إلا ما كان من بطيخ بخارى ، ويليه بطيخ أَصْفَهان . وقشره أخضر وباطنه أحمر ، وهو صادق الحلاوة ، وفيه صلابة ؛ ومن العجائب أنه يُقَدَّد وييبَّس فى الشمس ، ويجعل فى القواصر . ويحمل من خوارزم إلى أقصى بلاد الهند والصين . وليس فى جميع الفواكه اليابسة أطيب منه . وكنت أيام إقامتى بدهلى ، من بلاد الهند ، متى قدم المسافرون بعثت من يشترى لى منهم قَدِيد البطيخ . وكان ملك الهند إذا أُتِى إليه بشىء منه بعث إلىّ به لما يعلم من محبتى فيه . ومن عادته أنه يُطرِف الغرباء بفواكه بلادهم ويتفقدهم بذلك .

ولما أردت السفر من خوارزم اكتريت جمالا واشتريت مَحَارة[1] ، وكان عَديلى[2] بها عفيف الدين التَّوْزَرِى ، وركب الخدام بعض الخيل ، وجلّلنا باقيها لأجل البرد . ودخلنا البرية التى بين خوارزم وبخارى ، وهى مسيرة ثمانية عشر يوما ، فى رمال لا عمارة بها إلا بلدة واحدة . فودعت الأمير قُطْلُودُمُور . وخلع علىّ خلعة ، وخلع علىّ القاضى أخرى .

مدينة أَلْكات

وخرج مع الفقهاء لوداعى . وسرنا أربعة أيام ووصلنا إلى مدينة أَلْكات ، وليس بهذه الطريق عمارة سواها . وهى صغيرة حسنة نزلنا خارجها على بركة ماء قد جَمَدت من البرد ، فكان الصبيان يلعبون فوقها ، ويَزْلَقُون عليها . وسمع بقدومى قاضى أَلْكات ، ويسمى صدر الشريعة ، وكنت قد لقيته بدار قاضى خُوَارزم . فجاء إلىّ مسلما مع الطلبة وشيخ المدينة الصالح العابد محمود الخَيْوَقِى . ثم عرض علىّ القاضى الوصول إلى أمير تلك المدينة ، فقال له

---

(١) شبه الهودج . قاموس . (٢) أى الذى يعادلنى فى تلك المحارة .

الشيخ محمود : القادم ينبغى له أن يزار ، وإن كانت لنا همة نذهب إلى أمير المدينة ونأتى به ؛ ففعلوا ذلك . وأتى الأمير بعد ساعة فى أصحابه وخدامه ، فسلمنا عليه . وكان غرضنا تعجيل السفر، فطلب منا الإقامة ، وصنع دعوة جمع لها الفقهاء ووجوه العساكر وسواهم ، ووقف الشعراء يمدحونه . وأعطانى كسوة وفرسا جيدا . وسرنا على الطريق المعروفة بِسِيبايَة . وفى تلك الصحراء مسيرة ست ، دون ماء . ووصلنا بعد ذلك إلى بلدة وَبْكَنَة ، وهى على مسيرة يوم واحد من بخارى ، بلدة حسنة ذات أنهار وبساتين ، وهم يدخرون العنب من سنة إلى سنة . ثم سرنا فى بساتين متصلة وأنهار وأشجار وعمارة يوما كاملا . ووصلنا إلى مدينة بُخَارى التى ينسب إليها إمام المحدّثين أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى . وهذه المدينة كانت قاعدة ما وراء نهر جَيْحُون من البلاد ، وخربها اللعين (تَنْكيز التترى)(١) جد ملوك العراق . فمساجدها الآن ومدارسها وأسواقها خربة إلا القليل ، وأهلها أذلاء ، وشهادتهم لا تقبل بخوارزم وغيرها ، لاشتهارهم بالتعصب ودعوى الباطل وإنكار الحق . وليس بها اليوم من الناس من يعلم شيئا من العلم ، ولا من له عناية به .

ذكر أولية التتر وتخريبهم بخارى وسواها

كان تَنْكيز خان حدادا بأرض الخِطَا ، وكان له كرم نفس وقوة وبسطة فى الجسم . وكان يجمع الناس ويطعمهم ، ثم صارت له جماعة ، فقدموه على أنفسهم وغلب على بلده ، وقوى واشتدت شوكته ، واستفحل أمره فغلب على ملك الخطا ، ثم على ملك الصين . وعظمت جيوشه ، وتغلب على بلاد الخُتَن ، وكاشْغَر، والمالِق . وكان جلال الدين سِنْجَر بن خوارزم شاه ، ملك خوارزم وخراسان وما وراء النهر ، له قوة عظيمة وشوكة ، فهابه تنكيز وأحجم عنه ولم يتعرض له . فاتفق أن بعث تنكيز تجارا بأمتعة الصين

(١) جنكيز خان .

والخطا من الثياب الحريرية وسواها إلى بلدة أُطْرار ، وهى آخر عمالة جلال الدين . فبعث إليه عامله عليها معلما بذلك ، واستأذنه ما يفعل فى أمرهم . فكتب إليه يأمره أن يأخذ أموالهم ، ويمثّل بهم ويقطع أعضاءهم ، ويردهم إلى بلادهم ، لمّا أراد الله تعالى من شقاء أهل بلاد المشرق ومحنتهم ، رأيا فائلا[1] وتدبيرا سيئا مشئوما . فلما فعل ذلك تجهز تنكيز بنفسه فى عساكر لا تحصى كثرة ، لغزو بلاد الإسلام . فلما سمع عامل أُطْرار بحركته بعث الجواسيس ليأتوه بخبره . فذُكِرَ أن أحدهم دخل محلة بعض أمراء تنكيز فى صورة سائل ، فلم يجد من يطعمه ، ونزل إلى جانب رجل منهم فلم ير عنده زادا ولا أطعمه شيئا . فعاد إلى أُطْرار فأخبر عاملها بأمرهم ، وأعلمه أن لا طاقة لأحد بقتالهم . فاستمد مليكه جلال الدين ، فأمدّه بستين ألفا زيادة على من كان عنده من العساكر . فلما وقع القتال هزمهم تنكيز ، ودخل مدينة أُطْرار بالسيف ، فقتل الرجال وسبي الذرارى . وأتى جلال الدين بنفسه لمحاربته ، فكانت بينهم وقائع لا يعلم فى الإسلام مثلها . وآل الأمر إلى أن تملك تنكيز ما وراء النهر ، وخرّب بخارى وسَمَرْقَنْد وتِرْمِذ ، وعبر النهر (وهو نهر جَيْحُون) إلى مدينة بَلْخ فتملكها ، ثم إلى اليامیان (الباميان) فتملكها . وأوغل فى بلاد خراسان وعراق العجم . فثار عليه المسلمون فى بلخ وفيما وراء النهر ، فكرّ عليهم ودخل بلخ بالسيف ، وتركها خاوية على عروشها . ثم فعل مثل ذلك فى تِرْمِذ ، فخربت ولم تعمر بعد ، لكنها بنيت مدينة على ميلين منها وهى التى تسمى اليوم (ترمذ) . وقتل أهل اليامیان (الباميان) وهدمها بأسرها إلا صومعة جامعها ، وعفا عن أهل بخارى وسَمَرْقَنْد . ثم عاد بعد ذلك إلى العراق . وانتهى أمر التتر حتى دخلوا حاضرة الإسلام ، ودار الخلافة بغداد بالسيف ، وذبحوا الخليفة المستعصم بالله العباسى ، رحمه الله .

---

(١) مخطئا .

قال ابن جُزَىّ : أخبرنا شيخنا قاضى القضاة ، أبو البركات بن الحاج ، أعزه الله ، قال : سمعت الخطيب أبا عبد الله بن رشيد يقول : لقيت بمكة نور الدين بن الزّجاج من علماء العراق ، ومعه ابن أخ له فتفاوضنا الحديث ، فقال لى : هلك فى فتنة التتر بالعراق أربعة وعشرون ألف رجل من أهل العلم ، ولم يبق منهم غيرى ، وغير ذلك ، وأشار إلى ابن أخيه .

(رجع) قال : ونزلنا من بخارى بِرَبَضها المعروف بفتح أباد ، حيث قبر الشيخ العالم العابد الزاهد سيف الدين البَاخَرْزِى ، وكان من كبار الأولياء . وهذه الزاوية المنسوبة لهذا الشيخ، حيث نزلنا، عظيمة لها أوقاف ضخمة ، يطعم منها الوارد والصادر ، وشيخها من ذريته ، وهو الحاج السياح يحيى الباخرزى . وأضافنى هذا الشيخ بداره ، وجمع وجوه أهل المدينة وقرأ القراء بالأصوات الحسان ، ووعظ الواعظ ، وغنوا بالتركى والفارسى على طريقة حسنة . ومرت لنا هنالك ليلة بديعة من أعجب الليالى . ولقيت بها الفقيه العالم الفاضل صدر الشريعة ، وكان قد قَدِم من هَرَاة . وهو من الصلحاء الفضلاء . وزرت ببخارى قبر الإمام العالم أبى عبد الله البخارى ، مُصَنّف الجامع الصحيح ، شيخ المسلمين رضى الله عنه . وعليه مكتوب (هذا قبر محمد بن إسماعيل البخارى وقد صنف من الكتب كذا وكذا) وكذلك على قبور علماء بخارى أسماؤهم وأسماء تصانيفهم . وكنت قيدت من ذلك كثيرا وضاع منى فى جملة ما ضاع لى ، لمّا سلبنى كفار الهند فى البحر مالى . ثم سافرنا من بخارى قاصدين معسكر السلطان الصالح المعظم علاء الدين طَرْمَشِيرِين ، وسنذكره ، فمررنا على نَخْشَب ، البلدة التى ينسب إليها الشيخ أبو تراب النخشبى ، وهى صغيرة تُحِفّ بها البساتين والمياه ، فنزلنا بخارجها بدار لأميرها . وكان عندى جارية قد قاربت الولادة ، وكنت أردت حملها إلى سَمَرْقَنْد لتلد بها . فاتفق أنها كانت فى المَحْمِل ، فوُضع المحمل

على الجمل ، وسافر أصحابنا من الليل ، وهى معهم ، والزاد وغيره من أسباب .
وأقمت أنا حتى أرتحل نهارا مع بعض من معى ، فسلكوا طريقا وسلكت
طريقا سواها ، فوصلنا عشية النهار إلى محلة السلطان المذكور ، وقد جعنا
فنزلنا على بُعْد من السوق ، واشترى بعض أصحابنا ماسدّ جوعتنا . وأعارنا
بعض التجار خباء بتنا به تلك الليلة . ومضى أصحابنا من الغد فى البحث
عن الجمال وباقى الأصحاب ، فوجدوهم عشيا وجاءوا بهم . وكان السلطان
غائبا عن المحلة فى الصيد ، فاجتمعت بنائبه الأمير تَقْبُغا ، فأنزلنى بقرب
مسجد ، وأعطانى خِرْقة (خركاه) وهى شبه الخباء ، وقد ذكرنا صفتها فيما
تقدم . فجعلت الجارية فى تلك الخرقة فولدت تلك الليلة بنتا . وكانت هذه
البنت مولودة فى طالع سعد ، فرأيت كل مايسرنى ويرضينى منذ ولدت .
وتوفيت بعد وصولى إلى الهند بشهرين ، وسيذكر ذلك . واجتمعت بهذه
المحلة بالشيخ الفقيه العابد مولانا حسام الدين الياغى ، ومعناها بالتركية : الثائر .

ذكر سلطان ماوراء النهر

وهو السلطان المعظم علاء الدين طَرْمَشِيرين ، وهو عظيم المقدار كثير
الجيوش والعساكر ، ضخم المملكة شديد القوة عادل الحكم . وبلاده متوسطة
بين أربعة من ملوك الدنيا الكبار : وهم ملك الصين ، وملك الهند ، وملك
العراق ، والملك أُوزْبَك ، وكلهم يهادونه ويعظمونه ويكرمونه . وولى الملك
بعد أخيه الجَكَطَى وكان الجكطى هذا كافرا ، وولى بعد أخيه الأكبر
كَبَك ، وكان كبك هذا كافرا أيضا ، لكنه كان عادل الحكم منصفا
للمظلومين ، يكرم المسلمين ويعظمهم .

حكاية

ومن أحكام كَبَك ما ذكر أن آمرأة شكت له أحد الأمراء ، وذكرت أنها فقيرة ذات أولاد ، وكان لها لبن تَقُوتهم بثمنه ، فاغتصبه ذلك الأمير وشربه ، فقال لها : أنا أُوَسِّطه(١) فإن خرج اللبن من جوفه مضى لسبيله ، والا وَسَّطْتُك بعده ، فقالت المرأة : قد حَلَّلته ، ولا أطلبه بشىء ، فأمر به فوسط فخرج اللبن من بطنه .

السلطان طَرْمَشِيرين

ولنعد لذكر السلطان (طرمشيرين) . ولما أقمت بالمَحَلّة وهم يسمونها (الأردو) أياما ، ذهبت يوما لصلاة الصبح بالمسجد على عادتى . فلما صليت ذكر لى بعض الناس أن السلطان بالمسجد . فلما قام عن مُصَلّاه ، تقدمت للسلام عليه . وقام الشيخ حسن والفقيه حسام الدين الياغى ، وأعلماه بحالى وقدومى منذ أيام . فقال لى بالتركية ما معناه : فى عافية أنت ؟ مبارك قدومك . وكان عليه فى ذلك الحين قباء قُدْسِىّ أخضر ، وعلى رأسه (شاشيّة) مثله . ثم آنصرف إلى مجلسه راجلا ، والناس يتعرضون له بالشكايات ، فيقف لكل مشتك منهم صغيرا أو كبيرا ذكرا أو أنثى . ثم بحث عنى فوصلت إليه وهو فى خرقة(٢) والناس فى خارجها ميمنة وميسرة ، والأمراء منهم على الكراسى ، وأصحابهم وقوف على رءوسهم وبين أيديهم . وسائر الجند قد جلسوا صفوفا ، وأمام كل واحد منهم سلاحه ، وهم أهل النوْبة يقعدون هنالك إلى العصر ، ويأتى آخرون فيقعدون إلى آخر الليل . وقد صُنِعت هنالك سقائف من ثياب القطن يكونون بها . ولما دخلت إلى الملك بداخل الخرقة وجدته جالسا على كرسى شبه المنبر مكسو بالحرير المزركش

(١) وَسَّطَهُ : قطعه نصفين (قاموس) . (٢) شبه الخيمة كما تقدّم .

بالذهب ، وداخل الخرقة مُلَبّس بثياب الحرير المذهب ، والتاج المرصّع بالجوهر واليواقيت معلق فوق رأس السلطان ، بينه وبين رأسه قدر ذراع . والأمراء الكبار على الكراسى عن يمينه ويساره ، وأولاد الملوك بأيديهم المذابّ[1] بين يديه . وعند باب الخرقة النائب والوزير والحاجب وصاحب العلامة . وقام إلىّ أربعتهم حين دخولى ، ودخلوا معى ، فسلمت عليه وسألنى ، وصاحب العلامة يترجم بينى وبينه ، عن مكة والمدينة والقدس شرفها الله ، وعن مدينة الخليل (عليه السلام) ، وعن دمشق ومصر والملك الناصر ، وعن العراقين وملكهما وبلاد الأعاجم . ثم أذن المؤذن بالظهر ، فانصرفنا وكنا نحضر معه الصلوات ، وذلك أيام البرد الشديد المهلك ، فكان لا يترك صلاة الصبح والعشاء فى الجماعة ، ويقعد للذِكْر بالتركية بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس ، ويأتى إليه كل من فى المسجد فيصافحه ويشد بيده على يده ، وكذلك يفعلون فى صلاة العصر . وكان إذا أُتِىَ بهدية من زبيب أو تمر ، (والتمر عزيز عندهم وهم يتبركون به) يعطى منها بيده كل من فى المسجد .

حكاية

ومن فضائل هذا الملك أنه حضرت صلاة العصر يوما ولم يحضر ، فجاء أحد فتيانه بسجادة ووضعها قُبالة المحراب ، حيث جرت عادته أن يصلى ، وقال للإمام حسام الدين الياغى : إن مولانا يريد أن تنتظره بالصلاة قليلا ريثما يتوضأ ، فقام الإمام المذكور وقال : الصلاة لله أو لطَرْمَشِيرين؟ ثم أمر المؤذن بإقامة الصلاة . وجاء السلطان وقد صُلِّى منها ركعتان ، فصلّى الركعتين الاخريين حيث انتهى به القيام ، وذلك فى الموضع الذى تكون فيه نعال الناس عند باب المسجد ، وقضى ما فاته . وقام إلى الإمام ليصافحه وهو

(١) جمع مِذبّة .

يضحك . وجلس قُبالة المحراب والشيخ الإمام إلى جانبه ، وأنا إلى جانب الإمام، فقال لى : إذا مشيت إلى بلادك فحدث أن فقيرا من فقراء الأعاجم يفعل هكذا مع سلطان الترك . وكان هـذا الشيخ يعظ الناس فى كل جمعة ، و يأمر السلطان بالمعروف ، و ينهاه عن المنكر وعن الظلم ، ويُغْلِظ عليه القول ، والسلطان ينصت لكلامه ويبكى . وكان لا يقبل من عطاء السلطان شيئا ، ولم يأكل قط من طعامه ، ولا لبس من ثيابه . وكان هذا الشيخ من عباد الله الصالحين ، وكنت كثيرا ما أرى عليه قَباء قطن مبطنا بالقطن محشوا به ، وقد بَلِيَ وتمزق ، وعلى رأسه قَلَنْسُوة لِبْد يساوى مثلها قيراطا ، ولا عمامة عليه . فقلت له فى بعض الأيام : ياسيدى ما هذا القباء الذى أنت لابسه إنه ليس بجيد ! فقال لى : ياولدى ليس هذا القباء لى، وإنما هو لابنتى . فرغبت أن يأخذ بعض ثيابى ، فقال لى : عاهدت الله منذ خمسين سـنة ألا أقبل من أحد شيئا ، ولو كنت أقبل من أحد لقبلت منك . ولمـا عزمت على السـفر بعد مُقَامى عند هـذا السلطان أربعة وخمسين يوما ، أعطـانى السـلطان سبعمائة دينار دراهم ، وفروة سَمُّور تساوى مائة دينار ، طلبتها منه لأجل البرد ، وأعطـانى فرسين وجملين . ولمـا أردت وَداعه أدركتـه فى أثناء طريقه إلى مُتَصَيَّده ، وكان اليوم شديد البرد جدا ؛ فوالله ما قدرت على أن أنطق بكلمة لشـدة البرد ، ففهـم ذلك وضحك ، وأعطانى يده وانصرفت .

وبعد سنتين من وصولى إلى أرض الهند ، بلغنا الخبر أنّ الملأ من قومه وأمرائه ، اجتمعوا بأقصى بلاده المجاورة للصين ، وهنالك معظم عساكره ، وبايعوا ابن عم له اسمـه بُوزُن أُغْلِي ، وكل من كان من أبنـاء الملوك فهم يسمونه أُغْلِي . وكان مسلما إلا أنه فاسد الدين ، سيئ السيرة . وسبب بَيْعتهم له وخلعهم لِطَرْمَشِيرين أن طرمشيرين خالف أحكام جدهم تنكيز اللعين ، الذى خرب بلاد الإسلام ، وقد تقدم ذكره .

كتاب تَنْكيز خان

وكان تنكيز ألف كتابا فى أحكامه، يسمى عندهم اليَسَاق . وعندهم أنه من خالف أحكام هذا الكتاب لخلعه واجب . ومن جملة أحكامه أنهم يجتمعون يوما فى السنة ويأتى أولاد تنكيز والأمراء من أطراف البلاد ، ويحضر الخواتين وكبار الأجناد . فإذا كان سلطانهم قد غير شيئا من تلك الأحكام يقوم إليه كبراؤهم ، فيقولون له : غيرت كذا وغيرت كذا، وفعلت كذا ، وقد وجب خلعك . ويأخذون بيده ويقيمونه عن سرير الملك ، ويُقعدون غيره من أبناء تنكيز . وإن كان أحد الأمراء الكبار أذنب ذنبا فى بلاده ، حكموا عليه بما يستحقه . وكان السلطان طَرْمَشِيرين قد أبطل حكم هذا اليوم ومحا رسمه . فأنكروه عليه أشد الإنكار، وأنكروا عليه أيضا كونه أقام أربع سنين فيما يلى خُراسان من بلاده ، ولم يصل إلى الجهة التى توالى الصين . والعادة أن الملك يقصد تلك الجهة فى كل سنة ، فيختُبر أحوالها وحال الجند بها ، لأن أصل ملكهم منها، ودار الملك هى مدينة المالِق . فلما بايعوا بُوزُن أتى فى عسكر عظيم، وخاف طَرْمَشِيرين على نفسه من أمرائه، ولم يأمنهم . فركب فى خمسة عشر فارسا يريد بلاد غَزْنة ، وهى من عمالته، وواليها كبير أمرائه وصاحب سره ، بُرُنْطيه . وهذا الأمير محب فى الإسلام والمسلمين ، قد عمر فى عمالته نحو أربعين زاوية ، فيها الطعام للوارد والصادر، وتحت يده العساكر العظيمة . ولم أر قط فيمن رأيته من الآدميين بجميع بلاد الدنيا أعظم خلقة منه . فلما عبر نهر جَيْحُون وقصد طريق بَلْخ، رآه بعض الأتراك من أصحاب يَنْقِى ابن أخيه كَبَك، وكان السلطان طرمشيرين قتل أخاه كبك، وبقى ابنه ينقى ببلخ . فلما أعلمه التركى بخبره قال : ما فر إلا لأمر حدث عليه . فركب فى أصحابه وقبض عليه وسجنه . ووصل بُوزُن إلى سَمَرْقَنْد وبخارى فبايعه الناس، وجاءه يَنْقِى بطرمشيرين . فيُذْكر أنه لما

وصل إلى نَسَف بخارج سَمَرْقَنْد ، قتل هنالك ودفن بها ، وقيل إنه لم يقتل كما سنذكره . ولما ملك بُوزُن هرب ابن السلطان طرمشيرين وهو بِشَاىْ أغل (أغلى) وأخته وزوجها فيزور إلى ملك الهند ، فعظمهم وأنزلهم منزلة علية ، بسبب ما كان بينه وبين طرمشيرين من الود والمكاتبة والمهاداة ، وكان يخاطبه بالأخ . ثم بعد ذلك أتى رجل من أرض السند وآدعى أنه هو طرمشيرين ، واختلفت الناس فيه . فسمع بذلك عماد الملك سَرْتِيز ، غلام ملك الهند ، ووالى بلاد السند . فبعث إليه بعض الأتراك العارفين به ، فعادوا إليه وأخبروه أنه هو طرمشيرين حقا . فأمر له بالسراجة[1] فضربت خارج المدينة ، ورتب له ما يرتب لمثله . وخرج لاستقباله ، وترجل له وسلم عليه ، ولم يشك أحد أنه هو . وبعث إلى ملك الهند بخبره ، فبعث اليه الأمراء يستقبلونه بالضيافات . وكان فى خدمة ملك الهند حكيم ممن خدم طرمشيرين فيما تقدم ، وهو كبير الحكماء بالهند ، فقال للملك : أنا أتوجه إليه وأعرف حقيقة أمره ، فإنى كنت عالجت له دُمَّلا تحت ركبته وبقى أثره ، وبه أعرفه . فأتى إليه ذلك الحكيم واستقبله مع الأمراء ، ودخل عليه ولازمه لسابقته عنده ، وأخذ يغمز رجليه ، وكشف عن الأثر ، فشتمه وقال له : تريد أن تنظر إلى الدمل الذى عالجته ، ها هو ذا . وأراه أثره ، فتحقق أنه هو . وعاد إلى ملك الهند فأعلمه بذلك .

ثم إن الوزير خواجه جِهان أحمد بن إياس ، وكبير الأمراء قُطْلُوخان ، معلم السلطان أيام صغره ، دخلا على ملك الهند وقالا له : ياخُونْد عالَم[2] ، هذا السلطان طرمشيرين قد وصل وصح أنه هو ، وها هنا من قومه نحو أربعين ألفا وولده وصهره ، أرأيت إن اجتمعوا عليه ما يكون من العمل ؟ فوقع هذا الكلام بموقع منه عظيم ، وأمر أن يؤتى بطرمشيرين

(١) نوع من الفساطيط ، كما يأتى . وليست عربية بهذا المعنى .

(٢) سيد العالم .

معجلا . فلما دخل عليه أُمِرَ بالخدمة[1] كسائر الواردين ، ولم يُعظَّم . وقال له السلطان : كيف تكذب وتقول إنك طرمشيرين ، وطرمشيرين قد قتل ، وهذا خادم تربته عندنا ؟ والله لولا المعرة لقتلتك . ولكن أعطوه خمسة آلاف دينار ، واذهبوا به إلى دار بِشَاى أغْلى وأخته ولدى طرمشيرين ، وقولوا لهما : إن هذا الكاذب يزعم أنه والدكما . فدخل عليهما فعرفاه ، وبات عندهما ، والحراس يحرسونه . وأخرج بالغد . وخافا أن يهلكا بسببه ، فأنكراه . ونفى عن بلاد الهند والسند . فسلك طريق كَيْج ومكْران ، وأهل البلاد يكرمونه ويضيفونه . ووصل إلى شيراز ، فأكرمه سلطانها أبو إسحاق ، وأجرى له كفايته . ولما دخلت عند وصولى من الهند إلى مدينة شيراز ، ذُكر لى أنه باق بها ، وأردت لقاءه ولم أفعل ، لأنه كان فى دار لا يدخل إليه أحد إلا بإذن من السلطان أبى إسحاق ، فخفت مما يُتوقع بسبب ذلك . ثم ندمت على عدم لقائه .

بُوزُن ومعاماته للمسلمين

(رجع الحديث إلى بوزن) وذلك أنه لما ملك ضيَّق على المسلمين ، وظلم الرعية ، وأباح للنصارى واليهود عمارة كنائسهم ، فضج المسلمون من ذلك ، وتربصوا به الدوائر . واتصل خبره بخليل ابن السلطان أَلْيسُور فقصد ملك هَرَاة ، وهو السلطان حسين ابن السلطان غياث الدين الغورى ، فأعلمه بما كان فى نفسه ، وسأله الإعانة بالعساكر والمال ، على أن يشاطره الملك إذا استقام له . فبعث معه الملك حسين عسكرا عظيما ، وبين هَرَاة وترْمِذ تسعة أيام . فلما سمع أمراء السلطان بقدوم خليل ، تلقوه بالسمع والطاعة والرغبة فى جهاد العدو . وكان أول قادم عليه علاء الملك خُدَاوَنْد زاده صاحب ترمذ ، وهو أمير كبير شريف حُسَينى النسب ،

---

[1] أداء التعظيم على طريقة الهند .

فأتاه فى أربعة آلاف من المسلمين، فسر به وولاه وزارته وفوض إليه أمره، وكان من الأبطال. وجاء الأمراء من كل ناحية، واجتمعوا على خليل، والتقى مع بوزن، فمالت العساكر إلى خليل، وأسلموا بُوزُن، وأتوا به أسيرا، فقتله خنقا بأوتار القِسِىّ. وتلك عادة لهم أنهم لا يقتلون من كان من أبناء الملوك إلا خنقا.

واستقام الملك لخليل، وعرض عساكره بسَمَرْقَنْد، فكانوا ثمانين ألفا، عليهم وعلى خيلهم الدروع. فصرف العسكر الذى جاء به من هَرَاة، وقصد بلاد المالِق. فقدّم التتر على أنفسهم واحدا منهم، ولقوه على مسيرة ثلاث من المالِق بمقربة من أطراز (طَرَاز). وحَمِىَ القتال وصبر الفريقان، فحمل الأمير خُدَاوند زاده وزيره فى عشرين ألفا من المسلمين، حملة لم يثبت لها التتر، فانهزموا، واشتد فيهم القتل. وأقام خليل بالمالق ثلاثا. وخرج من بقى من التتر فأذعنوا له بالطاعة. وجاز إلى تخوم الخطا والصين، وفتح مدينة قَرَاقُرُم ومدينة بِشْ بَالِغ. وبعث إليه سلطان الخطا بالعساكر ثم وقع بينهما الصلح. وعظم أمر خليل، وهابته الملوك، وأظهر العدل، ورتب العساكر بالمالِق، وترك بها وزيره خُدَاوَنْد زاده، وانصرف إلى سَمَرْقَند وبُخارى.

ثم إن الترك أرادوا الفتنة، فسعوا إلى خليل بوزيره المذكور، وزعموا أنه يريد الثورة، ويقول إنه أحق بالملك لقرابته من النبى صلى الله عليه وسلم وكرمه وشجاعته. فبعث واليا إلى المالِق عوضا عنه، وأمره أن يَقْدَم عليه فى نفر يسير من أصحابه، فلما قدم عليه قتله عند وصوله من غير تثبّت، فكان ذلك سبب خراب ملكه. وكان خليل لما عظم أمره بغى على صاحب هَرَاة، الذى أورثه الملك وجهزه بالعساكر والمال: فكتب إليه أن يخطب فى بلاده باسمه، ويضرب الدنانير والدراهم

(*)

على سكّته ، فغاظ ذلك الملك حسينا ، وأنِف منه ، وأجابه بأقبح جواب . فتجهز خليل لقتاله ، فلم توافقه عساكر الإسلام ، ورأوه باغيا عليه . وبلغ خبره الملك حسينا ، فجهز العساكر مع ابن عمه ملك وَرْنا ، والتقى الجمعان فانهزم خليل ، وأُتى به إلى الملك حسين أسيرا ، فمنّ عليه بالبقاء ، وجعله فى دار ، وأعطاه جارية وأجرى عليه النفقة . وعلى هذه الحال تركته عنده فى أواخر سنة سبع وأربعين ، عند خروجى من الهند . (ولنعد إلى ما كنا بسبيله) .

سَمَرْقَنْـــد

ولما ودعت السلطان طَرْمَشيرين ، سافرت إلى مدينة سمرقند ، وهى من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالا ، مبنية على شاطئ واد يعرف بوادى القصّارين ، عليه النواعير تسقى البساتين ، وعنده يجتمع أهل البلد بعد صلاة العصر للنزهة والتفرج ، ولهم عليه مصاطب ومجالس يقعدون عليها ، ودكاكين تباع بها الفاكهة وسائر المأكولات . وكانت على شاطئه قصور عظيمة ، وعمارة تنبئ عن علو همم أهلها ، فدَثَر أكثر ذلك ، وكذلك المدينة خَرِب كثير منها ، ولا سور لها ولا أبواب عليها ، وفى داخلها البساتين . وأهل سمرقند لهم مكارم أخلاق ، ومحبة فى الغريب . وهم خير من أهل بخارى .

قبر قُثَم بن العبـاس

وبخارج سمرقند قبر قُثَم بن العباس بن عبد المطلب رضى الله عن العباس وعن ابنه ، وهو المستَشْهَد حين فتحها . ويخرج أهل سمرقند كل ليلة اثنين وجمعة إلى زيارته . والتتر يأتون لزيارته ، وينذُرون[1] له النذور العظيمة ، ويأتون إليه بالبقر والغنم والدراهم والدنانير ، فيُصْرف ذلك فى النفقة على الوارد والصادر ، ولخدام الزاوية والقبر المبارك . وعليه قبة قائمة على أربع أرجل ، ومع كل رجل ساريتان من الرخام ، منها الخضر والسود والبيض والحمر .

(١) مثل هذه النذور غير جائز شرعا ، كما قدمنا فى الحواشى .

وحيطان القبــة بالرخام المجزع المنقوش بالذهب ، وســقفها مصنوع بالرَّصاص . وعلى القبر خشب الأبنوس المرصع، مكسوّ الأركان بالفضة ، وفوقه ثلاثة من قناديل الفضة . وفَرْش القبة بالصوف والقطن . وفى خارجها نهر كبــير يشق الزاوية التى هنــالك ، وعلى حافَتيه الأشجار ودوالى العنب والياسَمين . وبالزاوية مسا كن يسكنها الوارد والصادر . وكان الناظر فى كل حال هذا الضريح المبارك وما يليه حين نزولنا به الأمير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن عبد العزيز بن يوسف ابن الخليفة المستنصر بالله العباسى ، قدّمه لذلك السلطان طرمشيرين لمــا قدم عليه من العراق . وهو الآن عند ملك الهند ، وســيأتى ذكره . ولقيت بسمرقند قاضيها المســمى عندهم صَدْر الجهان ، وهو من الفضلاء ذوى المكارم . وسافر إلى بلاد الهند بعد سفرى إليها ، فأدركته منيته بمدينة مُلْتان ، قاعدة بلاد السند .

حكاية

لمــا مات هذا القاضى بمُلْتان، كتب صاحب الخبر بأمره إلى ملك الهند، وأنه قدم برسم بابه، فاخْتُرِم(1) دون ذلك . فلما بلغ الخــبر الملك أمر أن يبعث إلى أولاده عدد من آلاف الدنانير، لا أذكره الآن ، وأمر أن يعطى أصحابه ما كانوا يُعْطَوْن لو وصلوا معه وهو بقيد الحياة .

ولملك الهند فى كل بلد من بلاده صاحب الخبر ، يكتب له بكل مايجرى فى ذلك البلد من الأمور ، وبمن يرد عليــه من الواردين . وإذا أتى الوارد كتبوا من أى البــلاد ورد ، وكتبوا اسمه ونعته وثيابه ، وأصحابه وخيله وخدامه ، وهيئته من الجلوس والمأكل ، وجميع شؤونه وتصرفاته ، وما يظهر منه من فضيلة أو ضدها . فلا يصل الوارد إلى الملك إلا وهو عارف جميع حاله ، فتكون كرامتــه على مقدار مايستحقه . وسافرنا من سمرقند ، فجُــزْنا بلدة نَسَف ، وإليها ينسب أبو حفص عمر النسفى ، مؤلف كتاب المنظومة فى المسائل الخلافية بين الفقهاء الأربعة ، رضى الله عنهم .

(1) مات .

مدينة ترمذ

ثم وصلنا إلى مدينة ترمذ، التى ينسب إليها الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى ابن سُورة الترمذى ، مؤلف الجامع الكبير فى السُّنن . وهى مدينة كبيرة حسنة العمارة والأسواق ، تخترقها الأنهار ، وبها البساتين الكثيرة والعنب ، والسفرجل بها كثير متناهى الطيب ، واللحوم بها كثيرة ، وكذلك الألبان . وأهلها يغسلون رءوسهم فى الحمام باللبن عوضا عن الطَّفل، ويكون عند كل صاحب حمام أوعية كبار مملوءة لبنا : فإذا دخل الرجل الحمام أخذ منها فى إناء صغير فغسل رأسه ، وهو يرطِّب الشعر ويَصْقُله . وأهل الهند يجعلون فى رءوسهم زيت السمسم ، ويغسلون الشعر بعده بالطفل ، فينعم الجسم ويصقل الشعر ويطيله ، وبذلك طالت لِحَى أهل الهند ومن سكن معهم .

وكانت مدينة ترمذ القديمة مبنية على شاطئ جَيْحُون ، فلما خربها تنكيز بنيت هذه الحديثة على ميلين من النهر . وكان نزولنا بها بزاوية الشيخ الصالح عَزِيزان ، من كبار المشايخ وكرمائهم ، كثير المال والرِّباع والبساتين ، ينفق على الوارد والصادر من ماله . واجتمعتُ قبل وصولى إلى هذه المدينة بصاحبها علاء الملك خُداوَنْد زاده ، وكتب لى إليها بالضيافة ، فكانت تحمل إلينا أيام مُقامنا بها فى كل يوم . ولقيت أيضا قاضيها قِوام الدين ، وهو متوجه لرؤية السلطان طَرْمَشِيرين ، وطالب للإذن له فى السفر إلى بلاد الهند . وسيأتى ذكر لقائى له بعد ذلك ، ولأخويه : ضياء الدين وبرهان الدين بمُلْتان ، وسفرنا جميعا إلى الهند، وذكر أخويه الآخرين : عماد الدين وسيف الدين ، ولقائى لهما بحضرة ملك الهند ، وذكر ولديه وقدومهما على ملك الهند، بعد قتل أبيهما ، وتزوّجهما بنتى الوزير خواجه جِهان ، وما جرى فى ذلك كله، إن شاء الله تعالى .

ثم اجتزنا نهر جَيْحُون إلى بلاد خراسان ، وسرنا بعد انصرافنا من ترمذ ، وإجازة الوادى، يوما ونصف يوم فى صحراء ورمال لا عمارة بها إلى مدينة بلْخ.

مدينة بَلْخ

وهى خاوية على عروشها غير عامرة ، ومن رآها ظنها عامرة لإتقان بنائها . وكانت ضخمة فسيحة ، ومساجدها ومدارسها باقية الرُّسوم حتى الآن . ونقوش مبانيها مدخلة بأصبغة اللازَوَرْد . والناس يَنْسُبون اللازورد إلى خراسان ، وإنما يجلب من جبال بَدَخْشَان التى ينسب إليها الياقوت البَدَخْشى ، وسيأتى ذكرها إن شاء الله تعالى . وخرَّب هذه المدينة تَنْكِيز اللعين ، وهدم من مسجدها نحو الثلث ، بسبب كنز ذُكر له أنه تحت سارية من سواريه . وهو من أحسن مساجد الدنيا وأفسحها . ومسجد رِبَاط الفتح بالمغرب يشبهه فى عظم سواريه . ومسجد بلخ أجمل منه فى سوى ذلك .

حكاية

ذكر لى بعض أهل التاريخ ، أن مسجد بلخ بنته امرأة كان زوجها أميرا ببلخ لبنى العباس ، يسمى داود بن علىّ . فاتفق أن الخليفة غضب مرة على أهل بلخ لحادث أحدثوه ، فبعث إليهم من يغرمهم مَغْرَما فادحا . فلما بلغ بلخ ، أتى نساؤها وصبيانها إلى تلك المرأة التى بنت المسجد ، وهى زوج أميرهم ، وشكوا حالهم وما لحقهم من هذا المَغْرَم ، فبعثت إلى الأمير الذى قدم لتغريمهم بثوب لها مرصع بالجوهر ، قيمته أكثر مما امر بتغريمه ، فقالت له : اذهب بهذا الثوب إلى الخليفة ، فقد أعطيته صدقة عن أهل بلخ لضعف حالهم . فذهب به إلى الخليفة وألقى الثوب بين يديه ، وقص عليه القصة ، فخجل الخليفة ، وقال : أتكون المرأة أكرم منا ؟ وأمره برفع المغرم عن أهل بلخ ، وبالعودة إليها ليرد للمرأة ثوبها ، وأسقط عن أهل بلخ خَرَاج سنة . فعاد الأمير إلى بلخ ، وأتى منزل المرأة ، وقص عليها

مقالة الخليفة ، وردّ عليها الثوب ، فقالت له : أَوَقَعَ بصر الخليفة على هذا الثوب؟ فقال : نعم ، قالت : لا ألبس ثوبا وقع عليه بصر غير ذى مَحْرَمٍ منّى . وأمرت ببيعه فبنى منه المسجد والزاوية ورِباط فى مقابلته ، وهو عامر حتى الآن . وفَضَل من ثمن الثوب مقدار ثلثه ، فذُكر أنها أمرت بدفنه تحت بعض سوارى المسجد ليكون هنالك متيسرا ، إن احتيج إليه خرج . فأُخبِر تنكيز بهذه الحكاية ، فأمر بهدم سوارى المسجد فهدم منها نحو الثلث ، ولم يجد شيئا ، فترك الباقى على حاله (١) .

قبر عكاشة

وبخارج بلخ قبر يذكر أنه قبر عُكَاشة بن مِحْصَن الأَسَدى ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ، الذى يدخل الجنة بلا حساب . وعليه زاوية معظمة ، بها كان نزولنا . وبخارجها بركة ماء عجيبة ، عليها شجرة جوز عظيمة ، ينزل الواردون فى الصيف تحت ظلالها . وشيخ هذه الزاوية يعرف بالحاج خُرْد ، وركب معنا وأرانا مزارات هذه المدينة ، منها قبر حِزْقِيل النبى عليه السلام ، وعليه قبة حسنة . وزرنا بها أيضا قبورا كثيرة من قبور الصالحين ، لا أذكرها الآن . ووقفنا على دار إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه ، وهى دار ضخمة مبنية بالصخر الأبيض . وهى بمقربة من المسجد الجامع .

ثم سافرنا من مدينة بلخ ، فسرنا فى جبال قوه اسْتان سبعة أيام ، وهى قرى كثيرة عامرة ، بها المياه الجارية ، والأشجار المورقة ، وأكثرها شجر التين . وبها زوايا كثيرة ، فيها الصالحون المنقطعون إلى الله تعالى . وبعد ذلك كان وصولنا إلى مدينة هَرَاة ، وهى أكبر المدن العامرة بخُرَاسان ، كبيرة عظيمة كثيرة العمارة . ولأهلها صلاح وعفاف وديانة ، وهم على مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ، وبلدهم طاهر من الفساد .

(١) يظهر أن هذه الحكاية مخترعة ، أو هى مبالغ فيها .

ذكر سلطان هَرَاة

وهو السلطان المعظم حسين ابن السلطان غياث الدين الغُورى ، صاحب الشجاعة المأثورة والتأييد والسعادة . ظهر له من إنجاد الله تعالى وتأييده فى موطنين اثنين ما يقضى منه العجب : أحدهما عند ملاقاة جيشه للسلطان خليل الذى بغى عليه ، وكان منتهى أمره وقوعه أسيرا فى يديه ، والموطن الثانى عند ملاقاته بنفسه لمسعود ، سلطان الرافضة ، وكان منتهى أمره تبديده وفراره وذهاب ملكه ؛ وولى السلطان حسين الملك بعد أخيه المعروف بالحافظ ، وولى أخوه بعد أبيه غياث الدين .

حكاية الرافضة

كان بخراسان رجلان : أحدهما يسمى بمسعود ، والآخر يسمى بمحمد . وكان لهما خمسة من الأصحاب ، وهم من الفُتّاك ، ويعرفون بالعراق بالشُّطار[1] . فاتفق سبعتهم على الفساد ، وقطع الطرق وسلب الأموال . وشاع خبرهم ، وسكنوا جبلا منيعا بمقربة من مدينة بَيْهَق . وكانوا يَكْمُنون بالنهار ، ويخرجون بالليل والعشى ، فيضربون على القرى ، ويقطعون الطرق ، ويأخذون الأموال . وانثال عليهم أشباههم من أهل الشر والفساد ، فكثر عددهم واشتدت شوكتهم ، وهابهم الناس ، وضربوا على مدينة بَيْهق فملكوها ، ثم ملكوا سواها من المدن . واكتسبوا الأموال ، وجندوا الجنود ، وركبوا الخيل ، وتسمى مسعود بالسلطان . وصار العبيد يفرون عن مواليهم إليه ، فكل عبد فر منهم يعطيه الفرس والمال ، وإن ظهرت له شجاعة أمّره على جماعة . فعظم جيشه ، واستفحل أمره ، وتمذهب جميعهم بمذهب الرفْض ، وطَمَحوا إلى استئصال أهل السنة بخراسان ، وأن يجعلوها كلمة واحدة رافضية .

---

(١) الشاطر مَنْ أعيا أهله خُبثا .

وكان بمشهد طُوس شيخ من الرافضة يسمى بحسن ، وهو عندهم من الصلحاء ، فوافقهم على ذلك ، وسموه بالخليفة ، وأمرهم بالعدل فأظهروه ، حتى كانت الدراهم والدنانير تسقط فى معسكرهم فلا يلتقطها أحد ، حتى يأتى ربها فيأخذها . وغلبوا على نَيْسَابُور . وبعث إليهم السلطان طُغَيْتُمُور بالعساكر فهزموه ، ثم بعث إليهم نائبه أَرْغُون شاه ، فهزموه وأسروه ومَنّوا عليه . ثم غزاهم طغيتمور بنفسه فى خمسين ألفا من التتر ، فهزموه . وملكوا البلاد وتغلبوا على سَرَخْس والزَّاوة وطُوس ، وهى من أعظم بلاد خراسان . وجعلوا خليفتهم بمشهد على بن موسى الرِّضَا . وتغلبوا على مدينة الجام ، ونزلوا بخارجها وهم قاصدون مدينة هَرَاة ، وبينها وبينهم مسيرة ست . فلما بلغ ذلك الملك حسينا ، جمع الأمراء والعساكر وأهل المدينة واستشارهم : هل يقيمون حتى يأتى القوم ، أو يمضون إليهم فيناجزونهم ؟ فوقع إجماعهم على الخروج إليهم ، وهم قبيلة واحدة يسمون الغوريّة ، فتجهزوا أجمعون ، واجتمعوا من أطراف البلاد ، وهم ساكنون بالقرى وبصحراء مَرْغِيس (بَدْغيس) ، وهى مسيرة أربع لا يزال عُشبها أخضر ، ترعى منه ماشيتهم وخيلهم . وأكثر شجرها الفُسْتق ، ومنها يحمل إلى أرض العراق . وعَضَدَهم أهل مدينة سِمْنان . ونفروا جميعا إلى الرافضة ، وهم مائة وعشرون ألفا ما بين رجّالة وفرسان . يقودهم الملك حسين . واجتمعت الرافضة فى مائة وخمسين ألفا من الفرسان . وكانت الملاقاة بصحراء بُوشَنْج ، وصبر الفريقان معا . ثم كانت الدائرة على الرافضة ، وفر سلطانهم مسعود ، وثبت خليفتهم حسن فى عشرين ألفا حتى قتل . وقتل أكثرهم ، وأسر منهم نحو أربعة آلاف .

وذكر لى بعض من حضر هذه الوقيعة ، أن ابتداء القتال كان فى وقت الضُّحا ، وكانت الهزيمة عند الزوال . ونزل الملك حسين بعد الظهر فصلى ، وأُتى بالطعام ، فكان هو وكبراء أصحابه يأكلون ، وسائرهم يضربون أعناق الأسرى . وعاد إلى حضرته بعد هـذا الفتح العظيم ، وقد نصر الله السنة على يديه ، وأطفأ نار الفتنة . وكانت هذه الوقيعة بعد خروجى من الهند عام ثمـانية وأربعين .

ونشأ بهراة رجل من الزهاد الصلحاء الفضلاء ، وآسمه نظام الدين مولانا . وكان أهـل هراة يحبونه ويرجعون إلى قوله ، وكان يعظهم ويذكرهم . فوافقـــوه على تغيير المنـكر ، ومعهـم على ذلك خطيب المدينـــة المعروف بمَلِك وَرْنا ، وهو ابن عم الملك حسين ، ومتزوج بزوجة والده ، وهى من أحسن الناس صورة وسيرة . والملك يخافه على نفسه . وسنذكر خبره . وكانوا متى علموا بمنكر ، ولو كان عند الملك ، غيروه .

حكاية

ذُكر لى أنهم تعرفوا يوما أن بدار الملك حسين منكرا ، فاجتمعوا لتغييره . وتحصن منهم بداخل داره ، فاجتمعوا على الباب فى ستة آلاف رجل ، فخاف منهم ، فاستحضر الفقيه وكبار البلد ، وكان قد شرب الخمر ، فأقاموا عليه الحد بداخل قصره ، وآنصرفوا عنه .

حكاية هى سبب قتل الفقيه نظام الدين

كان الأتراك المجاورون لمدينة هراة ، الساكنون بالصحراء ، وملكهم طُغَيْتَمُور الذى مر ذكره ، وهم نحو خمسين ألفـا ، يخافهم الملك حسين ويهدى لهم الهدايا فى كل سنة ويُداريهم . وذلك قبل هزيمته للرافضة . وأما بعد هزيمته للرافضة فتغلب عليهم . ومن عادة هؤلاء الأتراك التردد إلى مدينة هراة ، وربمـا شربوا بها الخمر ، وأتاها بعضهم وهو سكران . فكان

نظام الدين يَحُد(١) من وجد منهم سكران . وهؤلاء الأتراك أهل نَجْدة وبأس ، ولا يزالون يضربون على بلاد الهند فيسْبُون ويقتلون ، وربما سبوا بعض المسلمات اللاتى يكن بأرض الهند بين الكفار . فإذا خرجوا بهن إلى خراسان يطلق نظام الدين المسلمات من أيدى الترك . وعلامة النسوة المسلمات بأرض الهند ترك ثَقْب الأذن ، والكافرات آذانهن مثقوبات . فاتفق مرة أن أميرا من أمراء الترك ، سبى امرأة فذكرت أنها مسلمة ، فانتزعها الفقيه من يده . فبلغ ذلك من التركى مبلغا عظيما ، وركب فى آلاف من أصحابه وأغار على خيل هَراة ، وهى فى مرعاها بصحراء مَرْغيس (بَدْغيس) ، واحتملوها ، فلم يتركوا لأهل هراة مايركبون ، ولا ما يَحْلُبون . وصعدوا بها إلى جبل هنالك لا يُقْدر عليهم فيه . ولم يجد السلطان ولا جنده خيلا يتبعونهم بها . فبعث إليهم رسولا يطلب منهم ردّ ما أخذوه من الماشية والخيل ، ويذكّرهم العهد الذى بينهم ، فأجابوا بأنهم لا يردون ذلك حتى يُمكّنوا من الفقيه نظام الدين . فقال السلطان : لا سبيل إلى هذا . وكان الشيخ أبو أحمد الجِسْتى حفيد الشيخ مَوْدُود الجستى له بخراسان شأن عظيم ، وقوله معتبر لديهم . فركب فى جماعة من أصحابه ومماليكه ، فقال : أنا أحمل الفقيه نظام الدين معى إلى الترك ، ليرضوا بذلك ، ثم أرده . فمال الناس إلى قوله ، ورأى الفقيه نظام الدين اتفاقهم على ذلك ، فركب مع الشيخ أبى أحمد ، ووصل إلى الترك ، فقام إليه الأمير تُمُورَالْطى وقال له : أنت أخذت امرأتى منى ، وضربه بدَبّوسه فكسر دماغه فخر ميتا . فسُقِط فى أيد الشيخ أبى أحمد وانصرف من هنالك إلى بلده . وردّ الترك ما كانوا أخذوه من الخيل والماشية . وبعد مدة قدم ذلك التركى الذى قتل الفقيه إلى مدينة هراة ، فلقيه جماعة من أصحاب الفقيه

(١) يقيم عليهم الحد الشرعى .

فأقبلوا عليه كأنهم مُسَلِّمون ، وتحت ثيابهم السيوف ، فقتلوه وفرّوا .
ولما كان بعد هذا ، بعث الملك حسين ابن عمه مَلِك وَرْنا ، الذى كان رفيق الفقيه نظام الدين فى تغيير المنكر ، رسولا إلى ملك سِجِسْتان . فلما حصل بها بعث إليه أن يقيم هنالك ، ولا يعود إليه .

(ولنعد) إلى ما كنا بسبيله فنقول : سافرنا من هراة إلى مدينة الجَام ، وهى متوسطة ، حسنة ، ذات بساتين وأشجار ، وعيون كثيرة وأنهار . وأكثر شجرها التوت ، والحرير بها كثير . وهى تنسب إلى الولىّ العابد الزاهد شهاب الدين أحمد الجامى ، وسنذكر حكايته . وحفيده الشيخ أحمد المعروف بزاده ، الذى قتله ملك الهند . والمدينة الآن لأولاده ، وهى محررة من قِبَل السلطان ، ولهم بها نعمة وثروة . وذكر لى من أثق به أن السلطان أبا سعيد ملك العراق ، قدم خراسان مرة ، ونزل هذه المدينة ، وبها زاوية الشيخ . فأضافه ضيافة عظيمة ، وأعطى كل خِباء بمحلته رأس غنم[1] ، وكل أربعة رجال رأس غنم ، وكل دابة بالمحلة من فرس وبغل وحمار علَف ليلة ، فلم يبق فى المحلة حيوان إلا وصلته ضيافته .

مدينة طُوس

ثم سافرنا من الجام إلى مدينة طوس ، وهى من أكبر بلاد خراسان وأعظمها ، بلد الإمام الشهير أبى حامد الغزالى رضى الله عنه ، وبها قبره . ورحلنا منها إلى مدينة مشهد الرِّضا ، وهو علىّ بن موسى الكاظم ، بن جعفر الصادق ، بن محمد الباقِر ، بن على زَيْن العابدين ، بن الحسين الشهيد ، ابن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنهم) . وهى أيضا مدينة كبيرة ضخمة ، كثيرة الفواكه والمياه ، والأرحاء[2] الطاحنة . وكان بها الطاهر

(١) يريد شاة فيما يظهر . وهو تعبير غريب .

(٢) الأرحاء : جمع الرحَى ، للطاحونة .

محمد شاه ، والطاهر عندهم بمعنى النقيب ، عند أهل مصر والشام والعراق . وأهل الهند والسند وتُرْكستان يقولون : السيد الأجل . وكان أيضا بهذا المشهد القاضي الشريف جلال الدين ، لقيته بأرض الهند ، والشريف على وولداه أمير هِنْدُو ودولة شاه . وصحبونى من تِرْمِذ إلى بلاد الهند ، وكانوا من الفضلاء .

والمشهد المكرم عليه قبة عظيمة فى داخل زاوية ، تجاورها مدرسة ومسجد . وجميعها مليح البناء ، مصنوع الحيطان بالقاشانى . وعلى القبر دكان خشب ملبَّس بصفائح الفضة ، وعليه قناديل فضة معلقة . وعتبة باب القبة فضة . وعلى بابها ستر حرير مذهب ، وهى مبسوطة بأنواع البُسُط . وإزاء هذا القبر قبر هرون الرشيد أمير المؤمنين (رضى الله عنه) . وعليه دكان يضعون عليه (الشمعدانات) . ثم سافرنا إلى مدينة سَرَخْس ، وإليها ينسب الشيخ الصالح لقمان السَّرَخْسِى (رضى الله عنه) . ثم سافرنا منها إلى مدينة زاوة ، وهى مدينة الشيخ الصالح قطب الدين حَيْدر ، وإليه تنسب طائفة الحيدرية من الفقراء ، وهم الذين يجعلون حَلَق الحديد فى أيديهم وأعناقهم وآذانهم .

نَيْسَابور

ثم رحلنا منها فوصلنا إلى مدينة نيسابور ، وهى إحدى المدن الأربع التى هى قواعد خراسان ، ويقال لها دمشق الصغيرة ، لكثرة فواكهها وبساتينها ومياهها وحسنها . وتخترقها أربعة من الأنهار . وأسواقها حسنة متسعة ، ومسجدها بديع ، وهو فى وسط السوق . ويليه أربع من المدارس ، يجرى بها الماء الغزير ، وفيها من الطلبة خلق كثير ، يقرءون القرآن والفقه ، وهى من حسان مدارس تلك البلاد . ومدارس خراسان والعراقَيْن ودمشق وبغداد ومصر ، وإن بلغت الغاية من الإتقان والحسن ، فكلها

تقصر عن المدرسة التى عمرها مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله ، المجاهد فى سبيل الله ، عالم الملوك ، واسطة عقد الخلفاء العادلين ، أبو عِنان ، وصل الله سعده ونصر جُنْده . وهى التى عند القَصَبة من حضرة فاس، حرسها الله تعالى ، فإنها لا نظير لها سعة وارتفاعا . ونقش الجص بها لا قدرة لأهل المشرق عليه . ويصنع بنيسابور ثياب الحرير من الكَمْخا[1] وغيرها ، وتحمل منها إلى الهند . وفى هذه المدينة زاوية الشيخ الإمام العالم القطب العابد، قطب الدين النيسابورى ، أحد الوعاظ العلماء الصالحين . نزلت عنده فأحسن القِرى وأكرم ، ورأيت له البراهين والكرامات العجيبة .

كرامة له

كنت قد اشتريت بنيسابور غلاما تركيا ، فرآه معى ، فقال : لى هذا الغلام لايصلح لك ، فبعه : فقلت له نعم . وبعت الغلام فى غد ذلك اليوم . واشتراه بعض التجار . وودّعت الشيخ وانصرفت . فلما حللت بمدينة بِسْطام ، كتب إلىّ بعض أصحابى من نيسابور ، وذكر أن الغلام قتل بعض أولاد الأتراك ، وقتل به . وهذه كرامة واضحة لهذا الشيخ رضى الله عنه .

مدينة بِسْطام

وسافرت من نيسابور إلى مدينة بسطام، التى ينسب إليها الشيخ العارف أبو يزيد البِسْطامى الشهير (رضى الله عنه) . وبهذه المدينة قبره . ومعه فى قبة واحدة ، أحد أولاد جعفر الصادق (رضى الله عنه) . وببسطام أيضا قبر الشيخ الصالح الولى أبى الحسن الخَرّقانى . وكان نزولى من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبى يزيد البِسْطامى (رضى الله عنه) .

(١) تقدم تفسيرها فى الحواشى .

ثم سافرت من هذه المدينة على طريق هِنْدُ خِير إلى قُنْدُوس وَبَغْلان ، وهى قرى فيها مشايخ وصالحون ، وبها البساتين والأنهار . فنزلنا بِقُنْدُوس على نهر ماء به زاوية لأحد شيوخ الفقراء من أهل مصر . وأضافنا بها والى تلك الأرض ، وهو من أهل المَوْصِل ، وسكناه ببستان عظيم هنالك . وأقمنا بخارج هذه القرية نحو أربعين يوما لرعْى الجمال والخيل . وبها مراع طيبة وأعشاب كثيرة . والأمن بها شامل بسبب شدة أحكام الأمير بُرُنْطَيه . وقد قدمنا أن أحكام الترك فيمن سرق فرسا أن يُعْطِى معه تسعة مثله ، فإن لم يجد ذلك أُخِذ فيها أولاده ، فإن لم يكن له أولاد ذبح ذبح الشاة . والناس يتركون دوابهم مهملة دون راع ، بعد أن يَسِم كل واحد دوابه فى أفخاذها . وكذلك فعلنا فى هذه البلاد . واتفق أن تفقدنا خيلنا بعد عشر من نزولنا بها ، ففقدنا منها ثلاثة أفراس . ولما كان بعد نصف شهر جاءنا التتر بها إلى منزلنا خوفا على أنفسهم من الأحكام . وكنا نربط فى كل ليلة إزاء أخبيتنا فرسين لما عسى أن يقع بالليل ، ففقدنا الفرسين ذات ليلة ، وسافرنا من هنالك ، وبعد ثنتين وعشرين ليلة جاءوا بهما إلينا فى أثناء طريقنا . وكان أيضا من اسباب إقامتنا خوف الثلج : فإن بأثناء الطريق جبلا يقال له هِنْدُوكُوش ، ومعناه : قاتل الهنود ، لأن العبيد والجوارى الذين يؤتى بهم من بلاد الهند ، يموت هنالك الكثير منهم ، لشدة البرد ، وكثرة الثلج . وهو مسيرة يوم كامل . وأقمنا حتى تمكن دخول الحر ، وقطعنا ذلك الجبل من آخر الليل ، وسلكنا به جميع نهارنا إلى الغروب . وكنا نضع اللُّبُود بين أيدى الجمال تطأ عليها ، لئلا تَغْرَق فى الثلج .

ثم سافرنا إلى موضع يعرف بأَنْدَر . وكانت هنالك فيما تقدم مدينة عفا رَسْمها . ونزلنا بقرية عظيمة فيها زاوية لأحد الفضلاء ، ويسمى بمحمد المَهْرَوِىّ ، ونزلنا عنده وأكرمنا . وكان متى غسلنا أيدينا من الطعام يشرب الماء الذى غسلناها به ، لحسن اعتقاده وفضله . وسافر معنا إلى أن صعدنا

جبل هِنْدُوكُوش ، ووجدنا بهذا الجبل عين ماء حارة ، فغسلنا منها وجوهنا فتقشرت ، وتألمنا لذلك . ثم نزلنا بموضع يعرف بَنْج هِير ، ومعنى بَنج : خمسة ، وهير : الجبل ، فمعناه خمسة جبال . وكانت هنالك مدينة حسنة كثيرة العمارة ، على نهر عظيم أزرق ، كأنه بحر ، ينزل من جبال بَدَخْشَان . وبهذه الجبال يوجد الياقوت الذى يعرفه الناس بالبَلَخْش . وخرّب هذه البلاد تنكيز ملك التتر فلم تعمر بعد . وبهذه المدينة مزار الشيخ سعيد المكّى ، وهو معظّم عندهم . ووصلنا إلى جبل بَشَاى .

أبو الأوليـاء

وبه زاوية الشيخ الصالح أطا أولياء ، وأطا معناه بالتركية : الأب ، وأولياء باللسان العربى ، فمعناه أبو الأولياء . وهم يذكرون أن عمره ثلاثمائة وخمسون عاما . ولهم فيه اعتقاد حسن ويأتون لزيارته من البلاد والقرى ، ويقصده السلاطين والخواتين . وأكرمنا وأضافنا ، ونزلنا على نهر عند زاويته . ودخلنا إليه فسلمت عليه وعانقنى ، وجسمه رطب لم أر ألين منه . ويظن رائيه أن عمره خمسون سنة . وذكر لى أنه فى كل مائة سنة ينبت له الشعر والأسنان . وشككت فى حاله ، والله أعلم بصدقه .

ثم سافرنا إلى بَرْوَن وفيها لقيت الأمير بُرُنْطَيْه ، وأحسن إلىّ وأكرمنى ، وكتب إلى نوابه بمدينة غَزْنَة فى إكرامى . وقد تقدم ذكره ، وذكر ما أُعطِى من البَسْطة فى الجسم .

قـرية الجَرْخ

ثم سافرنا إلى قرية الجرخ ، وهى كبيرة لها بساتين كثيرة ، وفواكهها طيبة . قَدِمْناها فى أيام الصيف ، ووجدنا بها جماعة من الفقراء والطلبة ، وصلينا بها الجمعة . وأضافنا أميرها محمد الجرخى ، ولقيته بعد ذلك بالهند .

غَـــزْنَة

ثم سافرنا إلى مدينة غَزْنَة ، وهى بلد السلطان المجاهد محمود بن سُبُكْتُكِين الشهير الاسم ، وكان من كبار السلاطين ، يلقب بيمين الدولة . وكان كثير الغزو لبلاد الهند ، وفتح بها المدائن والحصون . وقبره بهذه المدينة عليه زاوية . وقد خَرِب معظم هذه البلدة ، ولم يبق منها إلا يسير ، وكانت كبيرة . وهى شديدة البرد . والساكنون بها يخرجون عنها أيام البرد إلى مدينة القَنْدَهار ، وهى كبيرة مخصبة ، ولم أدخلها ، وبينهما مسيرة ثلاث . ونزلنا بخارج غزنة ، فى قرية هنالك على نهر ماء تحت قلعتها . وأكرمنا أميرها مَرْذَك أغَا ، ومرذك معناه : الصغير ، وأغا معناه : الكبير الأصل .

كَابُل

ثم سافرنا إلى كابُل ، وكانت فيما سلف مدينة عظيمة . وبها الآن قرية يسكنها طائفة من الأعاجم يقال لهم الأفغان . ولهم جبال وشِعَاب وشوكة قوية . وأكثرهم قطاع الطريق ، وجبلهم الكبير يسمى كُوه سليمان . ويُذْكر أن نبى الله سليمان عليه السلام صعِد ذلك الجبل ، فنظر إلى أرض الهند وهى مظلمة ، فرجع ولم يدخلها ، فسمى الجبل به . وفيه يسكن ملك الأفغان .

وبكابل زاوية الشيخ إسماعيل الأفغانى ، تلميذ الشيخ عباس ، من كبار الأولياء . ومنها رحلنا إلى كَرْماش وهى حصن بين جبلين تَقْطَع[1] به الأفغان . وكنا حين جوازنا عليه نقاتلهم وهم بسفح الجبل ، ونرميهم بالنُّشاب ، فيفرون . ثم وصلنا إلى شَشْنَغَار وهى آخر العمارة مما يلى بلاد الترك . ومن هنا دخلنا

(١) أى يقطعون الطريق .

البريّة الكبرى وهى مسيرة خمس عشرة ، لا تُدْخل إلا فى فصل واحد ، وهو بعد نزول المطر بأرض السند والهند ، وذلك فى أوائل شهر يوليه . وتهُبّ فى هذه البرية ريح السَّمُوم القاتلة التى تُعفِّن الجسوم ، حتى إن الرجل إذا مات تتفسّخ أعضاؤه . وقد ذكرنا أن هذه الريح تهب أيضا فى البرية بين هُرْمُز وشيراز . وكانت تقدمت أمامنا رُفْقة كبيرة فيها خُداوَنْدزاده ، قاضى تِرْمِذ ، فمات لهم جمال وخيل كثيرة .

بَنْج آب

ووصلت رُفْقتنا سالمة بحمد الله تعالى إلى بَنْج آب ، وهو ماء السند . وبنج معناه : خمسة ، وآب معناه : الماء ، فمعنى ذلك الأودية الخمسة . وهى تصب فى النهر الأعظم ، وتسق تلك النواحى . وسنذكرها إن شاء الله تعالى . وكان وصولنا لهذا النهر سَلْخ ذى الحجة . واستهل علينا تلك الليلة هلال المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة . ومن هنالك كتب المخبرون بخبرنا إلى أرض الهند ، وعرفوا ملكها أحوالنا . وها هنا ينتهى بنا الكلام فى هذا السِّفر . والحمد لله رب العالمين .

(تم الجزء الأول ، ويليه الجزء الثانى)

المطبعة الأميرية ٢٨٠٦ – ١٩٣٢ – ٥٥٠٠

Bibliotheca Alexandrina
02226789